

في بيت أحمد أمين.. و

مقالات أخرى

١. النطرف الديني في الجزائر
٢. النطرف الديني عند اليهود
٣. برؤوت وكولات حكماء المسلمين

تأليف: حسين أحمد أمين



Bibliotheca Alexandrina



0148389

مكتبة مدبولي
القاهرة

فی بیت احمد امین..

حقوق الطبع محفوظة المكتبة منبوي
الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الناشر

مكتبة محبوب

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج ٢ ع

تليفون ٧٥٦٤٢١

في بيت أحمد أمين..

و

مقالات أخرى

١. النُظَرُفُ الدِّينِي فِي الْجَزَائِر

٢. النُظَرُفُ الدِّينِي عِنْدَ الْيَهُود

٣. بَرُوتو كُولَات حُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ

تأليف

حسين أحمد أمين

مكتبة مَدَنِي
القاهرة

Backward, turn backward, O time, in your flight,
Make me a child again just for tonight!

D. AKERO.

* * *

The man lives twice who can the gift retain
Of memory, to enjoy past life again

ANON.

سلطان العقل عند أحمد أمين

بقلم: الدكتور جلال أمين

لا أظن أن شيئاً كان يمكن أن يجلب من السعادة لأحمد أمين أكثر من أن يعرف أن واحداً من أبنائه سوف يستطيع أن يكتب عنه مثلما كتب عنه ابنه حسين، فإرد له جميله علينا بنفس الطريقة التي اختارها أحمد أمين للتعبير عن نفسه، وهي الأدب، وأن يكشف لتلاميذ أحمد أمين ومحببيه من جوانب شخصيته وأسلوب حياته ما لا يمكن أن يعرفه إلا واحد من أبنائه، وأن يعيد للحياة، بهذه القوة، أياماً غالية كان يمكن أن تزول إلى الأبد بزوال أصحابها من الوجود.

وقد طلب مني أخي حسين أن أدلي أنا الآخر بدلوي، وأن أضيف ما أريد إضافته. فرأيت أن أقتصر على معالجة جانب واحد من جوانب حياة وشخصية أحمد أمين الخاصة، إذ قد يكون هذا الجانب قادراً على تفسير أكبر قدر ممكن من جوانب شخصيته وإنتاجه.

هذا الجانب هو ما يمكن أن يطلق عليه «غلبة سلطان العقل» أو «ضعف الهوى» عند أحمد أمين. وحينما أقول إن أحمد أمين كان يتميز تمييزاً واضحاً بقوة سلطان العقل فإن هذا القول ليس من قبيل تحصيل الحاصل، الذي يصدق بالضرورة عليه باعتباره عالماً ومفكراً، كما أنه ليس من باب إطراء الابن لوالده.

فهو ليس من قبيل تحصيل الحاصل لأن الذي أعنيه لا ينطبق بالضرورة على كثرة من أبناء جيله وزملائه من الكتاب والمفكرين، إذ أريد أن أزعج أن

هذه الصفة لا تتوفر بنفس الدرجة عند أدباء وكتاب عظام من جيله كطه حسين أو العقاد أو الحكيم أو المازني ، وهو ما سأحاول أن أبينه فيما بعد . كذلك فإن هذا القول ليس قولاً يصدر لمجرد الإطراء ، إذ أن ما يمكن أن يسمى «بضعف الهوى» عند أحمد أمين قد يعتبره البعض سبباً لتفوق طه حسين أو المازني أو الحكم عليه كأديب وإن كان أيضاً سبباً لتفوقه عليهم كعالم ومؤرخ .

أحمد أمين رجل معتدل أشد الاعتدال في أحكامه الشخصية والعامة ، قادر على إخضاع عواطفه للمنطق ، ويأتي أن يترك لها العنان . وهو من أكثر الناس استعداداً للاعتراف بالخطأ وترجيئاً بالنقد العاقل ، يحب أن يقلب الأمر على كافة جوانبه فيرى في كل شيء محاسنه ومساوئه . وهو من أكثر الناس نفوراً من النفاق وساماً منه ، إذ أن عقله يلقظ دائماً لا يكف عن تنبيهه إلى عدم المبالغة في تقدير نفسه .

ذهب بعض أصدقائه إلى تفسير هذا الاعتدال عند أحمد أمين بأنه كان في مطلع حياته دارساً للشرعية وقاضياً ، فقالوا إنه كان يكتب أيضاً كقاض ، ولكني أرفض هذا التفسير . فصفة متصلة إلى هذه الدرجة في نفسه وتصرفاته ، يستبعد في رأيي أن تنتج عن مجرد توليه وظيفة من الوظائف أو عن نوع معين من الدراسة ، وليس كل من درس القانون أو تولى القضاء معتدلاً بالضرورة في أحكامه وسلوكه ، بل قد يكون الأقرب إلى الحقيقة أنه درس الشريعة وتولى القضاء لأن هذا أو ذاك صادف ميلاً قوياً لديه ، والأرجح أنها صفة ولدت معه أو أنها من نتائج تربيته الأولى .

ما مظاهر هذا الاعتدال وضعف الهوى عند أحمد أمين ، في سلوكه الفردي والعام وفي إنتاجه الفكري ؟

أحمد أمين عندما يتزوج لا يتزوج عن حب ، وإنما عن تقدير هادئ لمحاسن العروس وأوجه القصور المحتملة فيها ، ومحاسن الأسرة التي يتزوج منها وأوجه ضعفها ، وإذ تتغلب الأولى على الثانية يقرر الزواج على بركة الله .

وهو بعد الزواج يقرر بعد تفكير طويل أن أفضل الأشياء للأسرة والأمة ألا يزيد عدد الأولاد عن اثنين أو ثلاثة على الأكثر. وهو يقرر أيضاً بعد قراءة مستفيضة لكتب التربية أنه إذا أحسن تربية الأول قلده بقية الأبناء، فالمهم إذن أن يوجه رب الأسرة عنايته لحسن تربية أكبر أولاده. ولكنه لم ينجح في تنفيذ قراره الأول، ولا يبدو أنه كان على صواب تام في الثاني، فقد تغلبت عليه مخاوف الزوجة وطموحها إلى أن يكون لها عدد غفير من الأولاد عملاً بنصيحة دأبت على سماعها بأن عليها «أن تقص جناحي زوجها لكيلا يطيره وليس أفضل من كثرة الأولاد أثراً في منع الزوج من الطيران بل ومن الحركة. كما أظن أنه كان مبالغاً في تقدير أهمية سلوك الولد الأكبر في التأثير على بقية الأولاد، فلا أظن أنني، وأنا أصغر الأولاد، قد تأثرت كثيراً بسلوك أخي الأكبر. وأظن أن أبي قد بالغ هنا، كما بالغ كثيرون من أبناء جيله، ربما بتأثير الفكر الغربي السائد في ذلك الوقت، في الأهمية التي كان يوليها لأثر البيئة على حساب عوامل الوراثة.

وحياة أحمد أمين العائلية حياة هادئة ومستقرة، لم يعكرها زواج آخر أو طلاق أو نزوات طارئة. وهو عادل أيضاً في معاملته لأولاده، فلا أذكر قط أنه أبدى إثارةً لواحد منا على الآخرين. وهو يريدنا أن نحكم العقل أيضاً ونحن في أشد الأعمار طيشاً، فكل المطالب تحتل التاجيل أو الإلغاء عدا المطالب المتعلقة بالدراسة أو الصحة. وأكثر الأشياء في نظره كمالي، من التلاعبة الكهربائية والغسالة الأوتوماتيكية إلى أي مظهر من مظاهر التأنق في الملابس أو الأثاث.

وغلبة سلطان العقل عند أحمد أمين تظهر أيضاً في حياته العامة. فهو بعد أن يصبح أستاذاً للأدب العربي في كلية الآداب، وهو لا يزال يرتدي العمامة والقفطان، يتساءل عما إذا كان هذا الزي الذي يناسبه وهو قاض شرعي قد أصبح يناسب الآن منصباً مدنياً بحتاً، ويطيل التفكير في الأمر ويستشير أصحابه. نفسه لم تتعلق بشدة بهذا الزي أو ذاك، وهو لا يرتدي هذا الزي

أو غيره تقليداً أو خيلاء أو رغبة في الظهور، وإنما يريد فقط أن يرتدي الزي المتفق مع عمله .

وهو لا ينضم إلى أي حزب من الأحزاب، إذ لا يستهويه واحد منها دون غيره، وقد رأى السياسيين تحكمهم الأهواء وتغريهم المناصب ويفرحون بما لا يفرح به ويأسون على ما لا يأسى له . وإذا كان قد عدّه البعض من رجال الحزب السعدي فإن الأمر لا يزيد في الواقع عن تقديره الفائق لشخصية النقراشي باشا ونزاهته وليس إعجاباً بسياسة الحزب وتفضيلاً له على غيره . فهو لم ير فارقاً يستحق الذكر بين «مبادئ» هذا الحزب وبين «مبادئ» غيره . وعندما يظن النقراشي أن المودة المتبادلة بينهما قد تغري أحمد أمين بأن يقبل رئاسة تحرير جريدة الحزب اليومية (الأساس) ، يعرضها عليه ، وكان قد ترك لتوّه عمله بالجامعة بوصوله إلى سن المعاش ، فيعود أحمد أمين إلى داره يفكر في الأمر ويذكر لنا مزاياه ومساوئه ، وهو يشعر في قرارة نفسه منذ البداية أنه لا بد رافض العرض ، ثم يرفضه بالفعل رغم ما فيه من وعد بالجاه والسلطان والمرتب المجزي . لا عجب إذن أنه إذ يرشح اسمه للباشوية يرفض الملك الإنعام بها عليه (إذ ماذا قال أحمد أمين في الثناء عليه؟) وإذ يرشحه كبار السعديين وزيراً للمعارف يحتج شباب الحزب (إذ أين ولاء أحمد أمين للحزب؟) .

وأذكر أنه قرب نهاية الأربعينات اتصلت به مؤسسة فرانكلين الأمريكية تطلب منه أن يشرف على إصدار كتاب يشترك فيه عشرة أدباء من المصريين وعشرة من الأمريكيين بحيث يكتب كل منهم فصلاً بعنوان «علمتني الحياة» يذكر فيه دروس حياته وما حظي به من تجاربه ، فإذا بأحمد أمين يرى جاذبية الفكرة من الناحية الثقافية البحتة ، ولكنه لا يرتاح لأنها ممولة من أجنبي ، فيطيل أيضاً التفكير في الأمر ويستشير أصدقاءه ويتحول الأمر لديه إلى معضلة فكرية أو مشكلة أخلاقية ، إلى أن يطمئن إلى رأي لطفي السيد : «إني أتعاون مع الشيطان لنشر العلم» .

وأحمد أمين يظل الصديق الوفي الصدوق لعبد الرزاق السنهوري إلى آخر أيامه، ولكن يجمع أيضاً بينه وبين طه حسين احترام متبادل تعلوه جفوة سطحية. ويشند العداء بين السنهوري وطه حسين، وهما رجلان لا يقلل من شأن أيهما حدة المشاعر وجموح العاطفة، فيظل أحمد أمين على علاقة طيبة بكليهما، وكان كل منهما يرى في أحمد أمين ضميره هو، والحق الذي ترفض العاطفة الاعتراف به، فإذا مات أحمد أمين رثاه هذا وذاك بأجمل عبارة وأصدق إحساس.

وترى مثل ذلك في مناسبة أخرى استرعت الانتباه ولفتت الأنظار. فإذا يقع على أحمد أمين ظلم وهو أستاذ في كلية الآداب إذ يرفض مجلس الكلية منحه الدكتوراة على كتبه الشهيرة في التاريخ الإسلامي، لسبب لا صلة بينه وبين استحقاق أحمد أمين للدرجة، تنظم له مجموعة من أصدقائه حفلاً غير معهود يدعى إليه رجال مصر من رؤساء الأحزاب ورؤساء الوزارة والوزراء الحاليين والسابقين، فيجلس هؤلاء جميعاً ليحتفلوا بأحمد أمين - وهم الذين لا يطبق واحد منهم الآخر - ويشتركوا جميعاً في إلقاء خطب الثناء عليه، قبل أن ينفضوا من خلافاتهم ومشاجرتهم.

ويصل أحمد أمين إلى عمادة كلية الآداب، ثم يستقيل منها احتجاجاً على نقل أستاذ منها دون استئذانه. فيسأله صحفي عن شعوره لدى تركه العمادة فيقول كلمته الهادئة العاقلة: «أنا أكبر من عميد وأصغر من أستاذ». فالسلطة لم تستهوه ولم تنسه لحظة واحدة معنى الأستاذية ومعنى العمادة.

لم يكن من الممكن إذن ألا تظهر غلبة سلطان العقل عند أحمد أمين في فكره وكتاباته. فهو يتفق مع طه حسين وعبد الحميد العبادي أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية، على الاشتراك في عمل ضخيم يؤرخ للإسلام، على أن يتناول طه حسين التاريخ الأدبي، والعبادي التاريخ السياسي، وأحمد أمين تاريخ الحركات الدينية والفلسفية والحياة العقلية بوجه عام. ويتوجه أحمد أمين بكل

نشاطه لفترة تزيد على ثلاثين عاماً لإتمام مهمته، فينتج سلسلة فجر الإسلام وضحاها وظهره، ويختتمها بكتاب «يوم الإسلام» وكلها تتميز برصانة التحليل والبعد عن الهوى والدقة في البحث عن الأسباب والمسببات، بينما يتجه طه حسين إلى التاريخ للإسلام تاريخاً أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ والتحليل، فينتج «على هامش السيرة» ويظل هذا هو الفارق الأساسي بين إنتاج الرجلين.

فلذا يكتب طه حسين «الأيام» ويكتب أحمد أمين «حياتي» يقدم لنا طه حسين تحفة فنية ويقدم لنا أحمد أمين صورة صادقة كل الصدق، ليس فقط لحياته بل لحياة مجتمعه في عصره، فيصف الحياة الاجتماعية في الحارة والكتاب والجامعة ويحلل المجتمعات الأوروبية والشرقية التي أتيحت له زيارتها، وكأنه لا يريد الامتناع بقدر ما يريد «التنوير» فتأتي عباراته مباشرة مقتضبة لا تزيد كلمة واحدة عما يفي بالغرض. وقد يحار قارئ طه حسين فيما يرده إلى الواقع وما يرده إلى خيال الكاتب، ولا تصيبه مثل هذه الحيرة وهو يقرأ لأحمد أمين.

وأحمد أمين يخضع نفسه لنفس هذه النزعة العادلة في الحكم على الأشياء والأشخاص. فهو وإن كان يعرف قدر نفسه ولا يغمطها حقها، فإنه لا يكاد أبداً يشعر بالغرور. إنه لو كان لا يعرف لنفسه قدرها ما كان قد أقدم أبداً على كتابة تاريخ حياته، ولكنه مع ذلك يقدم على هذا العمل بوجل شديد ويتواضع جم، وإذا به يجد نفسه مضطراً لأن يبدأ كتاب حياته بالإجابة على السؤال ذي الإجابة البديهية «من أنا حتى أكتب تاريخ حياتي؟» فيكتب في المقدمة «ما للناس بحياتي؟ لست بالسياسي العظيم ولا بلدي المنصب الخطير... إلخ» ولكنه يستمر في الكتابة لأنه يعرف أن لديه بالفعل ما يستحق أن يقال.

في نفس الكتاب يروي قصة شيقة عن نفسه تحببك فيه بما ينطوي عليه من تواضع جذاب قد يصل إلى درجة غمط النفس حقها. فهو يدعى إلى إلقاء

محاضرة في مدرسة القضاء الشرعي وهو لا يزال طالباً فيها. والذي يطلب منه ذلك هو ناظر المدرسة نفسه، الرجل المهيّب الفاضل «عاطف يركات». وكانت العادة أن تعرض المحاضرة على الناظر ليقرأها ويقرها أولاً يقرها. ويرسل أحمد أمين بالمحاضرة إلى الناظر فيردها الناظر إليه مع رسول دون أن يكتب عليها شيئاً. ويبحث أحمد أمين عن ملاحظات الناظر فلا يجدها فيقول لنفسه «طبعاً، وكيف تعجبه مثل هذه المحاضرة؟ فهذه الفكرة قديمة، وتلك الفقرة أسأت فيها التعبير. والمحاضرة كلها ليس فيها ما يستحق أن يقال» وإذا بالناظر يقابله صباح يوم المحاضرة فيسأله متعجباً «لماذا لم تعلن عن المحاضرة؟» فيجيبه أحمد أمين «لأنها لم تعجبك، إذ لم أجد عليها ما يدل على موافقتك» فيقول الناظر مستنكراً: «أبدأ، إنما وجدتها كاملة ليس فيها ما يعلق عليه» فيعيد أحمد أمين قراءة المحاضرة ويقول لنفسه: «ان مع الناظر الحق. فهذا المعنى جديد لم يسبق إليه، وهذه الفقرة بديعة سلسلة» ويلقي المحاضرة فيستحسنها الناس فيعتبرها حسنة.

إن هذا الذي نسميه بضعف الهوى أو غلبة العقل عند أحمد أمين قد يكون هو المسؤول عن كونه عالماً ومؤرخاً أكثر من كونه فناناً أو أديباً بالمعنى الضيق للأدب. فليس لدى أحمد أمين عنف طه حسين وقوة عاطفته، وليس لديه بوهيمية المازني ولا قوة خيال توفيق الحكيم. ولكن هذه الصفة نفسها هي التي حمت أحمد أمين من الإرتواء في أحضان السياسة والانفعال بتياراتها. وهي نفسها التي حمته من عبودية المنصب وتعلق الكبراء، وأسبغت عليه نوعاً نادراً من الشجاعة ما كان ليحظى به لو ارتبط بحزب ارتباط غيره به.

كان يمثل كلية الآداب في مجلس جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) وأراد الملك فؤاد لسبب ما أن يمنح مجلس الجامعة الدكتوراة الفخرية لواحد من المستشرقين. ويؤيد معظم أعضاء المجلس مطلب الملك، فيقف أحمد أمين ويده ترتعش يعارض هذا القرار، انفعالاً للحق، وكان شخص المستشرق ومؤيده قد غاباً تماماً عن وعيه، ولا يرى في الأمر كله إلا مسألة الاستحقاق

أو عدم الإستحقاق. ويحل عيد جلوس الملك فيتسابق الكتاب في مديحه والثناء عليه ويطلب من أحمد أمين أن يكتب مقالاً في هذه المناسبة فيرفض ثم يلحون في الطلب فيجرب، فإذا أعاد قراءة المقال مزقه لأنه لا يحتوي على غير الكذب. ولا أعرف لأحمد أمين مقالاً كتب للوصول إلى منصب أو كتاباً ألفه ليتملق الجمهور. وهو في نهاية عمره يلقي بنظرة شاملة على حياته كلها فلا يندم إلا على ما تولاها من مناصب منعتة في بعض الأحيان من الكتابة.

هل يمكن أن نفسر بهذه النزعة أيضاً، غلبة سلطان العقل في موقف أحمد أمين من قضية الأصالة والمعاصرة؟ ذلك أني أعتقد أن هذه القضية لم تكن محسوسة لديه بنفس الدرجة التي بلغت عند طه حسين مثلاً، الذي كان أكثر تعاطفاً بكثير من حركة التغريب، أو عند رشيد رضا الذي حسم القضية لصالح التراث، فالقضية عند أحمد أمين معقدة وبالغة الصعوبة. لقد كان في عنفوان شبابه أكثر إعجاباً بالحضارة الغربية منه في نهاية حياته، وإن كان لم يفقد في يوم من الأيام إعجابه الشديد بالتقدم التكنولوجي لدى الغرب، وما توفره رفاهية الغرب من احترام لأدمية الإنسان. وأذكر أن هذا الإعجاب قد أثار دهشة بل وقدرأ من السخط لدى الكاتب الهندي الكبير أبي الحسن الندوي عندما جاء إلى القاهرة وقابل أحمد أمين مدفوعاً بإعجابه الشديد بإسلامياته، إذ رأى عند أحمد أمين افتتاناً ببعض مسالك الغرب لم يكن هو ليرضى عنها. على أن أحمد أمين مع تقدم العمر به قويت شكوكه في الحضارة الغربية، وكتب ينتقد المستشرقين بعنف. وعبر عن هذا الشك بقوة في كتاب «يوم الإسلام». وبالجملة فإني أعتقد أن أحمد أمين لم يعثر في هذه القضية على الحل الكامل الذي ترتاح إليه نفسه. ولهذا السبب كتب العقاد في رثائه مقالاً بعنوان «المدرسة الوسطى» (نشر بجريدة أخبار اليوم بعد أيام قليلة من وفاة أحمد أمين في ٣٠ مايو ١٩٥٤) وكان العقاد يقصد بذلك أن أحمد أمين لا ينتمي إلى المدرسة التي ترفض التغريب برمته ولا إلى المدرسة التي تتنكر للتراث.

كلمة واحدة يمكن إذن أن تلخص حياة أحمد أمين وأعماله الفكرية على

السواء وهي «الصدق» فإذا سمحت لنفسي بأن أتكلم كواحد من أولاده فإنني أقول إنني لا أذكر له مرة واحدة كذب فيها علينا ولو تعلق الأمر بأتفه الأمور، كسواء هدية أو الخروج في نزهة، والنفاق والرياء في السياسة مكروهان لديه لما ينطويان عليه من كذب. والأمانة العلمية في الكتابة مطلوبة لما تنطوي عليه من صدق. والمبالغة في تزويق الكلام وفي العناية باللفظ دون المعنى مكروهة أيضاً لما فيها من كذب. ولاسمح لنفسني هنا أيضاً بأن أقول أنه لهذا السبب كان من أكثر الناس تعرضاً للخداع في البيع والشراء إذ لم يكن يتصور أن يكون المشتري منه أو البائع له قادرين على الإفراط في الكذب. ولهذا السبب أيضاً لم يكن يستطيع أن يفهم قط لماذا يمكن أن يحتجب الناس عنه فجأة ويكفون عن زيارته لمجرد أنه قد ترك منصباً خطيراً، بينما كانوا لا يكفون عن التودد إليه والتودد على مكتبه ومنزله حينما كان في يده أن يعين شخصاً أو يفصله.

ومع ذلك فقد كان موقفاً توفيقاً غريباً في حياته الخاصة والعامة على السواء، فلم يحرمه صدقه من التمتع بحياة هنيئة في إجمالها، ولا عرّضه لشظف العيش. وهو إذ ينظر إلى حياته بأكملها يسترعي إنتباهه هذا التوفيق، ويندهش له، ويحاول أيضاً أن يفسره بالعقل، فيقول في نهاية كتاب «حياتي» إن هذه الظاهرة. «يصعب تحليلها العقلي أو تفسيرها بالتحليل الاجتماعي أو النفسي، فكم رأيت من أناس كانوا أذكى مني وأمتن خلقاً وأقوى عزيمة، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون في أعمالهم إذا مارسوها، ثم باءوا بالخيبة وماتوا بالإخفاق، ولا تحليل لها إلا أن (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).



حقيقة لا يمكن النيل من أهميتها، تشرح ما يعنيه النقاد في حديثهم عن هذا الكاتب أو ذاك حين يقولون إنه «نشأ في بيت علم وأدب»:
فآلاف هي الفوائد التي عادت علينا من أن أبي واسع الثقافة، وكاتب

مشهور، وعاشق متذوق للأدب. . فوائد لم ندركها واعين في حينها، وإن ظلت عقولنا وقلوبنا تتغذى يومياً عليها.

فالأدب في أسرتنا لم يكن «درساً» نتلقاه في ساعات معينة من أيام معينة، نفرغ منه فنعود إلى ما كنا فيه. . وإنما كنا نتنسم عبقه في جو المنزل نفسه، وفي كل ساعة من ساعات اليوم، لا يكاد يفصل عن سائر مظاهر حياتنا اليومية. . . يدق جرس التليفون فنهرع نحن الأطفال للرد بأصواتنا الرفيعة المتحمسة، والسماعة الكبيرة لا نكاد نستطيع أن نثبتها عند أذننا. . «آلو من حضرتك؟» فيجيب المتكلم بأنه عباس العقاد، أو توفيق الحكيم، أو محمود تيمور «أحمد بك موجود؟» «دقيقة واحدة» ثم نجري إلى المكتبة صائحين: «بابا. . بابا. . محمود تيمور». فيتوجه أبي إلى التليفون، ونسمعه يسأل محمود تيمور عن سبب تخلفه عن حضور جلسة المجمع اللغوي، ثم يسرد عليه ما دار خلالها، وكيف اقترح فيها إقرار المجمع للكلمة العامية «مُحَنَّق» لخلو معاجم اللغة من كلمة تعبر عن نفس المعنى بدقة. . ويقص عليه ما كان من موقف طه حسين، واعتراض لطفي السيد. . ثم يقرأ عليه رسالة وصلته لتوّه من المستشرق الألماني برجشتراسر يعلق فيها على ما ذكره في كتابه «فجر الإسلام» عن طبيعة العقلية العربية. . وتتناهى إلى أسماعنا أسماء ابن خلدون والجاحظ والغزالي وابن رشد تنطق في ألفة غريبة، وتكرر على لسان أبي تكرر أسمائنا نحن عليه، فكأنما هم أقارب لنا أو جيران أو مستأجرو أرض. . وكثيراً ما تهتف به والدتي إذ يفرغ من المحادثة التليفونية، قائلة إنه «إما أن يشرح لها من هو ابن عبد ربه أو ألا يأتي بسيرته، لأن تكرر نطقه بهذا الاسم قد بدأ يغيظها حقاً!» وهو أحياناً يعود من الخارج فيسأل عمن اتصل به تليفونياً. . فتجيب والدتي:

— اتصل بك ابن خلدون مرتين.

ويسأل والدتي مبتسماً:

— هل ترك رسالة؟

— نعم.. يقول إنه قد بدأ يتعلمل في قبره من كثرة تناولك سيرته
بالحديث!

فأسماء تيمور وهيكل والمازني وطه حسين وغيرهم أسماء مألوفة لدينا مذ
كنا في الخامسة أو السادسة، وقبل أن نقرأ لأصحابها حرفاً.. ووالدتي تقلد لنا
أصواتهم وطريقتهم في الكلام، فنضحك لصدق محاكاتها لصوت العقاد
الضحيم، ويطء طه حسين الشديد، وثرثرة الدكتور السنهوري، وصياح الشاعر
علي الجارم بإسمه فكانما يعلنه للتاريخ: «أنا الجارم»، وتبسط عبد العزيز
فهمي باشا في الأخذ والرد.. ثم ها هو والذي يقص أمامنا أصل العداء المرير
بين السنهوري وطه حسين، وحيرته هو بينهما وكل صديقه الحميم، ويسرد
علينا طرائف عن بخل توفيق الحكيم، ويشني على أريحية تيمور وسماحته
وطيب خلقه، ويشبه لنا أسلوب طه حسين بحلوى «غزل البنات» ويأتي بأمثلة
منه.. أو ها هو يقص علينا ذكرياته عن الشيخ محمد عبده، ونبا مقابلاته لحافظ
إبراهيم، أو يتنبا بمستقبل باهر في الأدب لموظف صغير بوزارة الأوقاف يدعى
نجيب محفوظ.. فإن ولدت قطننا أسمعنا قصيدة شوقي في القطة التي ولدت
بحجرة مكتبه، وإن قدم لنا وقت الغداء باذنجان أنشدنا قصيدته «نديم
الباذنجان».

على ضوء هذا وغيره من مئات القصص والتفاصيل عن الحياة الخاصة
لأدبائنا وأنماط شخصياتهم، بدأنا نقرأ كتبهم.. فهم ليسوا غرباء علينا..
وباستطاعتي حين أقود محمود تيمور إلى حجرة الاستقبال أن أعبر له عن
إعجابي بروايته «سلوى في مهب الريح».. أو حين أرد على العقاد في التلفون
أن أخبره أنني قرأت له «عبقريه عمر»..

— كم سنك يا جحش؟

— عشرة..

— تقرأ «عبقريه عمر» في العاشرة؟ لا أعتقد أنك فهمته كل الفهم.

— بل فهمته . . فاسألني فيه إن أحببت .

— ليس لدي وقت لسؤالك فيه . . ناد لي أباك !

* * *

كان من أول ما تفتح ذهني لإدراكه أن والدي أديب مؤرخ، وأن احترام الناس له، وإجلالهم إياه، راجعان أساساً إلى إنتاجه في الأدب والتاريخ، بل وأن طيب معاملة المدرسين والطلاب لي، واعتناءهم بأمري عناية خاصة لا يلقاها غيري، مرجعها أنني ابن لهذا الأديب . . كان إذا اصطحبني يوماً إلى النظارة في شأن ما، هبت واقفة في احترام، ومدت يدها إلى رأسي تربت عليها طوال حديثها معه . . فإن دخل الحجرة عليّ وأنا أراجع دروسي مع مدرس خصوصي، تقدم المدرس منحنيّاً لتقبيل يده . . مثل هذه الإدراكات الأولى، وقد ترسبت في ذهني، جعلت الفكر عندي مذ كنت في السادسة هو المثل الأعلى، أحل نشاطه المكانة الأولى بين أوجه النشاط البشري . . وكنت وأنا طفل إن سألني سائل عما أحب أن أكونه في المستقبل، أجيبه دون تردد، وفي ثقة من قدرتي على أن أكون ما أريد .

— عميداً للأدب العربي !

أذكر مرة إذ كنت في الخامسة أنني دخلت عليه غرفة المكتبة دون أن أطرق الباب، ففاجأته واقفاً إلى إحدى خزانات الكتب المتناهية إلى السقف يطبع على غلاف أحد الكتب قبلة ! وإذ وقفت أرقبه مشدوهاً إذا به وقد تنبه إلى وجودي يظهر بأنه إنما كان ينفخ عن الكتاب ما علاه من غبار، ثم يلقي به جانباً في غير اكتراث .

تفتحت أعيننا أول ما تفتحت على نسخ التصحيح من كتبه تصل إلى منزلنا لتراجع، وسعاة ينتظرون بالباب ليعودوا بها، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر نمر عليها كل يوم خميس حين كان والدي يصطحبنا إلى

اجتماعاته بزملائه من الكتاب أعضاء اللجنة، فنراقب العمال يرصون الحروف، ويديرون الآلات، ويبعثون الطرب فينا بطبعهم أسمائنا على بطاقات. . . وكان لمنظر الورقة الكبيرة ناصعة البياض تمر بين الأسطوانتين السوداوين ثم تخرج في مثل لمح البصر وقد امتلأ فراغها بأعمدة الكلمات والصور، أثره الغريب في نفوسنا، نرقبه مأخوذين مفتونين. . . فعرفنا وقتها الملزمة وعدد صفحاتها، وطريقة جمع الملازم وطبيها وتغليفها، وأنواع الورق وأثمان رزمه، وأوجه استخدام القصاصات المتخلفة منه، فإن كان العامل وقت زيارتنا واسع الوقت، واسع الصدر، فقد يسمح لنا بأن نجرب أيدينا في رص الحروف، أو إدارة الآلة، وتحويل الورقة الكبيرة المطبوعة إلى ملزمة.

وفي البيت، كان إذا أغلق والدي على نفسه الباب وجلس للكتابة، أعلنت الأحكام العرفية، وسكنت الأصوات. . . فإذا اللعب يكف، وإذا الكلام أقرب إلى الهمس، إن صاح أحدنا عن غفلة كتم الآخر له فمه المفتوح بكفه، وإن دخل الخادم يتكلم بصوت عال فوجيء بالأصابع إلى الشفاه تحذره: ششش!



وكان لإجلال الناس والذي أثر غير الذي تحدثت عنه. . . فقد كان من أبعث اللحظات على السرور والرضا عندي، لحظة أن يطلب منا المدرسون في الحصص الأولى من العام الدراسي، أن يقف كل تلميذ ليفصح عن اسمه: «إبراهيم الشامي. . . خالد البناني. . . عمر ذهني». . . لا تعليق! حتى إذا ما جاء دوري وقلت في لهجة عادية «حسين أحمد أمين» استلهمني المدرس ليسأل عما إذا كنت ابناً لأحمد أمين المؤرخ المعروف، وعميد كلية الآداب. . . وكانت إجابتي بالإيجاب إيذاناً بأن ألتقى طيلة العام معاملة خاصة.

وكان ذلك يثير غيظ التلاميذ. . . وقد أتاني بعضهم مرة يسأل: «لم تصر على الإجابة بحسين. . . أحمد. . . أمين. . . ولا تكتفي، كما يكتفي الآخرون،

بذكر الاسم الأول والأخير؟!» وكان يزيد من ضيقهم بعض تصرفات المدرسين والنظار حيالي، كتهامهم مع مفتشي وزارة المعارف إن أجبت على سؤال أحدهم إجابة طيبة، أو تعليقهم على موضوع كتبه بأن «ابن الوز عوام». وقد كان أبي يسألني عقب كل أول يوم من الأعوام الدراسية عن موقع مكتبي من الفصل. فإن أخبرته أن المكتب في أحد الصفوف الخلفية، رفع سماعة التليفون يحدث ناظر المدرسة. فإذا بالناظر خلال إحدى حصص اليوم التالي يدخل فصلنا وبصحبه فراش، فيهمس في أذن المدرس بكلمة، ثم يخرج. . . ويصبح المدرس: حسين أحمد أمين! فأقف. . . فيطلب من الفراش أن يحمل مكتبي إلى الصف الأول، وبالرغم من أن معظم التلاميذ كانوا يفضلون الصفوف الخلفية لتمتعهم فيها بحرية أكبر، فقد كان مثل هذا التصرف كفيلاً بأن يلهب صدورهم بالغضب والاحتجاج.

غير أنه من الواجب أن أعترف بأن توقيير المدرسين والنظار لوالدي لم يكن وحده المؤثر في تصرفهم تجاهي. . . فقد كان أبي يتمتع بسلطة كبيرة في وزارة المعارف، سواء لتوليئه أحد المناصب الرفيعة فيها، أو لعلاقته بوزرائها وكبار موظفيها. فكان المدرسون إذا أرادوا الشكوى من وضع معين، أو طمعوا في ترقية أو نقل، فاتحوني لكي أكون واسطتهم لدى أبي. . . وكان والدي يسألني أحياناً:

— أعندكم مدرس يدهى كذا؟

فأجيبه بالإيجاب. . .

— إنه مرشح لإحدى بعثات وزارة المعارف إلى لندن. . . ولكن حذار من أن تخبره الآن.

ولما أخبر المدرس في اليوم التالي، إذا بالدنيا لا تكاد تسعه من الفرح والتهلل، ويظل يسألني بين حين وحين خلال الأشهر الباقية من العام الدراسي

عن أخبار البعثة وما تم بشأنها، وإذا بمعاملته لي تزداد رقة، وتقاريره عني ترفعني إلى السماء.

فأياً كان السبب في مثل هذه المعاملة إذن، فلا شك أنها أفادتني كثيراً . . فلم يحدث مثلاً أن ضربت في المدرسة أو عوقبت . . وكانت معرفة المدرسين لوالدي كفيلة وحدها بأن أحسن بسببها سلوكي وأتقن مذاكرتي للدروس خشية الإشارة إليّ بالمثل المقابل لابن السوز عوام، وهو «باب النجار مخلع» . . كما أنها أخضعتني لرقابة وعناية كبيرتين في زمن كان عدد تلاميذ الفصول يزيد زيادة تجعل من الصعب إشراف المدرس على كل تلميذ على حدة . . فكانوا ينقلون إلى أبي أبناء مسلكي وطبيعة اهتماماتي، بل وأحياناً بعض النواذر المتعلقة بي، وردوداً ذكية صدرت مني . . وكنت أدهش من إحاطة أبي بها وهي التي حدثت بعيداً عن ناظره .

حدث مرة أن كلمنا والذي خلال جلسة عائلية عن فصل قرأه في كتاب لمارك توين عنوانه «ما الإنسان؟»، يذهب فيه المؤلف إلى أن تصرفات الإنسان أنانية بطبيعتها حتى في حالات الإحسان والشفقة، ويضرب لذلك مثلاً من يتخلى في ليلة عاصفة باردة عن معطفه لامرأة فقيرة عجوز، قائلاً إن المحسن يعلم أنه لو لم يعط المرأة معطفه لقضى ليلة مؤرقة يعذبه ضميره خلالها، ففاضل بين ميزة الاحتفاظ بالمعطف وميزة استمتاعه بليلة هادئة وضمير مطمئن، فاختار الثانية .

ثم حدث لحسن الحظ أن طلب منا مدرس اللغة العربية بعدها بأسبوعين أو ثلاثة كتابة موضوع إنشاء في «الأنانية»، وكتب لنا على السبورة عناصر الموضوع حتى نستعين بها . . غير أنني نحييت هذه العناصر جانباً، وبدأت أسرد نظرية مارك توين على أنها من عندي وثمرة تفكيري . . وبعد بضعة أيام، فاجأني أبي أثناء العشاء، وعلى شفثيه ابتسامة، بقوله إنه علم بأمر موضوع الإنشاء الذي بسطت فيه نظرية مارك توين . . . قلت في قلبي:

— أأخبرت المدرس أنها فكرة مارك توين؟

أجاب بالنفي ثم ابتسم.. على أي حال فقد طلب المدرس مني عند إعادته للكراسات أن أقرأ الموضوع على تلاميذ الفصل، مبدئياً إعجابه بأولئك الذين يفكرون لأنفسهم، ويطلعون بفكر مبتكر، دون التزام بعناصر الموضوع التي تملأ عليهم!

كان مولدي بضاحية مصر الجديدة صيف عام ١٩٣٢. فإن كان قد ذكر في شهادة الميلاد أن المولد كان في حي الجمالية بالقاهرة، فلهذا التزوير قصة.. وهي أن والدتي كانت تصر على أن تقوم بمساعدتها في حالات الولادة قابلة يهودية معينة تدعى فريدة كوهين، أخرجتني ومعظم إخوتي إلى هذا العالم.. ولم يكن من المرخص لفريدة هذه أن تمارس مهنتها إلا في دائرة معينة لا تدخل مصر الجديدة في نطاقها.. فكانت تشتط على والدتي أن يكتب قبالة محل الميلاد في شهادتنا اسم أحد الأحياء الواقعة في دائرة اختصاصها.

كنا نقطن منزلاً ضحماً، هو ملك لأبي، سكنته العائلة قبل مولدي بسبع سنوات.. وكانت للمنزل حديقة واسعة تحيط به، زرعت بها أشجار الجوافة والمانجو والليمون والمشمش، ثم نخلة واحدة قصيرة لا تنتج ثمرأً، وتكعيبة طويلة للعب تمر تحتها السيارة من الباب الرئيسي إلى الجراج.. وقد كان والدي شغوفاً بتعهد الشجيرات التي يفرسها بنفسه، وكثيراً ما كان يأتي إليها وينحني عليها بنظرة القصير كي يرى ما طرأ على أغصانها وثمارها من نمو.. وكان يفضل الكتابة في الحديقة شتاءً، فيأتي له الخادم بكرسي ومنضدة من القش، ثم بعمود طويل من الكتب يخفني وراءه رأس الخادم، فلا يفارق أبي مكانه المشمش إلا بعد أن ترسل إليه والدتي أحدنا عدة مرات ليخبره أن الطعام قد كاد يبرد في إنتظاره.

أما نحن فكانا بالحديقة أكثر شغوفاً. ففيها كنا نقضي معظم أوقات فراغنا

مع من تسمح لنا والدتي باصطحابه من الخدم ومعظمهم لا تزيد سنهم عن سننا إلا بأعوام قلائل . . فكنّا إن تعبنا من الجري والقفز، وتسلق الأشجار والصعود عن طريق فروعها إلى سطح الجراج، ومحاكاة طرزان وتقليد صيخته، جلسنا نتضحك على سور قصير من الأسلاك يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران، وقد انحنى من تكرار جلوسنا عليه، وتأرجحنا به، حتى كاد يلامس الأرض . . وكثيراً ما كانت تأتي إلينا ابنة الجيران، وهي طفلة يونانية في الثامنة، ذات شعر أشقر وعينين زرقاوين، نحدثها بلغتنا فلا تفهم إلا حدساً، وتحدثنا بلغتها فنغرق في الضحك . . والظاهر أنني كنت أشعر نحوها بما يشبه الحب، فقد كان لدي قميص أزرق ذو ياقة منشأة، كنت أحرص على ارتدائه كلما علمت أنها بالحديقة .

غير أن ما أذكره بوضوح غريب (وهي من أعز الذكريات عندي رغم بساطتها)، يوم لعبنا فيه حتى ما كادت سيقاننا لتحملنا، فجلست على ذلك السور وإلى جانبي خادمة سمراء تدعى «صديقة» في مثل سني . . كنا نضحك دون سبب كما لا يضحك إلا الأطفال وقد غطى وجهينا العرق، وشعرنا بالدم يجري متدفقاً ساخناً في عروقنا . . ثم إذا بنا وقد أحاط كل منا كتف زميله بذراعه، وإذا بعاطفة جياشة من الحب الغريب تملأ صدري نحوها، ونحو إخوتي، ونحو الحديقة، ونحو الجيران، ونحو الحياة، وأحس في ثقة أنها تشعر بمثل ما أشعر به . . كنت وقتها في حوالي السابعة، وقد استمر هذا الشعور نحو ثلاث دقائق أو خمس . . غير أنني أستطيع أن أقول الآن وقد جاوزت الخمسين إن هذه الدقائق كانت أسعد مدة خبرتها في حياتي، وأني لم أخبر بعدها أحساساً في مثل نقاء ذلك الإحساس وبراءته . .

كان المنزل - لكثرة الأطفال فيه - يعج بالخدم والخادmates الذين كانت والدتي تحضرهم من القرية أو ترسلهم خالتي إلينا منها . . وقد لعب هؤلاء في حياتي وحياة إخوتي دوراً هاماً خلال فترتي الطفولة والصبا لا أستطيع معه أن أفصلهم عن ذكريات هذين العهدين . . كانوا رفاق حدثتنا وأحد المصادر

الكبرى لسعادتها. . الأمر المزيج الوحيد الذي كان ينجم عن اختلاطنا بهم هو انتقال القمل إلينا منهم. . مما كان والدي يصبر بسببه على أن يخلق شعر رؤوسنا حتى جذوره (وكان هذا في عرفنا نكبة). . بينما كانت والدتي تحلق للخدم شعر رؤوسهم، ذكوراً كانوا أم إناثاً

وقد شغف الاخوة الثلاثة الصغار: أحمد وأنا وجلال، في إحدى الفترات، بانتحال مهنة التدريس. . فكان أحمد يضع ورقة أسئلة لي ويصحح إجاباتي، وأضع بدوري ورقة أسئلة لجلال وأصحح إجاباته، مستخدماً في تصحيحها القلم الأحمر. . فلما احتج جلال المسكين بأنه وحده الذي لا يضع امتحاناً ولا يصصح، فكرنا في أن يقوم ثلاثتنا بتعليم الخدم، وكلهم أميون. . وبالفعل، أعدنا جدولاً ووزعنا الحصص، واستخدمنا حجرة زجاجية مشمسة تطل على الحديقة مكاناً للدرس. . ثم تولى جلال تعليم الحساب، وتوليت تعليم اللغة العربية، وتولى أحمد، إلى جانب النظارة والتفتيش، تعليم الانجليزية، وقد وجد لنفسه نظارة دون زجاج كان يلبسها كلما دخل الفصل. . غير أننا صادفنا في مشروعه الصعاب. . فالخدم لم يأخذوا الأمر على النحو الجدي الذي كنا نرجوه، معتبرين «الحصص» فسحة لهم يرتاحون فيها من العمل المنزلي، يضحكون أثناءها ويتقاذفون بالأقلام والكراسات التي دفعنا ثمنها من مصروفنا الخاص. . فلم يكن غريباً ألا يحرز أي منهم تقدماً يذكر، وأن يخرج الجميع بعد انتهاء المشروع كما دخلوه. . ثم إن الحصص كانت في بعض الأحيان تطول، بينما ينتظر مدرس الحصص التالية بالباب وقد نفذ صبره، يطل برأسه بين الفينة والفينة يستعجل المدرس بالداخل، وأحياناً يشتمه، فيهرع إليه مدرس الحصص ليحكمه، والتلاميذ يرقبون المعركة في حالة من السرور والمرح الشديد. .

أما الصعوبة الكبرى التي أودت بالمشروع، فهي تعارض مواعيد الدروس مع مواعيد عمل الخدم. . ولشد ما كنا نغضب كلما سمعنا صوت والدتي من شرفة الطابق العلوي تنادي على أحد الخدم كي يبتاع لها شيئاً من

السوق . . فكان «الناظر» يصبح من الحديقة وهو يضرب الأرض بقدمه :

— ألا يحلو شراء الأشياء إلا ونحن في الفصل؟

فتجيبه والدتي :

— وماذا أصنع وأبوكم يريد ليموناً مع الحساء؟

والخادم أثناء المحاورة ينتظر النتيجة مبتسماً وعينه تنتقلان من والدتي إلى أحمد، ومن أحمد إلى والدتي، حتى إذا ما تهيأ للذهاب، ألحنا عليه ورجوانه مستعطفين أن يعود سريعاً، وأن يقطع المسافة عدواً إن أمكن!

كان الاخوة الكبار يحدثوننا عما لقوه من والدي في صباهم من شدة وصرامة في المعاملة، حتى لقد كانوا يختبئون تحت الأسرة إذا سمعوا صوت السيارة وقد وصلت به إلى البيت وإن لم يكونوا قد ارتكبوا ذنباً، وعن كيف كان لا يسمح بدخول البيت لمن يتأخر منهم بعد ساعة معينة من الليل، فيضطرون إلى المبيت في حجرة البواب في رفقة البراغيث والبق إلى الصباح.

غير أن مثل هذه المعاملة لم يلقها غير الاخوة الأربعة أو الخمسة الكبار . . وقد فسر والدي لنا فيما بعد تغير أسلوب تربيته تفسيرات شتى . . منها اقتران فكرة التربية في ذهنه في بادئ الأمر بطريقة تربية أبيه له . . وهو مفهوم لم يتخلص منه إلا بعد قراءته في كتب التربية، وأسفاره العديدة، وما دلته عليه تجاربه وملاحظاته . . ومنها اعتقاد كان لديه بأنه إن أحسن تربية الابن الأكبر وقوم أخلاقه، سار بقية إخوته على نهجه دون حاجة إلى تدخل كبير من جانب الوالدين . . ومنها ازدياد إقباله على التأليف منذ حوالي عام ١٩٢٧ حين شرع في كتابة «فجر الإسلام». فإن أحببنا أن نحدد تاريخاً معيناً لهذا التغير الجوهرى في أسلوب التربية، فهو تاريخ رحلته إلى تركيا عام ١٩٢٨ . . وما زالت لدينا صفحة سطرها في طريق عودته منها بالباخرة، يعترف فيها بخطئه إذ يقسو في معاملته أولاده، ويعاهد نفسه أن يغير من هذه المعاملة، «فأكون معهم ألطف وأعطف وأرق وأكثر مرحاً» . .

على أي حال فإن والدتي تؤكد لنا أنه حتى في عهد «جاهليته» لم يكن بالقسوة التي توحى بها هذه الصفحة من اعترافه. . وهي تضرب مثلاً لذلك، الليلي التي كان المتأخر في الإياب يقضيها في حجرة البواب، فتقول إنهما - أي هي وأبي - كانا يقطعان الليل بأكمله ساهرين، يذرع أبي الغرفة جيئة وذهاباً وهو يحس بندم وإشفاق يحاول قمعهما، ويرفض أن يسمح لوالدتي بإنارة الغرفة حتى لا يعرف «الولد الشقي» أنهما مستيقظان بسببه.

غير أنه بالرغم مما طرأ على أسلوب والدتي في التربية من تطور جوهري، وبالرغم مما كنا نلمسه منه من عطف وعناية كبيرتين، فقد ظل حاجز قوي من الرهبة يقف دائماً بيننا وبينه، يحول دون رفع الكلفة، أو التجاوب إن حاول أحياناً التبسط معنا أو تشجيعنا على مفاتحته بأسرارنا. . فإن كانت والدتي تقسم أنه كثيراً ما انحنى على الأرض في هيئة الحصان، يحملنا على ظهره ويركض بنا حول الغرفة ونحن نهقه ونستحثه، فإن هذا التأكيد منها لم يكن ليفلح إلا في إثارة عجبنا لجراتنا.

كنا نسعي حجرته «أوضة السرير»، ربما لاحتوائها على أفخم سرير بالبيت! وكان يختار لنفسه في الشتاء أكثر حجرات الطابق العلوي مواجهة للشمس، وفي الصيف أقلها تعرضاً لها. ولا أزال أذكر الأيام التي كانت تتم فيها هذه المبادلة (في إبريل وأكتوبر من كل عام)، وأفراد العائلة والخدم يروحون ويجيئون بالأثاث والكتب من حجرة إلى أخرى. وكان يستخدم غرفة نومه للقراءة أيضاً. وإذا أن جلّ وقت فراغه كان يخصص للقراءة والكتابة، فقد كانت الساعات التي نجلس إليه فيها - عدا أوقات الطعام - تختلس اختلاساً، لا يكاد أحدنا يجرؤ على أن يدخل وحده الغرفة وهو منهمك في البحث. فإن دخلنا فلا بد من والدتي معنا نحتمي بها، نمشي وراءها طابوراً على أطراف الأصابع، فإن جلست جلستنا، وإن انتهى حديثها إلى أبي ونهضت نهضنا معها في نفس اللحظة ونخرج وراءها صفاً كما دخلنا. وبالرغم من أن أبي كان دائماً ينحي الكتاب جانباً إن دخلنا عليه، محاولاً أن يتبسط في لقائنا ويبتسم، فقد كنا نشعر

في قرارة أنفسنا أن رفقة الكتاب أحبّ إلى نفسه.

كنت في صباي أحب أبنائه إليه، ربما لما لمسه في منذ البداية من اهتمام بالأدب والتاريخ وإقبال نهم على القراءة. وقد كنت في حداثتي كثيراً ما أرى الله في منامي، يكلمني وأكلمه، فأخبر والدي بما أرى، وأردد ما أسمع، فكان يتأثر لما أرويه، ويقبل رأسي مغتبطاً. حتى كانت ليلة رأيت فيها في المنام نفسي واقفاً عند نهر في صحراء، فإذا بملك من السماء له وجه أخي عبد الحميد يهبط عند الضفة المقابلة من النهر، فيذكر لي أن الله سيختارني نبياً حين أكبر. وأقص نبأ الحلم على العائلة وقت الإفطار، فإذا والدتي تقول في حماس: ولم لا؟ ربما! غير أن والدي ذكرها معترضاً بأن محمداً خاتم النبيين، «ومع ذلك فلا مانع من أن يكون الحلم مبشراً بأن سيكون لحسين مستقبل عظيم» وكنت أشعر بوضوح بأن مثل هذه الأحلام المتكررة يزيد من معزتي عنده.

ومن الطريف أن إخوتي قد استاءوا عند سردي لهذا الحلم، (عدا عبد الحميد الذي سرّه أن أراه في هيئة ملاك!) فاتهموني بعد الإفطار بالكذب والاختلاق، أو على أقل تقدير، بخلطي بين أحلام اليقظة ورؤى المنام. وأذكر أن أحدهم ضربني ساعتها على قفائي ليعزّز من رأيه. وقد شبهتهم والدتي حين رأتهم يهاجموني بإخوة يوسف النبي الذين ألغوه في الجُب غيرة وحسداً.

كان عبد الحميد شديد التدين في ذلك الحين، يطيل الصلاة ويكثر من تلاوة القرآن. وكثيراً ما جلس إلينا يفقهنا في الدين ويجيب على تساؤلاتنا في حكمة وسعة صدر. وإذا أنه كان يشجعنا على توجيه الأسئلة دون تحرج، ومهما بلغ فحواها من الجراءة، فقد سألناه مرة:

— إذا كان الله خالق هذا العالم، فمن خلق الله؟

وأنا صوت والدتي، وقد سمعنا، تستغفر الله العظيم من هذا السؤال. .
غير أن عبد الحميد أجابنا في ثقة وهدهو:

— سؤال ذكي ومعقول. ولكن لتفرضوا معي أن كائناً ما خلق الله، فإنكم ستساءلون حيثئذ: ومن خلق هذا الكائن؟ لنفرض أن كائناً خلق هذا الكائن فستساءلون: ومن خلق هذا الكائن الثالث؟ فإن تمسكنا بهذا التساؤل إلى ما لا نهاية فسنصل حتماً إلى الإعتراف بأنه لا بد من كائن لم يخلقه أحد. هذا الكائن الذي لم يخلقه أحد، هو الله.

وقد نال هذا الردّ منه إعجاب الجميع واستحسانهم، خاصة بسبب اللهجة الواثقة التي أدلاه بها، ولسعة صدره وترحيبه بهذا السؤال الشائك.

ولم يكن عبد الحميد مصدرراً لتزويدنا بالمعارف الدينية فحسب، بل كان كذلك معيناً من القصص لا ينضب. ومثالث هي المرات التي كان يجمعنا فيها حوله على سرير واسع ليقص علينا فصولاً من الروايات الانجليزية المبسطة التي كان يقرأها، فنصغي إليه في نهم وكان على رؤوسنا الطير، ويتوافد الخدم إلى باب الغرفة للاستماع فلا ندعه يقوم من مكانه إلا إن أقسم لنا أنه لم يقرأ بعد الفصول التالية للنقطة التي توقف عندها.

أما أخي حافظ، وهو يصغر عبد الحميد بعامين فقد اختار لنفسه منحى انعزالياً كان غريباً علينا، وموقفاً عقلياً لم نكن وقتئذ بالقادرين على استساغته. كان، ولا يزال إلى اليوم حاد العاطفة والمزاج لا يمكنه الحديث في أمر مهما تفه شأنه إلا بثّ الحديث جماع روحه وقلبه. كان في ذلك الحين يقدس غاندي إلى حد العبادة، قد بسط طعامه وملبسه، ويكرر محاولته بين الحين والحين أن يصبح نباتياً. وقد قادت قراءاته عن غاندي وله إلى معرفة تولستوي، فقرأ جملة من كتب الأخير في الدين والفوضوية. والظاهر أن حادث وفاة أعز أصدقائه كان له تأثير عميق في نفسه وفكره. غير أن الطريقة العنيفة التي انتهجها حافظ في التعبير عن أفكاره ونظره إلى أفراد العائلة على أنهم غير أهل لتلقي الحقيقة، وكثرة شجاراته معنا، وطول خصامه لنا، صدّ قلوبنا عن هذا النمط الفكري، إلى أن جاء اليوم الذي قبلناه فيه من مصدر آخر!

غير أن حب حافظ الغريب للمسرح الذي بدا قوياً واضحاً عنده منذ صباه، اضطره في النهاية إلى العودة إلى حظيرة العائلة يلتبس فيها ميداناً لممارسة مواهبه . فقد كان والذي يفاجئنا أحياناً عند عودتنا من المدرسة بإعلانه عزمه على اصطحابنا إلى دار الأوبرا . مثل هذا الإعلان منه كان دائماً يسكرنا من البهجة والفرح . ولا أزال إلى اليوم أرى نفسي بوضوح جالساً على كرسي مرتفع، في بنطلوني القصير، في مقصورة حمراء الجدران . ذات مرايا كبيرة مذهبة الإطار، أنطلع بعينين واسعتين إلى سقف الصالة المذهب المزين بصور الفنانين والثريا الضخمة في وسطه، وفي يدي قطعة كبيرة من الشوكولاتة التي كان يأتي بها إلينا في المقصورة سكرتير الأوبرا في ذلك الحين، صلاح ذهني . فاما عني فكنت أكثر شغفاً بفخامة الدار ذاتها ومراقبة الجمهور مني بما أشاهده على مسرحها، وأما حافظ فكان يزدرد المسرحيات ازدرداً، يحفظ الكثير من حوارها بعد سماعه مرة واحدة، ويدخر في ذاكرته الملاحظات عن حركات الممثلين وطريقتهم في الأداء حتى إذا جاء المساء التالي رأيناه ينزع من الأسرة ملاعتين، متخذاً منهما ستارة ينصبها في صالة الطعام، عاهداً إلى أحد الخدم بمهمة شدّ حبل الغسيل الذي ربط بطرفيها حين يعطيه إشارة البدء بينما نجلس نحن على الكراسي التي رصّها في الجانب الأوسع من الصالة . فإن أطل أحدنا برأسه ليرى ما يدور خلف الستارة من الاستعدادات، ترك حافظ ما بيده مزمجرأ ليضرب المتطفل على رأسه ويلوي له أنفه . والحق أنه كان دائماً يترك في نفوسنا من الإعجاب بتمثيله وذاكرته وقدرته على المحاكاة ما لا يقل عن إعجابنا بما شاهدناه في الأمسية السابقة .



حديثي عن علاقة حافظ بالمسرح، يؤدي بي إلى الحديث عن حب والدتي له، وموقفها من الأدب بوجه عام .

بالرغم من انتماء والدتي إلى عائلة أكثر عراقة وثقافة من عائلة أبي، فإنه

لا هي ، ولا أي من إخوتها ذكوراً كانوا أو إناثاً، تلقى قدراً كافياً من التعليم . كان جدي لأبي ابناً لفلاح ، وكان رغم ضآلة دخله وكثرة أولاده يصر على منحهم أكبر قسط ممكن من الثقافة . بل إنه كان من أوائل المصريين الذين أرسلوا بناتهم إلى المدرسة . وقد ذكر والدي في كتابه «حياتي» أن أباه كان مؤمناً بضرورة تعليم الفتاة لتشارك الرجل حياته مشاركة حقيقية . غير أن عمتي ذكرت لي منذ بضعة أعوام أن الفكرة الرئيسية وراء إرسالها إلى المدرسة كانت أن تتمكن من كتابة خطابات إلى عائلتها بالشكوى من زوجها إن حدث وتزوجت من شخص غريب عن العائلة ، أو اصططحبها زوجها إلى مدينة بعيدة وأساء معاملتها!

أما والدتي فجدها الأكبر هو محمد علي باشا البقلي (الحكيم) أول ناظر مصري لمدرسة الطب ، الذي غضب عليه الخديو إسماعيل فأرسله مرافقاً للحملة العسكرية إلى الحبشة حيث قتل . . وكان أبوها قاضياً وفقياً في القانون وصديقاً حميماً لعبد العزيز باشا فهمي . . ومع ذلك فالواضح أنه قد أهمل تعليم أولاده إهمالاً فاضحاً . . وكان موته المبكر، دون أن يخلف وراءه ثروة تذكر، نذيراً بخروج الأولاد من مدارسهم، وسعي الذكور منهم إلى كسب عيشهم بالعمل في بعض الوظائف الصغيرة . وقد قصت علينا والدتي من الأخبار عنه ما رسم له في ذهني صورة غير جميلة . . فالظاهر أنه كان فظ الطباع، شرس الخلق، سيء المعاملة لزوجته . . جاءته امرأة مرة تحاول أن تقدم له هدية (أو رشوة) حتى يحكم لصالحها في قضية ينظرها . . فإذا به يجر المرأة من شعرها إلى خارج الدار ويجردها من ثيابها، ويضربها بالسوط وهي تلول وتستغيث، حتى فرق الناس بينهما .

توفي جدي هذا قبل أن يناهز الخامسة والثلاثين، وتبعته جدتي بعد عدة أشهر وهي في حوالي الثالثة والثلاثين، تاركين صبيين وطفلتين . وقد تولى تربية هؤلاء اليتامى والإنفاق عليهم قريب لهم من أكبر أثرياء مصر، هو أحمد عفيفي باشا والد هدية زوجة بهي الدين باشا بركات . . فأما الولدان فسرعان ما وجدا

لنفسيهما عملاً، وأما والدتي وخالتي فقد قضتا السنوات السابقة على زواجهما في هذه العائلة الكريمة، تعاملان معاملة بقية أطفال الأسرة.. وقد نشأت بين والدتي وهدية منذ ذلك العهد صداقة استمرت حتى وفاة والدتي عام ١٩٥٩.. وكانت تلك السنوات أسعد فترة في حياتها على الإطلاق.. كانت خلالها دائمة الضحك والمرح، لا تحمل همّاً ولا تعرف القلق، محبوبة من الجميع، يصبر عفيفي باشا على ألا يصطبح بوجه غير وجهها. وكانت تتدخل أحياناً فلا تدخل إليه في الصباح كمعادتها حاملة صينية القهوة، وتضحك في الخفاء حين تسمعه يصيح مغضباً: «أين زينب؟ أين زينب؟ لا أريد أن يحمل إليّ القهوة غيرها» وقد عبرت والدتي وهي على فراش الموت عن رغبتها في أن تدفن في مدافن هذه العائلة، فخصصت لها هدية بركات قبراً في موضع تظله أشجار المانجو والمشمش، على بعد عدة أمتار من قبر عفيفي باشا.

وقد احتفظت والدتي على الدوام بتلك الروح المرحّة التي بدأت بها حياتها.. فكانت بالرغم مما صادفته فيما بعد من متاعب وأمراض، بشوشة الوجه، منطلقة الضحكات، شغوفة بالمزاح، لا يدخل عليها أحداً إلا أشرق له وجهها وابتسم.. وقد كان أكثر ما يعيظها من والذي في السنوات الأولى من الزواج على الأقل، قلة الضحك في بيته وبين أفراد عائلته، والتزام وجهه التعبير الجاد، لا يكاد يعرف التعبير عن فرح إلا بشبح ابتسامة، وهي التي اعتادت في منزل أقربائها جواً يضحكون فيه للثافة والملاّن، وقد كان هذا الجد الذي لا يعرف هزلاً كفيلاً بأن يقضي على روح المرح عند الكثيرين.. غير أن والدتي ثبتت له.. وما زالت لدينا صورة شمسية صادقة الدلالة، لأبي وقد جلست إلى يساره والدتي مغرقة في الضحك، تشير إليه أن يبتسم على الأقل للمصور، وأن يزيح عن وجهه العيوس..

قضت والدتي سنتين أو ثلاثاً في مدرسة أوروبية بالقاهرة لم تفلح بها، ولم تخرج إلا ببعض الحساب، وبالجمال الانجليزية:

No good, Please, give me the Pencil, come here,

وبعض المفردات مثل mat, cat, rat, hat (دون أن تعرف أيها الدالة على القطه وأيها على الفأر) ثم دعاء «أبانا الذي في السموات» كانت تردده على النحو التالي :

Our fazzar which art in hefenn, halod be zy nem zy will be done, zy kinkumkum.

وقد حاول والدي جاهداً عقب زواجهما أن يعطيها دروساً في الجغرافيا والتاريخ واللغة حتى يضيق من الهوة الرهيبة بين ثقافته وثقافتها، وحتى يضمن اهتماماً منها بما كرس له حياته. غير أنه اضطر بعد مدة إلى أن يطرح محاولاته يائساً، وهو يعجب كيف يرفض ذهن امرأة كهذه متقلة الذكاء أهمية الإحاطة بموقع بريطانيا أو فتوحات بوناپرت.

وكانت النتيجة أن ظلت والدتي لا تستطيع أن تعين موقع مصر من خريطة العالم، لم تسمع بألمانيا إلا حين نشبت الحرب وارتفع ثمن الصابون، ولم تسمع بلندن حتى سافر إليها أخي محمد وبدأت تكتب إليه. وهي مع ذلك تعرف الكثير عن إيران لأن لها صديقة «عجمية» تعرفت بها في الترام فصارتا صديقتين حميمتين، وتعرف عدة جمل يونانية تستخدمها في محادثة الجيران.

كانت تقرأ الصحف - عدا الأبواب السياسية منها - وتهتم بالأخص بأسعار الذهب، وصفحة الوفيات، والإعلانات المبوبة. فأما الكتب فشلاثة أو أربعة تعشقها عشقاً، وتعيد قراءتها كلما فرغت منها: «مجانني الأدب» في نسخة مهلهلة احتفظت بها منذ أيام الدراسة، وكتاب في مقومات الصحة وأسباب المرض، وحوادث الأمثال العامة لأحمد باشا تيمور، ومجموعة أزجال عثمان جلال. أما كتب والدي فلم تقرأ منها غير مقال واحد في «فيض الخاطر» بعنوان «ولود وعقيم»، عن حوار بين سيدتين في الترام. وإنما قرأته والدتي لأنها هي السيدة الولود، قد نقلت إلى والدي حواراً دار بينها وبين سيدة عقيم جلست بجوارها في الترام، فراه أبي جديراً بأن يسجل في مقال.

كانت تقول لوالدي: «أصحيح أن هناك من الناس من يدفع نقوداً لشراء كتبك؟!» وبالرغم من ذلك الاختلاف الضخم بين ثقافتهما، فإنه لم يعكر حياتهما الزوجية، ولم يؤثر فيها. فإن كان هو قد شغل بالتأليف والقراءة، فقد شغلت هي بتربية أولادهما الثمانية، فإن التقيا بعد ذلك كان ذكاؤهما الطبيعي معوضاً عن نقص تعليمهما، ولم يكن جهلها بفتوحات بونابرت سبباً ينغص عليهما حياتهما.

الأمر الذي كان يدهشني منها هو حبها للمسرح الذي لم يكن يقل قوة عن حب أخي حافظ له، اصطحبها والدي عقب الزواج لمشاهدة إحدى كوميديات علي الكسار. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تدخل فيها مسرحاً. فإذا بها تخرج منه مذهولة تتمتم:

— أفي الدنيا مثل هذه الأمور وأنا غافلة عنها؟! يا لشبابي الضائع!
يا لخيتي السوداء!

وبأت من يومها من مرتادي المسرح العاشقين له، تعرف جيداً مسرحيات الريحاني ويوسف وهبي والكسار والمسيري، وتحفظ سطوراً من «غادة الكاميليا» و«عائلة باريت» ترددها في كل مناسبة وبغير مناسبة. أما مسرحياتها المفضلة فمسرحيات مولير، لا ترى شيئاً يفوق «البخيل» أو «المريض بالوهم». فإن شهدت مسرحية محزنة أربكت من معها بعلو صوت بكائها أثناء التمثيل، خاصة إن ذكر فيها أن للأم ولداً متغيماً. وكانت تردد عقب كل تمثيلية تعجبها أن تلك التمثيلية تعالج مشكلتها هي الخاصة، وكأنما كتبها المؤلف عنها.

فرغت مرة من قراءة حداثق الأمثال العامة ولم تجد لديها جديداً تقرأه. فعرضت عليها أن أروي لها قصة كنت قد قرأتها ذلك اليوم، وهي «حاجة الإنسان من الأرض» لتولستوي. وإذ انتهيت من سردها، إذا بي أراها وقد اغرورقت عيناها بالدموع، ثم إذا بها تطرق مفكرة في القصة، حتى إذا ما استوعبت مغزاها رفعت رأسها قائلة:

— «ربنا يسعدك يا حسين! أنت حاتطلع راجل عظيم».

وكانني أنا مؤلف القصة! ثم طلبت مني أن أقص عليها قصة أخرى، فقصصت «الشيطان وكسرة الخبز»، وذكرت لها أن مؤلفها هو نفس مؤلف القصة الأولى وأريتها صورته. وفي اليوم التالي ابتعت مجلداً يضم ثلاثاً وعشرين من قصص تولستوي القصيرة بالانجليزية، فكننت أترجم لها القصة جملة جملة، حتى إذا ما فرغت من تلاوة واحدة أربكتني بدعائها وشكرها. وكثيراً ما كانت بعد ذلك تطلب مني أن أحكي لها حكاية من تأليف «الرجل ذي اللحية الطويلة» (وهي تسميتها لتولستوي). فإن لم يكن لديّ الجديد، جعلتني أعيد عليها حاجة الإنسان من الأرض أو «رجلان عجوزان» أو «شرارة مهملة تحرق الدار»، وهي القصص الأثيرة عندها.

لا أذكر متى سمعت عن الله لأول مرة، أو عن محمد، أو متى أو كيف بات لي دين.

غير أن أقدم ما أذكره في هذا الصدد، أن سحور الأهل في رمضان كان يفتنني.

كنا نلح على والدتي متوسلين أن توقظنا للسحور كما توقظ الكبار. فكانت ترفض مشفقةً حيناً وتقبل مشفقةً حيناً. فإن رفضت هددناها بالصوم دون سحور، وإن قبلت تناولنا السحور ولا نصوم. ففروضة الأطفال تصرّ على إذن كتابي من ولي الأمر بالصيام، وإلا أجبرت الطفل على تناول اللبن والبسكويت صباحاً، والغداء ظهراً. والوالدي يأبى منح هذا الإذن، غير أنه في أيام الجمعة والإجازات يسمح لنا بالصيام نصف نهار، ويقول إن من صام من الصغار نصف نهار فكأنما صام النهار كله، له ثواب كامل. ثم تأتي والدتي تفتني بأن من صام أول رمضان ومتنصفه وآخره فكأنما صام الشهر كله، له ثواب كامل. فكان صومنا في طفولتنا لا يزيد في الغالب على ثلاثة أنصاف أيام!

فالسحور إذن هو ما كان يجتدبنا، وتغير نظام اليوم، والمأكولات الشهية

غير المألوفة عند الغروب، والفوانيس الموقدة بهيجة الألوان نطوف بها في الطرقات، وغناؤنا مع الخدم: «يا فاطر رمضان. يا خاسر دينك. كليتنا السوداء تقطع مصارينك»، وإخراج ألسنتنا للغير حتى يعرف من قدر احمرارها ما إذا كنا صائمين أم غير صائمين. والكلبة السوداء التي تنهش أجسام المفطرين كانت أول فكرة كَوْنُها عن الجحيم.

ومن الغريب الخلق بالضحك، أن والذي الذي كان يحرص أشد الحرص في أحاديثه معنا على أن ينمي فينا نظرة إلى الدين مستنيرة واسعة الأفق، لا تشوبها أوهام أو خرافات أو تعصب، لم يعن بأن يحول بين الخدم وبين حديثهم إلينا في الدين، فإذا بنا وقد انتقلت إلينا منهم أبشع الصور. فمن والذي نسمع أن الجنة هي في حقيقة الأمر طمأنينة الروح وسكينتها، والجحيم هو العذاب الناجم عن تأنيب الضمير ووخزه. ومن الخدم نسمع أن الجنة هي المكان الذي نأكل فيه أفخر أنواع الفاكهة وصنوف الحلوى، والجحيم هو حيث يجبرنا الزبانية على تجرع مقادير هائلة من الماء المغلي، يفقأون أعيننا بحرايبهم، ثم يعيدون خلقها ليسملوها من جديد. والمسيحيون عند أبي هم عباد الله وأهل الكتاب. وهم عند الخدم لا يختلفون عن الكفار في شيء، عظامهم زرقاء، ومصيرهم الكلبة السوداء. وكانوا إذا لمحوا قساً في الطريق في ثيابه السوداء ولحيته الكثة، عدوا خلفه يغنون ساخرين من ملبسه ولحيته، حتى يلتفت إليهم مهلداً فيعودوا إلينا ضاحكين.

ولا أنكر أن تأثير أحاديث الخدم في نفوسنا كان في طفولتنا أقوى من تأثير أحاديث والذي في الدين. فالمانجو والأناناس كانا أقرب إلى مفهومنا من سكينه الروح. والماء المغلي الذي كان يؤلمنا ويعذبنا كلما استدعينا للاستحمام، أدنى إلى فكرتنا عن العذاب من وخز الضمير الذي لم نكن قد خبرناه بعد، والحدو في الشوارع ضاحكين وراء قسيس غريب الزي، أظرف لدينا من فكرة أهل الكتاب.

كنا إذا نقلنا إلى والدتي نبأ خطأ ارتكبه أحد الخدم، صاح الخادم بنا: «يا فتان! القرآن يقول: والفتنة أشد من القتل!».

وتؤلمنا الفكرة، فنقصد والذي مستفسرين: «أصحيح يا أبي أن الفتان له عذاب يفوق عذاب القاتل؟». فيجيب والذي:

— الفتنة المقصودة هنا هي الكفر.

فنهرع فرحين إلى الخدم، ونخرج لهم الأستنا:

— الفتنة المقصودة هنا هي الكفر.

— ومن قال لك هذا الهراء؟

— والذي.

فيعض الخادم على لسانه لا يجرؤ على أن ينقض قول سيده الكبير، عضو المجمع اللغوي.

صَوَّرَ الخدم لنا الجحيم على أنه حفرة هائلة تلتهب فيها النيران، يعلوها جبل دقيق رقيق فكانما هو شعرة أو خيط. وعلى الناس جميعاً يوم القيامة أن يسيروا فوق هذا الخيط. فأما من كان مؤمناً وصلحت أعماله فسيرى الخيط وكأنه قنطرة عريضة يعبرها إلى الجنة في ثقة وثبات قدم. وأما من بنى وفسد فستزل قدمه بعد خطوة أو خطوتين، فيهوي إلى الحفرة يتردى فيها أبد الأبدين. فما أطلعوني على هذه الصورة حتى وجدته لعدة أيام أتدرب على السير فوق القضيب الحديدي الرفيع بظهر السرير، استعداداً لليوم الآخر. ولم أنته إلا بعد أن سقطت سقطة عنيفة من فوقه كاد أن ينكسر لها ظهري. وقد هتف بي أخي جلال حين شاهدني أقع:

— وستكون سقطتك في الآخرة أبشع وأشنع إن شاء الله!

لم يكن يفسد علينا يوم «وقفة» العيد سوى إرسلنا إلى الحلاق. فوالدي

يصر على أن نستقبل العيد برؤوس «نظيفة». وضباع شعرنا إنما كان يعني عندنا ضباع فرص الوسامة والأناقة. وقد كنا نكذب أحياناً فندعي أن صالون الحلاق مغلق، فإن أرسل والدي خادماً يستوضح الخبر وأتاه بكذبنا، عاقبنا بأن يحلق لنا رؤوسنا بنفسه، فتزداد وجوهنا بشاعة. فكنا عادةً نفضل الإستسلام والطاعة. وإذا نجلس بين يدي الحلاق، نتوسل إليه أن يترفق بشعرنا، وأن يترك لنا منه قدراً معقولاً، بينما تغمز الخادمة له ألا يترفق. والحلاق بطبيعة الحال أميل إلى إطاعة الخادمة، فهي تحمل أوامر السيد. وقد يأمر السيد بإعادتنا إليه إن لم يحلق لنا الكفاية، فيكون في ذلك له عناء إضافي، دون أجر إضافي. وإذا نهبط في النهاية من الخشبة المرتفعة التي تضاف للأطفال إلى المقعد، ونأمل وجوهنا في المرأة، تدمع أعيننا من الغيظ، ونخرج إلى الطريق أدلاء مطاطي الرؤوس، بينما تضحك الخادمة في تشف ومرح.

حتى إذا وصلنا إلى البيت، فحص أبي رؤوسنا فرداً فرداً، فييدي استيائه غالباً، ورضاه في القليل النادر. ثم يأمر بالحمام أن يعد. وما كان الاستحمام بأخف عبئاً علينا من الحلاقة. فالماء ساخن نصرخ لسخونته، والليفة خشنة تلهب جلودنا. وقد كانت والدتي في السنوات الأولى تتولى أمرنا، فكانت إذا صرخنا تترفق بنا، فتضيف ماءً بارداً أو تخفف من تلييفها أجسامنا. فلما كبرنا بعض الشيء تولى أبي عنها هذه المهمة، فلم نكن نصرخ إلا إذا كان الألم لا يحتمل. وهو يدخل الحمام ومعه ثلاثة منا أو أربعة فنخلع ملابسنا ويغطس هو في الحوض الضخم الممتلئ بالماء، فتتسلق الحوض وراءه كالقنطرة الصغيرة حتى تقع فيه. وكنا نراقب جسمه الضخم العاري في رهبة وتعجب، ونتساءل في أنفسنا عما إذا كانت أجسامنا حين نكبر ستصبح رهبةً مهيبةً مشعرة كهذا الجسم الذي ملأ الحوض فلم يترك لنا سوى أركان ضيقة منه حشرنا فيها حشراً، والماء المختلط بالصابون يدخل عيوننا فيلهبها عند كل حركة.

وبانتهاء الاستحمام ينتهي جانب العذاب من يوم «الوقوف». فهذا هي الحلل الجديدة قد وصلت من عند الخياط ملفوفة بالورق المرقق بالدابيس،

وها هو أبي وقد انفرد في غرفته، نسمعه ينزع الأغلفة عن علب كثيرة، نعلم ما بها ولا نتحدث عنها، حتى يكون التوزيع منها في الغد مفاجأة سارة لنا. حتى إذا ما هبط المساء، أتى كل منا بكرسي من صالة الطعام، يضعه بجوار سريريه، فنعلق سترة الحلة الجديدة على ظهر الكرسي وعليها رباط العنق. وعلى المقعد نضع السروال وفوقه القميص المكوي والحزام في شكل دائرة. وتحت الكرسي الحذاء الجديد وفي كل فردة منه فردة من الجورب الجديد. وقد كانت عملية ترتيب الملابس فوق الكرسي وتحت من أحب الأشياء إلينا، لا تنخيل عيداً بلونها. ولا أعدو الصديق إذا قلت أن العيد فقد بهجته منذ تخلينا عن هذه العادة. وكان إذا «كبر» أحدنا وأبطل هذه العادة، نظرنا إليه نظرة اشمئزاز وضيق. فهو يضحك منا ويقول إننا لا نزال أطفالاً صغاراً. ونحن نشتمه ونقول أنه قد بات يظن نفسه كبيراً، وأن الخسارة خسارته.

فلا نكاد ننتهي من «تحضير الكرسي» حتى نقفز إلى الأسرة للنوم ولو كان في السماء بقية من نور. فغدا نقوم قبيل الفجر. فأما من ظن نفسه كبيراً فقد أبطل عادة الاستيقاظ المبكر هي الأخرى، فلا ينهض من فراشه إلا مرغماً، منتفخ العين، وقد تم إعداد لحم الخروف ووضع على المائدة. وأما المتمسكون بطفولتهم فينهضون في الثالثة فيغتسلون، ويشرعون في ارتداء الملابس قطعة قطعة في تمهل وتلذذ، بينما تنتهي من الطريق أصوات تصيح فتشق هذأة الليل: «جزارا! جزارا!».

ونهرع مع والدتي إلى السطح والدنيا ما زالت ظلاماً حالكاً، فنودع الخروف ونرتب على رأسه وفروته مشققين وفي أعيننا الدمع، ثم نراقب في سرور وشغف عملية ذبحه ونفخه وتقطيع أوصاله. ونتوجه إلى المسجد، فنظل نردد مع المرددين: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً. وإذا نفرغ من الصلاة، ونصافح من يكون عن يميننا وعن يسارنا متممين: حرماً، جمعاً. حرماً، جمعاً، نسرع بالتقاط أحذيتنا الجديدة التي كنا أثناء الصلاة نراقبها من طرف أعيننا للاطمئنان عليها، ثم نعود إلى المنزل عدواً. فإبي الآن

في الإنتظار بغرفته وقد إستيقظ وفتح نوافذها يستقبل النور. نهته فيقبلنا، ويفتح درجاً يخرج منه نقوداً ورقية وفضية جديدة تلمع من فرط جدتها. فيسلم كلاً منا «عيدته». ثم يفتح خزانته ذات السلسلة الحديدية فيخرج صنوف الحلوى واللعب. وإذا يأخذ كل منا نصيبه، نجري إلى المطبخ حيث والدتي مشغولة بالخروف، قد احتفظت بفروته جانباً لرجال الإسعاف. فتعطي كلاً منا جزءاً من مخ الخروف وقد سلقته. ثم تساعد المخدم في إعداد المائدة، وحمل الصحون والمأكولات إليها، ونتوجه لإيقاظ من لم يكن قد استيقظ بعد من الأخوة «الكبار».

نشبت الحرب العالمية الثانية وأنا في السابعة من العمر. وقد علمت بنأ نشوبها من مصدرين: من والدتي حين رأيناها تخزن كميات هائلة من الصابون والزيت وغيرهما من السلع، ومن بائع الكراسات والأدوات المكتبية حين تقاضى مني قرشاً كاملاً ثمناً لكراسة اعتدت أن أدفع ثمناً لها نصف قرش فسألته عن السبب.

لم تلعب الحرب في حياة أسرتنا دوراً كبيراً أو صغيراً. وذكراتي عنها يمكن أن أورها هنا في فقرة أو فقرتين، وهي ذكريات ليست في مجموعها بالبغيضة.

فمنها: أن والدي حين بدأت إغارات الطائرات الألمانية على مطار المازلة بمصر الجديدة، فكر في بناء مخبأ بالبيت، خاص بالعائلة، يكفيها مضايقات الانتقال ليلاً إلى المخبأ العام. وبالفعل، بنى حائطاً سميكاً من الطوب قبالة نافذة المطبخ بالطابق السفلي، وحشد إلى جانبي النافذة أكياساً من الرمل. وقد كان لاجتماع العائلة في هذا المطبخ في الظلام، حين تدوي في مصر الجديدة صفارات الإنذار، أثر بهيج، حتى لقد كان فرح الأطفال منا بالصفارة أكبر من انزعاجهم منها. أذكر أنه كانت قد أجريت لي وقتذاك عملية «الطهارة»، وكان صديق أخي عبد الحميد قد أهداني بهذه المناسبة سلة جميلة

بها أرنبان جليان رائعان . فكنت إذا بدأت الغارة وحملني والذي للنزول بي إلى
المخبأ، أصر على اصطحاب الأرنبين . وفي المخبأ، كنا نقهقه عالياً إذ نرى
خالتي نعيمة على ضوء الشمعة تتظاهر بالرعب الشديد وهي تولول:

— كدا يا هتلر! حزقتني يا هتلر!؟

وإنما هي المقصودة من وراء هذه الغارات!

أما ذكريات الحرب البغيضة فجلبها يتصل بالجنود البريطانيين في
القاهرة . كان يخيل إلينا أنهم سكارى على الدوام، فسلوكهم شائن، وكان
مجرد رؤيتنا لهم في الطريق كفيلاً بإزعاجنا، واختيارنا الانتقال إلى الرصيف
المقابل لتجنب الاقتراب منهم . وقد كانت عربات المترو دائماً تغص بهم . فإن
اضطررنا إلى ركوبها ظللنا طوال المسافة ندعو الله ألا يحدث بيننا وبينهم
احتكاك . وقد حدث مرة أن جلس جندي إنجليزي سكران قبالي ووالدي في
المترو، فوجه الجندي إلى أبي إهانة دون مبرر، غلى الدم في عروقي بسببها .
فما عدت إلى البيت، حتى أخرجت كراسي جديدة من الدرج، وشرعت في
تأليف كتاب بعنوان «أهوال الحروب»، كان أول ما خطه قلمي في الأدب، وقد
اتخذت فيه من حادث إهانة والذي محوراً لإثبات عدالة حق مصر في أن
تستقل!

* * *

ثم شرعت في سن الثامنة في تأليف كتاب عن عمر بن الخطاب، مثلي
الأعلى في ذلك الحين، وقصدت أن أجعله في ثلاثة مجلدات ضخام، فما
وصلت إلى الصفحة الثلاثين حتى كانت المادة في جعبتي قد نفدت . غير أنني
لا أزال أذكر بوضوح اليوم الذي بدأت فيه العمل في ذلك الكتاب . كنت يومها
مريضاً، أرقد في فراش والدي، وأبي على أريكته يكتب في «ضحى
الإسلام» . . . وإذ أخبرته بالفكرة، نزل إلى مكتبته يجمع لي بعض الكتب التي
ستفيدني في البحث . فنشرتها أمامي على السرير كما كنت أراه يفعل،

وفتحت الكراسة مسنداً إياها إلى ركبتي، واضعاً طرف القلم في فمي أدق به أسناني، مفكراً في الفقرة الأولى من الكتاب، وهي نفس حركات أبي حين يشرع في الكتابة. ثم سألته عما إذا كان بالإمكان أن أتخذ لنفسني منظوراً كمنظاره، فأجاب بالنفي، فعدت إلى الكراسة. وبعد لحظات من التفكير العميق، أنزلت القلم من بين أسناني وكتبت:

«كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، رجلاً عظيماً حقاً...!»

ثم اضطر أبي بعد ساعة إلى الخروج، تاركاً إياي مستغرقاً في الكتابة، فما أن ترك المنزل حتى هب الإخوة والخدم، كعادتهم عند خروجه، يحدثون الضجيج. فقممت من الفراش إلى الباب وفتحت أوبخهم وأطلب منهم التزام الهدوء «لأنني أكتب»، متوقفاً أن يلتزموا حيال هذا النشاط مني ما يلتزمونه مع أبي. غير أنهم ضحكوا ساخرين فشتتهم. وعندما عاد أبي من الخارج شكوتهم إليه.

ثم كتبت تحت تأثير قراءة لرجلي زيدان روايتين تاريخيتين، هما أطول وأكثر تعقيداً في الحوادث من أن تصدرا في العادة من صبي في العاشرة. الأولى «الوليد بن يزيد» رواية غرامية تقع حوادثها في العصر الأموي، والثانية «ابنة فردريك» عن الحروب الصليبية ووقوع ابنة أحد قواد الصليبيين في الأسر بعد غرق أبيها ثم وقوعها في غرام أحد المسلمين في جيش صلاح الدين، واضطرابها في النهاية إلى مفارقتها والعودة باكية إلى وطنها.

غير أن أهم مؤلفاتي طرا في فترة الصبا هي رواية «العقاب»، رواية عصرية قامت إحدى قريباتي برسم الصور لها، ثم دفعت بها إلى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، فطبعوا منها مائتي نسخة على حساب والدي، أرسلت إحداها إلى والد صديقي ممدوح، «فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق وزير الأوقاف، مع أطيب تحيات المؤلف»! وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق، رحمه الله، يحبني حبه لابنه، وكثيراً ما كان يحضر مذاكرتي مع

ابنه للدروس في حديقة منزله الرائعة بكويري القبة، أو في مكتبته الضخمة، فيقرأ معنا في كتب الأدب القديمة ككتاب الأغاني والعقد الفريد، ويحدثنا عن ذكريات صداقته لأبي في شبابهما. فما مضى أسبوع على إرسال الرواية إليه حتى فوجئت إذ أعود عصراً من المدرسة بأبي يقول لي:

— خطاب لك من الشيخ مصطفى.

— وفتحت المظروف بأصابع ترتعش:

«وزارة الأوقاف»

مكتب الوزير

ولدنا الأديب الفاضل السيد حسين أحمد أمين،

سرني أن تلقيت في مطلع العام الهجري الجديد، هدية منك طيبة، تبشر بما لك من مستقبل مرقح في عالم الأدب. فإن كانت روائع الجنة في الشباب كما يقول أبو نواس، فلا غرو أن أنتسم روائع الجنة في مشرق عام جديد من هديتك الكريمة.

أسأل الله أن يجعلك قرة عين لأبويك، وأن ينفع بك البلاد.

وكدت أطير يومها من الفرح، لا تسعني الدنيا، أدفع الخطاب إلى كل من أقبله ليقراه، آخذاً إياه معي إلى المدرسة، مشيراً للمدرسين والتلاميذ إلى عبارة «الأديب الفاضل» لأتأكد من أنهم لاحظوها. فما هبط مساء اليوم التالي حتى كنت قد عقدت العزم على أمر.

إن كانت الرواية قد أعجبت الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى هذا الحد، (والشيخ مصطفى ليس ممن يستهان بهم في عالم الأدب، فهو الذي اكتشف عبقرية نجيب محفوظ وشجعه)، فلماذا لا أرسلها إلى يوسف وهبي، لعله يقبل أن يخرجها للسينما، وأن يمثل الدور الأول فيها؟ لقد كان من عادتي أن أرسل إلى يوسف وهبي كل عيد بطاقة تهنته من البطاقات التي أتولى طبعها بنفسي في

لجنة التأليف. فكانت تصلني منه بعد أيام بطاقة تحية وشكر.. فلعله يذكرني الآن بالخير والامتنان. ولا مانع من إخفاء سني عنه، (كنت وقتها في الثالثة عشرة)، حتى لا يظن الرواية عملاً صبيانياً فينحى جانباً دون قراءة.

وبالفعل، وضعت نسخة من «العقاب» في مظروف كبير، وأرسلتها إليه بالبريد المسجل، مع تحيات المؤلف، راجياً إياه أن يدرس إمكان إخراجها ومعبراً له عن إعجابي العظيم به.

وقضيت الأسابيع التالية في أحلام جنونية: فما أنا ذا راقد في فراشي أغط في النوم، حين أسمع دقات وقرعاً عنيفاً متواصلًا على الباب.. (كان هناك جرس، غير أنني فضلت القرع على الباب!) وأقوم لأفتحه وما زال النوم في عيني، فإذا بيوسف وهي خارجة مرتدياً عباءة سوداء.

— هل أنت حسين أمين؟

— نعم.

— مؤلف رواية العقاب؟

— نعم، نعم!

وبرمقني مشدوهاً وهو الذي كان يتوقع أن يجдени رجلاً في الثلاثين أو الأربعين، ثم يفتح ذراعه ويحتضني، تماماً كما فعل الشاعر الناقد نكراسوف مع دوستويفسكي الشاب.

وأصحبه إلى والدي، فيهتف به يوسف وهي عند رؤيته باللغة العربية الفصحى:

— سيدي! لقد ظهر نجم جديد في سماء الأدب.

ويهرع إخواني إلى الصالون وقد سمعوا أن يوسف وهي في البيت. وإذا يعرفون سبب حضوره إذا بموقفهم مني يتغير، وإذا هم يعاملونني باحترام جم.

ويلتفت الممثل الكبير إليّ قائلاً:

— سأقوم بالدور الرئيسي في الفيلم إن أذنت لي . . وإنه لمن حسن الحظ أن بيت ديفيز ستحضر إلى مصر خلال الأسبوع القادم، وسأعرض عليها دور بطله الفيلم . ولا شك عندي في أنها ستقبله . فإن حدث وقبلته، فقد فتحت أمامك أبواب هوليوود .

ثم أتخيل في لذة شديدة افتتاحية الفيلم :

ستوديو مصر يقدم . . (موسيقى) .

«العقاب» . . . (موسيقى عنيفة) .

«العقاب» . . رواية من تأليف الأديب الفاضل حسين أمين جعله الله قرة عين لأبويه (موسيقى أشد عنفاً) حسين أحمد أمين . . . الصبي الذي شهد له مفكرو مصر من أمثال الشيخ مصطفى عبد الرازق بالامتياز والتفوق، يقدم لنا وهو في الثالثة عشرة باكورة إنتاجه . .

ثم أسماء الممثلين والمخرج ومهندس الصوت . . .

كان بيتنا يغص بالمدرسين الخصوصيين، لا يلمس والذي في أحد منا ضعفاً، أو ما يظنه ضعفاً، في مادة من المواد إلا جلب لنا فيها مدرساً خصوصياً يعود مرة في الأسبوع أو مرتين . بل إنه ليكفي أن يشتد اقتناع أبي لسبب من الأسباب بالفوائد الجمة لدراسة علم أو فن معين، حتى يرى أن دروس المدرسة وحدها غير كافية، كما حدث مثلاً بصدد الرسم، إذ فكر مرة في أن يحضر لنا مدرساً فيه، ولم يتخل عن فكرته إلا بعد أن توصلنا إليه ضارعين أن يعفينا منه، نظراً إلى أن أمسياتنا كادت أن تكون بأسرها نهياً للدروس الخاصة، وقد كانت ألسنتنا تزل في بادئ الأمر، إذ كنا أحياناً نعود من المدرسة، خاصة في بداية العام الدراسي، فثرت كما يحب الصبية أن يثرثروا عن مدرسيهم، تارة في صدق غير هادف وتارة في كذب غير متعمد، فنشكو من ضعف هذا المدرس أو ذاك في مادته! وإذ كنا لا نقصد من مثل هذا الحديث سوى الدردشة الفارغة، فقد كان يزعجنا أن نرى الوالد يصدقنا في سذاجة، ويهتم للأمر في قلق، فيفكر

أحياناً في نقلنا من الفصل الذي نكون فيه إلى فصل لا يدرس فيه ذلك المدرس «الخائب»، وأحياناً في طلب نقل المدرس الخائب نفسه إلى فصل لا نكون فيه، وأحياناً يطمئن مخاوفنا ويهدئ من روعنا بوعده أن يحضر مدرساً خصوصياً في البيت يعوض فقر مدرس المدرسة! فنكاد حينئذ نعص على ألسنتنا ندماً، خاصة إن كنا لا نعني مما قلناه حرفاً، ومرات هي التي جاءنا فيها خبر نقل مدرس شكونا من «خبيته» و«ضعفه» رغم تأكيد الناظر لوالدي أنه أبعد ما يكون عن الخيبة والضعف، ورغم أننا قد نكون في تلك الأثناء قد تعلمنا احترامه وحبّه، وبدأ لنا ما كان خافياً علينا من علمه الغزير.

وقد سهل على والدي الإمعان في هذا الباب، كثرة معارفه من المدرسين. فكان إذا أحب مدرس التعبير عن امتنانه لفضل أسداه والذي إليه، أو أراد التقرب منه بغية نيل فضل مستقبل، عرض أن يعطي الأنجال الأعزاء دروساً خصوصية. فيذهب الأنجال الأعزاء ضحايا الفضل الذي تم والفضل الذي سيجيء. وكانوا نادراً ما يقبلون على جهدهم أجراً. وكثيراً ما وضع لهم أبي مبلغاً من المال في مظروف، ودفعه إليّ كي أسلمهم إياه، فكانوا إذا رأوا المظروف وخمنوا ما فيه ردوه.



بل إنني لأذكر أن أستاذاً للفلسفة بكلية الآداب تطوع مرة أن يعطي أحد الأنجال دروساً في الفلسفة، فاختراني والذي لهذه الدروس في وقت كانت كل فكرتي فيه عن الفلسفة هي شرود الذهن، وهي فكرة مصدرها والدتي التي كانت إذا رأت منا شعراً هائشاً، أو ملبساً زرياً شبهت هيتنا بهيئة «الفيلسوف». وقد كان هذا الأستاذ أثقل الناس روحاً، وأكثرهم ادعاء. بدأ دروسه لي بشرح نظرية المثل عند أفلاطون. فلما لم يجد مني تجاوباً، ولم يتبين في وجهي لذة الفهم، تهقر إلى رأي سقراط في المعرفة، فإلى الجدل عند السفسطائيين، ذاكراً لي بعض نواذرهم وأحاجيهم الطريقة حتى يحجب الفلسفة إليّ! فلما لم

يفلح ذلك معي رأى أن يعرف لي الفلسفة، وكيف أنها حب الحكمة، وكيف قلب الإنسان القديم ناظره في السماء... إلى آخره... ثم اقتصرت الدروس بعد ذلك على روايته لبعض الطرائف المتعلقة بحياة الفلاسفة، كشجارات سقراط مع زوجته وأسبابها، واعتداء شوبنهاور بالضرب على سيدة ثرارة في المسكن الذي يشغل حجرة منه، ووفاء ديكارت نتيجة لبرد أصيب به وهو في طريقه في الخامسة صباحاً إلى كريستينا ملكة السويد التي كانت تصر على تلقي دروس الفلسفة في تلك الساعة المبكرة... غير أنه حتى هذه القصص الشيقة كانت تخرج باردة ممجوجة من فم هذا الأستاذ الذي كان يعاملني بازدراء جم، والذي كان إذا رأيته مقبلاً للدروس دون مترة أو رباط عنق، نظر إليّ في دهشة وتساؤل من فوق منظاره الغليظ، ثم يأمرني في حدة أن أضعد لإتمام ملبسي بحيث يتفق وهية الدرس. ولعلني حين ضقت به ذرعاً تمنيت لو أنه لقي مصير ديكارت فيموت من برد يصيبه وهو في طريقه إليّ. وأخيراً تمكنت من أن أخلق في ذهنه فكرة استحالة تقبلي للفلسفة، فاعتذر لوالدي عن اضطرابه لقطع الدروس، بحجة أن الوقت «لم يحن بعد»، فودعه والذي في أسف، وودعته في غير ذلك.



غير أن عناية والدي كانت منصبه أساساً على تعليمنا اللغات تعليماً متقناً. فانتقي لنا مدرساً ممتازاً للغة العربية، وآخر لا يقل امتيازاً للإنجليزية، وثالثاً وسطاً للفرنسية، وجارة ألمانية متزوجة من مصري لتعليمي الألمانية. وقد ظل الأولان منهم يدرسان لي ولأخوتي مدة عشر سنوات.

فأما مدرس العربية فكهل طويل نحيل، محني الظهر من فرط الطول، ذو شعر أشيب، ووجه طويل، وطربوش أطول. كان حين بدأ معنا مدرساً أول في إحدى المدارس الثانوية العريقة ثم أصبح خلال السنوات العشر ناظراً لها. وهو قريب لوالدي من بعيد، أخلاقي متزمت، باهت الإبتسامة، لا يطربه غير

طرائف أشعب، ولا يهزه غير مرثيات الخنساء. وهو مع هذا بالغ الفصاحة، شديد التمكن من اللغة والنحو، قوي مخارج الألفاظ، واسع الإطلاع في كتب الأدب القديمة. كان يجلس للدرس فلا يتكلم إلا فيه، ربما لضيق وقته وكثرة ما يعطيه من الدروس الخاصة، وربما لأنه لم يكن يرى أن تكون بين الأستاذ وتلميذه غير علاقة الدرس. ومع ذلك فلا بأس حين تبعث والدتي إلينا في المكتبة مع الخادمة بطبق من الكعك أو الحلوى، أن يقطع الدرس ريثما يفرغ من الأكل، وفئات الكعكة تتناثر على سترته أو تتجمع عند طرفي فمه، سارداً أثناء مضغه النهم المسموع الصوت إحدى ملح الطفيليين الخاصة بالفالودج.

حاولت مرة أن أصرّح أمامه برأيي. كان يشرح لي يومها باب المدح بما يشبه الدم، فساق مثلاً قوله: «أنا أفصح العرب، بيد أنني من قریش»، ودعاني إلى الإعجاب بالبلاغة فيها. وإذ قلت صادقاً أنني عاجز عن مشاركته رأيه، تجهم وجهه واحمر، وسكت دقيقتين كاملتين كأنما يغالب أثناءهما الغضب. ثم قال في برود وتأفف:

— هذا قول أشرف الخلق. وسواء تبينت البلاغة فيه أم عجزت عن تبينها فهو قول بليغ. . . . هلم إلى الدرس.

فلم أعد معه إلى مثلها قط.

بدأ معي لسوء الحظ بداية سيئة. ذلك أنني قصّرت بعد درسه الأول في حفظ أبيات كلفني بحفظها من قصيدة لشوقي لعلها «مبائر الأيام». فلما سألتني عنها في الدرس التالي ولم أحر جواباً، شكاني إلى والدي، فوبخني أمامه توبيخاً عنيفاً، مانحاً إياه «حق الإلتجاء إلى الضرب إن لم يكن يجدي غير الضرب معه». وبالرغم من أنه لم يلجأ قط إلى استخدام هذه الرخصة، فقد أثارت شكايته مني، أو كما كنت أسميها، وشايتي بي، وإهانة والدي لي أمامه، حفيظتي عليه، وفنوري نحوه لزم طويل، رغم محاولته إسترضائي فيما بعد. كان كثير العيال، ثقيل الحمل، لا يكاد يمر عام دون أن تأتي له زوجته

بمولود. وقد كان أبي يوبخه على إفراطه في النسل، ويحذره من أخطار إنجابِه في مثل تلك السن المتقدمة على صحة الطفل. فكان يعتذر بعذر أو بآخر، ثم لا يلبث أن يعود. وكان لهذا كثير الطلبات والرجاوات: إذا دخل والدي علينا الغرفة هب من كرسيه لتقبيل يده، (مما كان يحدث لدينا نحن الصبية أثراً غير طيب)، ويظل نحوربع ساعة يتملق أبي، ويبالغ في الثناء على كتبه الجديدة، واصفاً كل كتاب بأنه خير ما كُتب في الأدب العربي الحديث، وأروع كتب أبي على الإطلاق. فإن حاول والدي أن يقاطعه ويصرفه عن مثل هذا الحديث، استمر غير عابئ. حتى إذا ما فرغ بدأ يشرح شكائته ويسطر رجاءه، من علاوة أو درجة أو غير ذلك. فكان والدي عند هذه النقطة من الحديث يصرفنا من الحجرة حتى لا نسمع أستاذنا راجياً أو شاكياً فتقل هيئته في نفوسنا. حتى إذا ما انصرف والدي عُدنا، فينفخ الأستاذ بأنفه في منديل، ثم يمسحه مسحاً عنيفاً. ثم هو يعبث بسببخته بعض الوقت متمتماً بعبارات لا نميزها، ثم يهز رأسه هزة، ثم يعود إلى الدرس.

فأما مدرس الإنجليزية فصديقنا الذي نترقب زيارته في شغف، وخليصنا الذي يبيع لنا الحديث فيما نريد الحديث فيه، والتعبير الحر عن كل ما يراودنا من أفكار، دون ما حرج أو استحياء. كان وقت أن بدأ معنا لا يكاد يتجاوز الخامسة والعشرين. وهو ابن صديق لأبي، دفعه والدي دفعة في مستهل حياته العملية فأحب أن يعبر عن امتنانه بإعطائنا الدروس. ومع ذلك فموقفه من أبي غير موقف المتملق المستصغر شأن نفسه. فهو إن حدث صدق، وإن سئل عن رأيه عبر عن رأيه، لا يقبل يداً ولا يكثر من طلب، وهو ما رفع من قدره في أعيننا.

وقد كان لدى والدي على رف واحد بالمطبخ، ثلاثة أصناف من البن، متفاوتة الجودة، تصنع القهوة من كل صنف منها لطائفة معينة من الناس: بن يعني ممتاز تُصنع القهوة منه لظه حسين وعبد الرزاق السنهوري وأحمد لطفي السيد وأمثالهم من علية القوم، ثم بن برازيلي يصنع منه لمن قل في المقام عن

هؤلاء، وبين وسط مخصص لسكرتير والدي وأقاربه الفقراء. وقد كان كلما طُلب إلى الخادم إعداد فنجان قهوة لضيف، أتى إلى والدتي يتلقى تعليماتها الخاصة بنوع البن الذي يستخدمه، فلا تشير عليه به حتى تستفهم عن هوية الزائر. والغريب أنها كانت تأمر لمدرس الانجليزية هذا بقهوة الطبقة الأولى، طبقة طه حسين والنقراشي باشا، وهو خروج عن مفهومها الطبقي فيه غموض. غير أن لهذا الخروج في واقع الأمر سراً:

ذلك أنه حدث في يوم من الأيام في السنة الأولى أو الثانية من سني تدريسه لنا، أن تقدم إلى والدي يطلب يد إحدى أختي. كان قد سمع أن لوالدي بنتين، ففكر في الزواج من إحداهما رغم أنه لم يكن قد رأى أيّاً منهما، تاركاً لوالدي اختيار المناسبة له. وما زلت إلى اليوم أذكر ساعة أن دخل والدي علينا المكتبة وأخذه منا لبضع دقائق إلى غرفة الصالون ليعتذر له بأن البنتين مخطوبتان بالفعل ولولم يكونا لشرفه وأغبطه أن يزوجه إحداهما، وليعرض عليه تزويجه من ابنة أخ له، (إذ كان لوالدي في ذلك الحين حرية مطلقة في تزويج من شاء من بنات العائلة - قريباتهن في درجة القرابة ويعيداتهن - بمن شاء من الرجال، دون أخذ رأيهن، وهي سلطة انكمشت فيما بعد حين اشتدت ثورة البنات على ممارسته لهذا الحق). غير أن المدرس اعتذر بدوره وعاد إلى المكتبة يضحك مرتبكاً وقد احمر وجهه. وقد راقبناه نحن الصبية وهو داخل (وكنا على علم بالموضوع كله) وفي قلوبنا ألم وإشفاق وقد ازدادت معزته لدينا وتعلقنا به. ومن وقتها ووالدتي ترسل إليه في المكتبة القهوة الممتازة. . . ومرت الأيام والسنوات، وتزوجت أختاي وأنجبنا، غير أنه ما من خلاف كان يحدث بين إحداهما وزوجها إلا عبرت والدتي عن «حسرتها» وأسفها إذ لم تتزوج الفتاة مدرس الانجليزية، «ذلك الشاب الممتاز الودود» (بالرغم من أنها لم تره قط) بدلاً من هذا الزوج الذي «لا يقدرها حق قدرها»! وكانت والدتي إذا سألنا عمن معنا في المكتبة وأجبناها بأنه مدرس الانجليزية، تسألنا دون تخلف وبصوت مرتفع:

— أهو الذي كان قد تقدم لخطبة أختكم؟

فنشير إليها متوسلين أن تخفض من صوتها حتى لا يسمع! كنا لا نشعر منه ربما لشبابه وحيويته بذلك التنازل في الحديث الذي ينفر الصغار من الكبار. فهو مهتم بما نهتم به نسأله عن الشيء فيطيل التفكير فيه ولكننا سألناه سؤالاً عميقاً. فإن تجربتنا وسألناه عن السبب في أنه لم يتزوج، (وهو باقٍ إلى يومنا هذا دون زواج) أجاب على استفهامنا إجابة نظرب لإخلاصها ونظرب أيضاً لإقباله على الرد وإنما كان ينتظر فرصة كهذه كي يفتح صدره. فهو صبي يدرّس الصبية؛ ينظر في المعجم معنا أو في دائرة المعارف البريطانية للبحث عن معنى غمض عليه، أو نقطة يجهلها، ويأخذ بالكلمات المفيدة أو المعلومات الجديدة مذكرة لنفسه. وهو كثير الضحك لدرجة قد تذهل الغير وتثير العجب بل والإرتباك. يضحك لما يستأهل الضحك وما لا يستأمله حتى ليكاد البعض يظن به نوعاً من الخبل، وإن كان الجميع لا يملكون إلا الاستجابة له، وتلقي العدوى منه. وهو وسيم سرنا أن نكتشف في ملامحه شيئاً قوياً بلامح الممثل الإيرلندي تايرون باور. وهو شبه لم يكن هو ليعترف به، وكان ينكره في تواضع وهو يضحك. ولشد ما ساءنا أن اضطرتنا الأيام إلى لبس نظارة، ففسد الشبه. ثم أفسده أكثر وأكثر بمضي السنين امتلاء وجهه وجسمه، وغلبة سيماء الموظف على هيئته وزيه.

فأما دروسه فنصفها في اللغة، ونصفها حديث في الأدب. فهو محب للأدب يجيد الكتابة. ألف وهو في السادسة والعشرين رواية لقيت نجاحاً لا بأس به، ثم اتجه بكليته إلى الترجمة فترجم روايات لتوماس هاردي وغيره بأسلوب عربي رصين. وهو لا يفرض علينا موضوعات الإنشاء، وإنما يترك لنا حرية الكتابة فيما نشاء، فكنّا نختار غالباً موضوعات شخصية لا تنقيد فيها بطول، كالمركز الذي نحب أن نتبناه حين نكبر، ورأينا في الدين، وعبونا وكيف يمكن التخلص منها، إلى آخره. حتى إذا ما تنبه إلى أن مثل هذه الموضوعات ليست من النوع الذي يُطلب منا الكتابة فيه في امتحانات

المدرسة، أسرع فهبط بنا إلى الأرض، وأعطانا موضوعاً محدّد الطول عن الكلاب، أو الطيارة التي تفاخر سيارة، أو الصحة التي هي تاج على رؤوس الأصحاء... فكنا نضحك من هذه الموضوعات الأخيرة، ولكن نستجيب، مقدرين الدوافع إليها، والحاجة إلى التمرن على الكتابة في مثلها.

بيد أن أكثر ما حبّبه إليّ ما كان يُبديه من ثقة بمستقبلي، وتقديره للعناصر الطيبة في شخصيتي. وقد طلب مني وأنا في التاسعة أو العاشرة من العمر وعداً بأن أعينه وزيراً للمعارف متى ما صرت رئيساً للوزراء. فأعطيته الوعد في جد وحماس. ثم لكانما أراد أن يضمن لنفسه هذا المنصب، فأشرف على تزويدي بثقافة تشرف أي رئيس للوزراء، يصحح ما أكتبه من قصص وينقدها، ويمدني بقائمة تلو قائمة بأسماء الكتب الواجب قراءتها، ويشجع انتهاجي أسلوباً خاصاً بي في الكتابة.

ولقد كان أخوف ما أخافه حين التحقت بكلية الحقوق فانقطعت الدروس، أن تنقطع الصلة بيننا. غير أن هذا لم يحدث. وكثيراً ما أزوره ساعة أو ساعتين في حال الأدب في العالم العربي، ثم يسألني عن نشاطي الفكري وأسأله عن نشاطه. والراجح أن يكون أمله في وزارة المعارف قد زال زوال شبهه بالمثل الإيرلندي.

فإن كنت قد تطلعت في يوم من أيام صباي إلى منصب رئيس وزراء له الأمر والنهي والتعيين في كبريات الوظائف، واضعاً بين الحين والحين قائمة بأعضاء الوزارة تضم أسماء من أكون راضياً عنهم من الأخوة والأصدقاء، إن تشاجرت مع أحدهم بسبب قلم أو لعبة شطبت اسمه من القائمة، وإن بلغ شجارنا حد التلاكم والضرب زججت به في السجن، وإن كانت قد داعبت مخيلتي بعد ذلك أو قبل ذلك فكرة أن أصبح مدرساً أضرب بعض التلاميذ وأكافئ البعض، أو فكرة أن أكون إماماً عادلاً عملاقاً كعمر بن الخطاب، أو دجالاً مشعوذاً قوياً مثل كاليوسترو وراسبوتين، أو قائداً عسكرياً على غرار

نابليون، أو قديساً من طراز غاندي، أو مفتشاً للغة العربية أو التاريخ أدخل الفصول في ثقة فيرتعد المدرسون ارتعاداً، أقول: إن كانت قد خطرت ببالي في وقت من أوقات صباي هذه الفكرة أو تلك، فإنما ليوم أو بعض يوم، أو أسبوع على أكثر تقدير، تخطر، فترود، ثم تمضي لا تعود. فكرة واحدة فحسب بدأت تراودني في السادسة، ولم تترك رأسي بعد ذلك، وهي أن أكون كاتباً. فانا رئيس وزراء أديب، وعمر بن الخطاب أديب، ودجال أديب، وقديس أديب، وقائد يضع الخطط الحربية أثناء النهار، ويكتب القصص والروايات أثناء الليل...

«هَبْكُمْ قد ضللتكم الطريق إلى واحة بالصحراء» - هكذا كان أبي يردد أمامنا - «ثم صادفكم في الطريق عشرات من الأدلاء كل يدعي أن باستطاعته إرشادكم إلى الواحة. فأي المرشدين تنتقون وأنتم ترون بعضهم يشير إلى اتجاه، والبعض الآخر يشير إلى الاتجاه المضاد؟ تختارون نيته أم تولستوي؟ توما الأكويني أم برتراند راسل؟ هيجل أم شوبنهاور؟ هذه بالضبط هي المشكلة الأولى في القراءة: انتقاء المرشد إلى الحياة الفضلى، والمجيب لكم عن أسئلة تشغل القلب والعقل. وكما أنكم لن تختاروا غير الدليل الذي طابت سمعته، وأرضى مطمح الكثيرين قبلكم، كذلك فلا تقبلوا على القراءة إلا للعظماء حقاً، الجادين حقاً، الذين شغلوا أنفسهم بالإرشاد للإرشاد لا للتكسب أو طلباً للمجد. فإن تساوى في السمعة إثنان فكرهما على طرفي نقيض، فلا بأس في تجربة كل منهما فترة معينة، حتى يدلكم القلب أيهما أقرب إلى نفوسكم...».

وكذا بتنا نحن ننظر إلى القراءة. فلم يحدث أن قرأت في صباي رواية من روايات الجيب وغيرها من القصص البوليسية التي كان يقبل عليها أقراني من الصبية. وكان روايات جرجي زيدان ومحمود تيمور ومسرحيات توفيق الحكيم أخف قراءاتي طرا، سرعان ما انتقلت بعدها إلى كتب العقاد وهيكل وطه حسين، فتراجم بلوتارك، فأعمال جوته وتشيمخوف، فابن حزم والغزالي،

وابن تيمية في سن الخامسة عشرة، فنيته وأفلاطون في السادسة عشرة. ولا تزال في أيدينا أعداد من مجلة «الثقافة» التي سمح لنا والدي، صاحب امتيازها، بالكتابة فيها في صبا، تحمل مقالاً لأخي جلال في مناقشة إثباتات ديكرات الأربعة لوجود الله، كتبه وهو في الخامسة عشرة، ونقداً بقلمه لفلسفة ويليام جيمس كتبه في السادسة عشرة، وتحليلاً لأخي حافظ لمؤلفات الفيلسوف الإسلامي الهندي عنایت خان كتبه وهو دون العشرين.

كنا أحياناً نجد صعوبة في إقناع والدي بحاجتنا إلى حلة أو حذاء جديد، صعوبة تغضبنا منه. أما فيما يتعلق بالكتب، فالباب مفتوح على مصراعيه نشترى منها ما أحببنا. فهو يأذن لنا بأن نأخذ من مكتبة النهضة المصرية التي تتولى نشر مؤلفاته أي عدد من الكتب دون قيد، ثم تحاسبه المكتبة في آخر العام. وقد كنت أكثر أبنائه استغلالاً لهذه الرخصة. ولم يحدث أن اعترض أبي على إسرافي في هذا الاستغلال إلا مرة واحدة، حين قرأ في كشف الحساب السنوي اسم كتاب في تاريخ العالم من خمسة عشر مجلداً بلغ ثمنه أربعين جنيهاً



وقد علمنا والدي ألا نسمح للآراء الشائعة للنقاد أو الناس بأن تحد من حريتنا في الحكم على ما نقرأ:

«لا تخشوا أن تخالفوا مفكراً في آرائه، أو أن تعبروا عن عدم رضائكم عن كتاب مشهور. فكما أن الفيلسوف الألماني شبنجلر يحذر الدول الغربية من التنازع فيما بينها حتى لا تفقد احترام شعوب مستعمراتها من الملونين فتسعى إلى المطالبة بالاستقلال، كذلك فإن اختلاف الفلاسفة والنقاد في أحكامهم يعطيكم الحرية الكاملة في أن يكون لكم رأيكم الخاص... لا تخشوا أن تحكموا على هيچيل بالادعاء والسفسطة والغموض، ولا تدعوا شهرته تخيفكم، فكذا هو رأي شوبنهاور فيه. وتولستوي يرى أن شكسبير مؤلف

رديء، وأن نيتشه نصف مجنون... فهمما كونتم من رأي سيء في أحد المفكرين، فستجدون له صدق في مفكر مشهور مثله. وبمرور الوقت، سيكون بوسعكم الاستغناء حتى عن هذا التعصيد، والوقوف ولو ضد الناس أجمعين. وهذه هي ميزة القراءة الكثيرة، فهي تزيد من حريتك في إطلاق الأحكام.

وهو نفسه يتبع هذه القاعدة إلى منتهىها: لا يخجل من التعبير عن كراهيته للموسيقى الغريبة بأسرها، خفيفها وجادها، وتفضيله الاستماع إلى أغنية أسمهان «ليت للبراق عيناً» على الاستماع إلى سيمفونية لبرامز. أذكر أنه فرغ يوماً من قراءة عدد من التمثيليات الإغريقية التي ترجمها طه حسين إلى العربية، فما أغلق الكتاب حتى شرع يخط كفاً بكف يعجب لأمر ذلك الإجلال والتقديس اللذين يكنهما الناس، أو يتظاهرون بأنهم يكنونهما، لكتاب المسرح الإغريق. لم يجد في كل تلك الصفحات الكثيرة سطرأ واحداً أعجبه، أو حكمة طرب لها. فقام من فورهِ يتصل بالدكتور طه تليفونياً، يسأله أن يشرح له في صبر وإخلاص ما يمكن أن يعجب القارئ في الأدب التمثيلي اليوناني.

وربما كان من أهم ما سمعته من والذي بصدد القراءة، ملاحظته التالية:

«لن يكون بوسع أمرئ أن يغوص في أعماق إنسان آخر ويفهمه، حتى يحبه كل الحب، وحتى يتلاشى لديه التمييز بين نقائصه وفضائله، ويغرم بمجموع صفاته. كذلك فيما يتصل بالقراءة. فهي لا تكاد تكون مجدية إلا إن أحببت كاتباً حباً تضع مع التفرقة بين الضعيف من أدبه والقوي، حباً يضيء لك الغامض ويكمل الناقص... إن حبك القوي لزوجتك تعينك على فهم النساء كلهن، ويكون أكثر قيمة من معرفتك السطحية لعشرات العشيقات. وكذا سيكون غرامك بأديب أو مفكر معين أعظم قيمة من اطلاعك السريع على أعمال مائة من المفكرين. وتأكد أن تحمسك الحقيقي الشديد لأحدهم يعني أنك قد وفقت إلى من سيمكنه مساعدتك مساعدة إيجابية على إنضاج شخصيتك، وتنمية مواهبك وقدراتك الخاصة».

ومع ذلك، فقد حدث أثناء زيارته للندن، حين اختير عضواً بمؤتمر المائلة المستديرة الخاص بمشكلة فلسطين عام ١٩٤٦، أن أرسلت إليه خطاباً أذكر له فيه أنني قد بدأت في قراءة أوسكار وايلد، وأني شديد الإعجاب به. ولا أدري كيف وجد من الوقت ما سمح له بتحرير رده التالي الذي بدأه هكذا دون تمهيد أو تحية:

«في إحدى الوثائق التي عُثر عليها في مدينة كولونيا بألمانيا، والتي يرجع تاريخها إلى عام ١٤٩٩، بعد اكتشاف الطباعة: إن الله تعالى، بحكمته اللانهائية، قد مكن الإنسان من اكتشاف ذلك الفن المجيد، فن طباعة الكتب، الذي نستطيع بفضل له أن نتج نسخاً منها لا حصوها، مما يهيئ الفرصة لكل فرد أن يقرأ بنفسه، أو أن يسمع غيره وهو يقرأ له، عن أفضل السبل لنجاة روجه.

«تلك هي النظرة السليمة الوحيدة إلى فن الأدب. فهل هي مما تجده عند صديقك وايلد؟

«هذا الوغد، كما أفضل أن أسميه، ما كان ينبغي أن يخدع صبيّاً ذكياً مثلك، لم يفقد حاسته الخلقية، ولم يصب ذوقه الفني ما أصاب ذوق الناس في زمننا هذا من انحراف.

«... أريد أولاً أن أنهك إلى ضرورة أن نكوّن لأنفسنا أساساً نحكم على هديه على ما نطلع عليه من فنون، حتى يكون بمقدورنا لفظ الزائفة منها، فلا نسمح له بأن يشوّع عقولنا، ويؤثر في قدرتنا على الحكم الصائب. فإن سلّمت معي بأن مهمة الفنون، كما سبقت أن ذكرت لك، إن هي إلا توجيه حياتنا الروحية، وجب اعتقادك بضرورة اتخاذ موقف واعٍ إزاء ما قد يعرقل من هذا التوجيه. وحذار من التأثير بالنقاد في هذا الصدد، أو إتاحة الفرصة لهم أن يكتفوا لك حكمك. فالحكم على الفن مسألة ضمير، ضمير كل شخص على حدة. وليس بوسع ناقد مهما كان شأنه، متى رأيت أن عملاً فنياً معيناً يعرقل

حياتي الروحية، أن يثبت لي العكس. وكثيراً ما تكون الحياة الروحية لدى النقاد من الموات، بحيث تجدهم قد فقدوا حاسة التمييز بين الخبيث والطيب، إن لم يكونوا قد اتخذوا موقفاً عدائياً من الفن الطيب الذي يظهر لا أخلاقية موقفهم من الحياة.

«سل نفسك عقب الفراغ من قراءة عمل أدبي عما إذا كنت قد صرت بفضل قراءتك إياه إنساناً أفضل، عما إذا كان عزمك قد قوي على أن تكون علاقتك بمن حولك أكثر إنسانية ونبلاً. فإن كان جوابك بالإيجاب، فإن الكتاب الذي قرأته هو عمل فني من الدرجة الأولى».

«ثم طبق ذلك على أوسكار وايلد، إنني واثق من أنك لم تخرج من قراءته أكثر طيبة ونبلاً، وأنك لم تنظر إلى من حولك بعدها نظرة أشد تفهماً وعطفاً وإنسانية. العكس تماماً هو الصحيح: وهو أنك صرت أكثر احتقاراً للناس، واستخفافاً بهم وبأمانهم وبما يكدهون من أجله، وأشد انفصالاً عن مظاهر الحياة حولك».

«كان المفكرون والفنانون القدامى إن أرادوا أن يقولوا شيئاً قالوه، لا يمسكون بأقلامهم إلا إن كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً، فإن أمسكوا بالقلم كتبوه. أمر بديهي؟ إنه ليس بديهيّاً عند صديقك وايلد، وعند الأكثرية من الكتاب المحدثين...».

لم أكن في أي وقت من الأوقات، حتى في سني طفولتي، قليل الثقة بالنفس، أوحى معتدليها. وقليلون هم الذين ييرثونني من صفة الغرور.

وقد تألفت العوامل منذ البداية على تقوية هذه الثقة وتدعيمها. ففي البيت، تفضيل والذي إنيائي، ومحاباته لي، واعتناؤه الخاص بي باعتباري خليفته في الأدب، وفي المدرسة، تفوقي الدائم في الدروس، وكرهية التلاميذ لي، وحرص المدرسين على إرضائي من أجل والذي الذي كان قد وصل في ذلك الحين إلى منصب العمادة في كلية الآداب وعضوية المجمع اللغوي،

وأنت له كتبه عن فجر الإسلام وضحاها وظهره بنصيب ضخم من الإعجاب والتقدير.

وقد كانت السنوات الثلاث التي قضيتها في روضة الأطفال، والسنة الأولى من المرحلة الابتدائية، أهم السنوات في تكوين شخصيتي وتكييف استعداداتي. قد خلقت مني صبياً جم المطامح، شديد الإحساس بذاته، لا يهرب الناس ولا يتوق إلى صحبتهم، ولا يرضى بغير مركز الزعامة في أي أمر من الأمور، لهواً كان أم جدّاً. وإنه لمن النادر حقاً أن تعثر على صبي أشد غراماً بالسيطرة على من شاء الخضوع لها ومن لم يشأ، قليل الاحتفال بمشاعر الآخرين؛ قليل الحرص على إرضائهم.

لم أكن بأية حال من الأحوال أذكى تلاميذ الفصل، بل ولا أحد أذكائه. ولو كنت ذكياً لما نلت درجات الامتياز في جميع المواد، من اللغات والتاريخ إلى الجبر والطبيعة، ووكانما هي عندي سواء. صحيح أنني كنت أفضل اللغات ومجموعة المواد الأدبية والنظرية، واستثقل الحساب والكيمياء وعلم الأحياء. غير أن إجادتي للمجموعة الثانية كانت كإجادتي للأولى، وكنت أبذل في مذاكرة ما استقله أضعاف الجهد الذي أبذله في دراسة ما أحب، حتى أتفوق في كل شيء. كان هناك بالفصل من يفضلني في الحساب، ومن يفضلني في الإنشاء أو الكيمياء، غير أنه لم يكن لزميل طوال سني الدراسة الابتدائية والثانوية مالي من روح عدوانية، ومن هو من الطموح، أو من الغباء، بحيث يقبل على مذاكرة ما لا يحب أكثر من إقباله على مذاكرة ما يحب. لهذا كان تربيتي دائماً، باستثناء مرتين أو ثلاث، الأول في الفصل.

أذكر المرة الأولى التي كان ترتيبي فيها الثاني لا الأول. كنت حينئذ في التاسعة من عمري، في السنة الثانية الابتدائية. وكنا نجلس في الفصل في انتظار مدرس الحساب، نجاتي أفندي، كي يتلو علينا نتيجة الفترة الثانية. وكان التلاميذ فيما بينهم يتنبأون بمن عساه يكون الثاني والثالث والرابع، تاركين لي

مكان الأولوية كأمر مسلم به . وإذ دخل نجاتي حاملاً النتيجة - خيل إلي أنه صوب نحوي نظرة فيها شماتة وتشفّ انخلع لها قلبي . فقد كان هذا المدرس بالذات يدرك ما بي من غرور . وهو يدرك خطورته ، ويدرك ضرورة اقتلاعه أو التخفيف من حدّته على الأقل . وكثيراً ما كان يتقدم إلى زوج أختي ، وهو زميل له ، يجأ بالشكوى من تصرفاتي ويقترح عليه الحلول . فما أن فتح الكشف يتلو النتيجة منه ، وما أن وقع على سمعي أنني ثاني الفصل لا أوله ، حتى اسودّت الدنيا في عيني ، ومالت بي الأرض والجدران من حولي . . . هُيء إلي حينذاك أن أعين التلاميذ قد اتجهت كلها صوبي تعبر عن فرح لا يعاون بكبته . . . وخيل إلي أنهم قد اكتفوا من النتيجة بهذا القدر ، فلم يعطوا بقيتها اهتماماً ولم يعاؤا بما قد يكون عليه ترتيبهم هم ! غير أنني جززت على أسناني حتى لا أبكي أمامهم وأظهر تأثري . فما وصلت إلى البيت حتى ألقيت بكراساتي وكتبي على الأرض ، ورميت بنفسي بين ذراعي والذي أجهد بكاء لم أجهد بمثله بعدها قط ، مما دُعر له الجميع . فلما علموا السبب تنفّسوا الصعداء وضحكوا ، مما زادني بكاءً وعويلًا . فأما والذي فقد ظل يربّت على رأسي مهدئاً حتى هدأت ، وحتى انتهى نحبي من عويل صاحب ، إلى بكاء خافت ، إلى شهقات متقطعة . ثم دعاني إلى أن أمسح دموعي وأغير ثيابي ، واصطحبني إلى دار الإذاعة حيث كان مدعواً لإلقاء حديث فيها ، فاستأذن المذيع أن أجلس معهما في الاستوديو أثناء الإذاعة . وقد أذن المذيع على ألا تصدر مني حركة أو صوت . وجلست مبهوراً أقرب المصباح الأخضر فالأصفر فالأحمر بضياء على التوالي ، وأتحسس بأصابعي جدار الغرفة الفلّيني ، وتخامرني فكرة الصياح فجأة حتى يسمعي إخوتي في البيت فيقولون : « هذا حسين ! » ، فأضحك في نفسي ضحكاً مكظوماً لهذه الفكرة . فما انتهى الحديث حتى كان الألم قد ولّى ، وما انتهت الفترة الثالثة حتى كنت قد عدت إلى الأولوية من جديد .

* * *

وقد كان خليقاً بي، وقد أثبتت تفوقي في الدروس، وأرضيت غريزة السيطرة في ميدانها، أن أترك لغيري من الصبية فرصة أن يبرزوا في غيرها من الميادين، فيكون ثمة توازن يخفف من حنقهم عليّ. ولكن عبثاً ففي قاعة الموسيقى أنا المغني وهم بعدي يرتدون. وفي جماعة التمثيل الممثل الأول وهم التالون. وأنا في الملعب قائد أحد الجيشين وفرعون الذي به يأتُمرون. كل هذا دون أن تكون لديّ موهبة خاصة لا في الغناء ولا في التمثيل ولا في الحرب والضرب، مما يجعلني أعجب أشدّ العجب كيف سمح التلاميذ لي، وأنا الذي لا سلطان لي عليهم في فناء اللعب، بأن أكون قائدهم، بل أن يشركوني في لهوهم على الإطلاق، وكيف رضيت ضمائر المدرسين أن يسندوا إليّ الأدوار الرئيسية في التمثيل، ويكلفوني بالغناء.

ولاني لأذكر والخجل يملأني يوماً جلس إلينا فيه المدرس المشرف على جماعة التمثيل، يمازح أحد التلاميذ البارعين في التمثيل كل البراعة، الخائبين في الدروس أنقل الخيبة، قائلاً له إنه لا يفلح في التمثيل إلا الخائب البليد. فما ظنك إذ تراني أقوم هاتفاً بالمدرس:

— فماذا عني، وأنا المجيد للتمثيل والدرس جميعاً!

فإذا المدرس يحدّثني طويلاً بنظرة يمكن تخمين طبيعتها، ثم إذا هو بعد هذه النظرة وهذا الصمت يشيح بوجهه عني ليواصل ما كان فيه من حديث.

ثم أذكر وأنا في خجل أشدّ أن مدرس العربية، ويدعى يوسف المحجوب، كان قد اتفق مع الإذاعة على أن يقوم تلاميذ فصله بتمثيل مسرحية شعرية من تأليفه في برنامج «ركن الأطفال». وكانت المسرحية عن بلال مؤذن الرسول، بلال بطلها، وهو يغني فيها عدة أغنيات من بينها أغنية رائعة اللحن،

مطلعها:

وب أحد

أحد! أحد!

لا والد
وماله

ولا ولد
كفو أحد

وحدث أن اكتشف المدرس الشاعر موهبة حقيقية في الغناء لدى تلميذ هادئ وسيم ضئيل الجسم. ما أن اكتشفه حتى نحاني. عن دور بلال مسنداً إليّ دور رأس الكفر أمية بن خلف! فما ظنك إذ تراني أقبل السور دون اعتراض، وأستعد معهم إذ يستعدون، متظاهراً بالرضا وعدم المبالاة، حتى إذا جاء يوم التمثيل، وتفقد المحجوب مثليه كي يصطحبهم إلى دار الإذاعة، بحث عني فلم يجدني، وسأل فأخبروه أنني معتذر لمرضي، وما كان بي يومها مرض، أو كان بي مرض ولكنه غير المرض الذي اعتذرت به.



فإن سألني سائل أن أقرن صباي بحادث معين يميّزه ويشير إليه، ويلخص في بضع فقرات قصار الصبي الذي كتته، لَطَعًا إلى ذهني على الفور الحادث التالي:

كنت وقتها في الثامنة من العمر في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية: طفلاً ليس بالوسيم، طويل الوجه، غليظ الأنف، كَثَّ الحاجبين. فإن حكمتُ من الصور الشمسية لي الممتمة إلى ذلك العهد، قلت إنني كنت دائماً مقطب الحاجبين في عظمة، يشعّ من عينيّ الواسعتين بريق طالما كان مثار التعليق والتندر. فكثيراً ما أهاب بي والدي ألا أقطب، وألا أبرق عينا. فإن أجبتُه بأن هذا مما لا إرادة لي فيه، ردّ ضاحكاً:

— بل تتكلّفه لعلّك أنه من مظاهر العظمة.

وأحتج عليه معترضاً في إخلاص، فيقاطعني مهدّئاً:

— حسناً، فلتحاول إذن أن تغضب نفسك على ألا تقطب أو تبرق، فهما يضربان بالنظر.

اختارني إدارة المدرسة كي أكون عريف الفصل، أحل محل المدرسين في فترة الدقائق العشر التي تفصل بين حصّة وأخرى، فأحافظ قدر الإمكان على النظام بين التلاميذ، أسمح لهم بالحديث دون صياح، وبالتنقل الهادئ بين المقاعد دون الجلبة والضوضاء. فإن خرج أحدهم عن هذه الحدود المقررة، أبلغت اسمه مدرس الحصّة التالية فيعاقبه أو يعفو عنه. . كان هذا هو كل المطلوب من العريف. غير أنني، لسبب ما، تجاوزت حدود سلطاتي تجاوزاً غريباً لا أدري كيف صبر التلاميذ عليه، في حين كان من الممكن لأيّ عصيان أو تمرد على منهجي أن يجلب عليّ تقريرع الإدارة. ذلك أنني لم أكتف بأن أحرّم عليهم الكلام الهادئ فيما بينهم، والتنقل بين المقاعد خلال دقائق الراحة تلك، بل اغتصبت لنفسني حقوق المدرس، فأصبحت أطلب من هذا التلميذ أو ذاك أن يقف ويقرأ جهراً في كتاب المطالعة، مستوقفاً إياه بين الحين والحين لأسأله أو أسأل جاره عن معنى هذه الكلمة أو تلك! صحيح أنني لم أجروّ في بادئ الأمر على الضرب بالمسطرة إن بدر من أحدهم ما يفضّض، غير أنني كنت أمر المشاغبين منهم أن يتركوا مقاعدهم إلى أركان الفصل، فيديرون وجوههم إلى الحائط ريثما يأتي المدرس. فكان المدرس إذا وصل يعجب أشدّ العجب لهذا العريف وسلطانه، ولإطاعة التلاميذ إياه أكثر من إطاعتهم بعض المدرسين.

ثم حدث في يوم من الأيام أن تأخر مدرس الحصّة عن الحضور مدة تزيد على ربع ساعة. فظلمت واقفاً عند السبورة، وفي يدي المؤشر، استمع إلى مطالعة تلميذ. وفي هذه الأثناء كان ناظر المدرسة يمرّ بالردهات لتفقد النظام، فسمع ضجيجاً وضحكاً صادرين من الفصل المقابل لفصلنا عبر الردهة. وإذا فتح الباب فجأة دون طرق، رأى مدرساً مسكيناً يحاول عبثاً ضبط النظام، بينما وقف بعض تلاميذه عند النافذة غير عابئين به، وجلس بقيتهم يتحدثون ويتضحكون. فما رأوا الناظر أمامهم حتى خيم عليهم جميعاً سكون الموت. وتقهقر الوقوف منهم إلى مقاعدهم، بينما بدأ العرق يتصبب من جبين المدرس

الذي أشار إليه الناظر أن يتبعه إلى الردهة. وهناك أنبه الناظر أعنف تأنيب، وسأله إن كان غير قادر على أن يحفظ كرامته ووقاره أن يترك مهنة التدريس لغيره.

ثم تركه الناظر إلى فصلنا الذي تناهى إليه منه عبر الباب صوت هادئ يطالع. وإذا فتح الباب، وقف نصف دقيقة مشدوهاً يرقب هذا التلميذ الصغير في الثامنة، وفي يده المؤشر، يصغي مقتطاً إلى زميل له واقف عند درجه يقرأ، وبقية التلاميذ جلوس ينظرون في كتبهم.

صحت بالتلاميذ:

— وقوف!

فهبوا واقفين تحية للناظر الذي أوماً إليهم برأسه أن يجلسوا. ثم تقدم مني وما زالت في عينه دهشة:

— أين المدرس؟

— لم يأت بعد.

— أنت عريف الفصل؟

— نعم.

— ما اسمك؟

— حسين أحمد أمين.

— ابن عميد كلية الآداب؟

— نعم.

— برافو يا حسين. إستمروا.

ثم خرج. واستأنف التلميذ المطالعة. فما مضت دقيقة حتى عاد الناظر وقد أحضر معه المدرس المسكين من الفصل المواجه.

— وقوف! (هكذا صحت).

غير أن الناظر أشار إليهم بسرعة ألا يقفوا، وطلب مني أن نمضي فيما كنا فيه. وظل الإثنين يرقباننا مدة، والناظر يحدج المدرس بين الحين والحين بنظرة ذات مغزى. ثم أخذه وانصرف.

وصلت تفاصيل هذا الحادث إلى أبي من مصدرين: من زوج أختي الذي كان يدرس اللغة العربية لفصلنا ذلك العام، ثم من الناظر نفسه بعد يومين. وقد كان سرور أبي وقتها عظيماً. وسرعان ما شاعت القصة بين أفراد العائلة الذين اشتهرت بينهم منذ ذلك الحين بأبي «صبي ذو شخصية». أما في المدرسة، فقد سارع تلاميذ الفصل المواجه إلى مقارنة قصتهم بقصة تلاميذ فصلنا، مؤلفين من القصتين قصة واحدة سرت أنباؤها إلى سائر الفصول. وظللت مدة أسبوع لا أنزل إلى فناء المدرسة في فترات الفسح إلا وأشارت الوجوه والأصابع إليّ. ثم جرّبت بعدها أن أوسّع حدود سلطاتي خلال الدقائق العشر، فإذا التلاميذ لا يقاومون ولا يشكون.



لم يكن من المتوقع إذن أن تجلب لي شخصيتي هذه حب التلاميذ، وإن كسبت احترامهم. وما زلت أذكر عدداً منهم كانوا على استعداد لافتراسي افتراساً لو أن الفرصة فقط حانت. غير أن أمراً معيناً كان يحول بينهم وبين تنفيذ هذا القصد.

ذلك أنه كان لي طوال سنوات الدراسة الابتدائية ما يمكن تشبيهه بالحرس الخاص:

كان بفصلنا في السنة الأولى تلميذ مسكين، زريّ الهيئة، رث الثياب، بالغ القذارة. كنا كثيراً ما نرى القمل يزحف جهاراً من تحت ياقة قميصه المهلهلة، أو يسقط من شعره الطويل المرسل على الدرج. وقد بلغت به القذارة وقوة الرائحة مبلغاً جعل التلاميذ يرفضون بإصرار مشاركته في المقاعد

المزدوجة بالفصل، ذاكرين السبب للمدرسين في صراحة، وفي حضرته. فكان يخصص له مقعد وحده في آخر الفصل، سرعان ما كان يلوثه بالحبر والطباشير ودهن الطعام الذي يحمله. وقد انتقلت عدوى احتقاره من التلاميذ إلى المدرسين الذين كانوا كثيراً ما يجدون في كراساته بقعاً زيتية كبيرة، فيرفضون تصحيحها، ويقذفون بها في وجهه. فكان يتلقى إهانات الجميع له في استسلام ذليل، وكأنما لم يكن من الممكن له أن يتوقع غير ذلك.

كان التلاميذ إذا لاحظوا في مؤخرة سرواله أو ظهر كفه مؤقلاً، فاجأوه من الخلف فزادوا المزق اتساعاً حتى تظهر منه ملابسه الداخلية ظهوراً شائناً. فأما حذاؤه فكان يغطي خدوشه بالحبر الأسود محاولاً إخفاءها. وكان الحصى كثيراً ما يتسرب من خروق نعله فيؤدي قدميه. فإن جلع حذائه في الفصل لنفص الحصى منه، انبعثت من جوربه وقدمه رائحة فظيعة تملأ الصفوف الخلفية من الفصل، فيسّد التلاميذ أنوفهم بحركات مبالغ فيها. وكان المدرسون إذا طلبوا منا إحضار كراسات جديدة في اليوم التالي، ظل الصبي أسبوعاً أو أسبوعين عاجزاً عن شراء الكراساة، معرضاً نفسه لتأنيب المدرسين وسخرية التلاميذ، حتى يبدس في يده مدرس طيب ثمن الكراساة، فيقبله دون تردد، بل ودون شكر.

كان اسمه عطية. غير أنني في يوم ما لاحظت أن التلاميذ قد بدأوا فجأة ينادونه بأبي ظريفة، وهم يقهقهون قهقهات عالية طويلة، يمتنع لها وجه الصبي امتقاعاً أليماً. وكان يصحب هذا النداء في العادة تلميحات وإشارات غامضة إلى الفول والطعمية، والسلطة والزيت، وتعريض فاحش بأبيه. ثم تنهى إليّ سرّاً ذلك. فقد حدث أن اكتشف أحد التلاميذ أن لوالد عطية هذا محلاً صغيراً في سوق الخضار بمصر الجديدة سمّاه محل «أبو ظريفة» يقف فيه الوالد لبيع السندوتشات، ويعاونه الصبي مساءً بتقديم أطباق الفول والطعمية إلى الجالسين: وقد شاهد هذا التلميذ عطية نفسه في جلباب أبيض يقوم بالخدمة

في المحل. فأسرع في اليوم التالي يطلع زملاءه على الأمر، وعلى موقع المحل واسمه. فأثار فيهم الخبر سروراً ومرحاً لا يعرفان حداً. ومن يومها بدأوا ينادونه بأبي ظريفة، ويصيحون به أن «الشكك ممنوع، والزعل مرفوع، والأجر على الله» ويسألونه متغامزين عن مصدر بقع الزيت في كراساته. ثم تأمر عدد منهم على الذهاب إلى المحل في المساء لتناول وجبة هناك. فكانوا يجلسون إلى إحدى المناضد، وينادون عطية كي يحضر لهم السندوتشات. فكان المسكين يلبي طلباتهم وهو يرتعد بؤساً. وأحياناً يصيحون به أو بوالده أن الطعمية باردة، أو أن الفول به ذبابة، ويشتمونه أو يشتمون أباه.

وأحياناً أخرى يتركون لزميلهم بقشيشاً عبارة عن مليونين أو ثلاثة، إمعاناً في إذلاله والسخرية به.

لم أتخذ في بداية الأمر موقفاً. حتى جاء يوم وجدتهم فيه قد التفتوا حوله في الفناء، وأثقلوا عليه إثقلاً لم يتمالك هذا الصبي له، وهو الذي اعتاد التظاهر باللامبالاة، واعتاد التلاميذ أن ينسبوا إليه تبدل الإحساس، فانفجر بالبكاء والعويل والصراخ والشتائم وهو يضرب الأرض بقدميه. هنا تقدمت في غضب فصرفت التلاميذ عنه، وصحبت الصبي إلى مقعد بالفناء أهدئه. فبدأ الغلام يشرح لي، وهو يشهق بالبكاء، كل ما يعانیه منهم، ويخبرني بأمر الصبية الذين يترددون على محل أبيه، والإهانات التي يكيلونها له. فوعده بأن شيئاً من هذا لن يتكرر بعد ذلك اليوم.

وصعدنا إلى الفصل. فما جاءت فترة الدقائق العشر حتى أخذت مكاني عند مقعد المدرس:

— هذا إنذار مني إليكم. هو الأول والأخير. من أطاعه فهو خير له، ومسيرى من لا يطيعه عاقبة عصيانه. قد أجرت عطية منذ اليوم فهو في حمايتي. فالويل الويل لمن يتعرض له. والويل الويل لمن تخطى عتبة محل أبيه أو سمّاه أباً ظريفة.

صاح أحدهم :

— فإلى من نتوجه إذا رغبنا في طبق من الفول؟

قلت للصائح في هدوء :

— تعال هنا .

قال لا :

— لا؟

— لا ثم لا .

قلت وقد غلى الدم في وجهي :

— وحياة أبي وأمي ، وشرف النبي ، لن أدخل هذه المدرسة قط يا أسامة إن لم تجد نفسك مفصولاً منها في بحر يومين على الأكثر .

ثم تركت الفصل مسرعاً إلى زوج أختي في حجرة المدرسين ، فأخبرته باكياً بالموضوع كله ، مكرراً قسماً ألا أعود إلى المدرسة إن لم يُفصل أسامة ، وهو الذي صورته على أنه المسؤول عن كل ما لحق عطية من إهانات . فتركني زوج أختي إلى الناظر بعد أن طلب مني مقطباً ، وفي حدة ، أن أعود إلى الفصل . فما مضى ربع ساعة حتى جاء إلى الفصل ، فاستأذن من مدرس التاريخ أن يعلن أمراً إلى أحد التلاميذ :

— أسامة الشاذلي !

فوقف التلميذ ، بينما كان قلبي يخفق بشدة من الفرح .

— أسامة الشاذلي . لا تأت من الغد إلى المدرسة . فقد أمر الناظر بفصلك أسبوعاً . وسيعلن أبوك بالسبب . فإن تكررت منك ما حذرك حسين منه ، فسيكون فصلك نهائياً .

لن أحاول أن أصف وقع هذا الإعلان على التلاميذ ، أو أثره في تعضيد

مركزي. غير أنني ذاكر أنني كَوْنْتُ بعد ذلك اليوم عادةً جديدةً، هي بسط حمائتي على التلاميذ الفقراء والمضطهدين. كان يكفي أن يشكو التلميذ إليّ سوء معاملة زملائه له، حتى أعلن أنه قد بات في جوارِي. أو أن يشكو تلميذ من أن اثنين من التلاميذ ؟ «الأقوياء» قد احتكروا منضدة تنس الطاولة، لا يسمحان لغيرهما باللعب، حتى أتوجه إليهما طالباً منهما التنحي عن المنضدة. قد يكون الدافع إلى ذلك شعوري بالحاجة إلى جماعة تحميني، أو ربما شعوري بالحاجة إلى حبّ البعض يعزّيني عن كراهية الغالبية، أو ربما هو مجرد الرغبة في التحدي والسيطرة. على أنني لم أحاول قط أن أستغل رابطة الولاء القوي التي أصبحت تربط هذه الجماعة بي، والصحيح أن أفرادها هم الذين كانوا يفرضون خدماتهم عليّ. فكانوا يجنبونني مشقة التوجه إلى المقصف لشراء مشروب أو حلوى، بأن يعدّوا أحدهم لإحضار «مطلبي». وقد حدث في أحد الأيام أن علمت أن ثلاثة من التلاميذ الكبار عقدوا النية على انتظاري خارج المدرسة بعد انتهاء الدروس، كي يكيلوا لي ضرباً مبرحاً لسبب من الأسباب. فاعزّت إلى «الجماعة» أن يعدّوا للأمر عدّته، وأن يتبعوني عن بعد. فما أن خرجت من الباب، ورأيت الثلاثة يقتربون مني في خطوات سريعة وفي أعينهم الشر، حتى أعطيت الجماعة إشارة البدء. فانهال على الثلاثة سيل منهمر من الطوب والحجارة الضخمة شجّ جبين أحدهم، ففرّ وهو يولول من الألم والدم يملأ وجهه ووراءه زميلاه يعدوان. ثم أعطيت الجماعة الإشارة بالكفّ، فكفّوا.

كانت أول نظرية، أو فكرة مجردة، تخامر ذهني نظرية جدّ غريبة:

كلّفنا مدرس العربية بكتابة موضوع إنشاء عنوانه: «الشخصية التي أودّ أن أكون مثلها حين أكبر». فجلس كل منا يفكر دقيقتين أو ثلاثاً في الشخصية التي تستهويه، أو مثله الأعلى، ثم شرع يكتب. وكان أن اخترت شخصية محمد فريد، وحشدت للموضوع أغبى التعابير وأكثرها ابتذالاً: «محمد فريد... رمز

الإخلاص والتضحية... محمد فريد... روح الوطنية الصادقة وقلب الثورة النابضة»، أو شيئاً من هذا القبيل. ثم سلّمنا الكراسيات. فلما عاد المدرس بها بعد تصحيحها، تبين أن الحاصل على أعلى الدرجات شخص غيري يدعى طارق، أغرقه المدرس بالثناء عليه، ثم طلب منه أن يقرأ على التلاميذ موضوعه جهراً.

استمعت إليه وهو يقرأ فامتقع وجهي من الحسد. فموضوعه ممتاز حقاً، (اعترفت لنفسي بذلك بعد الفقرة الأولى)، لقد اختار له شخصية محمد النبي، ويدها بالعبارة التالية :

«أمثلك أكون؟ هيهات هيهات وأنت ما أنت! أفغيرك إذن أحتذي؟ هيهات هيهات وأنت ما أنت! فأنت غايتي عالماً أنني غير بالغها، وأنت مناري مدركاً أنني لست مدركه. فحسبي فخراً أنك غايتي، وكفاني زهواً أنني اخترتك لنفسني مناراً، يا منار الصفاة والمبصرين...»!

وبالرغم من أنني حصلت على الدرجة التالية مباشرة لدرجة طارق، فقد رأيت نفسي أتوجه إلى حجرة المدرس بعد الحصّة، أستوضح منه السبب في أنه لم يعطني الدرجة الأولى كالعادة!

قال لي :

— سأترك لك الحكم ولتلك عادلاً. فقد استمعت بنفسك إلى ما كتبه طارق. فأي الموضوعين بالله عليك أفضل.

قلت : مقطباً :

— موضوع طارق.

صاح في دهشة :

— فما بالك إذن تطالب بالدرجة الأولى؟

هنا تكونت في ذهني إجابة عجيبة، أو قل، نظرية عجيبة، لم أنطق بها لإدراكي غرابتها، ثم لأنها وقتها لم تكن واضحة كل الوضوح عندي.

فكرت :

صحيح أن طارقاً قد كتب موضوعاً يفضّل موضوعي بمراحل . وصحيح أن موضوعي سخيف مملاً غير أهل إلا للسخرية والازدراء . ولكن . . . ولكن ماذا؟ ولكني كنت قد بدأت أعتقد أنه لا ينبغي للمدرسين من الآن فصاعداً أن يقدروا الدرجات لي على ضوء إجادتي لما أكتب ، أو صحة حلّي للمسائل وإجابتي على الأسئلة . . . فعلى أي أساس إذن تريدونهم أن يقدروا درجاتك؟ . . . على لا أساس . . . يكفي أن يعطوني أعلى درجة على الدوام . . . ولماذا؟ لأنك عريف الفصل؟ . . لا ، ليس هذا بالضبط . . وإنما لأنني . . . حسناً ، فلاحظها صراحة : لأنني حسين ! لأن شخصيتي هي ما هي . لأنهم في تقدير الدرجات ينبغي أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة الشخصية التي يتعاملون معها فحسب ، وأن يعطوا كل امرئ الدرجة التي تناسبه وتليق به ، ولأن شخصيتي أنا على الأقل قد باتت فوق أن تقدر بالدرجات لما يصدر عنها !

أعاد المدرس سؤاله :

— لماذا تطلب الدرجة الأولى إذن وهذا اعترافك؟

فتألمته لحظة شارد الدهن . ثم هززت رأسي . ثم انصرفت .



لم تكن المسافة بين البيت والمدرسة بأبعد من أن أقطعها سيراً على قدمي . فهي على مسيرة نحو ثلث ساعة . غير أن الشوارع التي كان عليّ أن أجتازها إليها كانت شوارع رئيسية عريضة ، تخترقها قطارات المترو والسيارات العامة ، لذلك رتبّ والدي أن يوصلني السائق صباحاً بالسيارة ، ثم يعود فينتظرني بها آخر النهار عند باب المدرسة .

كنت أبغض التوجه إلى المدرسة بالسيارة أشدّ البغض ، أجلس منكشماً إلى اليمين في المقعد الخلفي منها كالحيوان الأسير ، وأنا أشدّ ما أكون خجلاً وبؤساً . لم يكن ثمة غيري من التلاميذ وابن وزير العدل الوفدي صبري أبو علم

من يحضر في سيارة. وأية سيارة! سيارة سوداء ضخمة من طراز «كرايزلر» يقودها سائق أسود، مشرط الوجنتين، حسن الهندام. وأجلس فيها أنا التلميذ الذي لا تكاد رأسه تظهر من النافذة، في بنطلون قصير، وعلى ركبتيّ كراستان وبضعة كتب، أمر في الشوارع التي تخترقها بزملائي متوجهين إلى المدرسة سيراً وهم يضحكون ويمرحون ويركلون بأقدامهم الزلط ويتسلقون أسوار الحدائق الخاصة لقطف زهور الياسمين أو ثمار المانجو والجوافة، يخرجون ألسنتهم لصاحب المنزل إن أطلّ من الشرفة يشتمهم. كنت أغبطهم حريتهم، وأشعر بقوة بأنه ليس من العدل ولا من الحكمة ولا من التناسب ولا من رفاهة الحس أن أتوجه للدراسة في مثل هذه العربة الفخمة وزملائي يمشون. أفأنا أقل قدرة منهم على عبور الطرق الرئيسية وقضبان المترو؟ فأني غرض إذن يخدمه توجهي بالسيارة، وهو الذي لا يفلح إلا في زيادة شعور العداء لدى التلاميذ نحوي؟

غير أن ثمة عاملاً أهم وأخطر: فقد تمكّنت حتى الآن من أن أثبت تفوقي على التلاميذ في الفصل وغيره بالوسائل المشروعة. وها أنا ذا أجدني أضطر رغم أنني إلى إحراز تفوق آخر بغیض، هو تفوق المال. وهو تفوق في نظري غير مشروع، يذهب برونق المركز الذي كوّنته بقوة شخصيتي، بل وينال من هذه القوة ذاتها. فلم أكن لأطبق أن ينسب أحدهم سلطاني على التلاميذ إلى ثرائهم. وكنت أنفر لذلك من كافة مظاهر التأنق في الملبس، أو الإسراف في الإنفاق. ولم يكن هناك ما يطربني قدر طربي إذ أتأمل صورة نابليون، في معطفه البالي وحوله الماريشالات في بزّاتهم الفخمة الموشاة، وهو مع ذلك كالبدربين النجوم، لا تلتفت الأنظار إلا إليه.

أردت أن أشرح لوالدي ما يعتمل في صدري، فلم يسعفني بيان. فكثيرة هي الأفكار والمشاعر التي كانت تراود ذهني وقلبي في ذلك الحين دون أن أملك القدرة على التعبير عنها. حتى وقع حادث كان أصلق إنباء من الكلام. ذلك أنه في يوم ما، إذ خرجت من المدرسة وركبت السيارة، وبدأت السيارة تتحرك، إذا

بحجر كبير يأتي مندفعاً من الخلف، فيرتطم بزجاج السيارة ويهشمه، فتتأثر قطعه الصغيرة الحادة حولي . وقد دعر السائق أشد الدعر، فلما اطمأن إلى أنني لم أصب بسوء، قفز من السيارة غاضباً هائجاً، وقصد التلاميذ الواقفين عند باب المدرسة . يحاول أن يعرف أيهم فعل هذا . غير أن عددهم كان كبيراً، ولم يشأ أحد منهم أن يفصح عن اسم قاذف الحجر، بينما وقف معظمهم يتسممون في تحدٍ وسرور . ولم يجد السائق في النهاية بدا من العودة إلى مقعده بعد أن سبهم سباً غليظاً . وإذ حانت منه التفاتة إليّ، رأى الدموع تنهمر من عيني مدراراً .

— معلش يا حسين بك . واحمد الله على سلامتكم . إنهم صبية من أولاد الجوّاري لا أصل لهم ولا عائلات . فماذا عساك تتوقع غير هذا ممن لا أصل له؟ صبية لم يروا في حياتهم سيارة إلا من الخارج . من لهم باب كأبيك يحسن تربيتهن؟

وفي المساء دخلت على والدي حجرة المكتب فوجدته يكتب:

— أبي . لن أذهب إلى المدرسة بالسيارة بعد اليوم .

— ولم لا؟ (قالها مقطباً وقد ضايقته لهجتي) .

— ألا ترى يا أبي أنهم يغيرون؟ أنهم قذفوا الحجر لحقدهم أن لدينا

سيارة؟

— سأطلب من ناظر المدرسة التحقيق . وتأكد أن القصة لن تتكرر .

صحت في نفاذ صبر:

— ولكنهم يكرهوني من أجل السيارة! أيسرّك أن يكرهني التلاميذ لهذا

السبب؟

— فكيف تنوي الذهاب والمجيء إذن؟ أتحب أن يوصلك الخادم

ويتنظر ساعة الانصراف؟

— لا .

— فإن تشترك في سيارة المدرسة؟

— أي، إن لي قديمين كسائر التلاميذ، وجميعهم يذهب سيراً إلى المدرسة.

قلتها بلهجة عنيفة لم أجزؤ على استخدامها من قبل معه.

قال بحدة وهو يعود إلى النظر في أوراقه:

— ستذهب بالسيارة كما كنت تفعل.

— لا.

نحى الورق جانباً وقد احمر وجهه احمراراً أربهني، بينما كان قلبي ينبض بعنف.

— أظن أنك ستمارس «قوة شخصيتك» تجاهي يا كلب؟

— أنا لست كلباً.

صاح بقوة:

— أغرب عن وجهي!

وبدرت منه حركة وكأنه يهم بضربي، فغادرت الغرفة في بطة.

وظل أياماً عديدة بعدها لا يوجّه إليّ كلمة، ألقي عليه تحية الصباح فلا يردّ. وقد غيّرت مكاني إلى مائدة الطعام، فبعد أن كنت أجلس إلى يساره، اخترت لنفسني مكاناً قصياً من المائدة. أما المدرسة فبتّ أقصدها سيراً وأعود منها سيراً بمفردي. غير أن خصامنا ألمني وأثار في نفسي اضطراباً عنيفاً. كنت أعلم جيداً أنني لن أَرْضُخ. ولكن، ما عساه يحدث لو أنه هو أيضاً كان عازماً على ألا يَرْضُخ، وهو الذي لا يقل صلابة في الإرادة عني؟ ألا يعني هذا أنه لن يكلم أحدنا الآخر قط؟

وحلّ أثناء فترة الخصام موعد كان قد ضربه لاصطحابنا لشراء أحذية لنا.
فلما جمع إخوتي استعداداً للذهاب، قال لأحدهم مقطباً:

— إذهب واسأل الولد (حسين) عما إذا كان يريد الحذاء أم لا يريد.

فرددت على أخي بآني لا أريده. فلم يكن أحب له أولي أن يتم صلحنا
من أجل الحذاء، ولو كان مجرد حجة لإنهاء الخصام.

وجاء الصلح بعد أسبوعين. كنا على مائدة الغداء. وإذ تناولت المغرفة
أغرف لنفسي من وعاء الحساء، شعرت بعيني والذي تحدجاني طويلاً من تحت
حاجبيه الكثين. ثم قال بلهجة تعمّد أن يجعلها جافة:

— أيمكنك أن تخبرني بالضبط عن السبب في عزوفك عن استخدام
السيارة؟

أجبت في أدب جم محاولاً إخفاء فرحي:

— التلاميذ يا أبي يكرهونني إذ أحضر وأنصرف في سيارة. أفكان يسرّك
لو أن قطعة من الزجاج المكسور أصابت وجهي؟

— فأنت على ثقة إذن من استطاعتك قطع المسافة وحدك؟

— نعم.

— وتلزم الحذر عند عبورك الشارع الرئيسي؟

— نعم.

— لا تعبر قضبان المترو حتى يمر؟

— نعم.

— فعلى مسؤوليتك إذن؟

— نعم.

— فافعل.

في روضة الأطفال لم أكن أطيع الفتيات الصغيرات معنا. فهن في نظري

كائنات ضعيفات تافهات الشأن، كثيرات البكاء إلى حد يثير الاشمئزاز والضيق، لا يحسنّ لعباً ولا عدواً ولا ضرباً، ولا حول لهن ولا قوة. فماذا نصنع بهنّ؟ وكانت بفصلنا طفلة تدعى نادية. (لا أدري كيف علق اسمها إلى اليوم بذاكرتي) شديدة التعلق بي، إن جلست على مقعد جاءت تجلس إلى جوارِي، فإن قمت قامت تقتفي خطاي. وهي تعرض عليّ دائماً كل ما يكون في حوزتها، من حلوى أو طوايع برّيد أو ورق ملوّن أو خرز أو بلى. فإن رفضت عرضها دمت عيناها وشرعت في البكاء، فأضطر أن آخذ منها ما بيدها بسرعة، تفادياً لدموعها، ثم أتخلص منه فيما بعد، فما كان هناك ما هو أثقل عليّ من إعجابها، أو ما هو أجلب لسخرية الصبية وضحكهم من ملاحقتها لي.

ثم يمضي الزمن، فإذا بي لا أجد صحبة الفتيات الصغيرات سيئة إلى هذا الحد! فإن شئت الحق، فلمرافقتهن سحر خاص ليس في مرافقة الصبية المذكور. فهن إن تحسّسن العضلات في ذراعي صدرت عنهن صيحات إعجاب هي أحلى سمعاً من الموسيقى العذبة. وهن فائنات في ضعفهن وجهلهن، فائنات في حاجتهن إلى حمايتك وشرحك لما يغمض عليهن. إن قتلت لهن حشرة أفزعتهن، دهشن لجراتك وشجاعتك، وإن تسلّقت شجرة لقطف ثمرة لهن، أعجبن بخفتك وسعة حيلتك، وإن أبعدت عنهن صبيّاً يضايقهن، فقد تعطف عليك إحداهن بقبلة امتنان وشكر.

ثم تقل هذه العلاقة جمالاً بتقدم السن بهن وبك، ويدخلها عنصر بغض غير واضح، تزيد قوته ووضوحه يوماً بعد يوم، ويزيد فساد العلاقة بازدياد إحساسك وإحساسهن به. فهن الآن أكثر تحفظاً في معاملتهن إياك، أقل إقبالاً على صحبتك وإبداء الإعجاب بك. فإذا العداة يعود من جديد. ولكنه عداة مختلف في طبيعته. فانت الآن سرّ بالنسبة لهن، وهن سرّ بالنسبة لك. وعداؤك لهن ليس راجعاً الآن إلى اشمئزاز من ضعف، أو احتقار لكثرة بكاء، أو سخرية لعدم إجادة الجري واللعب، وإنما هو راجع إلى اضطراب لا تدري مصدره

أو مبرّره يغشاك في حضرتهن، وعجب من تصرفات لهن تبدو متكلفة متصنّعة أو صعبة الفهم. فلماذا لا يتحسّسن الآن عضلاتك حتى لو طلبت إليهن أن يفعلن؟ ولماذا يسحبن أيديهن بسرعة إن تلامست الأيدي عرضاً؟ ثم ما هذا التكلف الآن في الملابس، وهذا الحرص الشديد في اللعب بحيث لا يصعدن شجرة أو ينقلبن على رؤوسهن؟ وما علّة هذا التهامس المستمر بينهن، وكثرة ضحكهن الغبي أثناء الهمس؟ وما هذه النظرات الحادة من أمهاتهن إن انحسر عن الرّكبة طرف ثوب؟



يروى بلزак أن طفلاً وطفلة لأحد الملوك وقفا أمام لوحة زيتية للرسام تيسيان تصوّر آدم وحواء عاريين. سأل الطفل أخته:

— أيهما آدم وأيهما حواء؟

فأجابته الطفلة:

— أما إنك لغبي! ألا تراهما دون ثياب؟ كيف يمكننا إذن، أن نعلم أيهما المرأة وأيهما الرجل؟!

لم تكن فكرتي قبل العاشرة بأكثر وضوحاً. وإذ لم يكن أبي أو أمي يلفظ بكلمة لي عن العلاقات الجنسية قط، فقد كان عليّ أن ألتقط بنفسني المعلومات الخاصة بها، صحيحها وخاطئها، من هذا المصدر أو ذاك، أجمعها وأوفق بينها، وأحاول أن أخرج بفكرة عامة عن طبيعتها. وإذ كنت دائماً شديد العزوف عن الاختلاط بالطلبة، عظيم النفور من رفع الكلفة مع الناس في الحديث، فقد ظللت أمدأ طويلاً جاهلاً بأبسط المعارف الجنسية وأيسرها، مما هو معروف لدى كل طفل بالريف.

أذكر ظهر يوم شديد القيظ من أيام يونيو. كنت وقتها في العاشرة. قد آوى أفراد العائلة للنوم بعد الغداء، وبقيت وحدي في غرفتي أفرغ مكتبي من

كراسات العام الدراسي المنصرم. ثم شعرت بظماً، فصعدت إلى السطح حيث غرف الخدم بنية أن أطلب من الخادمة (وهي فتاة قروية في الثالثة عشرة) إحضار مشروب مثلج لي من السوق. ناديت عليها فلم أسمع رداً. وإذ دفعت باب غرفتها، إذا بها راقدة على سريرها الخشبي تغطى في النوم وقد تعرت من ملابسها تماماً. ومكثت أرقبها مذهولاً بضع لحظات، وقد شعرت بقلبي يقفز ويضطرب في صدري وكأنما هو كرة من مطاط. ثم فررت أعدو لاهثاً إلى حجرتي:

«كيف؟ ما هذا؟ كيف؟ أهذا ممكن؟ أهذا معقول؟ أنا في وعيي؟ أم أنها خدعة؟ أكان هذا هو الحال دائماً؟ أهو... أهو الحال معهن جميعاً؟ فلماذا أبقيه سراً طول هذا الوقت؟ أفي الأمر ما يحتاج إلى إخفاء؟ أهذا هو السبب إذن في أن أخواتي لا يستحمن معنا؟ وما الداعي إلى هذا؟ ومن عساني أسأله عنه؟ أترامم يوتخونني لو أنني سألت؟ أهذا هو السبب في أن أبي ويخ أخني حين شاهده يكلم ابنة الجيران؟ فما وجه الاستهجان في هذا؟...»

أثار هذا الحادث في نفسي اضطراباً شديداً وحيرة أشد. رأيت الخادمة بعده بساعة وقد استيقظت وارتدت ملابسها، فلم أستطع أن أرفع إليها عيني إلا خلصة:

«إنها تتصرف وكأن شيئاً لم يحدث! تتصرف تماماً كما كانت تفعل قبل نومها! كيف؟ أكانت هكذا طول الوقت؟»

ثم ما عدت أخرج إلى الشارع بعدها فأرى فتاة صغيرة أو كبيرة إلا تساءلت:

«أهي أيضاً كذلك؟ فلماذا تمشي في هدوء هكذا وكأن شيئاً لم يحدث؟»

وازدحمت في رأسي مئات الأسئلة تريد الجواب. غير أنني أحسست لسبب ما بأن الأمر أدق من أن أسأل عنه.

ثم حدث بعد أيام أن نزلنا إلى الحديقة كعادتنا نلعب مع الخدم. وإذا وقفت عند شجرة وانحنيت عليها أجمع ما علق بجذعها من قطرات الصمغ، جاءت الخادمة المذكورة من خلفي ترقب ما أصنع، ووضعت ذراعها على كتفي. فإذا بي ألكمها في صدرها بقوة وقد احمر وجهي، ونحيت ذراعها عن كتفي في عنف.

كنت في ذلك الحين أكتب قصة. وقد ورد فيها أن راعي غنم (هو بطل قصتي) كان يعيش مع خطيبته الحبيبة في كوخ واحد: «تجدهما في المساء وقد جلسا عند باب الكوخ، يتناجيان كعصفورين، حتى إذا ما ثقلت جفونهما دخلاه، فناما على سريرهما متعانقين!». . . . وقرأت القصة على أبي عقب الفراغ منها. فلما وصلت إلى هذه الجملة لمحتة يتسم. ثم قال:

- حسبك قلت إنها خطيبته.

- هي كذلك.

- فاشطب إذن هذه الجملة الأخيرة.

- ولم؟

- ليس لها في الواقع داع.

اللجنة عليهم جميعاً ما كل هذا الغموض؟



غير أن الوقت يمضي فيعود ميلي إليهن من جديد. وهو ميل فيه مع ذلك شيء من غربة، وشيء من ألم، وشيء من عداء. أصبحت أقع في حب كل فتاة أراها. أتوجه إلى السوق فأسمع فتاة تقول لبائعة: «شكراً يا خالة»، فأعود إلى البيت مضطرباً أحتضن وسادتي وأقبلها متمتماً: «إنها ملاك طاهر. إنها ملاك!» ثم أخرج فتسألني فتاة عن الطريق، أو عن الوقت، فأقع في غرامها وأنتمت: «إنها ملاك!». وتجلس فتاة إلى جوارى في الترام فيلامس كتفها كتفي: «إنها ملاك!». وتناديني ابنة الجيران باسمي، فلا أرى له وقعاً أجمل وأعذب من وقعه إذ تنطق به.

وأنتوجه يوماً إلى السينما لمشاهدة فيلم «المأخوذ» الأمريكي . فإذا بي أخرج من الدار وقد وقعت على حيي العظيم وغرامي الأبدى . . إنجريد برجمان، إلهة الجمال وربة الطهر . وأصبحت من يومها حريصاً على مشاهدة كافة أفلامها، أجمع صورها من الصحف والمجلات، وأبتاع من مصروفي مجلة «الشاشة الفضية» لمتابعة أخبارها، وأحاول رسم صورة زيتية لها . وبدأت من يومها عادة كتابة اليوميات، أثبت صفحاتها غرامي وشوقي وقصائدي فيها، فبقيت هذه العادة معي إلى اليوم، وقد تضخمت اليوميات بمرور السنين حتى بلغت عشرين مجلداً .

حدث مرة أن نسيت درج مكتبي مفتوحاً وخرجت . فما كان من أخي حافظ إلا أن فتحه وفتش فيه حتى عثر على يومياتي فقرأها . وأعود من الخارج فلا أقابل أخاً من اخوتي . أو أختاً إلا ضحك أو ضحك في وجهي ضحكاً مكظوماً . ثم بدأ كل منهم يث كلامه التلميحات ويقهقه، حتى أنشد أحدهم في لهجة تمثيلية :

«فينوس ويحك ! قد خجلت أمامها . . .» .

وهو شطر بيت من قصيدة نظمته فيها . وأدركت لحظتها أنهم قد قرأوا اليوميات . وهرعت إلى الدرج . فلما وجدته مفتوحاً شرعت في بكاء وعويل وتوجيه سيل من الشتائم إليهم جميعاً، حتى سمعني أبي فجاء يسألني ما الخطب . وإذا أخبرته بالأمر، قطب جبينه في غضب حقيقي، ووبخ حافظاً وعنفه، وسمعنا منه يومها لأول مرة شيئاً عن حُرمة اليوميات والرسائل والأسرار الخاصة .

وغرقت في بحر من أحلام اليقظة : فها هي إنجريد برجمان تفكر في القيام برحلة سياحية إلى مصر، أرض الفراغة، فتأتي إلى القاهرة ومعها حبيبها جريجوري بيك (بطل فيلم «المأخوذ») . غير أنها ما تصل حتى تصاب بمرض خطير يُخشى منه على حياتها . وأقرأ في الجرائد نبأ مرضها، فأمرَ يومياً

بالمستشفى الذي ترقد فيه أستفسر من الممرضات والأطباء عن حالها، تاركاً باقة من الزهر، (كنت وقتها أقرأ رواية «غادة الكاميليا» للمرة الرابعة)، دون أن أدلي باسمي وتعجب هي لأمر هذا العاشق المجهول الوفي، وتتوق إلى رؤيته، خاصة أن جريجوري بيك كان قد هجرها إذ مرضت ويات يقضي وقته في الحانات والملاهي الليلية. وأصعد إلى غرفتها، فتنشأ على الفور بيننا علاقة حب عميقة خالدة، ونتعاهد على الوفاء الأبدي. ويكون لحبنا - بطبيعة الحال - أثره في التعجيل بشفاؤها. فنقضي فترة نقاهتها بالأقصر، أشرح لها الآثار وأسرد تاريخ الفراغة. ثم أبسط أمامها تعاليم الإسلام فتعجب بها كل الإعجاب، وتسأل كيف أنها لم تسمع بهذه التعاليم من قبل، فأذكر لها شيئاً عن المحاولات الخيثة للمستشرقين في الغرب أن يخفوا نور هذا الدين القويم ويشوهوا صورته. ونعود وقد تم شفاؤها من الأقصر إلى القاهرة في يخت يضعه الملك فاروق تحت تصرفنا حين يسمع بقصة حبنا الغريبة، وأترجم لها أثناء رحلتنا النيلية أشعار امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى فتحبها، وتروي لي قصائد بايرون وشيلي وكيتس فأطرب لها!

كنا في نهاية شهور الصيف، في طريق العودة من رأس البر، قد أوصلنا الزورق البخاري في السابعة صباحاً إلى ساحل دمياط، فعبرنا طريقين أو ثلاثة ملؤها القضبان الحديدية والحجارة، حاملين أمتعتنا الكثيرة الثقيلة إلى حيث يقف قطار القاهرة، ينتظر القيام في التاسعة. وقد كانت لوالدي عادة في السفر كثيراً ما كنا نستنكرها في نفوسنا ولا نستطيع أن نبوح إليه باستيائنا منها. فهو يريد أن يكون سفره خالياً من المتاعب والمضايقات. يقصد بنا جميعاً إلى إحدى عربات القطار ومعنا الأمتعة كلها، عاهداً إلى أخي الأكبر، محمد، أن يهتم بنا وبالتذاكر والحقائب، «خاصة هاتين الحقيبتين...»، أسمع؟ خاصة هاتين الحقيبتين» مشيراً إلى الحقيبتين اللتين أودعهما كته وما قد يكون قد ملأه أثناء الإجازة من كراسات. ثم يحيينا على أن يرانا في محطة العاصمة، وقد يأخذ من إحدى الحقائب رواية لتوفيق الحكيم أو لتيमور، فيضعها تحت إبطه،

ويمضي بها إلى مقعده في عربة أخرى بعيدة .

استقر مجلسنا في العربة . ونظرت أتأمل الجالسين قبالتنا . كانت أسرة طيبة المظهر، من أم في الأربعين بدينة مليحة الوجه، وعمّة أو خالة في الخمسين، ثم فتاة في الخامسة عشرة، لم أكن قد رأيت قبلها في حياتي من يفوقها حسناً وجمالاً ورقة . فهي شقراء الشعر طويلته، زرقاء العينين ناعستهما، ذات وجه بيضاوي دقيق التقاطيع، وجسم نحيل قد دثّرتة أمها بشال ثقيل كانت طوال المسافة تتعهد إحكام التفافه حول صدر ابنتها . كانت في بادئ الأمر نائمة أو كالنائمة، مسندة رأسها الملائكي إلى كتف قريبتها عن يسارها . ثم أفاقت فجأة، ونظرت حولها وفي عينيها جزع، وانخرطت في سعال طويل مؤلم دمعت له عيناها، واحمرت وجنتاها احمراراً شديداً . وإذ حانت مني نظرة إلى المنديل الأبيض الذي غطّت به فاهاً أثناء السعال، إذا بي، لفرعي الشديد، أرى المنديل وقد ظهرت فيه بقع حمراء متناثرة، تأملتُها الفتاة في قنوط، ثم دسّت المنديل في حقيبتها في بطاء وضعف .

هدأت الفتاة وانقطع سعالها، وابتسمت لأمها ابتسامة ضيّقة هزيلة، فأجابتها الأم القلقة بابتسامة . ثم دخلت والدتي ووالدتها في حديث أذكر أنه بدأ عن الحقيبتين اللتين أوصى والدي أخيه بأن يوليها اهتماماً خاصاً . فقد سمعت السيدة الوصية، ورأت ما عانيانه من مشقة إذ نحاول رفعهما إلى الرف لشدة ثقلهما، فالتفتت إلى والدتي مداعبة تراهن أن الحقيبتين إنما تحويان قضباناً من الذهب .

أجابت والدتي :

— ذهب؟! هي كذلك أو أغلى من الذهب عند صاحبها . وهي عندي لا تعادل هذه الربطة من الفطير (المشلت) التي أراك قد أتيت بها .

— فماذا بهما إذن؟

— كتب وحياتك عندي .

— لا أصدق!

— فبادليني إذن هذا الفطير بهاتين الحقيبتين بما عسى أن يكون بهما من كنوز. أو بحقك فخذيهما دون فطير، وسيكون لك مني الثواب والدعاء، فهما عندي أثقل من ضرة، وتأخذ من وقت صاحبها أكثر من الضرة بكثير!

هنا ضحككت الفتاة المصغية إلى الحوار ضحكة مرحة، فضحككت أنا أيضاً وقد سرني سرورها.

— أزوجك كاتب إذن؟

— كذلك يدّعي.

سألت الفتاة والدتي:

— أكايب قصصي هو؟

— والله يا بنتي ما قرأت له حرفاً، فلا تسأليني.

— فما اسمه؟

— أحمد أمين.

— لم أسمع به.

صاحت والدتي في انتصار:

— أسمعت به بدمتك؟ بيد أنه يظن الناس إنما تلهج الستهم بذكره! شكراً لك يا بنتي. والله ما أن أصل إلى القاهرة حتى أخبره بأنني قابلت في القطار من لم يسمع عنه في حياته قط، ولم يقرأ من كتبه الأربعين حرفاً. علّ ذلك ينزله من عليائه، ويعيد إليه صوابه.

— ألا يسرك أن تكوني زوجة لأديب مشهور؟

— أين هو السرور، خبريني؟ في انشغاله عنك وعن أولاده بكتبه، أم في شرود ذهنه، أم في تلك النسوة اللاتي يأتينه مدّعات حب الأدب؟ والله لا سرور سوى ربما بأن الكتب قد بدأت تدرّ دخلاً لا بأس به. أتظنّني يوماً لاحظ فستاناً جديداً اشتريته، أو قرطاً تحلّيت به؟ أبداً يا روعي. أجيئه بالفستان الجديد

فأجده إما قارئاً أو كاتباً. أقول له: «أنظر وقل رأيك» فيرفع رأسه بمشقة ويقول: «هه!». فأعيد عليه الجملة. «رأيي في ماذا؟». «في الفستان.. في هذا الفستان الجديد» فيقول كالمذهول: «ماله؟». أصبح وقد تبدد كل سروري به: «ما رأيك فيه؟» فينظره وأنا واثقة من أنه يقلب في ذهنه جملة مما كان يقرأ أو يكتب، ثم يقول: «جميل». فوالله لو سألتها وقتها ما هو الجميل، وعن أي شيء أتحدث، ما درى!

واستغرقت الفتاة في الضحك. غير أن ضحكها لم يطل، إذ سرعان ما اتصلت به نوبة أخرى من السعال العنيف تناثرت له خصلات شعرها على جبينها، وأسرعت تخرج مندبلاً نظيفاً كورتها على شفتيها. وراقبتها والدتي هذه المرة ففهمت ما بها، وتبادلت مع أم الفتاة نظرة ذات مغزى.

همست الفتاة:

— إني عطشى.

فهبّت من مقعدي إلى زمزية كانت معنا بها عصير الليمون، وملأت لها الغطاء إلى حافته، فشربت حتى رويت.

— تريدين المزيد؟

— لا. شكراً لك.

وابتسمت لي ابتسامة كدت أطير لها.. وإذ رأيت والدتي قد دخلت في حديث آخر مع السيدتين، فقد انتقلت إلى الجلوس إلى يمين الفتاة.

— ماذا بك؟

— دعك من الحديث عني. قل لي: ما اسمك؟

— حسين.

— أستكون أديباً مثل والدك يا حسين؟

— نعم. وقد كتبت بالفعل روايتين، وكتاباً عن عمر بن الخطاب.

— أريد أن أراها يوماً ما.

— لن يكون في الدنيا ما هو أحب إليّ من ذلك. أين تسكنين؟

— في مصر الجديدة.

صحت في فرح:

— هناك نسكن نحن. يا لحسن الحظ، فسأراك إذن؟

وابتسمت لفرحي، ومدّت يدها إلى رأسي تربت عليها. وهممت أن أمسك بهذه اليد فأنهال عليها تقبيلًا، غير أنني أحسست بعين والدتي ترقبني. فأكتفيت بأن صببتُ لها قدحاً آخر من عصير الليمون.

وقطعنا المسافة إلى القاهرة في حديث عذب لم أنس حلاوته قط، نلعب حيناً، ونقوم إلى الممر حيناً، ونتحدث فيما أقرأ، وفيما تقرأ ديوان «أنت وأنا» لبول جبرالدي، وعن الحفريات التي كنا نحضرها أمام العشة في رأس البر حتى يقع فيها الباعة المتجولون، وكيف وقع في إحداها الدكتور عبد الرزاق السنهوري إذ قدم لزيارة أبي، وعن آمالها هي: وهي إن تسكن كوخاً في قمة أحد الجبال بسويسرا، تنزحلق على الجليد شتاءً، ثم تهبط لصيد السمك صيفاً، وتكتب شعراً كشعر لامارتين.

ووصلنا إلى محطة العاصمة فافترقنا. وما أن احتللتنا مقاعدنا في السيارة حتى قالت والدتي في لهجة حازمة:

— لا يشرين أحدكم من هذه الزمزية التي شربت منها الفتاة. فلديها داء السل.

ليس بوسعي أن أصف شعور الاستياء والانقباض الشديد الذي غمرني إذ أسمع هذه الجملة تقال بمثل تلك اللهجة الواقعية الصريحة. وأقسمت في

نفسى لانتقمَن للفتاة من والدتي بأن أشرب كل ما تبقى في الإناء من عصير فور وصولنا إلى البيت. بل ومن نفس الموضع الذي مسّته شفتاها. وهو ما صنعتها فعلاً. غير أن شعور الغضب من والدتي دام أياماً بعدها.

كان هذا هو أول حب حقيقي لي. فبالرغم من أنني لم أر الفتاة بعدها قط، فقد ظللت عاماً كاملاً أفكر فيها في شغف عميق، تدور حولها أحلام يقظتي ومنامي، أقول فيها الشعر، وأنصوّر نفسي مخترعاً للدواء الذي سيشفئها من مرضها، ثم أمبراطور على الشرق كي أجعل من هذه الفتاة راتعة الجمال امبراطورة عليه. وقد أطلعت أبي على ما نظمته فيها من قصائد فأعجبته، فلما سألته عن رأيه في نشرها، قال إنها رغم جودتها ليست بالجودة التي تؤهلها للنشر. فألقيت بها في الدرج.

كانت الفتاة قد ذكرت لي أنها تسكن في الفيلا رقم ٧ من شارع دمياط. وقد مررت بهذا البيت عشرات وعشرات من المرات، أطوف به عسى أن أراها تخرج أو تدخل فيه، أو تطل من إحدى نوافذه، فلم أرها مرة واحدة. وكنت في طوافي أشبه بالمتعبد الخاشع، أقف على الرصيف قبالة فأنظم الأبيات في هذا البيت المنزه كالعتيق الذي يضم حبيتي بين جدرانها:

يا دار سلوى فانظري ذاك الذي
يرنو إليك بقلبه المتأمل
مهما صنعتُ من القصائد سلماً
سأرى الحبيب إليّ ينظر من عل!

ثم حدث بعد ذلك بعام، بعد أن انتقلت من مدرسة مصر الجديدة الابتدائية إلى المدرسة النموذجية الثانوية، أن لاحظت أن سيارة المدرسة كانت توصل أحد التلاميذ وتأخذُه عند ناصية من ناصيات شارع دمياط، قرية من بيت فتاتي. فرأيت أن أسأله عن رقم بيته علّه يكون جاراً لها.

قال: سبعة.

- صحت به وقد أمسكت بياقتي مسترته .
- سبعة!!؟ سبعة شارع دمياط!! ألك أخت إذن؟
- قال في برود :
- لا :
- قلت مقطباً :
- كيف لا؟
- قال وهو في مثل تقطيعي :
- كيف كيف لا؟
- ليست لك أخت؟
- قلت لك لا .
- وتسكن في المنزل رقم سبعة؟
- هذا هو الوضع .
- منذ متى؟
- منذ عشر سنين .
- فمع من تسكن؟
- وما شأنك أنت؟
- صحت مزمجرأ كالأسد :
- ما شأنني؟ أجب يا رأس الخنزير وإلا فنتحت نافوخك .
- فافتحه إذن .
- مع من تسكن؟
- مع أبي وأمي .
- ومن؟
- لا أحد .
- لا أحد على الإطلاق؟
- لا أحد .

ثم أطلق ساقيه للريح .

وأصابني ذهول . كيف ! لا أحد سوى هذا الخنزير ووالديه ؟ فبماذا كنت أطوف إذن ؟ وأي دار إذن كتبت فيها الشعر ، وراقبت نوافذها في خشوع ، أحفظ مدخلها ومخارجها وأحجارها حجراً حجراً ، وأضيع وقتي على الرصيف قبالتها ؟

وأصبحت من يومها لا أمر بالدار إلا بصقت تجاهها في غضب ، ثم مرت الأيام ، فأصبح بوسعي أن أضحك كلما مررت بها .

عندما قامت جماعة من نخبة رجال معهد التربية بتنفيذ فكرة إنشاء مدرسة نموذجية بمصر تكون بمثابة مدرسة أرستوقراطية على غرار المدرستين البريطانيتين إيتون وهارو ، أثار الموضوع معارضة قوية صانحة في الصحف ، وفي وزارة المعارف ، بل وفي مجلس الوزراء نفسه ، غير أن الجماعة مضت قُدماً في مشروعها لا تحفل بمعارضة أو نقد ، وأعلن زعيمها عن أهداف المدرسة ونظامها في صراحة وروح من التحدي خليقين بالإعجاب . فالمدرسة لن يؤمها غير أبناء الطبقة الأرستوقراطية في مصر ، (الأرستوقراطية المالية والفكرية) ، ثم عدد من الطلبة من الطبقات الأخرى ممن تشهد لهم المدارس التي كانوا فيها بالنموذج الجم . والمتقدمون بطلبات الالتحاق بالمدرسة يُجرى لهم امتحان دخول بالغ الصعوبة ، فلا يُقبل طلب إلا لمن اجتازه ، ولن يزيد عدد الطلبة بالمدرسة بأي حال من الأحوال عن مائتين ، يلحق بكل فصل ما بين خمسة عشر طالباً وعشرين ، حتى يتسنى للمدرس معرفة تلاميذه معرفة وثيقة ، ويمكن من أن يمنح كل فرد منهم قسطاً وافراً من العناية والإشراف .

فأما دروسها فتختلف اختلافاً بيناً عن الدروس في غيرها ، إلا في السنوات الدراسية التي تنتهي بامتحان شهادة عامة يشترك فيه تلاميذ المدرسة مع تلاميذ المدارس الأخرى ، فهي تهتم اهتماماً فائقاً بالتربية البدنية والأخلاقية والإجتماعية . وفي الأسبوع يومان يتوجه فيهما كافة الطلبة إلى ملعب الحرس

الملكى المجاور للمدرسة بحدائق القبة، ليمارسوا الألعاب الرياضية من الثالثة عصرًا إلى السابعة مساءً. ثم يوم ثالث في الأسبوع للنشاط الاجتماعي، من جمعيات للتمثيل أو التصوير أو الموسيقى أو الرسم أو الكشافة، إلى النادي الإنجليزي الذي حشدت بقاعته كتب الأدب الإنجليزي (أصلية ومبسطة)، وأسطوانات للموسيقى الكلاسيكية، يُحرّم على الطلبة فيه الحديث إلا بالإنجليزية، ويقوم أعضاؤه بتحرير مجلة أسبوعية بتلك اللغة. ويتسبب كل تلميذ إلى أسرة من أربع هي خاصة بالنشاط الرياضي والاجتماعي: أسرة محمد علي (وشعارها اللون الأحمر في ملابس الألعاب) وأسرة صلاح الدين (وشعارها اللون الأخضر)، ثم أسرة أحمدس (وشعارها الأزرق)، وأسرة المعز (وشعارها الأصفر). وتبّارى هذه الأسر في مختلف أوجه النشاط، على أن تمنح كؤوس دورية لأبرزها في كل مجال على حدة.

وأما الغاية المعلنة فخلق طبقة من الشباب أرستوقراطية الثقافة والخلق، تكون أهلاً للقيام بأعباء الدولة المختلفة فيما بعد، من سياسية وفكرية وفنية. وقد ذكر رئيس الجماعة أن «من شأن نظم هذه المدرسة أن تربي في التلاميذ الصغار حسن السلوك والاستقامة الخلقية في جميع الأوقات، في المدرسة وفي البيت وخارجهما، حتى يصبحا عادة راسخة، كما تنمي في نفوس الطلبة الكبار نزعة الاهتمام بشؤون غيرهم، وتعويدهم على تحمل المسؤوليات منذ زمن الدراسة».

لم تفلح انتقادات المنتقدين في زحزحة إدارة المدرسة عن خططها ونظمها قيد أنملة. اتهمها الشيوعيون بأنها من وحي السياسة الاستعمارية البريطانية تربي جيلاً من الشباب ممالئاً في نزعتهم لانجلترا. وعاب عليها بعض الوزراء والكتاب أن خريجها سيجدون أنفسهم أجمل الناس بالشعب المصري، وأقلهم إحساساً بمشاكلهم، وسينمو فيهم ميل قوي إلى الانعزال، وإلى إقامة سد بينهم وبين واقع الأحوال. بينما كتب بعض الصحفيين وعدد من رجال التربية يفرقون بين النمو الطبيعي والتضخم السرطاني، ويشبهون

المدرسة النموذجية بالتضخم السرطاني داخل المجتمع، إذ تسعى إلى خلق جماعة صغيرة من الصفوة، وسط بحر زاهر من جمهور الشعب منخفض المستوى في التعليم والثقافة والطبائع.

فأما الإنتقاد الأول (بأن فكرة المدرسة كانت بإيعاز من بريطانيا) فإني أميل إلى رفضه. وأما الإنتقادات الثاني والثالث فقد ثبتت صحتهما وبعد نظر القائلين بهما إلى أبعد الحدود. لقد تركت المدرسة في نفسي وفي نفوس غالبية زملائي أثراً لا يمحي. وطويلة شاقة هي السنوات التي قضيناها بعد التخرج منها في محاولة الاندماج في المجتمع حولنا ومسايرته وفهمه، وفي محاولة تنمية الاهتمام بالأوضاع السياسية والتحمس لاتجاه دون اتجاه. كنا - ولا نزال - جزيرة في محيط، وهو وضع لا يزال مصدراً هاماً لصنوف التعاسة الحادة، والسعادة العظيمة لنا. ثم جاء سفري إلى إنجلترا للعمل والدراسة، فالتحاقى بالسلك الدبلوماسي واضطراري إلى الإقامة في الخارج من جديد لسنوات عديدة، جاءا بقضيان على البقية الباقية من القدرة على الاندماج والتأقلم.

فالمدرسة النموذجية إذن هي ثاني أهم العوامل في تكويني بعد والدي.

إلتحقت بها أنا وأخي جلال وصديقي ممدوح مصطفى عبد الرازق (سفير مصر الآن في يوغوسلافيا)، فما لبثنا أن شعرنا بعد شهرين أو ثلاثة بأن طلبة هذه المدرسة في جانب، وطلبة باقي مدارس القطر في جانب آخر. لم تكن لتجد بيننا من يدخن، أو من يغازل الفتيات في الطريق، أو من يتفوه بالفاظ فاحشة بذيقة، أو من يفكر في التشويش على مدرس. فهنا أبناء الوزراء، ورؤيس الوزراء، وشيخ الأزهر، ورؤيس الديوان الملكي، وسفرائنا بالخارج، وكبار رجال التربية، ومشاهير الأطباء والمهندسين والأدباء. وهنا مدرسون من طراز مختلف، جميعهم من معهد التربية، والكثيرون منهم حاصلون على شهادة الدكتوراه في التربية من إنجلترا أو الولايات المتحدة. فإن بدر عن أحد الطلبة أدنى إخلال بالنظام وقواعد السلوك، كان استنكار زملاء حوله رادعاً له عن أن

يكرر إخلاله. ثم هذا سيف الرفت وصلت على رقاب الجميع، على أتم أهبة لأن يهوى في أية لحظة ولأهون الأسباب، دون اعتبار لمركز الأب. ثم أنى لنا أن تنتقل إلينا عدوى سوء السلوك من الغير، أو أن نأخذ عن طلبة المدارس الأخرى فاحش الألفاظ وسقيم العادات، وساعات الدراسة والرياضة البدنية والنشاط الاجتماعي تكاد تمتد يوماً إلى غروب الشمس، فلا تترك لنا فائضاً من قوة أو وقت؟.

لا عجب إذن أن يُكَيَّن لنا طلبة المدارس الأخرى عداً ما بعده عداً، وكراهية مرّة، مع تظاهر منهم باحتقارنا تظاهراً أملاه الحقد والحسد. وإذا كان لتلاميذ مدرستنا زي موحد، فاقع اللون، يميزنا من على بعد مائة ياردة، فقد كان لتلاميذ المدارس كلما لمحونا في ستراتنا الأرجوانية في الطريق عدواً خلفنا كي يمحطونا بوابل من السباب حيناً، ومن اللكمات حيناً وهو موقف سرعان ما أشعرنا بقوة بأن لنا وضعاً خاصاً، وأننا من عجيبة خاصة، ما دامت مدارس العاصمة قد وجدت داعياً للتحالف ضدنا.

غير أن هذه الكراهية كانت تبدو على أشدها في أوقات الأزمات السياسية وإضرابات المدارس. ذلك أن مدرستنا لم تكن لتشارك في إضراب قط. فقوانين المدرسة صارمة في هذا الصدد. وتلاميذها ليسوا من الصنف الذي يجيد خطابة أو هتافاً أو سيراً في مظاهرات في الطريق. زد على ذلك أن آباء التلاميذ كانوا عادةً من الذين يوجه الإضراب ضدهم. فها نحن نصغي في فصولنا إلى الطلبة في الشارع يهتفون ضد حافظ عفيفي رئيس الديوان الملكي، أو محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء، وبيننا في الفصل ابنان للآل، وابن للثاني. وكثيراً ما كان طلبة مدرسة القبة الثانوية - بحكم قرب موقعها من مدرستنا - يمرّون أثناء تظاهريهم على مدرستنا يحاولون «إخراجنا» وإشراكنا فيما هم فيه، يصبحون بنا أن «الوطنية فوق العلم»، وأن «يحيّا تضامن الطلبة». فنراقبهم من فناء المدرسة في وجوم وصمت، لا ننبس ببنت شفة، ويراقبوننا هم من الشارع في غضب واشتمزاز. وكان الجرس يدق قبل موعده في مثل تلك

الظروف يدعوننا إلى فصولنا، فئمضي إليها بقلوب ثقيلة منقبضة، لا لأننا كنا راغبين في «التضامن» مع الطلبة، وإنما لكرهاتنا أن نهم في وطنيتنا ورجولتنا. فكان المدرسون يهدثون حزننا وقد فطنوا إلى ما بنا، فيحدثونا عن كيف أن الوطنية الحققة هي في الدراسة والتسلح بالعلم، لا في السير هاتفين في الشوارع أو في قذف الطوب، وكيف أن المستعمر نفسه يسره أن يخرج الطلبة المصريين في مظاهرات حتى تضعف حصيلتهم من العلم، وحتى نظل على حالنا أمة متخلفة، وعن كيف أنهم، أي المدرسين، على أتم استعداد لأن يكونوا أول من يعرض نفسه لرصاص الانجليز لو كان للتظاهر مبرر حقيقي، ونتيجة فعالة. «أما هؤلاء الأوباش فغرضهم الأكبر هو الخروج من المدرسة، وإثارة الشغب حيناً، ثم التوجه إلى دور السينما بعد ذلك». فكانت هذه الأقوال منهم تهدئنا، فنعود بعدها إلى الالتفات للدرس. أما طلبة القبة، فكانوا إذا رأونا نعود إلى الفصول دون أن نتجاوب معهم، يستمرون في الصياح دقيقة أو دقيقتين، يشتموننا ويلعنون آباءنا ويطعنون في وطنيتنا. ثم ينصرفون بعد أن يكونوا قد غيروا بالطباشير من المكتوب على اللوحة النحاسية عند باب المدرسة، فإذا بها:

«المدرسة النموذجية الثانوية... للبنات»!

كان أهم أثر للمدرسة النموذجية في شخصيتي هو الأثر التالي: إذ بينما كانت الزعامة التي استطعت انتزاعها في مدرسة مصر الجديدة زعامة سهلة، كانت كفيلة بأن تجعلني أرضى بالسيطرة الزائفة التي لا قيمة لها، وتبشر بأن أصبح في المستقبل زعيماً سياسياً دجالاً أو شيئاً من هذا القبيل، كان للنموذجية أثرها في تنمية احتقاري للانتصار السهل، وتوجيه اهتمامي كله إلى تهذيب النفس وتقويمها وتقويتها ثقافة حقيقية دسمة. كنت في مدرسة مصر الجديدة عريضاً وزعيماً لتلاميذ لم يربط بيني وبينهم، عدا ممدوح عبد الرازق، صداقة قط، ولم أشعر في يوم من الأيام بأني زميل لهم. أما هنا في النموذجية، فالجميع زملائي، قد نشأت بيني وبين عدد منهم صداقات لا تزال قائمة إلى اليوم.

ومجال التفوق مفتوح دون فرصة للتهريج وفرض السيطرة ، تفوق في الدروس أو الألعاب الرياضية أو التمثيل أو الأدب أو ما شئت . ونظام الامتحانات والدرجات هنا غير معروف . والشهادات تقتصر على ذكر الملاحظات . والترتيب فيها راجع إلى تقدير المدرسين . وقد ظل تربيتي هنا الأول كما كنت . غير أن هذا لم يعد الآن مهماً كما كان . يكفي أن تذكر الشهادة أن شخصيتي «تسير نحو التكامل بخطاً سريعة ثابتة» ، أو أن في أخلاقي وتصرفاتي «رجولة يحمد عليها» ، حتى أرضى وأطمئن . فهنا في هذه المدرسة وأدّت طموحي إلى الشهرة والمجد ، وأصبحت على استعداد لقبول فكرة أن أكون قديساً غافل الذكر ، أو أديباً ممتازاً لا يقرأ كتاباته أحد . فإن جاءت الشهرة بعد ذلك ، فأهلاً بها وسهلاً .



غير أن هذا التطور في شخصيتي لم يأت إلا تدريجاً ، وبعد عام أو عامين من الدراسة في المدرسة النموذجية .

التحقت بها مجهولاً من المدرسين والطلبة ، فكان عليّ أن أبدأ من جديد . وقد كانت معاملتهم إياي في الأيام الأولى ، (معاملة الفرد العادي) تسبب لي الألم واللذة في آن واحد : الألم لجهلهم ماضي ، واللذة لثقتي من أن تصرفاً إثر تصرف يصدر عني . هنا سوف يبين من جديد صرح سمعتي السالفة ، فأثبت أن الشخصية الممتازة لا بد فارضة نفسها على ما حولها أينما حلت :

«He sings each song twice over,
lest you should think he never could recapture,
the first fine careless rapture!».

وقد كان من بين الحوادث الأولى التي لفتت إليّ الأنظار بالمدرسة ، الحادث التالي :

كان زوج أختي ، وهو المرحوم الدكتور عبد العزيز عتيق ، شاعراً . وكانت

له إلى جانب دواوينه، عدة كتب مطبوعة تتضمن تمثيلات شعرية طويلة، كتبها لطلبة المدارس الابتدائية والثانوية، بالاشتراك مع صديق عمره المرحوم سيد قطب، وهو الذي كان قد أشار عليه بالتقدم لخطبة ابنة أحمد أمين. وكان عتيق يعدني أحياناً بمبلغ خمسين قرشاً عن كل تمثيلية طويلة أحفظها من تمثيلياته. فما أسرع ما كنت أحفظها وأسمعها له!

وقد حدث خلال السنة الأولى من دراستي بالمدرسة النموذجية، أن أعلن مدرس العربية أنه قد اختار لفصلنا تمثيلية «صقر قريش عبد الرحمن الداخل» لتمثيلها في حفل نهاية السنة الدراسية، وهي إحدى تمثيليات عتيق وقطب التي كنت قد حفظتها. ثم قال إنه سيقراها علينا أولاً، ثم يوزع الأدوار. وإذ بحث في أوراقه عن الكتاب ليقراً منه، تبين أنه نسيه في حجرة المدرسين، فأمر أحد الطلبة بأن يحضره من مكتبه. غير أنني أسرعت بالوقوف لأعلن بلهجة غير المكترث أنه لا حاجة لإحضارها، نظراً إلى أنني أحفظها برمتها.

— تحفظ ماذا برمتها؟

— التمثيلية.

— تمثيلية «صقر قريش»؟

— نعم.

— تحفظها كاملة؟

— نعم.

وحددجني المدرس والطلبة بنظراتهم، بينما ثبت عيناى على القمطر أمامي.

— فلنسمعها منك إذن.

— الفصل الأول: يرفع الستار عن عبد الرحمن الداخل جالساً مطرقاً محزوناً في حجرته. يدخل عليه خادمه بدر.

عبد الرحمن: إيه يا بدر، ما وراءك؟ قل لي!

هات، قصّ الأخبار في صدق قول! هاتها، هاتها على أيّ شكل.
بلر: ماذا أقول وقد غدونا في الحياة مهتدين.
من معشر نقضوا العهود وأصبحوا في الغادينا!
عبد الرحمن: نقضوا العهود؟
بلر: أجل، وصاروا يقتلون ويظلمونا...
وعهد المدرس إليّ دون تردد بدور عبد الرحمن، إلى جانب مهمة
الملقن لسائر الممثلين.

وقد كانت اللذة القصوى التي خبرتها ذلك اليوم إزاء اندهاش الطلبة
والمدرس، منشطة لرغبتني في إدهاش من حولي بسعة علمي. وكان لزواج
أختي الفضل الأكبر في مساعدتي على تحقيق هذه الرغبة وتوجيهها الوجهة
السليمة. فكان إذا عرف مني الموضوع الذي يتناوله الدرس التالي، سواء في
التاريخ أو الأدب أو غيرهما، جلسنا معاً في الأمسية السابقة، لا لاستذكار
الدرس فحسب، بل وللنظر أيضاً في المراجع المطولة في مكتبة أبي. فإن كان
الدرس التالي في التاريخ عن سقوط الدولة الأموية. وتأسيس الدولة العباسية،
قرأنا في هذا الموضوع في «فجر الإسلام وضحاها».

وإن كان الدرس التالي في اللغة العربية في المعلقات السبع، حدثني
عتيق عن خلف الأحمر وحماد الراوية، وعن احتمال أن يكون الكثير من الشعر
الجاهلي - كما ذكر طه حسين في كتابه الشهير في الموضوع - قد وضعه
الرجلان في بداية العصر العباسي ونسباه إلى الشعراء الجاهليين، ثم عن فائدة
هذا الشعر الموضوع مع ذلك في التعرف على أحوال العرب قبل الإسلام.
فكنت إذا حل وقت الدرس؛ أتمحين الفرص للإدلاء أثناء بما أكون قد حصلته
من معلومات، وإنشاد ما أكون قد حفظته في الليلة السابقة من قصائد. ولا أزال
أذكر التعبير على وجوه الطلبة ومدرس الدين حين فرغ من قراءة خطبة جعفر بن
أبي طالب أمام نجاشي الحبشة، فقامت أسرد البراهين التي وردت في كتاب

أبي «فجر الإسلام» على أن هذه الخطبة لا بد وأن تكون منسوبة كذباً إلى جعفر، ومنها أنه قد ورد بها ذكر الصيام الذي لم يفرض على المسلمين إلا بعد مرور سنوات طويلة على المناسبة التي يزعمون أن هذه الخطبة قد أُلقيت فيها.

— هذا جائز، (هكذا قال المدرس مرتبكاً وقد ساءه أن يتشكك الطلبة في قيمة الخطبة بعد الذي سمعوه)، ولكنها مع ذلك قيمة في حد ذاتها إذ توضح لنا حال المسلمين في ذلك الوقت، وما لاقوه من أذى الكفار، وطريقة استمالتهم لنجاشي الحبشة.

— هذا حق، (هكذا قلت)، ثم جلست. وطفق المدرس يرمقني بعدها صامتاً بعض الوقت، لا يدري أيهنثني على ما فعلت، أم يفترسني افتراساً. وجاء إذ كنت في الثانية عشرة يوم عيد، وقع فيه حادث كان له أثر مفاجيء في حياتي استمرقابة عامين.

كانت لي ابنة عمة في الخامسة عشرة تدعى نعيمة. كانت جميلة براقعة العينين، تفيض ذكاء وحيوية وصحة ونشاطاً. لم يكن بوسعها، إن جاءت لزيارتنا مع أمها، أن تجلس في مكانها دقيقتين متواليتين. فكانت تتسلح عذراً أو آخر حتى تخرج من الصالون، وتدخل علينا حجرة المكتب، لا نكاد ننتهي للنهوض لمصافحتها حتى نجدها قد أقفلت كتبنا وكراسينا في مثل لمح البصر، وهرعت نازلة إلى الحديقة دون أن تلتفت خلفها، واثقة من أننا ستنعها على الفور. وفي الحديقة، كانت تتولى دون منازعة مكان الزعامة في ألعابنا، رغم حضور من يكبرها في السن بين إخوتي. فهي التي تأمر وتنهاي، وتقترح الألعاب، وتختار أعضاء الفريقين، وهي التي يحتكم إليها في أمر كل من يتهم بالغش أو الخطأ. فإن عبرت عن رغبتها في عنقود عنب، تسابق الصبية منا بصعدون التكمية لتلبية طلبها. والغريب أنه بالرغم من أنها كانت نادراً ما تضحك (بالعكس، كان وجهها يكاد يكون دائم التقطيب)، فقد كان مجرد وجودها كفيلاً بأن ينشر بيننا جواً من المرح والسعادة والحيوية الزائلة.

ثم حدث أن زارتنا الفتاة مع أختها الكبرى يوم وقفة عيد الأضحى .
واتفقنا، أخي أحمد وأنا، مع الفتاتين على أن نلتقي قرب موقف المترو بشارع
عماد الدين في الساعة التاسعة من صباح العيد للذهاب إلى السينما معاً . وفي
صباح ذلك اليوم المشؤوم، كنت وأحمد في الانتظار على الرصيف المواجه
للموقف، حين شاهدنا نعيمة وأختها في المترو القادم تستعدان للتزول . . . لم
يكن القطار قد وقف بعد، وكان سلم التزول في غير الجانب المواجه للرصيف
الذي كنا عليه . . وإذا التفتُ إلى أحمد أعيد عليه رجائي أن نذهب إلى فيلم
«أحذب نوتردام» بدلاً من فيلم «شبح الأوبرا» الذي اقترحه، إذا بنا نسمع صرخة
نسائية مدوية، وصيحات رعب من الركاب والمارة عند الجانب الآخر من
القطار، وزمارة المحصل تصرخ منبهة السائق أن يتوقف . وإذا حشد من الرجال
قد تجمع قرب السلم، قد انحنوا على شيء عند العجلات .

صاح أخي بي في حدة:

— قف هنا مكانك وإياك أن تتحرك . أسمع ؟

ثم عدا يعبر الطريق، بينما تسمرت في مكاني أرعد . كان يقصد بطبيعة
الحال ألا أتبعه إلى قطار المترو حتى لا أشاهد الحادث ومن سقط فيه . غير أن
رغبة مخالفة تماماً كانت تعمل في نفسي في تلك اللحظة: الرغبة في أن أفر
في الاتجاه المضاد . كنت أشعر دائماً بأنني لو تجنبت الأزمة، أية أزمة من
الأزمات، وتغيبت عن مكانها مدة كافية، لوجدتها عند عودتي قد حلت حلاً
مرضياً، أو خفّت وطأتها على الأقل . . . والتفت إلى اليسار، فشاهدت المترو
المتجه إلى مصر الجديدة يغادر المحطة . فإذا بي أعدوحتى أبلغه، فأقفز فيه .

قلت لنفسي وما زلت ألتقط أنفاسي :

— سيعود أحمد إلى البيت في الثانية، فيسألني موبخاً أين اختفيت وقد
طلب مني الانتظار، ويخبرني أنه بعد البحث عني توجه إلى السينما مع نعيمة
وعائشة، ثم يثني على فيلم «شبح الأوبرا» ويقص علي قصته، ونجلس إلى

الغداء كالعادة . سأشعر حينئذ ببعض الندم إذ قد ضاعت عليّ نزهة الصباح .
غير أن الفرح بأن كل شيء على ما يرام ، سيكون أضعاف الندم .

غير أن كل شيء لم يكن على ما يرام . عاد أحمد في الواحدة . سمعته
وهو يصعد السلم يسأل الخادم عني فأجابه بأنني قد عدت . فلما دخل الصالة
ورأني قابلاً في ركن منها في خجل ، ألقى عليّ نظرة غاضبة ، ثم دلف إلى
حجرة أبي دون أن يوجه إليّ كلمة .

وشاع الخبر بعد لحظات . لقد سقطت نعيمة تحت عجلات القطار
وقطعت ساقها .



لم أر نعيمة بعد ذلك اليوم قط ، رغم أنها عاشت بعده نحو عشر سنوات .
غير أن القصص والشائعات التي تواترت إلينا عنها طوال تلك المدة لم تكن
تعرف حداً :

ذكر لنا أنها ما سمح لها بالعودة من المستشفى إلى بيتها حتى اختارت
لنفسها غرفة منعزلة منه ، لازمتها ملازمة أبي العلاء داره ، لا تخرج منها قط ،
ولا تسمح بدخولها إلا لأمها وإخوتها . كانت النوافذ دائماً مغلقة ، لا تريد لضوء
النهار أن ينير ما بالداخل . بل قيل لنا إنها ظلت مدة عامين تأبى النوم على
السريр ، وتنام على الأرض في قميص رفيع صيفاً وشتاءً . وقيل إنها لم تكن
تسمح لأحد أن يكس الغرفة ، وإنها كانت تجمع التراب وتحافظ عليه محافظتها
على شيء ثمين ، وقد رفضت قبول الكرسي ذي العجلات الذي جاءها والذي
به . ثم وصل إلينا أنها أصيبت بالسل ، وأنها قبلت بعد إلحاح أمها وبكائها أن
تستخدم السرير في النوم ، وأن تلبس الصوف . وشاع الاعتقاد في العائلة بأن
الفئة قد جنت .

وتمر سنوات تسع ، فإذا بأبي وقد وصلته في يوم من الأيام رسالة طويلة

من نعيمة، يدفعها إلينا لقراءتها وهو يهز رأسه في عجب. كانت الرسالة من أربع عشرة صفحة، كتبت بخط أنيق جميل، ولم يرد بالخطاب كله (وهو بالعربية الفصحى) خطأ نحوي واحد. كان عبارة عن نقد شامل لمؤلفات والذي في مجموعها، لأسلوبه ومنهاجه في التفكير وطبيعة الموضوعات التي اختار أن يكتب فيها. نقد جميل لا يخلو من عمق، ولا توحى أية جملة منه برغبة في إطراء أو إيلاء. أذكر منه:

« عرضت تطور الحياة العقلية للمسلمين في كتبك الأولى - وهي كتبك التي سيقدر لها البقاء في رأيي - فاستطعت أن تفرض نفسك على الحياة العلمية فرضاً، وأن تصبح ثقة في تاريخ الثقافة الإسلامية. . . . غير أنك أخطأت في تقدير قواك وطبيعة مواهبك، فظننت أن باستطاعتك أن تنتج في كل شيء، وأن تسبق كل شيء، كما أسغت تاريخ الفكر الإسلامي وحضارة العرب. وما أنت اليوم تكتب فيما ينبغي ألا يكون لك به شأن، فأصبحت كتاباتك لا تطفئ ظمأ ولا تشبع نهماً، تاركاً شمس كتبك الخالدة، فجر الإسلام وضحا وظهره، معلقة في السماء، تريد لها أن تكمل دورتها. . . . »

ورد عليها أبي معتذراً:

« . . . لقد كان في نيتي أن أسير في السلسلة عصراً فعصرأ إلى يومنا هذا. ولكن شاء القدر أن أصاب في نظري بما جعل الأطباء يحرمون عليّ كثرة القراءة، وخصوصاً في الليل. والاستعانة بالغير لا تكفي. فقد كنت أستطيع أن أتصفح الكتاب الكبير في ساعات، فأقف منه على ما يلزمني وما لا يلزمني. أما قراءة الغير فلا تجزني هذا الإجزاء. . . لذلك وقفت عن العمل في تلك السلسلة، وبدأت أؤلف كتباً أساسها تجارب ومطالعات سابقة مما ادخر في الذهن على توالي الأيام. . . . »

ومن يومها بدأت بين أبي وبين نعيمة مراسلات تكاد تكون أسبوعية. أخبرنا أهلها (حين ذكرنا لهم رسائلها) ، أنها لم تنقطع طوال السنوات السابقة

عن القراءة، تنفق على الكتب ما يخصصه لها أبي من مصروف شهري، وأنها قد باتت تتقن العربية والفرنسية إتقاناً تاماً. ولم تكن تقتصر في رسائلها على الحديث في الكتب، فكانت تتحدث كثيراً في الجنس، مودة آراءها في الزواج والحب، دون أدنى إشارة إلى نفسها. وقد كانت آراؤها في غير الكتب ساذجة في تحمسها، سطحية في مثالياتها. وأخبرتنا أمها بعد أشهر أن ترسلها مع أبي كان له أثر طيب في رفع روحها المعنوية، وأن فكرة الخروج من غرفتها إلى العالم، وأن تنشر بعض ما تكتب في مجلة والدي «الثقافة»، بدأت تخامر ذهنها.

ثم جاءنا أنها خرجت، وأنها أصيبت في الطريق بنوبة قلبية، ماتت على أثرها.



لا أستطيع القول بأن الألم الناتج عن حادث سقوط نعيمة تحت عجلات القطار كان كافياً لتبرير ما طرأ على تفكيري وأسلوب معيشتي من تغير جوهري. لقد هزتني مأساة الفتاة، وكنت أحب صحبتها. غير أن الحادث وحده لا يفسر ذلك التدنيس العنيف المتطرف الذي بدأ معي بعده يوم واحد، واستمر عامين، والذي ترك وراءه حين خفت حدته أثراً لا رجوع فيها.

كانت الحالة أقرب إلى الهوس الديني منها إلى التدنيس.

بدأت فجأة في أداء الصلوات الخمس في أوقاتها وعلى نحو منتظم. ثم قرأت أن هارون الرشيد كان يصلي مائة ركعة في اليوم الواحد. وإذا كنت أسمع دائماً من والدي عبارات الإزرار بهارون الرشيد، قلت لنفسي إنني لست دونه، فالتحذت في الصلاة مائة وعشر ركعات في اليوم. فإن تبقى لي من الوقت بعد المدرسة والمذاكرة والصلاة ما يسمح بالقراءة، أقبلت على تلاوة القرآن وصحيفي البخاري ومسلم وقصص الأنبياء وسير الصحابة والتابعين، مستبعداً ما كنت شديد الشغف به من روايات جرجي زيدان ونجيب محفوظ. واطلعت

أثناء قراءتي في التاريخ الإسلامي على قصة حرق مكتبة الاسكندرية، واتهام بعض المؤرخين الأوروبيين لعمر بن الخطاب بأنه هو الذي أمر بإحراقها، «إذ كان يعتقد أن القرآن قد تضمن كل شيء». وبالرغم من أن ما قرأته كان دحضاً لهذا الاتهام، فإن فكرة إحراق الكتب راقنتني. فإذا بي في بعض الأحيان - وإن لم تكن أحياناً كثيرة - أستل من مكتبة والذي بعض ما أعرف من الكتب أنه يتضمن أفكاراً إلحادية، ومن مكاتب إخواني بعض المجلات التي تحوي صوراً لنساء في ملابس البحر، وأتسلل بها إلى سطح المنزل، أصب عليها نقطاً من الجاز، ثم أشعل النار فيها متمتماً ببعض الآيات القرآنية.

تميزت شخصيتي خلال تلك الفترة بالفتامة الكثيرة والجدية المفرطة، لا أعرف مرحاً أو ضحكاً أو لهواً. وعرفت أثناءها بثقل الدم الشديد. فما من موضوع يفتح أمامي إلا حولته إلى الدين، وذكرت حكم الشرع فيه، وما قد يكون للنبي من حديث بصدده. وما من سلوك يبدر من أحد إخواني أخال فيه تعارضاً مع الدين إلا حاولت أن أقومه بلساني أو بقلبي. وقد ضج إخواني في النهاية مني، ومن سعيي إلى هدايتهم إلى الطريق القويم. فتحول صبرهم عليّ إلى سخرية مني، ملقبين إياي هازئين بالشيخ حسين، كلما شعروا بأنني في سبيل الوعظ صاحوا: «اللهم اجعلنا من بركاتك يا سيدنا الشيخ!». فكانوا بذلك يفلحون في إسكاتي، وأراني أستعيد وقتها في ذهني ذكرى صبر النبي على ما لاقاه من أذى المشركين من قريش.

... في الليل، حين آوي إلى فراشي الذي أشارك فيه أخي أحمد، كنت أتمتع مدة طويلة بعدد من الآيات القرآنية بصوت خفيض، فلا يسمع منها غير «بسبببسبس». فيصيح بي أحمد حين يبلغ به الضجر مبلغه:

— كفاية بسبسبة، الله يقلب دماغك!

ويصحب طلبه بركلة قوية من قدمه أو ضربة بركبته. فإن لم أسكت قام

مزمجراً إلى أبي يرجوه أن يأمرني بالسكوت. وأسمع صوت أبي من الصلاة
يهتف بي :

— نَمْ يا حسين !

فأتردد عندئذ بين الطاعة وبين عدم إطاعة الوالدين فيما يأمراني به مما
يخالف الدين . ثم أطيع .



قضينا صيف أحد هذين العامين بالاسكندرية في شقة من عمارة كان
أصحابها يسكنون الطابق الأول . كانت العائلتان تتزاوران يومياً ، وقد نشأت بين
فتيات عائلة المؤجر وشبان عائلة المستأجر علاقات وثيقة كان والد الفتيات
يغض عنها - أولعله كان يشجعها - على أمل أن تنتهي شهور الصيف بزواج .
فأما الأرجح فهو أن إخواني لم يستمتعوا بصيف استمتاعهم بذلك الصيف . وأما
المؤكد فهو أنني لم أخبر من العذاب ما خبرته فيه . هُييء إليّ أن المكان أشبه
ببابل مصغرة : الفتيات ما بين صاعدة تجري ، وهابطة تعدو ، هذه تلبس
(الشورت) ، وتلك يهتز ثدياها اهتزازاً عنيفاً مع كل سلمة تهبطها ، وثالثة تلبس
(بلوزة) لا تدري ألستها للستر أم للكشف . وكان شعوري إزاء ما أرى شعوراً
مختلطاً : فأنا أطيل النظر إلى (البلوزة) ما في ذلك شك ، وإلى الصدر يعلو
ويهبط عند نزول صاحبه الدرج . بدليل ما أردده بعدها في السر من دعاء . غير
أن نومي كذلك قد بات مضطرباً ، أظل أتقلب من جنب إلى جنب حتى أسمع
أذان الفجر فأقوم للصلاة .

دخلت عليّ يوماً إحدى تلك الفتيات الصالة فوجدتني أجلس إلى النافذة
مقطباً ، وفي الصالة ابن خالة لي . قالت له الفتاة :

— تراهني أنني سأجعل ابن خالتك هذا ييتسم ؟

أجاب ضاحكاً :

— أراهنك !

فأخرجت من حقبة يدها إصبع (روح)، وفتحته، وسارت به إليّ تريد أن ترسم به عليّ وجهي. وبالرغم من أنني ابتسمت من قبل أن يلمس الإصبع وجهي، رافعاً يدي لمنعها، فقد صممت على تنفيذ ما أرادته وانحنيت بجسمها كله عليّ تتظاهر ومحاولة التغلب على مقاومتي... احمر وجهي وانتفض جسمي انتفاضات سريعة من الاضطراب. غير أنني تمنيت في نفس الوقت أن يطول الصراع المصطنع. وأحسّت هي باضطرابي فزادها ذلك إلحاحاً. ثم إذا بي وقد صدرت مني حركة عنيفة لم تكن الفتاة تتوقعها، فإذا بها تتعثر إلى الخلف، وتسقط على الأرض سقطة ارتضم لها رأسها برجل كرسي رطمة قوية، فقامت ممسكة رأسها بيدها، وأدبرت خارجة تلعن غاضبة محنقة.

حتى تخيلي للجنة التي كنت سأدخلها يوم القيامة، لم يكن يخلو من العنصر الجنسي. فالحور العين هن أول ما يقفز إلى مخيلتي، لا يفوقهن في الأهمية غير رضا الله عز وجل. فإن قرأت في تاريخ الأمويين والعباسيين وقررت في نفسي أن أدعو الناس حين أكبر إلى العودة إلى ذلك النمط من الحياة الذي عرفه السلف الصالح، وجلست أتخيل هذه العودة لوتمت، كان أول ما يتبادر إلى ذهني صورة الجواري في ثياب فضفاضة شفافة وأوضاع ساحرة خلابة، بينما أجلس بينهن على الحشايا أستمع إلى غنائهن وعزفهن.

وتطورت الحال معي إلى الوسوسة والخزعبلات. أضع في فمي قطعة من الحلوى فلا أكاد أذوقها حتى يهتف بي هاتف أن الله يريدني أن ألقىها من فمي. وأسير في الطريق فأقول في نفسي إن الله يريدني أن أدور حول هذا العمود أمامي ثلاث مرات، فأفعل دون أن أعبا بما قد يظنه في المارة من خبل. وأدخل السينما فلا يكاد الفيلم يبدأ حتى أتوهم أن الله لا يريدني أن أشاهد هذا الفيلم، فأغمض عيني وأحني رقبتني حتى يظن الجالس إلى يساري أنني مريض فيعرض مساعدته عليّ. وقد أعارني أحدهم خلال ذلك الصيف كتاباً يحوي عدداً من الأحاديث الموضوعة المنسوبة إلى النبي! كان غذاءً جديداً من الخرافات.

واضطرب أبي في النهاية إلى التدخل حين رأى حالي يتطور من التدين إلى الهوس. ففتح كتبه وكراساته ليخصص الساعات الطوال لإقناعي بأن ما أنا فيه ليس من الدين في شيء، ويسرد القصص عن سماحة الرسول ومرونته وسعة أفقه.

في السينما، كنت أغمض عيني دائماً عند مناظر القبلات وما شابهها، عدا مرة واحدة (كانت في أواخر العام الثاني من ذلك الطور) أثناء فيلم «فتى من بروكلين» لداني كاي، لم أستطع أن أحول بين نفسي وبين الحملقة أكثر مما ينبغي في بطله الفيلم، حملقة أشعرتني لأول مرة بقرب تصدع البناء الذي استغرق عملي فيه نحو عامين.

عندما اكتشفت جماعة منا بالمدرسة الابتدائية شيئاً اسمه الشفرة، فكرنا في تكوين جمعية سرية نستخدم الشفرة فيها. وإذ أنه ما من حاجة إلى استخدام الشفرة في جمعية موالية للحكومة، فقد قررت جمعيتنا أن تكون مناهضة لها. وقد اجتمع خمسة من التلاميذ، كنت أحدهم، في غرفة بمنزلنا خافتة الإضاءة (تعمدنا أن تكون خافتة الإضاءة لتكرار استخدام الصحف في ذلك الوقت لعبارة «الذين يعملون في الظلام»، وهي عبارة ألهمت مخيلتنا دون أن نفهم معناها بدقة). فوضعنا في الجلسة الأولى رموزاً للحروف، ودوّننا كل منا في مفكرة جيب صغيرة، وفي الجلسة الثانية قواعد اختيار الرئيس والوكيل وأمين الصندوق وانتخابهم في اقتراع سري، وحلفنا في الجلسة الثالثة يمين الولاء للجمعية أمام الرئيس، وحددنا قيمة الاشتراك الشهري ثلاثة قروش.

فأما الغرض الأساسي للجمعية فقلب نظام الحكم بالقوة، وإجبار الملك فاروق على التنازل عن العرش والاستيلاء على أمواله، وطرده هو وأمه وأخواته من البلاد مع منحهم مرتبات شهرية كافية. وقد اقترح أحد أعضاء الجمعية إعدامهم، أو (إعدام الملك على الأقل). غير أننا أقنعناه بضرورة ضبط النفس، لتجنب الظهور بمظهر سفاكي الدماء. وناقش المجتمعون شكل نظام الحكم

الجديد: جمهورية أم ملكية مستنيرة. وقد كنت أميل إلى إعلان ملكية مستنيرة (لغرض خفي في نفسي لم أفصح عنه). غير أن الباقين أبدوا شكل الجمهورية. فأما عن الوسائل التي ستبناها الجمعية في سبيل تحقيق أهدافها، فكتابة المنشورات (بخط اليد إلى حين التمكن من شراء آلة كتابة)، ووضعها سرّاً في صناديق البريد بالعمارات التي نسكنها أو نزورها، وكتابة شعارات «يسقط الملك» و «تحيا الجمهورية» على حيطان دورات المياه بدور السينما وما يشابهها (أي يشابه دور السينما)، ومحاولة إقناع من نتوسم فيه الخير، والروح الثورية، وحب الوطن، بوجوب العمل على إسقاط الملكية، مع التزام الحيلة والحذر حتى لا نضع ثقتنا فيمن ليس أهلاً لها. كما تعهد ثلاثة منا كتابة بالالتحاق بعد إتمام الدراسة الثانوية بالكلية الحربية، لضمان تأييد الجيش للثورة ووقوفه خلفها، أو إقناعه، على الأقل، بالامتناع عن التدخل.

كان الاجتماع الرابع مخصصاً لدراسة النظم التي نريد تطبيقها عقب التخلص من الملك. وقد واجهنا هنا صعوبة لم نواجه مثلها وقت وضع الشفرة وانتخاب مجلس الإدارة. فمعلوماتنا ضئيلة في هذا الصدد، والقول بوجوب تحقيق عدالة اجتماعية في ظل النظام الجديد، والقضاء قضاء مبرماً على الفقر والجهل والمرض لم نجده، مع صغر سننا، كافياً. فقد كانت تتناهى إلى أسماعنا، وتقع تحت أبصارنا، عبارات شتى عن الشيوعية والرأسمالية واشتراكية إنجلترا واشتراكية الإسلام، فهمنا من مجموعها فهماً غامضاً أن العدالة الاجتماعية هنا ظلم اجتماعي هناك، وأنه قد أصبح من المضحك أن يطالب المرء بالعدالة الاجتماعية على إطلاقها، دون أن يحدد أي نمط منها يريد. ولم يكن يعقل أن تتخذ جمعية سرية من الرأسمالية مبدأ لها. لذلك ترددت الجماعة في اجتماعها الرابع هذا بين الشيوعية واشتراكية إنجلترا. أراد اثنان منا اشتراكية إنجلترا. غير أن ما كنا نقرأه في الجرائد في ذلك الحين عن ضبط خلايا شيوعية، واتهام أفرادها بحيازة المطابع السرية وتوزيع المنشورات،

مال بالثلاثة الآخرين إلى اختيار الشيوعية، فأقررناها مبدأ للجمعية. وكان نصيراً اشتراكية انجلترا من الأدب وسلامة الذوق بحيث رضخا لقرار الأغلبية، ولم يتعنّتا في التشبث برأيهما.

وبدأنا نجتمع المعلومات عن الشيوعية. فالفكرة الوحيدة في رؤوسنا عنها هي أنه ليس في النظام الشيوعي غني أو فقير، وأن الكافة متساوون في الدخل. وهي فكرة لا تكاد تكفي وحدها لوضع أنظمة ومجموعات قوانين أو حتى لدستور. وإذ كنت أعلم أن أحد أصدقاء والدي، وهو المرحوم مفيد الشوباشي، شيوعي، فقد انتهزت فرصة مقابلي له في أحد الاجتماعات الأسبوعية للجنة التأليف والترجمة والنشر، وسألته عن خير كتاب في الشيوعية يوصى بقراءته. أجاب بلا تردد:

— رأس المال لكارل ماركس!

واشتريت في اليوم التالي ترجمة الدكتور راشد البراوي للكتاب، وجلست متلهفاً لقراءته، مسلحاً بالورق والقلم كي أنقل مقتطفات منه يمكن استخدامها في المنشورات. فلم يحدث أن صادفت في حياتي ما هو أصعب على الفهم، ولا أثقل ظلاً ولا أبعث على السأم وأدعى إلى التأثب والملل من ذلك الكتاب. (والظاهر أن هذا الانطباع الأول عن الكتاب كان من القوة بحيث حال دون بذلي لأية محاولة لاحقة لقراءته حتى يومي هذا).

غير أن اعترافي أمام أعضاء الجمعية في اجتماعهم الخامس باستحالة فهمي لمضمون «رأس المال» لم يوهن من عزمها أو يثبط من حماسها. واستمرت الجمعية في نشاطها العملي ثلاثة أسابيع كاملة لا تعرف الكلل أو الملل. وكان أهم ما أنجزته خلال تلك الأسابيع، قصيدة قمت بنظمها على وزن قصيدة لأحمد شوقي كانت أم كلثوم تغنيها في ذلك الحين في مدح

الملك :

المُلك بين يديك في إقباله
عوذت مُلكك بالنبي وآله
عارضتها بقصيدة مطلعها :

عرش ينوء الشعب تحت ظلاله
وترى بإذن الله شر مآله
وغد وأنت الوغد في أخلاقه
تيس وأنت التيس في أعماله
يرديك نصرانيه بصليبه
والمنتمي لمحمد بهلاله

وفي نهايتها :

ثوروا على هذا المليك وآله
واقضوا على الحشرات من أمثاله

وقد أكبر الرفاق هذه الموهبة في النظم عندي وأدركوا أهميتها في جمعية
كجمعيتنا وفي تعبئة الرأي العام . فقاموا بنسخ عشر نسخ منها لتوزيعها على
نطاق واسع ، غير أن حادثاً مؤسفاً وقع لأحد زملائنا أثناء تأديته لواجبه الوطني .
ذلك أنه وهو في طريق عودته من المدرسة ، دلف خلصة إلى إحدى العمارات
الكبيرة كي يودع نسخة من القصيدة في أحد صناديق البريد . وإذ مد يده بالورقة
إلى فتحة الصندوق ، شعر بيد غليظة على كتفه تستوقفه ، هي يد بواب العمارة ،
وأخذ البواب القصيدة منه يقرأها دون أن يدعه يفلت من قبضته . فما وصل إلى
«ثوروا على هذا المليك وآله» حتى رنت على قفا الرفيق صفعه مدوية قوية ،
تلتها قرصة في الأذن ولكمة في البطن ، مع سيل من السباب البذيء ، والتظاهر
بنية استدعاء الشرطة . وبالرغم من أننا عزيزنا صديقنا في اليوم التالي بأن ستالين
سجن ست مرات ، وأمثلة أخرى مما يلاقيه المناضلون في كل مكان من تعذيب

وتنكيل واضطهاد، وبأن بواب العمارة الذي هو في حقيقة أمره من الكادحين لم يدرك بعد أن مثل نشاطنا هذا في مصلحة طبقته، فإن حماس الزميل للجمعية طرأ عليه من يومها فتور ملحوظ، لم يلبث أن انتقلت عدواه إلى بقية أفرادها، فلم يمض شهر على إعلان تأسيسها حتى أعيدت إلى كل عضو بها القروش الثلاثة التي كان قد دفعها، بعد خصم حصته من النفقات الإدارية.



ثم تلت ذلك فترة العامين من التدين الشديد. وقد التقيت خلالها في الاسكندرية بزميل لي في المدرسة في مثل تديني يدعى خليفة. كنا نلتقي كل صباح فنسبر جيئة وذهاباً على شاطئ ميامي، كل يشير للآخر إلى ما يصادفنا من مناظر لا يرضى عنها الدين، ثم نعبر معاً عن استنكارنا لها، مستعيزين بالله منها، ونحاول أن نلفت أنظار النساء في ملابس البحر إلى تعبير الأشمزاز على وجوهنا. وخطر لخليفة يوماً أن نتقم للدين من كل هذا الفجور الذي يملأ الشاطئ، وأن نقدم على عمل يرى فيه هؤلاء البابليون يد الله وغضبه. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، التقينا في مكان محدد بالشاطئ وقد أتينا بمجموعة من الخرق الصغيرة وقدر من الجاز وأعواد الثقاب. فكنا نشعل النار في الخرق، ونلقي بها في الكيئة من إحدى فتحات نوافذها، ثم نتقل إلى الكيئة التالية. فعلنا هذا في ست من الكبائن أو سبع، ثم عدنا لاهئين إلى البيت نرتقب وصول الأخبار إلينا عن «حريق هائل يجتاح الشاطئ» فلما قصدها عند الظهر، إذا الأمور تجري فيه كالمعتاد.

ثم بدأ العام الدراسي الجديد فجددت صلاتي بخليفة. وقد لاحظت منذ الأيام الأولى أنه يقتصر في صلاته بالمدرسة على خمسة أو ستة من الطلبة ذوي طابع خاص يميزهم عن غيرهم. فهم أعف الطلبة لساناً وأعزفهم عن اللهو والهذر، وأقلهم اعتناءً بالملبس. فإن كانوا لا يتمتعون بذكاء كبير، ففي جدهم واجتهادهم عوض عن الذكاء. وهم يلتزمون في علاقاتهم بقدر من السرية

عظيم، وكثيراً ما نراهم في أوقات الفسح متحين ركناً من أركان حديقة المدرسة يتحدثون بصوت خفيض، لا يشاركون رفاقهم في لعب البلي والجري والضحك. فإن انضم إليهم غريب شعر من فوره أنه قطع عليهم حديثهم الخاص. وهم في معاملتهم لمن ليس في حلقته يتخذون سمت التنازل شأن الأخ الكبير العاقل. وبالرغم من أنهم كانوا يبادرون بمد يد المساعدة إلى كل من احتاج إليها، فقد شاع بين الطلبة وصفهم بثقل الدم. وقد ميزهم عن غيرهم أنهم كانوا إذا ذكروا النبي، أو ذكر النبي في حضرته تمتموا على الفور: ﷺ، فعرفوا لذلك في المدرسة بجماعة ﷺ.

عرفني خليفة بهم فكرهتهم منذ اللحظة الأولى: ربما لتفضيل خليفة لهم عليّ، وربما بسبب لهجة التعالي والإرشاد التي كانوا يتحدثون بها إليّ، بل ربما لأن شعوري نحو خليفة نفسه كان قد أخذ يتغير لإحساسي بأنه يعاملني معاملة الهادف إلى أمر، وأنه يتبع أساليب مرسومة للوصول إلى هذا الهدف، وكأنني أداة يمكن استخدامها بعد علاجها.

بدأ بأن سرد عليّ قصة حياته: كيف أنه كان فاسداً شريراً (كان وقتها في الرابعة عشرة من العمر!)، ثم كيف أنه مرض مرضاً خطيراً كاد الأطباء يأسون من شفائه منه. غير أن الله تعالى شاء له النجاة فإذا به يقوم من فراش المرض إنساناً غير الذي كانه. وها هو أبوه (وهو قاض شرعي) يقرأ معه أثناء فترة النقاهة كتاب الغزالي «المنقذ من الضلال» ويشرحه له فإذا الكتاب نور أضاء له عقله وقلبه. فعرف الحق وأقسم ليكرس حياته لتعريف الآخرين به. ثم قال عني إني أشبه في الملامح شقيقاً عزيزاً له اختطفه الموت في ريعان شبابه وأنه لذلك يكنّ لي مودة خاصة، ويريد أن يفيدني من تجاربه وثمار تفكيره (كنا في سن واحدة) موفراً عليّ الآلام الشديدة التي عاناها قبل أن يدرك الحق. وقد كان لخليفة هذا فضل تعريفي في ذلك الوقت بكتابات ابن تيمية وابن حزم، وهي الكتابات التي ظلت الأثرة عندي من بين كافة كتب التراث الإسلامي إلى يومي هذا.

ثم إذا به في أحد الأيام يتحىي بي في جانب الفناء أثناء فسحة الظهر ويقول:

— أسمع عن الأستاذ الشيخ حسن البنا؟

— زعيم جماعة الإخوان المسلمين؟ قد سمعت به.

— وما رأيك فيه؟

— كل ما أعرفه عنه أنه نشر منذ أسبوعين في جريدة الإخوان خطاباً مفتوحاً إلى أبي يعرض عليه فيه الانضمام إلى الجماعة، ويقول إن مكاناً ينتظره في الصف الأول من صفوفها.

قال فجأة:

— أتحب أن تقابله وتسمع منه؟

— وكيف لي بذلك؟

— سيحضر هذا المساء إلى بيتنا لزيارة أبي، وهو يرحب دائماً بمقابلة الشباب.

— ليس لديّ مانع.

واستأذنت أبي عصراً في الذهاب، فتردد لحظة يفكر، ثم أذن لي، على أن أسرد عليه عند عودتي ما دار من حديث، ثم قال وأنا أتأهب للانصراف:

— إن سألك الشيخ البنا لماذا لم أجب على خطابه المفتوح، فقل إنه لا علم لك بالموضوع.

* * *

في شقة خليفة بحّي كوبري القبة، كان الشيخ حسن البنا جالساً مع أربعة أو خمسة من الضيوف الآخرين في حجرة الاستقبال عتيقة الطراز، وقد كسيت مقاعدها بالقماش الأبيض. كانوا فيما عدا الشيخ البنا، يحتسون القرفة. وإذ

عرّفهم خليفة بي، ذكر للشيخ البنا أنني ابن الأستاذ أحمد أمين، فأبدى الشيخ على الفور دلائل الاهتمام، وخط بكفه الغليظ ثلاث مرات على حشية الكرسي المجاور له إشارة إلى أن أجلس بجانبه.

ثم واصل حديثه مع أحد الحاضرين:

— المسألة يا مولانا خلافية إلا فيما يتعلق بالطعام والشراب. فالحديث متفق عليه والنهي شديد. والنبي ﷺ يقول: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما»، ويقول «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم» ولا قياس مع النص، ولا مناص من الامتثال.

أجاب محدثه:

— يا أستاذ، أنا أحكم بقوانين نابليون، وفضيلة القاضي يحكم بالكتاب والسنة، وكل منا ملزم بشريعته
— الأمر إنما جاء للمسلمين عامة وأنت واحد منهم.

ثم التفت الشيخ البنا فجأة إليّ:

— إذن فأنت ابن أستاذنا الجليل أحمد أمين. لقد قرأت كل حرف كتبه أبوك مرات ومرات، وأقولها مشهداً الله على ما في قلبي إنني أراه قد استكشف تاريخ الحياة العقلية للمسلمين استكشافاً لم يسبق إليه.

كان يتكلم بصوت جهوري عميق، وبسرعة عجيبة وكأنما يسمع لنفسه في أقصر وقت ممكن درساً حفظه.

وبدأت أردد بأن أبي يباده شعور الاحترام والإجلال، فقاطعني بحركة من يده ورأسه وكأنما هو يرفض ما يقال من قبيل المجاملة:

— لعلك سمعت منه أنني وجهت إليه خطاباً مفتوحاً بجريدتنا أدعوه فيه

إلى الانضمام إلى الجماعة . أحدثكم في هذا الأمر؟

حاولت أن أكذب فلم أستطع ، فلهجته الحاسمة وسرعته في الكلام التي توحى بالرغبة في الحصول بسرعة على الرد الصحيح لكي يتمكن من الانتقال إلى النقطة الهامة التالية ، لم تتركاً لي مجالاً سوى لأن أجيب :
— نعم .

فلماذا لم يردّ إذن؟

— أبي يرى أن جماعة الإخوان المسلمين بدأت بداية طيبة محمودة في دعوتها الدينية ، غير أنها انحرفت بعد ذلك عن غرضها الأصلي بتدخلها في السياسة . وهو لا يرى الربط بين السياسة والدين .

— لا يرى الربط بين السياسة والدين!!

قالها في تهيج شديد وهو يشدّ لحيته السوداء بأصابعه الخمسة ، وكأنما هي المرة الأولى التي سمع فيها هذا الانتقاد يوجّه لجماعته!

— لا يرى الربط بين السياسة والدين!! أنا بصراحة لا أفهم هذه العقلية . لا أفهمها إطلاقاً . (قال ذلك موجهاً حديثه إلى الآخرين) . قد أفهمها من ملحد علماني ، نعم ، أما ممن لا شك في صدق إيمانه كأحمد أمين فلا . . هي نفس العقلية التي ألحظها في الشيخ مصطفى عبد الرازق وهيكمل باشا . كيف يمكنكم أن تفسروا هذا؟ كيف يمكنكم أن تفسروا أن أكبر علماء المسلمين شأناً عندنا يتحدثون عن عدم ارتباط السياسة بالدين ، وكأنما لم يسمعوا قط عن الرسول ﷺ؟ ألم يكن الرسول يربط بين السياسة والدين؟ أيمكن أن نتصور شأن الإسلام الذي كتب أحمد أمين تاريخه لو لم يكن النبي ﷺ قد أحدث هذا الربط؟ ما رأيك؟

هززت كتفي لا أدري بم أجيب .

— تحب أن تفهم؟

— نعم .

— فاسمع إذن. الواضح من ملامحك أنك فتى نجيب، فاستمع إليّ واشرب قرفتك قبل أن تبرد. ما تعنيه بربط السياسة بالدين هو الإرادة أن تحكم هذه الأمة لا وفق دستور من وضع بشر قد يخطئون، وإنما وفق أحكام القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهي أحكام لا يمكن أن يعثرها خطأ. ما العيب في ذلك؟

— يقول والدي إن مقتضيات العصر. . .

— ماذا؟ (صاح مستنكراً دون أن يدعني أكمل جملتي، وهو يخطب الأرض بعصا في يده) كيف إذن يسمي نفسه مسلماً ويحل لنفسه الكتابة في الإسلام؟ مقتضيات العصر؟!!

— أنا أرى أن أحكام القرآن وسنة النبي. . .

— صلى الله عليه وسلم.

— صلى الله عليه وسلم، تصلح لكل زمان ومكان.

— أنت ترى ذلك، ولكنه يرى أن القرآن لم يحو كل ما يمكنه أن ينظم علاقاتنا وأوضاعنا التي تختلف عما كان قائماً وقت النبي عليه الصلاة والسلام، وكأنما لم يكن من السهل على الله عز وجل أن يرى ما سيكون في المستقبل!! ومع ذلك فلننظر إلى الأوضاع التي لم تختلف. خذ السرقة مثلاً. القرآن يقول: اقطعوا يد السارق. فلماذا لا يقطعونها اليوم؟

— أبي يقول. . .

— هذه سفسطة لا تفسير للدين. (أيضاً دون أن ينتظر إكمالي للجملة). في عهد النبي كانوا يقطعون يد السارق، وكفى بذلك تفسيراً. . . عبد العزيز باشا فهمي أيضاً ظهر مؤخراً ببدعة جديدة في الدين، محاولاً أن يثبت أن القرآن لا يسمح بتعدد الزوجات. ولكن النبي والصحابة كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة. . . ما أريد قوله هو أن الحكومة الحالية تحكم بما يخالف الشرع، بما

يخالف حكم الله ، ومن يحكم بما يخالف حكم الله والشرع حقت محاربته وإسقاطه . ومن ثم فلا مفر من ربط السياسة بالدين إن أردنا أن نهيم مجتمعاً يرضى الله عنه ، ويمكن للمسلم فيه أن يعيش حياة إسلامية حقة .

ثم ابتسم الشيخ البنا في وجهي فجأة وكأنما هو يعتذر عن لهجته المتحمسة :

— لا يمكن للمسلم في يومنا هذا أن يكون مسلماً حقاً إلا إن وُحِدَ مع غيره من الأتقياء المخلصين جهودهم في سبيل تهية المجتمع الصالح . العمل الفردي لا يجدي . الصلاة والصوم والزكاة لا تكفي . والجهد في سبيل فرض حكم الله واجب . هذا ما تبيّنته حين كنت في مثل سنك يا سيد حسين . الجماعة قوة والمسلم بمفرده غير ذي شأن . وإذ أن جماعتنا هي الجماعة الوحيدة في أمتنا التي نصبت أمام عينها هذا الغرض ، فإن الانضمام إليها واجب ديني ، هو الحل الوحيد . وإني أقولها مخلصاً مؤمناً : إن رفض الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين إعراض عن الإسلام بأسره . . . قل هذا لأبيك !

ثم حوّل عني وجهه بغتة ، فلم يوجّه إليّ كلمة واحدة بقية الجلسة . ونقلت عند عودتي نص الحديث إلى والدي ، فهز رأسه مرتين أو ثلاث ، ولم يعلق .

لم أجد في حديث الشيخ حسن البنا ما يغريني بالانضمام إلى الجماعة . وقد كان خليفة يتوقع أن يكون لقائي بالشيخ نقطة تحول في حياتي . فلما سألني بعدها عن انطباعي وارتأه سلبياً ، فترت مشاعره نحوي فتوراً ملحوظاً ، وكذا مشاعري نحوه ونحو أصحابه . ثم إذا بحادث يقع حوّل هذا الفتور عندي إلى عداة صريح ومجابهة مريرة ، ألا وهو حادث اغتيال رئيس الوزراء في ذلك الحين ، محمود فهمي النقراشي ، على يد أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين ، وقيل إنه كان بإيعاز من الشيخ حسن البنا .

كان النقراشي ، زعيم السعديين ، صديقاً حميماً لأبي ، يسكن داراً قرب

دارنا، وكثيراً ما يتزاوران. وقد رأيته لأول مرة إذ كنت صبيّاً في روضة الأطفال. دخلت علينا مدرسة الفصل ذات صباح تخبرنا أن النقراشي باشا وزير المعارف سيزور روضتنا خلال النهار، وأنها ستطلب منا كتابة جملة، فمن كتبها ولم يخطئ في كلمة منها ناب عن الفصل في الترحيب بالضيف. وكانت الجملة:

«رأس المجلس رئيس من الرؤساء».

فلم يكتبها سليمة غيري. وإذ تقدمت في فناء المدرسة للترحيب بالوزير صافحني وقبل رأسي وسألني عن اسمي. وعندما سأل عما إذا كنت ابن أحمد أمين، تقدمت ناظرة المدرسة تعجب نيابة عني بالإيجاب، وتضيف قولها إن ابن الوز عوام. فعاد يقبل رأسي ويصافحني من جديد، ثم قال:

— حجم رأسه وبريق عينيه وحدهما يحكما بذكائه.

ومن وقتها بات النقراشي عندي زعيم الأمة دون منازع، لا أقبل من أحد قولة سوء فيه. فما اغتالته جماعة الإخوان حتى تبلور عدائي لها ولمرشدها العام.

وكان بالمدرسة السعيدية الثانوية التي انتقلت إليها بعد تحولنا للسكنى بالدقي، عدد من الطلبة الشيوعيين، يتزعمهم فتى يدعى الدفراوي، شديدو العداء للإخوان. وكثيراً ما كان يحدث بين الفريقين احتكاكات واشتباكات، خاصة أثناء فترات الاضطراب السياسي. وقد صور لي خيالي أنه قد يكون بإمكانني إذا ما انضممت إلى هذه الطائفة الأولى، أن أستغلها في ضرب الطائفة الثانية كخطوة أولى في سبيل تحقيق أهدافي. حدث مثل هذا من قبل في مختلف عصور التاريخ. فكنت أتسلل أحياناً مع الدفراوي في فترة فسحة الظهور إلى الفصول الخالية، نفتح أدراج الطلبة من الإخوان، ونترك فيها ورقة تحوي عبارات السب والتهديد وتنتهي مكان التوقيع بعلامة زد Z (إذ كان فيلم «علامة زورو» في ذلك الوقت من أشهر الأفلام لدى الطلبة).

وقد تبينت إدارة المدرسة بعد وصول عدد من الشكاوي إليها خطورة

الأمر، فكلفت من يقوم من الفراشين بحراسة الفصول أثناء الفسح، مما وضع حداً لنشاطنا في هذا الميدان.

وفي يوم من الأيام سألتني الدفراوي عما إذا كنت أقبل التبرع لإحدى المجلات التي يصدرها الطلبة الشيوعيون بالجامعة. وإذا أجبت بالإيجاب أخبرني أن محرراً فيها سيزورني ذلك اليوم في المساء لاستلام المبلغ، والاتفاق معي على الموضوعات التي أرى الكتابة فيها وإرسالها للمجلة. وأخبرني عن هذا الرفيق أنه طالب بالهندسة جد فقير، يسكن في شبرا، ويقطع المسافة يومياً إلى الجامعة سيراً، على الأقدام.

وفي المساء (لن أنسى ذلك المساء قط) كنت في حجرتي أستعد للذهاب مع العائلة إلى الأوبرا حين هتف بي والدي، وكان بالشرفة: - حسين! صديق لك يناديك في الحديقة.

صديق لي؟ لا بد أنه ذلك الشيوعي. وأحسست لحظتها بخجل شديد من نفسي أن يناديني أبي في براءة وسلامة نية، ظاناً أن الزائر صديقي حقاً، وأن الزيارة زيارة عادية، في حين كنت في واقع الأمر على وشك الإقدام على خطوة ستسهم في سقوط الطبقة التي تنتمي إليها عائلتي. فأننا الخائن إذن لطبقتي ولعائتي وأبي. ومع ذلك فقد نزلت لاستقبال الزائر. وقد بدا منظره بشيابه الرثة، وحذائه القديم، جالساً في حجرة الاستقبال الفخمة، شاذاً غريباً. أعطيته مبلغاً من المال، وطلبت له الشاي وبعض الحلوى والسندوتشات. ثم شعرت برغبة قوية خبيثة في أن أزيد من إدراكه لثرائي. فقرّجته دون مناسبة أو داع على غرف الطابق الأسفل، على صالة البنج بنج، والمكتبة، والبيلياردو المصغر الذي أهدها إليّ والدي في عيد ميلادي، ومجموعة الأسطوانات الضخمة من الموسيقى الكلاسيكية. كل هذا لأشعره أنني شيوعي لا لمصلحة، لا لأنني فقير مثله، وإنما عن مبدأ وتفكير عادل، وضد مصلحتي الخاصة. والغالب أنني أفلحت في بهره، كما أنه من المحتمل أن يكون قد ظن بي البلاهة والسذاجة إذ تكون لي آراء مثل آرائه.

أكملت ارتداء ملابسني، وتوجهت إلى دار الأوبرا مع العائلة. وفي المقصورة، ظل شيخ هذا الزائر يطاردني ويقلقني. لقد وجه ماركس وإنجلز في نهاية بيانهما الشيوعي حديثهما إلى العمال قائلين: «ليس ثمة ما قد تفقدونه غير أغلالكم، بينما سي جلب النصر لكم عالماً بأسره». فالمبدأ الشيوعي إذن هو لأولئك الذين لا يملكون شيئاً يخشون فقده. أما عني فلديّ ما أخشى فقده، ولن أحصل في ظله على أكثر مما لديّ. ولو كان هذا الطالب يملك ما أملك لما اعتنق المبدأ. فما هذا الغباء إذ أعرض نفسي للخطر؟. ينبغي عليّ إذن أن أكف عن الاتصال بهم.. أن أكوّن نفسي من الآن فصاعداً، بعيوبي ومحاسني.. دون خجل.. ودون تدخل. إن أبي تسوؤه ملاحظة مستأجري الأرض في دفع إيجارها. وكذلك تسوؤني.. فلتسوؤني إذن ولكن الرأسمالي الذي أنا هو، دون خجل، ودون تدخل، ودون أدنى محاولة مني للتغيير.....!

مرت فترة المرافقة بي دون التسبب في إزعاج أو متاعب لأحد. فمن الجائز أن أكون قد شعرت في بعض الأحيان برغبة في التدمير، في أن أحب من فراشي ليلاً فأمسك بالعصا وأهشم جميع نوافذ البيت، أو أن أكون قد خبرت فترات من الانقباض والاكتمال الشديدين، أو أن يكون شعوري الغامض بالرغبة الجنسية قد أثار عندي قدراً من الحيرة والألم. غير أن هذه الاضطرابات الداخلية لزمت مكانها فلم يحس بها الغير إحساساً كبيراً، ولم يلمس المحيطون بي وقتها سوى إقبال نهم مني على قراءة سير الأبطال، وتفضيل للعزلة. مع قدر غير مستحب من الغرور.

بدأت أتبين الرغبة الجنسية عندي نتيجةً لعدة عوامل: مجلات كمجلتي «دنيا الفن» و«الدنيا الجديدة» التي كانت تغص بصور النسوة العاريات والمقالات عن الغريزة الجنسية، ثم الأفلام الأجنبية التي بدأت في الإقبال على مشاهدتها منذ سن الرابعة عشرة، ثم أحاديث الهمس بين زملائي في المدرسة.

ومع ذلك فقد ظللت مدة لا أستطيع أن أدرك بوضوح طبيعة هذا الأمر .
التحقت بخدمتنا في ذلك الحين خادمة تدعى سميرة، فتاة شهبانية ضئيلة
الجسم، رقيقة الوجه والملامح، ذات عينيْن ناعستين شديديتي السواد. كانت
هاتان العينان تتجهان دوماً إلى الذكور في أي جمع، مع اتخاذ موقف الحذر
والمخاتلة من والدتي وأختاي، فإن نزلت معنا إلى الحديقة للعب، شعرنا بأنها
لا تشارك في اللعب مشاركة حقيقية. يدير أحدنا وجهه للحائط ليدع بقية
اللاعبين يختبئون. فإن مضيت إلى ركن من الجراج اختبىء به، جاءت هي
للاختباء معي، بينما المفروض أن يختبىء كل من اللاعبين في مكان بمفرده.
فإن دخلت المكتبة أبحث عن كتاب، أو جلست لإصلاح لعبة أو ساعة، إذا هي
تدخل وتقترب حتى يلامس جسمها جسمي، وتنظر في عيني نظرة ذليلة خبيثة.
وهي تشعرني دائماً بشديدها إذ تلتصق بي. فكان يعثورني وقتها اضطراب
لا أدري كنهه، مع إحساسي بأن في الأمر ما يشين. فهو دائماً يتطلب الخداع
والكذب، لا تلتصق بي في حضرة أحد إلا من يصغرنى سناً، فإن دخلت
والدتي أسرع بالابتعاد وشعر اثنائنا بالارتباك، بينما ألمح في عيني والدتي
نظرة الشك. وهذا الاقتراب الشديد وقت إصلاح الساعه غير لازم تماماً
لاشتراكها معي. بل هي لا تفهم شيئاً في إصلاح، وإنما هي مجرد حجة
متنحلة للاقتراب. وإصلاح الساعه أو اللعبة وقت قدومها يضطرب ولا يتقدم،
وأحس بقلبي يدق بشدة ويدمي يغلي، فالأمر كله أساسه الغش والتظاهر.
وكنيت أدرك هذا وأستعين أحياناً على شعوري إزاءها بالصلاة، دون أن أفهم
بوضوح على أي شيء أستعين، وأظل أردد في حرقة: يا رب، يا رب، دون أن
أكمل الدعاء، فيظل الدعاء معلقاً، وأحس نحوها أحياناً بالغضب الشديد إذ
أفقدتني هدوئي، فالتمس الحجاج الواهية لأصعد إليها في السطح فالكمها في
وجهها بقوة، وأرقب الدم يسيل من بين أسنانها، بينما تظل هي ترمقني بنظرتها
الحائرة الذليلة، متظاهرة بأنها لا تعلم ما جنت، ثم تشرع في البكاء، فتحل
الشفقة عندي مكان الغضب، وأحيط كتفها بذراعي مهدئاً معتذراً، وأربت على

شعرها، فإذا نحبيها يخفت، وتشرع في مسح دموعها مسندة رأسها إلى صدري . ثم غضبت والدتي عليها لسبب ما، فأرادت أن تحلق لها شعرها كله، (وهي عقوبتها التقليدية للخدم) وقد رفضت الفتاة ذلك في إصرار. صاحت والدتي بها:

— أنتحديني؟

— لا أتحداك وإنما لا أريد لشعري أن يقص.

فطردتها أمي من الخدمة.

وقد سرنى طردها سروراً زائداً، متنفساً له الصعداء، طائناً أنني قد تحررت به إلى الأبد من شعور منغص غريب. غير أنني كنت مخطئاً في هذا الظن.

كان لي صديق حميم بالمدرسة السعيدية يدعى نبيل . وقد لاحظت منه خلال السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية تغيراً واضحاً تجاهي، وعزوفاً عن صحبتي إلى صحبة ثلة كان أفرادها يتبادلون المجلات والكتب، ويجتمعون في فترات الفصح لقراءة فقرات معينة من كتاب «ألف ليلة وليلة» وغيره يفرقون أثناءها في الضحك. وقد آلمني عزوف هذا الصديق ألماً شديداً. فلما قررت سؤاله صراحة عن سر تغيره، أجاب في إخلاص:

— إن التكلف ليس من سمات الصداقة.

ولم أفهم ما يعني . فسألته في حيرة:

— أيّ تكلف؟

أجاب بأنه يعني رفضي مشاركة الغير في الحديث عن النساء والجنس . وقد كانت هذه المحادثة القصيرة، لا معرفتي بسميرة، أول مانبهي تنبيهاً واعياً إلى مشكلة الجنس.

انضمت إلى الثلة مجاملة لصديقي، وسعيّاً إلى اكتساب مودته من جديد. وقد سرّ أفرادها أن يشاركهم اهتماماتهم أول الفصل وأحد المعروفين

لدى إدارة المدرسة بحسن السلوك، مما يضفي نوعاً من الشرعية على هذه الاهتمامات. فقرأت معهم في «ألف ليلة»، وتكلفت الضحك لنكاتهم الجنسية. وكان البعض يسرد، أو يلفق، القصص عن صلاته بفتيات. وسرعان ما أصبح لدى كل فرد ما يحكيه، إن كذباً وإن صدقاً، فإن سألوني ابتسمت ابتسامة من يخفي شيئاً، وإن ألحوا ملقّبين إياي بدون جوان الكتوم، اختلقت لهم قصة عن علاقة بيني وبين ابنة الجيران.

كانوا يعلمون كذبي، خاصة وهم يرون وجهي يحمر احمراراً شديداً إذ أسمع البذيء من ألفاظهم. وعزوفي عن استخدام ما يستخدمون من تعابير. غير أنهم كانوا يريدون إطرائي وأن يكسبوا لأنفسهم نفس الإطراء والتصديق. وبالرغم من أن كل فرد منا كان يشك في صدق الآخرين، فقد كانت تلك القصص والخبرات المزعومة تقلقنا، أو تقلقني على الأقل، وتدفعني إلى أن أسأل نفسي أحياناً عما إذا كنت الوحيد بينهم من لا صديقة له. وبدأت مرحلة كنت كلما شاهدت خلالها في الطريق فتى يرافق فتاة، انتابني الحزن والغم، خاصة إن كان سن الفتى يقارب سني.



ثم كان يوم مشهود يوم أعلن إلينا أكبر أفراد الشلة سناً أن عائلته قد سافرت إلى الريف مدة يومين، تاركة له الشقة وحده، وأن ابن عم له، وهو طالب بكلية الطب، قد وعد بإحضار امرأة إلى الشقة في المساء، وسأله أن يحضر معه عدداً من أصدقائه إن شاءوا.

وعرض علينا الحضور، فقبل البعض ورفض البعض، وكنت بين الراضين، غير أن من قبل منهم لم يكونوا لتركوا أول الفصل وشأنه. فتعادوا في الإلحاح حتى قبلت. ولكي يطمئنوا على أنني لن أخلف الوعد، مر عليّ عدد منهم في المنزل مساءً لاصطحابي.

وذهبت. وجلسنا في صالون بالي الأثاث، عاري المصباح، ننتظر طالب

الطب والمرأة، وسألت الزميل صاحب الشقة عما إذا كان قد شاهد المرأة، فأجاب بأنه شاهدها عصرًا حين ذهب مع ابن عمه للمعاينة والاتفاق. وقال إن شعرها أصفر، فسرح خيالي لهذه الجملة الأخيرة. شقراء الشعر، وربما زرقاء العينين. فلعلها فتاة لا بأس بها على الإطلاق. لعلها فتاة كريمة قد اضطرتها الظروف القاسية إلى احتراف هذه المهنة. فهل من الممكن إنقاذها؟ أن أقوم تجاهها بدور أرمان ديفال مع مرجريت جوتييه؟ سأدخل الغرفة عليها فأدهشها بالأقربها، وأقضي الوقت المخصص لي في سؤالها عن حياتها وظروفها، وأناشدها العودة إلى صوابها، ثم أعطيها المبلغ وأخرج. فإن نشأت بيننا علاقة حب فسأتزوجها رغم كل معارضة. فليس هناك ما هو أسمى من إنقاذ نفس خاطئة. وإرجاع الشاة الضالة إلى القطيع..

وأخيراً وصلت الشاة الضالة إلى الشقة، فإذا هي إلى البقرة أقرب. امرأة في الأربعين، تلبس ملاءة لف، شديدة السمرة، ذات شعر مصبوغ، وأسنان مذهبة، وألفاظ نابية، ما أن رأته جماعتنا حتى دقت صدرها بكفها متظاهرة بالانزعاج.

— ثمانية! أتريدون قتلي؟!

ولم تطلب إنقاص العدد، وإنما طلبت زيادة الأجر. ثم اختلى بها طالب الطب للتأكد من خلوها من الأمراض.

وتسمرت في كرسيي أرعدت وقد أحسست بنوع من الحمى مقبلة، لاعتناً نفسي أن قبلت الحضور، وأن انضممت إلى هذه الثلة، ثم قفزت إلى ذهني فكرة الفرار، فقلت أسأل صاحب الدار عما إذا كان بشقته تليفون. فلما أجاب بالنفي، قلت إنني سأنزل إلى الطريق من أجل مكالمة تليفونية هامة ثم أعود. فما وصلت إلى باب العمارة حتى أطلقت ساقلي للريح.

وعدت إلى بيتنا محموراً فنزعت ملايسي ودخلت الفراش، مسبياً الفزع لوالدي ووالدتي إذ شاهداني أتصبب عرقاً وارتمشت بشدة ثم انخرطت في

البكاء، وكلما تبينت عطفاً متزايداً من أمي زاد بكائي وخجلي إذ تلمسني بيدها. فلما خرجت تعد لي عشاء وانفردت بوالدي، لم أملك أن قصصت عليه ما حدث. فقطب جبينه وأطرق إلى الأرض مفكراً.

— لا أدري ما أقوله لك. لقد أسأت صنعاً ثم أحسنت إذ تداركت الأمر. فلتترك هذه الجماعة، ولا تضع نفسك مرة أخرى في تجربة مماثلة. لقد أنجلك الله هذه المرة. فالأمر أبشع مما يمكنك أن تتصوره. وقد كانت التجربة كفيلة بأن تفسد إلى الأبد علاقتك بالنساء.

ومع ذلك فقد أسفت بعد أيام أن أخبرت والدي. فقد أثار اعترافي حيرة لديه وطول تفكير، بينما كنت قد قررت في حزم أن أقطع علاقتي بتلك الشلة بل وحتى بصديقي نبيل. غير أن الواضح أن الحادث أثار مخاوف أبي، وأن تفكيره قاده إلى ضرورة شرح العلاقات الجنسية لي، وأن يشرف على تطور موقعي منها. فانفرد بي يوماً وبدأ حديثه وأسلته وهو في ارتباك يزيد على ارتباكي. غير أنني شعرت إذ أستمع إليه باستياء شديد، وبأنه إنما يفعل ما يفعل نتيجة إحساسه بواجبه لا كأمر طبيعي، فكأنما قد قرأ في كتاب أن عليه التحدث مع أبنائه في هذه الأمور. فرجوته ألا يستمر. وشعر هو باستيائي فاحمر وجهه وسكت.

واتخذت من يومها موقفاً بالغ التعفف والشدة من موضوع الجنس، لا أشارك في حديث فيه، وأتخطى بناظري الفقرات الفاضحة في الكتب، فإن تفوه أحد الطلبة بعبارات جنسية بذينة أمامي عنفته وأبدت احتقاري له وهذّته بإبلاغ إدارة المدرسة. فكان الطلبة في البداية لا يعبأون بهذا التقرير أو التهديد، إلى أن وقع حادث جعلهم يأخذون التهديد مني على نحو جدّي :

كان بفصلنا طالب هو ابن أحد أمناء القصر الملكي، وسيم الوجه، ممتلئ الجسم، مخنث السلوك. وكان قد استحوذ على لب عدد من الطلبة، يتبعونه أينما ذهب، ويحيطون به في فناء المدرسة إحاطة السوار بالمعصم، إن لحقته إهانة أو عدوان تولوا الانتقام له نيابة عنه. وهو كذلك مقرب لدى بعض

المدرسين ، خاصة مدرس الألعاب الرياضية الذي كان بادي الشغف به .

ثم حدث أن خرجنا في رحلة مدرسية إلى حلوان ، وقضينا ثلاث ليالٍ في مخيمات بالعراء . وصادف أن كان مبיתי في نفس الخيمة مع هذا الطالب ومدرس الألعاب وعدد آخر من الطلبة . وإذ هبط الليل وآوينا إلى الفراش ، استيقظت في الثانية صباحاً على صوت بالخيمة ، ورأيت المدرس يتسلل من مكانه إلى فراش الصبي ، ويوقظه برفق . فما أدركت ما يجري حتى أيقظت جاراً لي من الطلبة في هدوء ، وأشرت له إلى مكان المدرس حتى يكون شاهداً معي على ما رأيت .

وفي اليوم التالي لانتهاؤ الرحلة ، كان أول ما صنعت بعد وصولي إلى المدرسة أن توجهت إلى حجرة الناظر أخبره بما حدث .

صباح مزيجراً :

— عندك إثبات لما تدّعي ؟

قلت في هدوء :

— نعم .

وخرجت أنشد الطالب جاري . فأتى المسكين إلى حجرة الناظر بائساً لا يدري ما يقول . وأدركت من جملة الأولى أنه سيحاول القول بأنه لم ير شيئاً ، فحدجته بنظرة نارية أربكته . ثم قص على الناظر ما حدث . فلما فرغ طلب الناظر منا الانتظار خارج غرفته ، ودق الجرس يطلب من الفراش استدعاء المدرس إليه .

وجاء المدرس ، باسم الوجه كعادته ، لا يدري سبب استدعائه ، فلما رأيته وزميلي واقفين خارج حجرة الناظر ، ظن أننا استدعينا لنيل الجزء على أمر ارتكبه . فحيّانا غامزاً بعينه :

— حتى أنت يا حسين ؟ ماذا يمكن أن تكون قد ارتكبت ؟

غير أننا لم نرد تحيته . ونحننا عنه وجهينا في وجوم .

وانقضى ثلث ساعة ، خرج المدرس بعده في جالة مخالفة تماماً للحالة التي دخل بها ، شاحب الوجه ، ذليل النظرة ، يمسح عرقه بمنديله . وإذا وقعت عيناه علينا ، توقف متردداً ، ثم تقدم منا وتمتم :
— غفر الله لكما ما صنعتما .

ثم انصرف .

وعلمت المدرسة بعد يوم بامر فصل الطالب والمدرس نهائياً .

قال والذي حين سمع بحادث المدرس :

— إن قلقي عليك ليفوق قلقي على أي من إخوانك . وأكاد أرى مستقبلك أمامي رؤى العين ، مستقبلاً مشحوناً بالمتاعب والاصطدامات . فإن كان حسن الحظ قد مكن لك حتى الآن من أن تنتصر ، وأن تحقق كل ما تصبو إليه ، فتأكد أن الحال لن يكون هكذا دائماً . وإنك لمن النوع الذي إن صادف حائطاً ظل يخط برأسه حتى يقع الحائط أو تُشجَّ الرأس . والغالب الذي أخشاه أن يكون شجَّ الرأس نصيبك .

— فهل أخطأت إذن إن أبليت الناظر؟

— ليس هذا ما أعنيه . وإنما أعني طبيعتك وشخصيتك بوجه عام . إنك صلب . عنيف . وقد يجلب عليك عنفك كراهية زملائك اليوم ، ورؤسائك حين تكبر .

— لن يكون لي رؤساء أبداً .

— كيف يا بني ؟ كل شخص في الدنيا له رؤساء .

— أنت لا رئيس لك .

— كيف ؟ أفليس عبد الرحمن عزام رئيسي في الجامعة العربية ؟ أليس

لطفي السيد رئيسي في مجلس الجامعة المصرية ؟

— إن بسمارك يقول: لا أستطيع بطبيعتي أن أكون واحداً من العازفين في فرقة موسيقية، فإما أن أقود الفرقة أو أتجنبها.

— هذه أقوال ستؤدي بك إلى التهلكة. فاسمع مني وألن عريكتك ولا تسع إلى تشكيل الناس حولك وفق ما تهوى، أو تعتبرهم مجرد أدوات تستخدمهم لنيل أغراضك. فإن كنت تستشهد بأقوال بسمارك أو نابليون، فاتعظ أيضاً بنهايتيهما.

ثم هز رأسه وأضاف في حزن:

— غير أن الأيام كفيلة وحدها بأن تثبت لك صحة ما أقول. كل ما أخافه هو ألا تدرك ما أعني إلا بعد حشد من التجارب المؤلمة.

في اليوم الأخير من شهر مايو عام ١٩٥٤، كانت وفاة والدي عن ثمانية وستين عاماً.



لا أملك إلى اليوم نفسي من العجب كلما فكرت في بساطة معيشته وقلة احتياجاته: مأكله وملبسه ومختلف عاداته. فإفطاره كوب من اللبن وقطعة من الجبن، وغداؤه خال من النشويات لإصابته بمرض السكر البولي، وعشاؤه اللبن الزبادي وبعض الفاكهة. فأما الشاي فلا يكاد يشربه، وفنجان القهوة يشربه عقب الإفطار، وآخر بعد ساعة من النوم عقب الغداء. وأما الخمر فلا يشربه. ثم لا إفراط في شيء غير التدخين، فالسجارة لا تكاد تفارقه، غير أنه لا يكاد يشعلها حتى يلقي بها بعد نفسين أو ثلاثة، ثم يشعل أخرى بأصابع يترتعش.

وهو قليل الاحتفال بالملبس. غير أنه لم يهمله كلية إلا في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته بعد إصابته بجلطة في ساقه وتدهور صحته، فاستغنى عندئذ نهائياً عن رباط العنق الذي كان يضايقه دوماً ولكنه يحتمله قبل ذلك،

ولم يعد يستتكف من الظهور أمام الناس ولحيته لم تحلق، أو يستقبل ضيوفه مرتدياً جلبابه.

ويساطته في أسلوب معيشته تنعكس في كتاباته وأسلوبه الأدبي. فهو لا يعرف تأنيقاً أو حذقة، وإنما هو قلم يجري بما يعن له من خواطر، والجملة عنده على قدر الفكرة. وهو يكتب للعامة كما يكتب للخاصة، ولا يسعى إلا إلى إفهام. غير أنه مع استنكاره للتأنيق أو الحذقة في كتابات غيره، كان يدرك - فيما اعتقد - أن أسلوبه دون أن يستحق وصفه بالأسلوب الأدبي الرفيع. ولا أزال أذكر، بشيء من العجب والإشفاق، كيف أبهجه أشدَّ البهجة أن يتحول عباس العقاد إلى الاعتراف به أديباً بعد صدور كتابه «حياتي»، بعد أن ظل دوماً قبلها يصّر على وصفه بالبحاث أو المؤرخ العالم.

فثقته بنفسه لا تتعدى الثقة بمبادئه الخلقية وموقفه الأساسي من الحياة. أما بصدد كتاباته فأعجاب النقاد والقراء، أو حتى إعجاب أولاده، كان يجلب إلى شفثيه ابتسامة الرضا الشديد، وقد يؤرقه ويُسِّسه لبضعة أيام هجوم في صحيفه.



وهو خجول حيي في المحافل العامة خجل العذراء وحياءها، لا ينتقص من خجله ما يلقاه الناس به من توقيير ومودة. إن سار سار مطرقاً، وإن دلف إلى قاعة اجتماع أو مجلس قوم اضطربت خطواته وتعثر. وقد دفعه ذلك الضعف الشديد في بصره إلى أن يتجنب النظر إلى الناس حتى لا يحسب أحدهم أنه لم يحيه استكباراً، أو تجاهله عامداً، في حين أنه لم يتعرف عليه لضعف بصره. وقد حدثنا مرة عن كيف قصده رئيس الوزارة في محفل عام ليصافحه ويهنئه على كتاب جديد له، فسأله والذي عن اسمه، وهو ما أخرج الرئيس وأغضبه! وهو مع خجله هذا عنيف المعارضة - ربما أعنف مما ينبغي بسبب هذا الحياء

نفسه - حين يرى مبدأ يهدر، أو أخلاقيات تُنتهك، حتى إن كان (أو قل، خاصة إن كان) معارضه من عليّة القوم ورؤسائهم.

وهو شديد التواضع دون أدنى تكلف، تحيته للوزير كتحيته للساعي أو الخادم، وبابه مفتوح لهذا كما هو مفتوح لذاك. وقد كان يزوره في المستشفى وقت إجراء عملية الشبكية له وزراء وأعيان، وسعاة وفلاحون، فيأذن لهم جميعاً بالجلوس حول سريره، حتى تكاد ساق رئيس الديوان الملكي تلامس ساق فراش مكتبه بكلية الآداب.

وكان سخياً إلى أبعد الحدود، ساذجاً أشدّ السذاجة في أمور المال، ولا أظنه كان ليترك مليماً واحداً لأسرته لولا حرص والدتي وحسن تدبيرها. فهو يمدّ يد العون دوماً لأقربائه الفقراء. والباعة تتهلل وجوههم إن هم رأوه يدخل محالهم، (إذ كان غالباً ما يشتري حاجيات البقالة والفاكهة بنفسه)، فهو لا يساوم ولا يتشكك في عدالة أسعارهم. وقد يخطيء، بسبب ضعف بصره، فيعطي الورقة من فئة العشرة جنيهات ويحسبها جنيهاً، بل وقد يزيد على الثمن المطلوب حتى ينتهي البائع له أفضل بضاعة.

وقد كان مع هدوئه وتواضعه وطول صمته وقلة كلامه قويّ الشخصية مؤثراً فيمن حوله. وهي قوة نابعة أساساً من قوة خلقه ونبل مبادئه ومسلكه وعدله وموضوعيته. فالعدل والموضوعية سمتان بارزتان فيه، سواء في حياته الخاصة أو العامة، وهي السمة الغالبة في كتاباته، إلا فيما تعلق منها بفرقة الشيعة الذين لا أظنه أنصفهم أو حاول محاولة جادة أن يلمّ بأدبهم ووجهة نظرهم قبل أن يصدر أحكامه القاسية عليهم. وهو حريص دائماً على الإلتزام بحدود المنطق، وكان يرجع ذلك إلى اشتغاله زمناً طويلاً بالقضاء.

وسمة أخرى بارزة فيه، وغالبة عليه، وهي الحزن. حزن عميق دائم حتى في حالات الرضا، ولحظات المجد، وساعات الإستجمام. فهو نادراً ما يضحك. وإن راقته نكتة أو استخفّه موقف فأقصى ما هناك ابتسامة حزينة.

ولا شك في أن حزنه هذا نجم عن نشأته الأولى ، فحياته بعدها كانت سلسلة من الإنجازات والإرتقاء والنجاح ، ولم يكن في حياته الخاصة أو العامة (حتى أصابه المرض) ، أدنى مبرر لمثل هذا الحزن العميق ، كما أنه لم يعرف من مولده إلى وفاته ضائقة مالية .



وقد تفسّر موضوعيته وعدله كراهته للحزبية ، وعزوفه عن الإشتغال بالسياسة . وقد حاول في شبابه الأول أن يهتم بالسياسة فلم يفلح : « فقد كنت أخاف السجن وأخاف العقوبة . ولعلّ من أهم أسباب خوفي إشفاعي على والديّ وقد أصبحت ابنهما الوحيد بعد وفاة أخي ، إذا سمعا بحبسي أو عقابي هذا ذلك من كيانهما الذي أشرف على السقوط . وقد علّمني أبي الإفراط في التفكير في العواقب . ومن فكّر في العواقب لم يتشجّع . والسبب الثاني أن مزاجي مزاج علمي لا سياسي . ولهذا كنت أختلف عن كثير من زملائي السياسيين كمحمود فهمي النقراشي وصبري أبو علم بأنهم كانوا يؤمنون بسعد زغلول كل الإيمان ، ويعتقدون صحة كل ما ذهب إليه وارتآه ، ويؤولون ما يصدر عنه من خطأ ويلتمسون الحجج لتبريره . ولم أكن على هذا المذهب ، بل كنت أؤيد سعداً وأنقده ، وأؤيد عدلي يكن وأنقده ، وليس هذا هو المزاج السياسي الذي يؤمن بكل ما يصدر عن الحزب ويتحمس له . . . » .

كذلك يفسر هذا العزوف منه عن الاشتغال بالسياسة عدم تعيينه في أحد المناصب التي توصف عادةً بالخطيرة ، وعدم نيّله رتبة الباشوية . وقد قصّ علينا كيف أن سعد زغلول امتنع منه يوماً وازوّر بوجهه عنه إذ أجابه والذي برأي جاء موضوعياً على نحو لم يستسغه سعد ، فإذا هو يتمتم في ضيق :

— إنت موش عاجيني النهاردة!

وقد حاول الشيخ حسن البنا - كما سبق أن ذكرت - ضمه إلى جماعة الإخوان . كما حاول صديقه النقراشي زعيم السعديين ربطه بالحزب السعدي ،

وهو حزب كان يضم الكثيرين من أصدقائه كالـدكتور عبد الرزاق السنهوري . وأذكر أن النقراشي فاتحه مرة في منزلنا بالاسكندرية حتى يتولّى رئاسة تحرير صحيفة الحزب الجديدة «الأساس» ، فأبى رغم ضخامة المرتب المعروض ، فأرسل إليه إبراهيم باشا عبد الهادي ليحاول كربة أخرى إقناعه ، فعاد إلى الاعتذار بأنه أديب وباحث لا يابه كثيراً بأمور السياسة ، ولا يصلح لمثل هذا المنصب .

غير أن كثرة أصدقائه من بين السعديين جعلت البعض ، والقصر نفسه ، يعتبرانه سعدياً ، خاصة أن المراكز الرفيعة التي كان يتولاها إنما كان يتولاها متى وصل السعديون إلى الحكم ، ويفقدها متى عاد الوفد . وكان أبرز سوء فهم لحقيقة اتجاهات أبي هو عندما قررت اللجنة الدائمة لجوائز الدولة في الأدب منح هذه الجوائز عام ١٩٤٨ لوالدي ولعباس العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل . ذلك أن الملك ، عندما رفعت إليه القائمة لإقرارها ، شطب بيده اسم طه حسين منها باعتباره وفدياً معادياً له ، ثم تردّد في إقرار بقية الأسماء بالنظر إلى أن هيكل من الأحرار الدستوريين ، بينما العقاد وأحمد أمين (في رأيه) من السعديين ، وأشار بأن يُختار رجل واحد من كل من الحزبين . غير أن اللجنة رفضت أن تستبعد العقاد أو أحمد أمين ، وأرسلت إلى الملك من أفهمه أن الثاني ليس سعدياً ، وأن الأمر على أي حال يتصل بالأدب لا السياسة . فقبل الملك في النهاية .

وأقيم في قاعة الاحتفالات بجامعة فؤاد احتفال ضخم كان ذروة حياة والدي الأدبية وتويجاً لها وله . فهو لم يمنح فيه جائزة الدولة للأدب فحسب ، بل درجة الدكتوراه الفخرية كذلك التي قرر مجلس كلية الآداب خلعها عليه . وقد حضرت مع كافة إخوتي هذا الاحتفال ، فكانت دموع الفرح لا ينقطع تدفقها من عيني طوالها ، فما تقدم أبي في روبه الجامعي من المنصة ليتسلم براءة الجائزة من إبراهيم عبد الهادي ، حتى قمت من مقعدي أصفق بكل ما في

من قوة، ولم أملك نفسي من أن ألفت إلى الجالسين جوارى قائلاً:

— هذا أبي!

وكان إحساسنا جميعاً وقد رأيناه يخرج منديله ليمسح دموعه أن ذلك اليوم كان أعظم أيام حياته.

* * *

وهو مع كراهته للملك وسروره بعزله، لم يجد في الكثير من تصرفات عبد الناصر خلال الستين الأوليين من الثورة مدعاة للإعجاب. وأجذني إلى اليوم أبتسم كلما تذكرت كيف كان يجلس في اهتمام شديد للاستماع إلى خطب عبد الناصر في المذيع، ثم يقوم في غضب وألم لإغلاقه بعد دقائق معدودات حين تتكرر الأخطاء النحوية على لسان «الخطيب»، وهي أخطاء كانت تؤذي مسمعه أيما إيذاء.

وقد كان في مواقفه السياسية شيء من تناقض: فهو يتمتع، كما يشهد الكافة، بجرأة شديدة في الحق، وكثيراً ما كان يقاوم ويعارض ويحتدّ ويقدم استقالته من عضوية لجان ومجالس إدارات حين كان يرى اعتداء على قيم يؤمن بها، كاستقلال الجامعة مثلاً. وهو مع ذلك لم يهاجم الملك في مقال أو كتاب، ولا هو انتقد تصرفاً ساءه من جانب حكومة الثورة، كما لا أعتقد أنه ساهم في شبابه في الحركة الوطنية ضد المستعمر البريطاني بأكثر من موقفين أو ثلاثة، كلها خاصة بتوحيد صفوف المسلمين والأقباط.

* * *

كان الصراع بين القديم الموروث والجديد الذي اتصل به عن طريق القراءة والأصدقاء والحياة، يحتدم دوماً في نفسه على أحد صوره، وبصدد كافة المجالات: في علاقته بزوجه وأبنائه، وفي أسلوب معيشته، وفي كتاباته. فجزوره في القديم، (في الجو العائلي الذي نشأ فيه، وفي المجتمع الذي

عرفه في شبابه، وفي الأزهر حيث درس)، أعمق من أن يستأصلها الجديد الطارىء. وحماسه للتغيير والإصلاح ومسايرة العصر، أقوى من أن تطفئه التقاليد الموروثة. وقد تحوّل من العمامة والجبّة إلى الزي الأوروبي على مضض وبناءً على إلحاح أصدقاء له. غير أنه لم يرتح تماماً إلى الزي الجديد، ولا كان يستشعر الراحة إلا في جلبابه في بيته. فإن جلس إلى طعام بين أهله، أو إلى كتاب في حجرة مكتبه، تربّع أو رفع رجله على قاعدة الكرسي أو الأريكة وكأنما هو في رواق الأزهر. وهو يستغني بأصابعه عن الشوكة والسكين. وقد يستنكر في قرارة نفسه من أولاده تصرفاً لم يكن ليحلم أن يتصرفه في حياة أبيه، أو عقيدة تخالف عقيدته، غير أنه يؤمن كذلك بحقهم في أن تكون لهم حياتهم الخاصة، وعقائدهم المبينة، ويرضخ رضوخ الحكيم لمقتضيات التطور، واختلاف الأجيال. ولا أذكر أنه حاول قط أن يفرض اهتماماته الفكرية على أحد منا، ولا أن يجبر أحداً على صلاة أو صوم. كما لا أذكر أنه استخدم عنفاً معي إلا مرة واحدة، كنت أقرأ له فيها صحيفة، فتكررت مني أخطاء نحوية، فإذا هو يخطف مني الجريدة ويضربني بها ثلاث ضربات على فمي!

غير أن القديم يتمثل فيه أكثر ما يتمثل في علاقته بأمي. فهو لا يصطحبها معه في زياراته أو رحلاته أو نزحاته، ولا يشركها في اهتماماته العقلية أو شؤون حياته العامة. فإن حادثها حادثها عن الأهل أو مشاكل الأولاد والخدم. بل إنه، وهو ما نجده اليوم بالغ الغرابة، لم يكن يناديها باسمها قط، ولا كانت هي تنادي باسمه. فإن أراد أن يدعوها رفع صوته أو تنحج، أو نادى نداءً مبهماً عاماً. اللهم إلا في حالات تسط مؤثرة، أو رضا شديد، أو اعتراف بذنب، فكان وقتها يناديها بالست أم حمادة! فإن كتب إليها من بلد سافر إليه، كانت خطاباته لضرورة ملحة، ولم يستهلها بتحية أو حتى بلفظة «عزيزتي»، وإنما كان يدخل رأساً في الموضوع، ويذكر المطلوب. ومن خطاباته التي بعث بها إليها مرة من رأس البر، وكان قد سبقنا إليها، (وهو خطاب لا نزال نذكره في محيط الأسرة

ونفضحك لتذكركه أشدّ الضحك) ما يجري على هذا النحو:

١ - ثلاث مخدات .

٢ - شمسية البلاج .

٣ - مجموعة الكتب التي تركتها على المكتب .

«أرجو إحضار هذه الأشياء معكم ، والسلام» !

* * *

لم تبدأ رحلاته إلى أوروبا إلا وهو في منتصف العقد الخامس من عمره، حين بدأ اسمه يلعب في ميدان التاريخ الإسلامي، وصار يدعى إلى مؤتمرات المستشرقين، أو يكلف بمهام كحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن عام ١٩٤٦ . فإن تذكرت اليوم ما كان يرويه لنا عند عودته من انطباعات عن الحياة الأوروبية، تذكرت لفوري كتاب «تخليص الأبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي . فهو منبهر بأمور صارت عند أبنائه وحفدته من الأمور العادية المألوفة : كالأمانة والنظافة والنظام وقلة الضوضاء ودقة المواعيد والديموقراطية وإطاعة القانون . وقد تأثر تأثراً عميقاً إذ رأى إرنست بيثين وزير الخارجية البريطاني يحضر مؤتمر المائدة المستديرة في حلّة رثة، وياقة قميص بالية، وقارن لنا بين هيئته وزيارته على تفاهة شأنهم . كما تأثر تأثر الشيخ محمد عبده من قبله إذ رأى الشعوب المسيحية أشدّ التزاماً من الشعوب الإسلامية بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإن كان قد سطر في السنوات الأخيرة من حياته إدانة لمادية الغرب، فقد كان بوجه عام أميل إلى الإعتراف بتفوق الغرب في كل مضممار تقريباً، وإلى التحسر على حاضره العالم الإسلامي .

كذلك كان يكنّ احتراماً عميقاً لكبار مستشركي عصره، من أمثال هاملتون جيب وبرجشتراسر وشفالي ومرجوليث، خاصة الأول الذي كان يزوره كلما حضر إلى مصر، والذي تولى كتابة مادة «أحمد أمين» في الطبعة الثانية من دائرة

المعارف الإسلامية، ويردّد أماننا قوله محمد عبده: «إن المستشرقين ألقوا في تاريخ الإسلام ما لا نظير له في مؤلفات المسلمين». غير أنه مع أخذه ملاحظاتهم على أجزاء كتابه «فجر الإسلام وضحاها وظهره» على نحو جدّي، ومع استفادته استفادة جيّة من نتائج أبحاثهم التي كان يكتنّ أعظم تقدير لما بذلوه فيها من جهد، لم يكن موقفه منهم موقف التبعية أو الانقياد ولا كان غافلاً عن عنصر سوء النية لدى عدد منهم. ولو أنه عاش حتى رأى تدهور حال الإستشراق، وضحالة معظم ما ينشر اليوم في هذا الميدان، لكان موقفه على غير ما كان عليه.



كانت القراءة والكتابة عماد حياته، ومتعته الكبرى. وقد يجلّ المثقف في أيماننا هذه جوانب ضعف وثغرات خطيرة في ثقافة والدي، مع تقدير عميق في الوقت ذاته للشوط الذي قطعه في هذا المضمار. فهو يذكّرني بالمثل القائل: «الثعلب يعرف أشياء صغيرة كثيرة، والقنفذ لا يعرف غير شيء كبير واحد». فوالدي كالقنفذ في هذا المثل؛ لا يكاد أحد يضاربه في معارفه الإسلامية، وفي إلمامه بتاريخ حضارة الإسلام وعلومه. أما فيما عدا ذلك فثمة خلل كبير، تداركه بعض كتاب عصره كالعقاد، بل وطه حسين. فهو لا يعرف شيئاً عن الموسيقى الغربية ولا يستسيغها، والأسماء الرنانة في ميدانها هي عنده مجرد أسماء. وهو لا يكاد يقرأ قصصاً أو مسرحيات غير بعض ما يهديه إليه من مؤلفاتهم أدباء عصره، كتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، والروائي الشاب نجيب محفوظ، تجنباً للحرج حين يقابلهم بعدها. فلا أعتقد مثلاً أنه قرأ في حياته رواية لتولستوي، أو دوستوفسكي، أو مسرحية لموليير. وهو لا يعرف شيئاً عن الأوبرا والباليه، ولا عن فن التصوير والنحت، ولا أظنه زار متحفاً للفنون في مدينة أوروبية إلا من قبيل «الواجب». كذلك فقد كانت معارفه الخاصة بالتاريخ، عدا التاريخ الإسلامي، بل وحتى بتاريخ مصر القديم،

شديدة القصور. وفي ظني أن أي شاب يعرف اليوم عن الماركسية وغيرها من المذاهب الاقتصادية أكثر مما كان يعرفه أبي.

غير أنه مع كل هذا القصور لم يكن يتظاهر بعكسه، ولا كان الأمر يؤرقه. كل ما هنالك هو أنه حين ضعف بصره ضعفاً شديداً وصار مهدداً بفقده، أحس بحسرة شديدة إذ لم يعن في شبابه بتنمية اهتمامات وهوايات مختلفة، ولم يهو غير القراءة والكتابة اللتين أصبح الآن مهدداً بأن يحرم منهما. فكان يردّد قوله: «لو أنني نمت في نفسي هواية الاستماع إلى الموسيقى مثلاً، لكان في لجوئي الآن إليها العزاء عن فقد البصر».

وهو لم يشرع في تعلم لغة أجنبية إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين. وقد اختار الانجليزية (لم يعرف غيرها)، وأتقنها قراءة وإن لم يتقنها كتابة أوحديثاً. وكان بقية عمره كثير القراءة فيها، ولكنه اقتصر على قراءة أبحاث المستشرقين وكتب الاجتماع والمنطق والفلسفة، خاصة كتب برتراند راسل وجود اللذين كان يعجب بهما. وكانت تستهويه العقلية الأنجلوسكسونية ومنطق الانجليز ونمط عيشهم وأخلاقهم وتحفظهم في إصدار الأحكام، ويفضّل ما يكتبون على ما يكتبه اللاتينيون. بن إنه كان دائماً يشعر أثناء زيارته لفرنسا، أو بين جمع من الفرنسيين، كالسمكة خارج الماء.

وكنت أعجب لقلّة نظره، نسيّاً، في الشعر العربي، وضعف تعلقه به واحترامه له. فهو يستنكر منه غلبة المدح، وبذاءة الهجاء، وجمجمة الفخر، وتكلف المشاعر، وزيف الوصف. وأعتقد أن زكي مبارك كان محقاً حين اتهم والدي بالعجز عن استساغة الشعر العربي، وبأن تفضيله المعلن لابن الرومي وأبي العلاء على سائر الشعراء ليس تفضيلاً مخلصاً حقيقياً وإنما جاء اتباعاً لرأي العقاد في الأول، وطه حسين في الثاني، وتسليماً بحكميهما على الشعارين.

أما أحبّ كُتاب العربية إليه فهو أبو حيان التوحيدي قبل كل كاتب، يليه

الجاحظ فابن عبد ربه. وكان لسبب ما، ربما لاشتراكه في تحقيق الكتاب وعمله فيه مدة طويلة، يفضل «العقد الفريد» على أغاني أبي الفرج. أما مذهب المعتزلة فيفضله على سائر المذاهب، لاعتقاده الخاطيء أن مدرستهم أكثر المدارس الإسلامية التزاماً بالعقلانية والمنطق وحرية الفكر. ولم يكن يتعاطف مع الصوفية التي هي في رأيه أحد أسباب ما أصاب العالم الإسلامي من كوارث وانحطاط. ومع ذلك فالغزالي قريب دائماً إلى قلبه، وكتابه «المنقذ من الضلال» من أحب الكتب إليه. وقد أدهشه وسره سروراً عظيماً، وأنا أقرأ له في المستشفى «اعترافات تولستوي»، ذلك الشبه الغريب بين الكاتبين، وتلك التجربة الروحية الواحدة التي خاضها كل من حجة الإسلام والكاتب المسيحي الروسي.



وهو يحب الغناء الشرقي ويضطرب له، شديد الإعجاب بأم كلثوم، عظيم الاحترام لها. وقد كانت أم كلثوم كثيراً ما تتصل به تليفونياً قبل ساعة أو ساعتين من بدء حفلها الشهري، تسأله في إعراب أو اشتقاق كلمة وردت في قصيدة تغنيها، أو تخبره برأيها في مقال له. غير أنه كان يفضل أسمهان عليها بسبب نبرة الحزن العميقة في صوته. فإن استمع إلى موال قديم، ظل يهز رأسه طيلة الوقت طرباً. وهو يترنم بهذه المواويل بصوت جميل عميق خافت مرتعش كلما جلس مع أحدنا إلى لوحة الشطرنج واستغرق في التفكير في الخطوة التالية. فالشطرنج هو اللعبة الوحيدة التي يعرفها، علمنا إياها وأقنأها وصرنا نغلبه فيها. وكان يعجب إعجاباً ساذجاً بمتنولوجيات ثريا حلمي، ويغني معها إذا استمع إليها في المذياع: «فتح يا بني فتح، شوف مين بيكلمك!». أما عن السينما فلا يزورها غير مرة في السنة أو السنتين، فإن قصدها فمقعده دائماً في الصف الأول أو الثاني قرب الشاشة، حتى يستطيع أن يميز ما يُعرض، ولا يذهب لمشاهدة غير فيلم مصري. وهو يفضل المسرح، خاصة إن كانت المسرحية

لشوقي أو عزيز أباضة أو محمود تيمور، وكان من بين ممثليها صديقه الممثل
القدير أحمد علام.

وهو لا يمارس شيئاً من الرياضة البدنية غير السير على الأقدام والسباحة،
حتى أصيب بالجلطة فحرم من كليهما. غير أنه في شبابه كان شديد الشغف
بالمشي لمسافات طويلة عند جبل المقطم وفي صحراء مصر الجديدة، أو في
عزبته التي اشترك مع الدكتور السنهوري في شرائها. وهو لا يروقه شيء كمنظر
غروب الشمس في الريف أو على شاطئ البحر، يخرج إليه لمراقبته، ويفضل
الغروب على الشروق أيضاً لما يوحي به الأول من مشاعر حزينة لا يوحي بها
شروق الشمس.



أحبّ أصدقائه إليه الدكتور السنهوري: كل منهما يرتاح إلى ذلك الالتزام
الصارم بالمنطق لدى الآخر، والبعد عن الهوى عند إطلاق الأحكام. وكان
النسهوري يحب الاستفادة من رسوخ قدم والدي في التاريخ الإسلامي والأدب
العربي، فهو يعيشهما دون أن تسمح له دراساته القانونية بوقت طويل يقضيه في
القراءة فيهما. وكان والدي يحب الاستفادة من إلمام السنهوري بالقانون الذي
اشتغل به أبي زمنًا ثم انصرف عنه كلية إلى التاريخ والأدب. وكانت المكالمات
التليفونية بينهما تستغرق عادةً ما بين ساعتين أو ثلاث! إن اتصل السنهوري به
مساءً هرعنا إلى إعداد مقعد لوالدي بجانب التليفون، وأحضرنّا له علبة سجائره
والكبريت وكوب ماء وكل ما قد يحتاج إليه خلال الساعات التالية، ثم نحبيه
منصرفين إلى حجرّاتنا على أن نراه في الصباح! كل ذلك قبل أن يلتقط
أبي السماعة ليبدأ مكالمته لا يعلم غير الله متى تنتهي!

وقد كان، على حدّ علمي، على علاقة طيبة بجميع أدباء عصره،
ولأذكر أنه كان بينه وبين أحدهم ما يشبه الخصومة غير زكي مبارك، بسبب
سلسلة طويلة من المقالات نشرها الأخير في مجلة «الرسالة» بعنوان: «جناية

أحمد أمين على الأدب العربي»، يردّ فيها على سلسلة أخرى طويلة من المقالات نشرها والذي في مجلة «الثقافة» بعنوان: «جناية الأدب الجاهلي على الأدب العربي». أما الأديب الأثير عنده فأشبههم به خلقاً وطباعاً، وهو محمود تيمور. وكثيراً ما كان يجتمع بتوفيق الحكيم، سواءً في مقاهما المفضل على البحر بالاسكندرية في شهور الصيف، أو في اجتماع كل خميس في مقر لجنة التأليف والترجمة والنشر، حيث كانت تلتقي نخبة من مفكري مصر وأدبائها وعلمائها ورجال التربية فيها. وقد كان والذي يأذن لي وأنا بعد صبي في المرحلة الابتدائية من دراستي بحضور تلك الندوات. وأذكر أنني كنت كلما استفسرت من توفيق الحكيم عن كتب أقرأها، أو آداب ينصح بأن أغترف منها، أسرّ إليّ بالنصيحة أن أركز كلية على الآداب الغربية دون الأدب العربي، «اللهم إلا إن شئت أن تتمكن من اللغة العربية، فلا بأس من النظر بين الفينة والفينة في العقد الفريد أو الأغاني»، طالباً مني وهو يضحك أن أكتم أمر هذه النصيحة عن والذي حتى لا يغضب منه!

أما عن العلاقة بين أبي وطه حسين فأمرها خلاف أمر علاقته بهذا أو ذاك. كان كل منهما في شبابه يعشق صحبة الآخر عشقاً، ولا يجد الراحة إلا في حضرته. وكانت أفضال طه حسين على والذي كبيرة، ليس أقلها أنه هو الذي رتب نقل والذي من القضاء الشرعي إلى كلية الآداب عام ١٩٢٦، حيث وجد والذي في النهاية، وبعد طول تجارب، مجاله الطبيعي. غير أن فترة تولّي والذي لمنصب عمادة كلية الآداب أصابت صداقتهما بضربة لم يفق منها حتى مات. فقد أراد طه حسين، وهو المدرك تماماً لأيديه السابقة على والذي، أن يسيطر على أمور الكلية أثناء عمادة والذي لها، بينما أبي والذي إلا أن يصرف هذه الأمور وفق ما يمليه عليه عقله وضميره. فكان أن اتهمه طه حسين بالجحود، وكان أن تنكر له وازورّ بوجهه عنه، وكان أن ماتت صداقة يندر أن نجد في يومنا هذا مثيلاً لقوّتها وخصوبتها.

إلا أن الاتصال بينهما عاد ودياً قرب النهاية، حين أصيب والذي في عينيه

ورقد طويلاً بالمستشفى . وكان لطفه حسين مرة أخرى فضل البدء بالمصالحة . فقد أتاه يزوره في المستشفى . وكان اللقاء بينهما الذي حضرته مؤثراً إلى أبعد حد . وإن أنس لن أنسى منظر طه حسين الضريع وهو يدخل حجرة المستشفى يقوده سكرتيره من ذراعه، وإذ يسمع أبي، وهو معصوب العينين، صوته، يمدّ يده في لهفة في اتجاه الصوت، فأمسك أنا بيد والدي، ويمسك السكرتير بيد طه حسين، حتى تلتقي اليدان فيتصافحان .

ثم صداقة قوية أخرى كانت تربطه بقانوني بارز آخر، وإنسان عظيم، هو عبد العزيز باشا فهمي . وكان والدي يكثر من زيارته وهو طريح الفراش في منزله بمصر الجديدة، ويصطحبني إليه . فعبد العزيز فهمي يحمل لوالدي مودة عميقة، ويكنّ أعظم الاحترام لخلقه القوي، ويرتاح إلى طبعه الهادئ . وكنت أعجب أثناء استماعي إلى الحديث لتلك المرارة التي شعر بها عبد العزيز فهمي تجاه سعد زغلول، حتى بعد مرور نحو عشرين عاماً على وفاة الأخير . ولم يكن والدي يكتنّ إعجاباً ضخماً لسعد زغلول يدفعه إلى معارضة فهمي وتخطئته . وأذكر يوماً زرنا الرجل فيه، فرأينا إلى جانب فراشه هوماً عظيماً من نحو سبعين من علب سجائر البستاني كتب على ظهرها عبد العزيز فهمي بخط مرتعش قصيدة طويلة صعبة من ثلاثمائة وستين بيتاً في ذم الحياة، وفي مختلف أوجه القصور في حياتنا المصرية، (نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر فيما بعد في كتيب مستقل). وأحبّ المضيف أن يُسمع ضيفه القصيدة . وإذ كان كل منهما ضعيف البصر، فقد طلب المضيف إليّ، وأنا بعدُ الطالب بالمدرسة الثانوية، أن أنشدها، مقدماً إليّ علبه إثر علبة . وكان أن وجدت في القراءة صعوبة لم أجد صعوبة مثلاً في شيء من قبل أو من بعد، وتكرر وقوعي في الخطأ وتلعنمي، ووالدي ينظر إليّ بين الحين والحين نظرة غاضبة تكاد تلهمني التهاماً . فلما تركنا منزل الرجل، ظل أبي في السيارة طوال رحلة العودة إلى منزلنا يكرّر في حزن :

— كسفتي يا ولد . . . كسفتني . . !

كان طويلاً عريضاً قويّ البنية. ولا أذكر أنه عانى قبل الستين إلا من ضعف البصر ومرض السكر. وقد استعان على الأول بقارئ يقرأ له لعدة ساعات في اليوم، فإن انصرف قرأ له أحد أبنائه أو تولّى القراءة بنفسه، لا يكاد يفصل بين الكتاب ونظارته السميكة للغاية غير ثلاثة سنتيمترات. كما استعان على مرض السكر بنظام في الأكل صارم، وحقن الأنسولين كل صباح ومساء. غير أنه أصيب في الستين بانفصال في شبكية العين، واضطر إلى الرقاد على ظهره في المستشفى ثلاثة أشهر معصوب العينين، لا يتحرك يمنة أو يسرة بأمر الطبيب. وقد خرج من هذه الرقدة إنساناً غير الذي كان. ليس فقط لأن العملية لم تنجح وكادت البقية الباقية من بصره أن تذهب أدراج الريح، ولكن حالته الصحية والمعنوية بصفة عامة تدهورت هي الأخرى تدهوراً شديداً سريعاً. فسرعان ما أصيب بالجلطة في ساقه وبشلل نصفي. وصادف ذلك المرض إحالته إلى المعاش لبلوغه الستين، وانفصاض جمع من حوله كان يظنهم من مريديه فإذا هم من مريدي الانتفاع من وراء صلتهم به حين كان في وسعه أن ينفع. وكان يحزن أشد الحزن حين كان يجد صندوق بريده في الأعياد خالياً إلا من بطاقة تهنئة أو بطاقتين، في حين كان ساعي البريد منذ زمن غير بعيد يأتيه بالبطاقات والرسائل أكواماً مكومة. بل إنه حتى بعض أصدقائه المخلصين قلّ اتصالهم به وسؤالهم عنه وزياراتهم له بعد مرضه، واكتفى البعض بمكالمة تليفونية بين الفينة والفينة. وكان هذا التكرار له منهم، من أكبر منغصات سنواته الأخيرة.

كان وقتها إذا دق جرس التليفون في البيت، هرع إليه في لهفة وهو يتحامل على ساقه المريضة عسى أن يكون للمتحدث صديقاً له. فإن لم تكن المكالمة له، نادى على المطلوب منا وناولته السماعة وعاد إلى مقعده حزينا يجرّ ساقه خلفه. ولا أزال أذكر يوم عيد لم يزره فيه للتهنئة غير شاب مخلص من طلبته في الجامعة، هو الدكتور إحسان عباس، فزادت هذه الزيارة المفردة من إحساسه بالوحشة والمذلة، وأبى أن يستقبل ضيفه.

وفي مساء يوم ٢٩ رمضان عام ١٩٥٤، كان قد أنهى استعداداته للسفر إلى الاسكندرية في اليوم التالي لبدء إجازته الصيفية، وجلسنا معه في شرفة الطابق الأعلى من المنزل نتحدث إلى ساعة متأخرة من الليل. وكان في حالة نفسية مطمئنة منبسطة. وفي الصباح، أصابته الذبحة الصدرية. واستدعينا الطبيب، فلم يحضر إلا بعد أن كان قد مات.

بالرغم مما ذكرته من أنه لم يحاول قط فرض اهتماماته وآرائه ومنحه تفكيره علينا، وبالرغم من انشغاله ساعات طوالاً بالقراءة والكتابة، وبنشاطه في الحياة العامة، فقد ترك في نفوس أبنائه، وربما تلاميذه، أثراً عميقاً لا يعرف حداً، وهو تأثير قائم فيمن ورث عنه منا عزوفه عن السياسة واهتمامه بالدراسات الإسلامية أو من لم يرثهما، وفيمن تدبّر أولم يلعب الدين دوراً رئيسياً في حياته، وفيمن خلفه عند وفاته رجلاً أو صبياً. فموقفنا جميعاً من الحياة هو في جوهره نفس موقفه الأخلاقي الجاد، ومن السلطة - أي سلطة - هو نفس موقفه وتمسكه بحرية الرأي. وقد تأثرنا بمعاشرة هذا الإنسان العظيم عن قرب حتى بات من الصعب علينا بعده أن نحترم في أيامنا هذه رئيساً وقد رأينا رئاسته، أو كاتباً وقد شهدنا موقفه الجاد من صناعة الكاتب، أو مسؤولاً في الحياة العامة وقد خبرنا إخلاصه وتفانيه في نهوضه بالمسؤولية. فالمثل الإنجليزي يقول: «إياك إياك أن تستأجر خادماً خدم عند من كان يفضلك». ولم ير أولاده بعده من يفضله. رحمه الله.

سر الخلاف بين والدي

وطه حسين

من بين الأوراق التي خلفها والدي عند وفاته كراسة صغيرة من ست وعشرين صفحة، يحمل غلافها العنوان التالي:

«قصة العمادة، أو، حوادث سنة ١٩٤٢». والكراسة في حوزتي، قد سجّل فيها والدي بخطه في نحو ألفي وستمئة كلمة قصة وأسباب الخلاف الذي دبّ بينه وبين الدكتور طه حسين خلال الفترة التي تولّى والدي فيها عمادة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول. (القاهرة) .

ويتضح من دراسة هذه المخطوطة أمران:

الأول: أنه كتبها لنفسه لا للنشر، بدليل الطابع الشخصي الغالب، وضعف عنايته بأسلوبها ولغتها، وإشاراته دون إيضاح إلى شخصيات مجهولة عند الجمهور، كإشارته إلى زوج أختي في عبارة «وتحت إلحاح عبد العزيز. .» وإلى سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر في عبارة «وفي ١٨ أكتوبر كلمني عبد المتعال أفندي في التليفون قائلاً. . .»، إلى آخره. . .

الثاني: أنه كتب نحو أربعة أخماسها دفعة واحدة، (ربما في أوائل عام ١٩٤٣)، ثم ظلّ يضيف فقرات تتناول ما يجدد بصدد علاقته بطه حسين حتى وقت انقطاع المخطوطة في نحو أواخر ١٩٤٣.

وفيما يلي نص المخطوطة، مع بعض إيضاحات أضفتها للضرورة،

ووضعها بين أقواس، وتبدأ بحرفي ح. ا. هذا ولم أحذف من النص غير اسم أستاذ سابق بكلية الآداب اتهمه والدي باللدس بينه وبين طه حسين، مكتفياً بالحرفين الأولين من اسمه.

قصة العمادة

في ١ إبريل سنة ١٩٤٠، اخترت عميداً لكلية الآداب، عقب تعيين الأستاذ شفيق غربال وكيلاً مساعدًا لوزارة المعارف، وكان الترشيح بانتخاب أعضاء مجلس الكلية، فنلت ١٦ صوتاً، ونال مصطفى بك عامر ١٥ صوتاً، والدكتور (محمد) عوض والأستاذ (عبد الوهاب) عزام كل منهما ٨. وقد أيدني في هذا الترشيح الدكتور طه (حسين)، وعمل على تزكيتي في الخارج الدكتور (أحمد عبد الرزاق) السنهوري وكان وكيلاً لوزارة المعارف. وكان وزير المعارف إذ ذاك (محمود فهمي) النقراشي باشا، وكان له من الفضل عليّ في هذا الموضوع أنه بمجرد أن أبلغ بنتيجة الانتخاب، وافق على تعييني عميداً بعد ساعتين من الانتخاب، وأبلغ ذلك لإدارة الجامعة في يومها.

(ح. ا: يقضي نظام الجاهمة بأن يختار مجلس الكلية ثلاثة من بين أساتذتها، تُرفع أسماءهم إلى وزير المعارف لاختيار أحدهم عميداً للكلية، ومع فوز والدي بأغلبية الأصوات، ورغم صلته الوثيقة بالنقراشي باشا، فقد كان في اختيار النقراشي له مفاجأة له. «فأنا رجل دخيل على الجامعة بحكم تربيتي الأزهرية الأولى، وتربيتي شبه الأزهرية في مدرسة القضاء. وأنا رجل لم أتعلم في جامعة مصرية ولا أجنبية، وأنا رجل لم يتعلم لغة أجنبية إلا ما تعلمته من اللغة الانجليزية بعناء وبقدر محدود. فكيف أختار لهذا المنصب وأرأس الأساتذة الأجانب والأساتذة المصريين ممن تعلموا في الجامعات الأوروبية ونحو ذلك؟» («حياتي» - دار الكتاب العربي، بيروت، صفحة ٢٤٨). وقد ورد في ذلك الكتاب أن تاريخ تعيينه عميداً هو إبريل ١٩٣٩، والصحيح ما أثبتته في المخطوطة).

وقد حمدت الله على هذا لأنه جاء مكافأة حسنة لجدي في عملي . ولكن سرعان ما أحسست بهمّ يملؤني من تصور مسؤوليتي نحو الأساتذة والطلبة والطالبات، وما تتطلبه العمادة من انصراف لها عن المجهود العلمي الذي أبدله، وضعفي في اللغة الانجليزية فيكون بعض العسر في التفاهم مع الأساتذة الأجانب .

وسرت مستعيناً بالله، فأبديت حمزاً وعدلاً ونشاطاً في تسيير الأمور بما يمكنني . وانتظمت الأمور وسارت سيراً حسناً . وكان مركزي في مجلس الجامعة، وعلاقتي الشخصية بعبد الرحيم عثمان سكرتير الجامعة تساعد على سير كل ما أطلب من الإدارة، وعلاقتي بوكيل المعارف (السنهوري) تساعد على تسيير ما أطلب في وزارة المعارف .

وجرت العلاقات بيني وبين الدكتور طه حسنة لما بيننا من صداقة قديمة، وإقراراي بجميله في مساعدتي في الانتخاب .

(ح. ا. لم يقتصر فضل طه حسين على والذي على مساعدته في انتخابات العمادة . فهو الذي سعى حتى نقل والذي من القضاء الشرعي الذي لم يستسغه قط إلى التدريس في كلية الآداب . كتب طه حسين عن هذا يقول : « . . وهو في أثناء هذا كله (أي عمله في القضاء الشرعي) قلق لا يعرف اطمئناناً ولا استقراراً، ويلتمس نفسه في كتب الفقه وفي علوم الدين كلها فلا يجدها، ولا يجدها في ذلك التعليم المحدود ذي الآفاق الضيقة الذي كان يلقي في مدرسة القضاء . وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التي أضلّ فيها نفسه، فيتصل ببيئات المطربين، وينشئ معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر، ويأخذ في تعلم اللغة الانجليزية . ويخيل إليه أن الأمد بينه وبين نفسه قد أصبح قريباً . ولكنه على ذلك يلتصقها فلا يظفر بها . وألقاه في يوم من أيام حيرته تلك، وإذا هو ضيق بعمله في القضاء أشد الضيق، وإذا هو طامح إلى شيء مجهول لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد . كل ما يعنيه هو أن يخرج من حياته

تلك التي لا يستطيع عليها صبراً. ونفترق في ذلك اليوم وقد أزمعت في نفسي أمراً، فإذا كان الغد تحدثت بما في نفسي إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد، فإذا كان المساء دعوت أحمد إلى لقائي، وعرضت عليه التعليم في الجامعة، فيشك غير طويل، ثم يستجيب. ولا يكاد يستقر في كلية الآداب شهراً وبعض شهر حتى يجد نفسه تلك التي طال البحث عنها وشقي بالتماسها أعواماً طوالاً. (من مقال «أحمد أمين العالم» في كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه»، لجنة التأليف، ١٩٥٥). وقد أكد أحمد أمين هذه القصة في «حياتي» صفحة ١٩٩. وكان تعيينه مدرساً بكلية الأدب عام ١٩٢٦، وكان وقتها قاضياً بمحكمة الأزبكية بالقاهرة.

بدء الخلاف:

ولكن سرعان ما بدأت العلاقات بيني وبينه تفتت. وسبب ذلك - على ما يظهر لي - أنه كان يتوقع أن أعمل في الكلية حسب إشارته وطوع أمره. ولكن هذا ليس من طبيعي. فانا متأثر بالقضاء، أتحرى العدل وأطالب به وأعمله مهما كانت النتائج. فلما خالفته في رأيه وعملت على تنفيذ ما أراه الحق، غضب وتغير، وبدأت الأمور تجري مجرى الخصومة.

وأذكر من هذه الحوادث الأولى أنه أراد أن يرقى (سليمان) حُزَيْن أستاذاً مساعداً للجغرافيا رغم (إرادة) قسم الجغرافيا، وكتب بذلك تقريراً مع أن هذا من اختصاص قسم الجغرافيا، وقسم الجغرافيا يرشح (عبد المنعم) الشرقاوي. وعرضت الأمر على مجلس الكلية، وأيدت ترشيح الشرقاوي، وخرجت الأغلبية له. فغضب طه وقال في المجلس بأعلى صوته: «إنكم تلعبون!» فغضبت من ذلك، ورفعت الجلسة.

وكذلك من أوائل ذلك مسألة عبد الرحمن بدوي، إذ لم يقيّد اسمه للماجستير، وأراد أن يدخل الامتحان من غير أن يُقيّد لمدة سنة كما هو نص اللائحة. فعرضت الأمر على مجلس الكلية، فأجله إلى سنة. ولم يكن الدكتور

طه حاضراً. وكان لبدوي هذا علاقة ببعض الوزراء، فرجوني فلم أقبل، فرجوا الدكتور طه، فطلب أن تعرض المسألة على مجلس الكلية من جديد، فوافقت، وأخذ الرأي على فتح باب المناقشة من جديد أولاً. وحضر الدكتور طه في هذه الجلسة ليُظهر نفوذه، فكان هناك ٨ أصوات بفتح باب المناقشة و ٨ للرفض، فأيدت الرفض، وغضب طه.

وكان له رجاءات في المجانية، قبلت بعضها ورفضت بعضها لعدم استحقاقهم كل ذلك أغضب طه، فاتخذ شكل الخصومة، ووقف موقف المحارب.

ويمكن تلخيص أسباب هذه الخصومة فيما يلي :

(١) أنه يريد فرض إرادته على من يشتغل معه، فإذا خالفه في أمر ناصبه العداء. وهكذا مع شفيق غربال إذ رفض له قبول طالب مجاناً فثار عليه ولم ينقذ الموقف إلا نقله. (أي نقل غربال إلى وزارة المعارف)،

(٢) ترحيبه وتشجيعه لمن ينقل إليه كلاماً ولو مختلئاً. وقد قام بهذا الدور في حقي حبيب الذي كان سكرتيراً، و«أ. أ»، فكانا ينقلان ويختلقان،

(٣) أظن أن الغيرة كانت تعمل عملها، فالنجاح في العمادة الذي وفقت إليه أثار شيئاً من الغيرة، وهذا طبيعي.

بعد ذلك طلب الدكتور طه ترقية كامل حسين إلى (درجة) مدرس. فرفضت المسألة بكل أمانة وإخلاص على مجلس الكلية فرفض المجلس ذلك لعدم كفايته. فثارت ثائرة الدكتور كيف يرشح شخصاً بصفته رئيساً لقسم اللغة العربية ثم يرفض مجلس الكلية قوله وإشارته. فخاصم المجلس، واستقال من رئاسة قسم اللغة العربية، وهاج لذلك هياجاً شديداً.

وكان مثل هذا الدور تماماً يمثل في وزارة المعارف، إذ كانت علاقته بالدكتور السنهوري كعلاقته معي، فأراد أن يملي إرادته في وزارة المعارف فأبى

السنهوري، فكانت الخصومة. وقد أصلحت بينهما مرتين فدام الصلح أياماً ثم عاد إلى ما كان. فأدركت أن السبب لا يمكن علاجه لأنه يرجع إلى الطبيعة لا إلى سبب ظاهري، فامتنعت عن السعي في الصلح، فكان هذا مما أخذه عليّ أيضاً الدكتور طه.

وهكذا شأنه في المجمع اللغوي، عملت مراقبة الثقافة أعمالاً فاعترض رئيس المجمع على عملها بدون علمه، ورشح الدكتور طه عبد العزيز أحمد لعمل في المجمع فلم يوافق المجمع عليه، فألى الدكتور طه أن يخاصم المجمع وألا يحضر جلساته. وهو لا يحضر المجلس إلى اليوم.

(٤) ومن الأسباب أن خُلِقَ الدكتور طه هو الحاجة إلى تدليل دائم، فهو يريد الشيء ويتظاهر بأنه لا يريده. وأقرب الناس إليه من يدلّله فيرجوه في قبوله، وهكذا. وقد ضاق صدري من هذا لإفراطه فيه وعدم قدرتي على مجاراته. وقد جرّبت ذلك في مواقف عدة.

مزاجان مختلفان :

وعلى الجملة فمزاجانا مختلفان.

هو يعمل للشهرة وأنا لا أحبها ولا أحب الظهور، وعندي نزعة صوفية تهزأ بكثير من مظاهر الدنيا،

وهو يقيس الأشياء ويحكم عليها بشخصه فلا يتحرّج من أن يكيل للمقربين إليه ما يشاء ولو لم يستحقوا، ويحرم المبعدين منه ولو استحقوا. وعنده المحسوبة لا إلى حدّ. وطبعتي طبيعة القضاة في العمل على ما اعتقده مبدأً وعدلاً وحقاً، وكذا السنهوري. وهو يعمل حزيباً وأنا أعمل قومياً أو إنسانياً. وهو يتعالى وترفع وأنا أتواضع في إباء. وهكذا اختلفت طبائنا وأمزجتنا مما جعل العلاقة بيننا فاترة.

(ح. ا. ناقض أحمد أمين نفسه بصدد هذه النقطة الأخيرة إذ فسّر في

كتابه «حياتي» ص ٢٥١ - ٢٥٢ الصداقة والألفة بينه وبين طه حسين باختلاف مزاجيهما وطبعتيهما. كتب يقول: «هو أقرب إلى المثالية وأنا أقرب إلى الواقعية. وهوفنان يحكمه الفن وأنا عالم يحكمه المنطق. وهويحب المجد ويحب الدوي، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء. وهومغال في الحكم على الأشخاص وعلى الأشياء، وأنا بطيء. وهوعنيف إذا صادق أو عادى وأنا هادئ إذا صادقت أو عاديت. وهوواسع النفس أمام الأحداث، وأنا قلق منضطرب غصوب ضيق النفس بها. وهوماهر في الحديث إلى الناس فيجذب الكبير، وليست عندي هذه المقدرة فلا أجتذب إلا القليل. وهوفي الحياة مقامر يكسب الكثير في لعبة ويخسر في لعبة، وأنا تاجر إن كسبت كسبت قليلاً في بطة وإن خسرت خسرت قليلاً في بطة، يحب السياسة لأنها ميدان المقامرة وأنا لا أحبها إذ لا أحب المقامرة. ولعل هذا الخلاف بيننا في المزاج هو الذي ألف بيننا، فأشعره أنه يكمل بي نقصه وأشعرني أنني أكمل به نقصي».

الضيق بالعمادة :

بعد مضيّ سنة عليّ في العمادة أحسست بضيق منها. وكانت وزارة المعارف للدكتور (محمد حسين) هيكل باشا، فرجوته أن يُعفيني منها فأبى. وكان ذلك في أوائل الإجازة الصيفية. وكررت ذلك في أوائل السنة (الدراسية، أكتوبر - نوفمبر ١٩٤١). وكان علي باشا إبراهيم مديراً للجامعة جديداً، وكتبت له الاستقالة فأبى بحجة أن هذا يعدّ مظهراً لعدم الرغبة في التعاون معه. فمضيت السنة الثانية. وفي آخرها كانت الوزارة الوفدية قد أتت، وولي وزارة المعارف نجيب الهلالي. فكررت عليه الاستقالة فأبى، وألححت فوعد بالنظر في ذلك بعد الاجازة، واعدأ لي بأنه سيعمل كل ما يريحني.

وكانت رغبتي في الاستقالة مبنية على أسباب :

(١) أنني شعرت بتفاهة العمادة، فأوراق تقرأ وتمضى في أشياء تافهة، مما يصرف عن العمل الجدي،

(٢) كثرة الرجاءات من الطلبة في المجانية، ومن هيئة التدريس في العلاوات والترقيات وفي قبول الطلبة ونحو ذلك مما لا يحصى . وأصبح صدري ضيقاً بهذا الرجاء، أنفر منه واشمئز ولا أرتاح له، وقد أغضب الناس في صدّهم، وكثيراً ما حدث ذلك.

(٣) أسفني على حرمانني من لذة القراءة والتأليف، وهي في نظري أجدى وأنفع .

(ح. ا. في «حياتي» ص ٢٤٩ : «ها أنذا في عمادة كلية الآداب، قد شغل وقتي كله بأعمال إدارية أكثرها لا قيمة له . فكل الأوراق تعرض عليّ حتى شراء مكينة، وكل أعمال الطلبة والأساتذة تعرض عليّ حتى الكلمة النابية يلفظها طالب، إلى شكاوي الطلبة وما أكثرها! وتزاحم المدرسين والأساتذة على العلاوات والدرجات وتسوية الحالات وما أصعبها! فكان هذا شغل وقتي حتى لا أستطيع أن أفرغ للعلم إلا قليلاً، ولا أن أفرغ للنظر في المسائل الأساسية كمناهج التعليم وطرق التربية إلا بقدر . وهذه عدوى من نظام الحكم في مصر حيث تتركز الأعمال كلها في يد رئيس المصلحة، وما كان أخرى بالجامعة أن تتخلّى عن ذلك، وتوزع الاختصاص ويتفرّغ العميد للمسائل المهمة . ولكن أنى لنا ذلك!»).

كل هذا جعلني أتمنى الظرف الذي يتيح لي أن أخرج من العمادة في رفق وهدوء . . . والناس حولي وأهلي لا يفهمون ذلك، ويودّون بقائي عميداً، لما يتبعها من الوجاهة التي أراها تافهة، ولما يقضون من وراء ذلك من منافع شخصية تافهة في نظري، كالوساطة في قبول أولاد الناس بالمجان ونحو ذلك .

تدخل نجيب الهلالي في شؤون الجامعة

فلما جاءت حكومة الوفد (فبراير ١٩٤٢) شعرت بأن الجولا يلائمني كثيراً، وأنا طول حياتي لم أنتم إلى حزب ولم أعمل بحزب .

شعرت بأن نجيب الهلالي وزير المعارف يتدخل في شؤون الجامعة من غير طريقها المعتاد، فلا يعبأ بمجلس الجامعة ولا بإدارتها، ويتصل بمن شاء أن يتصل به فيما يريد.

وقد حدث أن قابله مرتين لهذا الغرض، وشرحت له خطر ذلك على استقلال الجامعة، مرةً على أثر تشريع تخفيض نسبة النجاح، فقلت له: «إني أشعر باستقلال الجامعة يُهدم بهذه الطرق». فأكد لي أنه حريص على استقلال الجامعة حرصي، وأن مجلس الجامعة كثيراً ما يخطيء ولا يبيني حكمه على دراسة صحيحة. فقلت: «إن كان يخطيء فالبرلمان يخطيء ولا من يقول بإهماله. ومعاليك رئيس الجامعة يمكنك أن تحضر في المجلس أو تنيب عنك من ترى عند نظر المسائل الهامة، وتشرح وجهة نظر الوزارة، وتسمع وجهة نظر المجلس، وبعد ذلك لك تمام الحرية القانونية في أن تعمل ما ترى».

واعترض بأنه يأخذ رأي مدير الجامعة في كل ما يعمل، فقلت: «إن مدير الجامعة غير مجلس الجامعة، وموافقة المدير لا تجزئ».

وأخيراً، وبعد مناقشة طويلة وإظهار رغبتني في الاستقالة، كلمني كلاماً طريفاً في تقديره لي، وثقته بي، والعمل لخير الجامعة ووعدي من الآن ألا يعمل عملاً في المستقبل إلا بعد أخذ رأي مجلس الجامعة. فشكرت له ذلك وانصرف.

ولكن حدث بعد ذلك بنحو أسبوعين أن اجتمع عنده بعض العمداء وشفيق غربال والدكتور طه، ونظروا في تعديل نظام الامتحان في كلية الحقوق. وأخذ الوزير رأيي في تعديل مثله بكلية الآداب بالتليفون، فأبدت اعتراضي على هذا النظام. ولكنني علمت في المساء أنهم أجازوا هذا التعديل، وأرسلوه إلى وزارة المعارف. فلم أتم هذه الليلة. وفي الصباح ذهبت إلى وزير المعارف، وانتظرت حتى حضر، فدخلت عليه محتجة على تشريعه لكلية الآداب من غير حضوري. فاعتذر بأن الاجتماع كان للنظر في تعديل

الامتحان في كلية الحقوق ولم يكن من رأيه تعديل الامتحان في كلية الآداب، وأن الدكتور طه هو الذي ألح عليه في ذلك. وأراد أن يبرهن على أنه لم يشأ أن يتعدى على كلية الآداب بأن أعطاني المشروع وأعطاني تمام الحرية في قبوله أو رفضه، بشرط أن أتحمّل مسؤولية رفضه إذا هاج الطلبة. فأخذت المشروع، وعرضته على لجنة الامتحان بالكلية فاستحسنوه بعدما أدخلوا عليه تعديلات داخلية. وانتهى هذا الموقف أيضاً. وقد تبين أن الأمور ستجري في غير مجراها الطبيعي، وأن الاحتكاك سيستمر في كل خطوة.

وكان أن حدث أن الدكتور طه عُين مستشاراً فنياً بوزارة المعارف. وكان الدكتور السهوري قد تفوهم معه على أن ينقل مستشاراً ملكياً، فقبل ولكن حدث أن أحيل فجأة إلى المعاش من غير سبب ظاهر، وعين الدكتور طه مستشاراً على أن يأخذ ماهيته من درجة الوكيل. فرأيت أن هذا ظلم صارخ للدكتور السهوري، ولم أبرئ الدكتور طه من هذا العمل الظالم، وإن كنت لم أحدد بالضبط مقدار مسؤوليته. ولكنه على كل حال مسؤول لدرجة ما. فنفرت نفسي منه لهذا السبب أيضاً.

ولما عين في الوزارة ظهرت أعراض هدم استقلال الجامعة أيضاً على يده، فهو ينظر كل شيء دون مجلس الجامعة، ويبت في كل شيء. وهذا ما لم أستطع احتماله.

وفي هذه الأثناء لَمَح لي بأنه يريد التعاون معي، فرفضت. فقد قال لي يوماً إننا سننظر معاً شؤون جامعة الاسكندرية. ورفضت أن أكون عضواً في مجلس دار العلوم. وقلت له يوماً بالتليفون إنني أرفض كل لجنة وكل عضوية بالوزارة، فكان جوابه: «إني فاهم»، أي أنه فاهم أني رافض التعاون معه. وألح عليّ بعد وزير المعارف أن أقبل عضوية مجلس دار العلوم، فاعتذرت. وبهذا تشكّل الموقف شكل خصومة وعدم تعاون.

السبب المباشر للاستقالة

وحدث أن وزارة المعارف قطعت خطوات واسعة في إنشاء جامعة فاروق في الإسكندرية، وشاع أنها ترشح بعض (أعضاء) هيئة التدريس من كليات القاهرة لنقلهم إلى الإسكندرية، والإشاعات تتراعى هنا وهناك، وفيهم بعض المدرسين بكلية الآداب التي أنا عميدها ولا أعرف من ذلك الأمر شيئاً. ولم يخاطبني أحد في أمر من يُنقلون إلى الإسكندرية، والمدرسون يذهبون إلى وزارة المعارف، ويرجو بعضهم في النقل، وبعضهم في عدم النقل، ويساوم من يريد النقل على ما يكافأ به، وهكذا. وتتراعى إليّ الإشاعات ولا يخاطبني أحد رسمياً في ذلك. ولكن لم أستطع أن أحتج على هذا لأنه لم يصدر شيء رسمياً.

وأخيراً قرأت في «الأهرام» أنه صدر الأمر بتعيين مصطفى بك عامر وكيلاً لجامعة فاروق. فتأثرت جداً إذ لم يؤخذ رأيي في هذا وهو أستاذ عندي، والواجب أن يؤخذ رأي رئيس المصلحة فيمن ينقل من عنده، إن لم يكن قانونياً فادبياً. فلم أطق الصبر على هذا، وكتبت بعد قليل من قراءتي هذا الخبر جواب استقالتى، وذكرت فيه أن هذه الاستقالة بناءً على إجراء حركة النقل من الكلية.

ومضى يومان أو ثلاثة ولم تقبل الاستقالة ولم يخاطبني أحد بشأنها. وعلمت أن وزير المعارف كان قد طلب أن يمرر تعيين مصطفى عامر على مجلس الجامعة، ولكن عبد الرحيم بك عثمان فسر مادة القانون التي تقول «بعد أخذ رأي الجامعة المختصة» بأن المراد مدير الجامعة لا مجلس الجامعة. ورأيت أن هذا خطأ من جهتين: من جهة أن الجامعة ليس معناها مديرها وإنما معناها مجلسها ما لم يُنص على المدير، وثانياً، وعلى فرض صحة هذا، فأدّاب اللياقة والعرف الجاري تقضي بأن يؤخذ رأي رئيس المصلحة، (وهو عميد كلية الآداب)، فيمن ينقل من عنده.

على كل حال صممت على الاستقالة، فلما استبطلتها اتصلت برئيس

تحرير «الأهرام» أنطون بك الجميل، ورجوته في نشر خبر الإستقالة لأستحثهم على قبولها. فحدث اجتماع في وزارة المعارف بعد ذلك بيوم، وأعلن في الجرائد قبول استقالتني؛ وأن مدير الجامعة قبلها ورفعها إلى الوزير قبلها، والدلائل واضحة أن عملاً كهذا لم يُعمل من غير أخذ رأي الدكتور طه وإشارته وإيعازة.

وبعد ذلك بأيام كلمني الأستاذ فريد أبو حديد، وأخبرني أنه يسعى لإزالة الخلاف بيني وبين الوزير والدكتور طه، ولرجوع الوزير عن قبول استقالتني، فأبنت له أن ذلك غير ممكن. وأتاني مرة وقال أن الدكتور طه وعده بأن يقبطني على الدرجة الأولى حرف أ، فقال له فريد: «بل أعطها له فعلاً»، فقبل الدكتور طه بشرط عرض المسألة على الوزير وقبولي هذا الحل. وعرض فريد عليّ ذلك فأبنت.

وعقب ذلك زارني الدكتور طه في البيت فلم يجديني. ورددت له الزيارة فوجدته. فكلمني في العدول عن الاستقالة، فأبديت له أنني مصمم عليها. وكان كلامه كجس نبض، فلم يلح. ولعله كان ينتظر رأي الوزير فإذا وافق ألح. وعلى كل حال أخبرني فريد بعد ذلك أنه كلم الوزير، فقال الوزير لفريد: «وهل أحمد أمين يقبل؟» فقال فريد: «لا» فقال الوزير: «فقيم الكلام؟» «وأخبرت فريد بعنف أنني لا أقبل مثل هذا الكلام، لأنني صممت على الاستقالة بسبب وهو الاعتداء على الجامعة، فكيف يُحل هذا بإعطاء درجة أو وعد بدرجة؟ إن هذا يسقطني في عيني وأعين الناس.

وإلى هنا انقطع الكلام في هذا الموضوع، وانقطع ما بيني وبين الدكتور طه ثانية. وقاطعت الوزارة، فلم أشارك فيها في لجان ولا في وضع أسئلة ولا إمتحان ولا حديث في راديو الوزارة ولا شيء من هذا.

وكتبت مقالاً في «الصدّاقة والصديق» في (مجلة) الثقافة، ذكرت فيها وصف صديق مخلص، وفيها بعض تلميح على الدكتور طه. فرد بقطوعة في

«الأهرام». من غير ذكر اسمي، ولكن في وضوح، متهماً إنياني بأنني عطف على
في بؤسه وحسدته في نعيمه، وأن هذا ومن أنكره في بؤسه وعرفه في نعيمه
كحماري العبادي.

وانقطعت بعد هذا الصلة بيننا تماماً.

(ح.أ. كتب والدي في ترجمته الذاتية ص ٢٥١ - ٢٥٢ معلقاً على هذه
الأحداث: «وكانت مأساة العمادة أنني فقدت بها صداقة صديق من أعز
الأصدقاء، وما أقل عددهم. كان يحبني وأحبه، ويقدرني وأقدره، ويطلعني
على أخص أسرار وأطلعني، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عني، ويشاركني
في سروري وأحزاني وأشاركه، وكنت هواه وكان هواي، واستفدت من مصادقته
كثيراً من معارفه وفنه ووجهات نظره، سواء وافقته أو خالفته، فأصبح يكون جزءاً
من نفسي يملأ جانباً من تفكيري ومشاعري. . وجاءت العمادة مفسدة لهذه
الصداقة لأنه - بحكم طبيعته - أراد أن يسيطر، وأنا بحكم طبيعتي أردت أن
أعمل ما أرى لأنني مسؤول عما أعمل. ثم ولي منصباً أكبر من منصبني يستطيع
منه أن يسيطر على عملي، فأراد السيطرة وأبيتها، وأراد أن يحقق نفسه بأن ينال
من نفسي فأبيت إلا أن أحتفظ بنفسني. فكان من ذلك كله صراع أصيبت منه
الصداقة، فحزن لما أصابها وحزنت، وبكى عليها وبكيت».

هذا ولم أعر لا على مقال والدي «الصداقة والصديق» من بين مقالات
المجلدات العشر من «فيض الخاطر»، ولا على طقطوقة طه حسين في
مجلدات أعماله الكاملة، طبعة بيروت).

بعد العمادة

(ح.أ. بعد سنتين من العمادة لم يؤلف خلالها والدي كتاباً أو يتمم
بحثاً، عاد إلى كتبه ومكتبته ليبدأ في إعداد الجزء الأول من «ظهر الإسلام»،
وتحقيق كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، والاشتراك مع الدكتور
زكي نجيب محمود في تأليف كتب «قصة الفلسفة اليونانية»، ثم «قصة الفلسفة

الحديثة» ثم «قصة الأدب في العالم». غير أن تغيراً هاماً كان قد طرأ على نمط حياته بعد هجره للعمادة. كتب يقول: «تركت العمادة وعدت أستاذاً، وخلت يدي من كل سلطة إدارية. وأتت وزارة [الوفد] لا تعدني من رجالها، فلم يكن لي شأن في علاوات وترقيات، وليس لي قبول في شفاعات. وإذ ذاك سمرت لي وجوه قبيحة من إنكار الجميل وقلة السواء. هذا كان صديقي يوم كنت أستطيع نفعه، فلما سلبت مني هذه القدرة تلمس الوسائل ليكون عدوي، فإن لم يجد أسباباً اختلقها. وهؤلاء الذين كانوا يتهافتون على إقامة حفلات تكريم لي يوم انتخبت عميداً فأرفضها، لم يفكروا في إقامة حفلة وداع يوم تركت العمادة. وهذه التليفونات التي كانت تدق كل حين للسؤال عن صحتي، وطلب موعد لزيارتي لإظهار الشوق أولاً، والاطمئنان على صحتي ثانياً، والرجاء في قضاء مسألة ثالثاً، لم تعد تدق إلا للأعمال الضرورية التي ليس منها سؤال عن صحة، ولا إعلان أشواق. وهذا صندوق البريد الذي كان يمتلئ بالخطابات المملوءة بالطلبات والرجاوات أصبح فارغاً إلا من خطابات عائلية أو مسائل مصلحية. وهذه أيام الأعياد التي كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء يهتثون بالعيد، أصبحت كسائر الأيام، أجلس فيها على المكتب فأقرأ وأكتب، ولا سائل ولا مجيب. وهذه صورة للناس لم تكن جديدة عليّ، فقد قرأت مثلها في الكتب وسمعت عنها في الأحاديث. . لكن لعل أسوأها أثراً في نفسي ما شاهدته من قلة الوفاء في بعض طلبتي: فقد كنت أعتقد أن الرابطة العلمية فوق كل الروابط، وأن حق الأستاذية فوق كل الحقوق. أما أن طالباً يخرج على أستاذه ويخاصمه، ويقدم فيه بالكذب والأباطيل، فشيء لم أكن رأيته، فلما رأيته استعظمت، وحرّ في نفسي وبلغ أثره أعماق قلبي، ولم أعد بعد ذلك أثق بالناس كما كنت أثق، ولا أركن إليهم كما كنت أركن» - «حياتي» ص ٢٥٥ و ٢٥٦.

ونعود الآن إلى ما تبقى من المخطوطة، وهي بضع فقرات واضح أن

والذي كان يضيفها كلما جدّ جديد على صلته بطله حسين، ثم انقطعت فجأة في حوالي ديسمبر ١٩٤٣).



رسمت لنفسي خطة في التدريس في الجامعة: وهي أن أقصر نفسي على التعليم وعلى أربع حصص أؤديها في يومين، وأذهب قبيل الحصة وأعود بعيدا، وأعتزل حضور مجلس الكلية، ولا أقبل عضوية مجلس الجامعة، وحجتي في ذلك أن وزارة المعارف والدكتور طه سيطرا على كل الأعمال الإدارية، فما شاء نُقِّد، وما لم يشاء لم يَنْقُذ، فلا معنى إذن لمجلس، ولا خدعة في نظام ديموقراطي الشكل استبدادي المعنى.

وسرت على هذا النظام طول سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣، وأرحت نفسي وانقطعت لعملتي العلمي، فعكفت على إنفاذ الجزء الأول من «قصة الأدب في العالم» وأتممته مع زكي نجيب محمود في عام.



وحدث يوم ٢٩ مايو ٤٣ أن دعيتي الست قوت القلوب الدمرداشية للعشاء في بيتها، فأجبت ولم أعرف المدعوين. وذهبت فوجدت وأنا داخل الدكتور طه وأسرته واقفين على مدخل الباب الداخلي ومعهم سعيد بك لطفي [مدير الإذاعة المصرية الأسبق وشقيق أحمد لطفي السيد باشا] وفكري أباطة. فاحترت قليلاً ماذا أصنع. ووجدت الواجب يقضي عليّ بالتسليم عليهم جميعاً، ففعلت. ولكن الدكتور طه تردد بضع ثوان في مديده إليّ حتى اضطر سعيد بك لطفي أن يهتف باسمي لينبهه على الواجب، فمد يده في ارتخاء وبرود. وكنت أظن أن من حولي لم يدركوا هذا المنظر، ولكن علمت بعدها أنهم لاحظوا ذلك، وأن الست قوت القلوب شكّت للدكتور [إبراهيم؟] مذكور إساءة الدكتور طه إليّ في بيتها.

ومن ذلك الحين صممت ألا أقرئه سلاماً، ولا أضع يدي في يده.

في يوم ١٣ سبتمبر سنة ٤٣ شعرت بضيق من جو الجامعة، فقدمت طلباً بالإحالة إلى المعاش مع معاملتي معاملة بقية الموظفين من إعطائي درجة أستاذ، وضممتين إلى خدمتي، وإعطائي الفرق بين المعاش والمرتب مدة سنتين. وأقنعت علي باشا إبراهيم بهذا الطلب، فوعدني بمقابلة وزير المعارف سريعاً وإجابته. ولكن مضي زمن طويل ولم أسمع شيئاً. ثم قابلته، فأخبرني أن الوزير يرفض هذا، فقدمت طلباً ثانياً أتنازل فيه عن الدرجة، وأكتفي بضم سنتين.

وفي يوم الاثنين ١٨ أكتوبر سنة ٤٣ كلمني عبد المتعال أفندي [سكرتير لجنة التأليف والترجمة والنشر] في التليفون قائلاً إن الدكتور طه يريد أن يقابلني، وهو يسأل عني في اللجنة، ويسأل هل تحضر إلى اللجنة ليزورك. فقلت له: «سأحضر الساعة السابعة» وفعلاً ذهبت في الساعة المحددة، وحضر الدكتور طه.

فما زال يقنعني بالعدول عن الاستقالة نحو ساعتين حتى عدلت نزولاً على رجائه وتذكيراً بالصدقة القديمة. وفي هذه الجلسة تعاتبنا طويلاً وأبلغته ما في نفسي مما فعله معي أثناء عمادتي، وما فعله مع الدكتور السنهوري. وقد دافع عن نفسه في كل ذلك طويلاً، ثم انصرف. . . وفي أثناء الحديث أفهمني أنه اتفق مع الوزير على إعطائي الدرجة، فقلت له: «إن الدرجة ليست محل مساومة، وخير ألا تذكر في الموضوع». وأخبرني أن الوزير سيكتب لي خطاباً رداً على طلبي يبلغني فيه أسفه لأنه لم يقبل استقالاتي حرصاً على مصلحة الطلبة.

وانتهى فصل طلب الإحالة على هذا الوجه. وقد مررت على النقراشي باشا أستشيريه فيما تم، فقال إنه لو أخذ رأيي ما وافق على الاستقالة، فأما وقد تم على هذا الوجه فمن الخير، «ولا بأس إذا هم أعطوك الدرجة، فهذا حقك، ولا محل لتخوفك من أن يظن بك أنك إنما قدمت الاستقالة رغبة في الدرجة».

كما أشار [النقراشي] عليّ بالتحفظ في العلاقة بالدكتور [طه] . لأنه قد تلون باللون السياسي الواضح .

بعد نحو أسبوعين زرت الدكتور طه رداً لزيارته ووجدته في بيته . فمكثت عنده نحو عشر دقائق . وكان الكلام عادياً والمقابلة فيها شيء من التحفظ .

بعد نحو ثلاثة أسابيع دعانا الدكتور [أحمد] زكي [المدير الأسبق لجامعة القاهرة] على عشاء أنا والدكتور طه و(عبد الواحد أو عبد الوهاب) خلاف وفريد [أبو حديد] و[الدكتور محمد] عوض . وكانت سهرة لطيفة خفيفة .

وتحت إلحاح ابني [محمد] و[زوج ابنتي] عبد العزيز أفندي رجوته [أي الدكتور طه] في التليفون أن ييسر سبيل البعثة لابني [إلى إنجلترا] ويعين عبد العزيز في المعهد [الثقافي] المصري في لندن ، فوعده .
[ح.أ. وقد أوفى الدكتور طه بوعده بصدد الإثنين] .

* * *

إلى هنا تنتهي مخطوطة والذي «قصة العمادة» . وقد ظلت العلاقة بين الرجلين طوال السنوات الخمس التالية يشوبها الفتور والتحفظ ، حتى أصيب والذي في عينيه عام ١٩٤٨ ، فاتاه طه حسين يزوره وهو راقد في المستشفى ، وعادت الإلفة بينهما إلى مجراها القديم ، وأكثرنا من الزوار واللقاء . فلما مات والذي كتب طه حسين في رثائه يقول :

«... كانت حياته كلها مغالبة ، ولم تستقم له الأمور على ما أحب في يوم من الأيام مذ كان صبياً . . كان يريد أن يغير الدنيا من حوله . وليس تغيير الدنيا ميسراً للناس ، ولكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع ، فيستقيم له التغيير في بيئته الخاصة ، وفي بيئته الجامعية بعض الشيء ، ويستعصي عليه في بيئات كثيرة كل الاستعصاء ، فيسعد قليلاً ، ويشقى كثيراً . فكنت تراه دائماً قليل الرضا كثير السخط ، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن

يكون متصلاً، حتى أنكر الناس منه كثيراً من أمره، وحتى نظر إليه زملاؤه وأصدقائه نظرة فيها كثير من التحفظ والاحتياط، فكانوا يتحدثون إليه مشفقين من ثورته، أو متوقعين لثورته. وكانوا يتكلفون من الرفق به أكثر مما كانوا يتكلفون حين كانوا يتحدثون إلى غيره من الأصدقاء. وربما تنذر به زملاؤه وأصدقائه وداعبوه في شيء كثير من الحب والرفق فسمّوه «العدل» ونادوه بهذا الاسم، وتحدثوا عنه بذلك فأكثرُوا الحديث، حتى كاد العدل يصبح له اسماً ثانياً. ولم يكن لهذا كله مصدر غير تخرجه المتصل، وتحفّظه المقيم، وتعرضه لالتماس الصعب من الأمر، وتجنبه ما كان من الأمر يسيراً قريباً. . . .» (من كتاب «أحمد أمين بقلمه وقلم أصدقائه»).



رحم الله الرجلين رحمة واسعة.

عن آفات الشهرة، وحلاوة النجاح

نجاح الأديب وشهرته، هل يُفسران أدبه وشخصيته؟

تضاربت الآراء..

فمن قائل (كهيمينجواي) إن النجاح ألد أعداء الأديب: «فالكاتب الجيد يأتي له بالمال. وما يأتي المال حتى يرفع الكاتب به من مستوى معيشته. وما يرفع مستوى معيشته حتى يبدأ هو وزوجه وأولاده في اعتياده، فيحرص كل الحرص على ألا ينخفض. ويؤدي حرصه ذلك إلى السرعة والإفراط في الكتابة. والإفراط والسرعة في الكتابة يؤديان إلى الإسفاف وهبوط المستوى. وإذا يهبط مستوى كتاباته يخذ حماس النقاد والقراء. ويخمد هذا الحماس تهتز ثقة الأديب بنفسه».

ومن قائل (كسمرست موم) إن النجاح لا يُفسد الأديب وإنما يُصلحه. «وهو لا يؤدي به إلى الغرور وتعاضم الإحساس بذاته ورضائه عنها. بل هو يعزز من السمات الطيبة في خلقه، ويضيف عليه تواضعاً وتسامحاً واعتدال مزاج، في حين يميل به الفشل إلى أن يضحي قاسياً شديداً الإحساس بالمرارة، عظيم الحسد لغيره من الكتاب الناجحين، دائم السخط على ما حوله ومن حوله».



وتضارب الآراء هذا راجع في حقيقته إلى اختلاف طبائع الناس اختلافاً

يجعل من الأمر الواحد ضاراً بهذا ومفيداً لذلك. فمن المؤكد أن النجاح المبكر والشهرة لم يضرّا بأدب تولستوي، أو دوستوفسكي، أو جوته، أو تشارلس ديكنز، أو كبلينج، أو توماس مان، أو آرثر ميلر. كما أنه من المؤكد أنه أفسد فرانسواز ساجان، وشولوخوف، وسكوت فيتزجيرالد، وتينيسي ويليامز، وجون أوزبورن، وكولين ويلسون. . . كذلك فقد يؤدّي فشل أديب معين في إحراز النجاح والشهرة إلى إحساسه بالقهر، وفقدانه الثقة بنفسه، ثم إلى إحجامه كلية عن مواصلة الكتابة؛ وقد لا يؤثر هذا الفشل في إيمان أديب آخر بقدراته وقيمه ما يكتبه، فيكتب لنفسه أو لأجيال تالية هو على ثقة من أنها ستكون أقدر على تقييم أدبه تقييماً عادلاً.

فالقاعدة في هذا الشأن إذن أنه لا قاعدة، وأن الأمر يتوقف على شخصية الأديب وطبيعة تكوينه. فإن كان قد قيل إن الفراق يقتل الموهبة السطحية ويزيد الموهبة الصادقة توهجاً، فكذلك النجاح والشهرة قد يقتلان المواهب الصغيرة والزائفة، ويصقلان الموهبة الحقيقية الضخمة.

المواهب الزائفة:

فأما عن صاحب الموهبة الضعيفة أو الزائفة: فهو قد يخرج على الناس بكتاب يلقي بينهم رواجاً عظيماً ولا يكون لهذا الرواج والنجاح أدنى صلة بعبقريته أو نبوغه. فقد يكون حاوياً لأسرار سياسية لا يعلمها غيره، أو وصف رحلة إلى أقطار بعيدة لم تطأها أقدام غالبية قرائه. وقد يكون كتابه جنسياً فاحشاً، أو فكاهياً رائقاً، أو بوليسياً شائقاً، أو عاطفياً رومانسياً يستهوي قلوب المراهقات والمراهقين، أو شديد التعاطف مع تيار سياسي أو ديني له شعبية كبيرة مؤقتة. . . . حينئذ يلمع اسم الكاتب، وتزيد دور النشر من نسبة مكافآته، وتستجلبه الإذاعة للحدث فيها، والتليفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويدعى للاشتراك في ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسند إليه كتابة عمود يومي أو مقال أسبوعي، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُمطر بالأسئلة عن نمط حياته

وأسلوب معيشته، وعن ألوان الطعام التي يهواها، والأغاني التي يفضلها، وعلة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يُقبل على كل هذا في نشاط وهمّة، إنما يحفر قبره بنفسه... فالساعات التي كان يقضيها في الاطلاع والقراءة تتناقص فتضائل فتندثر. والمال الذي بات يُغدق عليه قد نقله من الريف أو مدن الأقاليم إلى العاصمة، أو من وسط شعبي يفيض حياة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولى إلى صالونات الأغنياء والأدباء من أمثاله. وقد تعرّف بسبب نجاحه بعدد كبير من النقاد والكتّاب، وأنشأ معهم علاقات شخصية، فباتوا مضطرين اضطراباً إلى امتداح كل كتاب جديد له، أو الإحجام، على الأقل، عن بيان نقائصه وعيوبه، فيزيده مديحهم الذي يحسبه مخلصاً غروراً واطمئناناً إلى استمرار موهبته.

وعَدَّ الناسُ ضررَته غِناءً وقالوا إن فسا: قد فاح طيباً!

وإذ أن المجلات والصحف ودور النشر وسائر سبل الإعلام يهّمها شهرة الكاتب قبل جودة ما يكتبه، فإنها تظل على إلحافها في طلب المقالات والتمثيلات المسلسلة والكتب إلحافاً يوهمه بأنه لا سبب وراءه غير عبقريته. وعموده اليومي في الصحيفة يُملأ، ومقاله الأسبوعي في المجلة يُكتب، وإن لم يكن قد بقي في عقله أفكار جديدة، والبشر لا بدّ من استخراج الماء منها ولو كانت فارغة. وأصحاب الصالونات من الأغنياء يتهافون على دعوته لإضفاء البريق على سهراتهم، فيتبدّد وقته وتشتت طاقته الذهنية والروحية بالتردد عليها لسماع الثناء على آخر ما كتّب، وأحدث ما نُشر. وثمة نساء وفتيات قاصرات العقل يرسلنه أو يستشرنه أو يتزاحمن عليه، ويرين فخراً أن ينشئن معه علاقة جنسية... كل هذا وغيره أمور من شأنها أن تقتل الموهبة الصادقة بله الموهبة الزائفة. فإذا كل كتاب هو أضعف مما سبقه، وكل مقال أنفسه من سلفه. حتى إذا ما صار كقشرة الليمونة قد اعتُصر منها كل ما في جوفها، تعجّب وتأنّف، وتألّم وتذمّر، إذ يرى الجمهور وقد تحوّل عنه فجأة إلى كاتب صاعد ونجم

جديد، وإذا مكانه في صفيحة القمامة وهو الذي كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه في زمرة الخالدين.

متاع الغرور:

لا شك في أن كل هذا كان وراء قوله أنتوني ترولوب الشهيرة إن النجاح هو بمثابة السمّ الذي ليس من المصلحة تناوله إلا في أواخر العمر؛ وحتى في أواخر العمر فإنه لا ينبغي تناوله إلا في جرعات صغيرة. فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بالأمور على حقيقتها، وأصعب انبهاراً بالمتقلب الفاني، وأقل تعرّضاً للإصابة بالزهور أوبالإفراط في تقييم متاع الغرور. فإن أخذنا في الاعتبار ذلك الميل المرّضي لدى النقاد إلى أن يلعبوا دور يوحنا المعمدان الذي بشرّ بقدوم المسيح، والتهلّيل الأحمق ككتاب جديد شاب باعتباره «أمل المستقبل»، و«أعجوبة الزمان»، و«خليفة طه حسين وعباس العقاد»، أدركنا مدى خطورة خمر الثناء المفرط على عقول الشباب الغرّ. والكثيرون منا قد عاصروا الضجة المفتعلة التي صاحبت صدور رواية «مرحباً أيها الحزن» لفرانسواز ساجان وهي في الثامنة عشرة، وتمثيل مسرحية «أنظر إلى الماضي في غضب» لجون أوزبورن وهو في السابعة والعشرين، وظهور كتاب «الغريب لكولين ويلسون وهو في الخامسة والعشرين، ثم لمسوا ذلك التدهور الغريب الذي طرأ على ثلاثتهم، وإفلاسهم الذهني الرهيب بعد أن صاروا من مشاهير العصر ونجوم الأدب. كذلك يمكننا تبين هذه الحقيقة من قراءة الروايات الست ليجي دي موباسان، ومراقبة انحداره التدريجي من رواية رائعة (حياة)، إلى رواية جيدة (بيل آمي)، إلى ثالثة لا بأس بها (بيير وجان)، إلى رابعة متوسطة (مونت أوريل)، إلى خامسة سيئة (قوي كاليموت)، إلى سادسة مشينة قبيحة بالغة السوء (قلوبنا)، وهو انحدار كان يزداد حدة بنمو شهرته، وتعاضل ثروته، وازدياد تزاحم النساء عليه.

مزايا تأخّر الشهرة:

وأما عن أصحاب المواهب الحقيقية، فما من أدنى شك في أن الشهرة

ستكون من نصيبهم، وأنها ستلازمهم بالضرورة ملازمة الظل للإنسان. غير أنها كالظل، تسبق الإنسان أحياناً وأحياناً تتبعه. وقديماً قيل إن معبدها يحوي أمواتاً لم يدخلوه حتى ماتوا، وأحياء سيُطردون منه فور وفاتهم. . فالكاتب المتميز الفحل، كالمتنبى وشوينهاور، لا مفر من أن يستثير عند الكاتب من أصحاب المواهب الزائفة مشاعر الحسد والغيرة والخوف والكراهية. فهو كالشمس إذا طلعت «لم يبدُ منهن كوكب» على حدّ تعبير النابغة الذبياني. وإذا تصفّر وجوههم وتنقبض صدورهم إزاء كل كتاب أو مقال ممتاز يصدر من قلمه، يرون السلامة في التحالف والتآزر من أجل هدمه، والتضافر على تحقيره وإخماد صيته. وقد يلجأون إلى سلاح الصمت للحيلولة دون نبيله الشهرة التي ستودي بشهرتهم، فلا يذكرون كتبه بكلمة، ويحرصون على ألا يرد ذكر اسمه على ألسنتهم، في الوقت الذي يشيدون فيه بكل مقال أو كتاب يصدر عن أمثالهم من أصحاب القرائح العقيمة الجربة، ويمسح بعضهم جوخ بعض كما تتهارش الحمير، مطمئنين إلى أنه لا خطر على شهرتهم من شهرة التافهين الأراذل.

على أن تأخر شهرة المجيد الموهوب هو في الغالب خير له وإن كرهه وتألّم له. فهو بتأخرها قد تجنّب لسنوات طويلة ما تحدثنا عنه من أخطار الثروة والغرور، والصالونات والنساء، وهجره لمصدر إلهامه وبيئته الطبيعية. . لا زال وقته ملك يده، وقراءاته وساعات تفكيره وتأملاته لم ينتقص منها شيء. كذلك فإنه ما من شيء ذي قيمة حقيقية إلا استغرق نموه زمناً طويلاً. أو كما قال ابن حزم: «أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناء، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً، وما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً». . إن تأخرت شهرة الكاتب في حياته فالأرجح أنها ستدوم مدة أطول بعد وفاته:

يموت رديء الشّعر من قبل أهله
وجيّد يبقّى وإن مات قائله

(دعبل)

فهو إن تأتني فإنما لِيَتَقَن . «قال بعض الشعراء لبعض : أنا أقول كل ساعة قصيدة وأنت تقرؤها في كل شهر . قال : لأنني لا أقبل من شيطاني مثل الذي قبله من شيطانك» ! وإن كتب فإنما يكتب للأجيال كافة والأمم كافة ، لا لجيله وحده وأمته وحدها . أما من جاءت شهرته الزائفة نتيجة تناوله لموضوعات الساعة ، أو لإرضاء ميول عارضة واتجاهات سياسية أو دينية مؤقتة ، فإنما شهرته أشبه شيء بالأعشاب والنباتات الصحراوية التي تنمو سريعاً وتذوي سريعاً ويسهل على الطفل الرضيع اقتلاعها ، أو بالورقة الخفيفة ليس بوسع أقوى ذراع لناقد أو ناشر أن يطيرها مسافة بعيدة .

أضف إلى ذلك أن تأخر الشهرة والنجاح سبب في ألاّ يتعجل الكاتب الإنجاز ، إذ ليس هناك ما يستحثه ويدفعه إلى أن يمسك بالقلم ما لم تجل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمة . وهو في العادة إنما يكتب لإرضاء حافز داخلي قويّ يحفزّه إلى التعبير عن ذاته ، لا لإرضاء جمهور قرائه :

عَلَيَّ نَحْتُ الْقَوَافِي مِنْ مَقَاطِعِهَا

وَمَا عَلَيَّ لَهُمْ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقْرُ

(البحتري)

وهو يدرك أن النائحة التكلّي ليست كالنائحة المستأجرة ، وأن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان . لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء ، وإتقان الصنعة . ليس ثمة أمامه عمود يومي عليه أن يملأ سطوره بأي كلام ، ولا وراءه رئيس تحرير مجلسه يستحثه الإنجاز كي يلحق بالعدد الأسبوعي ، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية لتسجيلها قبل ظهور هلال رمضان . وقد قضى جوته في كتابة «فاوست» اثنين وستين عاماً . ولو أنه كان ينشرها في حلقات في مجلة ، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل ، لكان من المؤكد أن يحرم الأدب العالمي من إحدى روائعه .

حلاوة النجاح :

غير أن للشهرة والنجاح في حياة الكاتب - رغم كل ما قلنا - آثارهما الطيبة الحميدة . صحيح أن قيمة الكاتب الحقيقية ليست في إنتاجه الفعلي بقدر ما هي في قوة القريحة ورهافة الحسّ اللتين مكنتاه من كتابة ما كتب ، وإنتاج ما أنتج . . هي في نفسه وملكانه لا في المظهر الخارجي لهذه الملكات . غير أن الشهرة ونجاح كتبه من شأنهما أن يطمئنا على أنه يمتلك موهبة حقيقية يجدر به استغلالها وإنماؤها وتعهدها بالرعاية ، في حين قد يزعزع الفشل من ثقته في وجود تلك الموهبة فيتوقف عن ممارستها . . فالثقة بالنفس هي عماد المهارة وشرط المقدرة . والأديب عادة يفتقر إلى القدرة على أن يحكم بنفسه على مدى جودة ما يكتب ما لم يلمس ردّ الفعل الإيجابي أو السلبي لدى جمهور قرائه ونقّاده . والعين ، كما قيل ، لا ترى نفسها إلا بمرآة . . وإذ أن العالم زاهر بالأناس العاديين غير المتميّزين ، فإن الشهرة العظيمة لا يمكن أن تعني إلا أن صاحبها فرد متميز خارق للعادة ، وأنه من بين الآلاف التي يصادفها في الطريق ، أو الملايين التي يسمع بوجودها ، ذو قيمة فذة ترفعه فوقها ، وتفرّقه عنها . ولا بدّ أن إدراكه لهذه الحقيقة سيَجلب إلى نفسه الرضا والسعادة ، خاصة إن كان العمر قد تقدّم به فأفقدته القدرة على الاستمتاع بأمور كثيرة مما يستمتع به الشباب . حيثنّ تضحى الشهرة عنده إحدى متعه المحدودة ، وتعويضاً لا بأس به عما بدأ يعتور شيخوخته من آفات ، ومصدر رزق حين تضعف قواه الجثمانية عن تحصيل الرزق .

هذا إلى أن الناس عادةً إنما تحكم على الأشخاص وأفعالهم على ضوء النتيجة وقدر النجاح . وعندها أن الفاشل لا بدّ سيء ، والنجاح لا بدّ جيّد . فالحظ السعيد كثيراً ما يكون لازماً للإعلاء من شأن المناقب والفضائل . . وها هو كلٌّ من يوليوس قيصر وكاتيلين قد اعتزم نفس الأمر ، وبِيت نفس الخطّة والمؤامرة ضدّ الدولة ، وكان لدى كلّ منهما نفس القدر من الموهبة والشجاعة .

غير أن نجاح قيصر في إنجاز خطته قد صيّر بطلاً تسير بذكره الركبان، في حين أتى فشل مؤامرة كاتيلين إلى الحديث عنه في كتب التاريخ باعتباره خائناً غيباً. . . كذلك فقد ثار البحارة على كريستوفر كولومبس إبّان رحلته البحرية. ورفعوا راية العصيان وطالبوه بالعودة إلى إسبانيا، فاستمهلهم متوسلاً ثلاثة أيام يقفل بعدها عائداً إن لم تبد خلالها أرض فلا أفق. ثم إذا بهم في مساء اليوم الثالث وقد لاحت لأعينهم أرض العالم الجديد. ولو أن البحارة أبوا إمهاله غير يومين، وعادت السفن إلى إسبانيا وقد خابت الآمال المعقودة عليها، لذكر الناس كولومبوس باعتباره حالماً واهماً، قد خدع الملك فرديناند وغرّر به، وبدّد الأموال الطائلة وخاطر بأرواح بحارته، في حين يذكرونه الآن بفضل نجاحه على أنه المكتشف الأعظم، والبطل الفرد.

فالدنيا إذن إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإن أدبرت سلبته محاسن نفسه. . فإن كانت جودة إنتاج الكاتب هي في بعض الأحيان سبب شهرته، فإن شهرته هي في كل الأحيان سبب الإعتراف بجودة إنتاجه. ولو كان الفضل نصيبه لتصيد الناس لنفس هذه الكتب العيوب، وبرّروا بها فشله وخمول ذكره:

وأنكد الناس عيشاً من تكون له
نفسُ الملوك وحالات المساكين

سعة العيش:

فإن كان النجاح قد وفّر للكاتب سعة في العيش، ونقله بذلك من حيّة الشعبي أو الريف وسكانهما إلى حيّ أنيق في العاصمة، وتحول عن استخدام الحافلات العامة المزدحمة إلى ركوب سيارة خاصة به، وتضاءلت صلاته بطبقات الشعب المختلفة وكادت تقتصر على الأثرياء والفنانين، فلا شك أيضاً في أن الضيق في جانب يصاحبه انفرجاق في جانب، وانغلاق باب هنا يواكبه

انفتاح باب هناك . فهو الآن قد أضحى بفضل الشهرة والنجاح يخالط أناساً من طبقة الأدباء والمثقفين ذوي الأفكار والأحاديث والمسجلات التي من شأنها أن تغذي فكره وإن لم تغذي مشاعره إلا لمأماً . وهو يقابل في أمسية واحدة يقضيها في أحد صالونات الأغنياء مجموعة من المشاهير من نجوم السينما والمسرح والشعر والموسيقى والرسم والنحت والسياسة والدبلوماسية والاقتصاد، فتنمو بلقياهم معارفه، ويتسع بمحاورتهم نطاق اهتماماته، وينفتح أمامه بالاستماع إليهم باب من الخبرات الجديدة التي لم يكن له عهد بها .

وها هم المعجبون به يكتبون إليه أو يحادثونه في لقاءاتهم به عن أخص خصائص حياتهم وأسرار قلوبهم مما لا يُقْضُون به إلى أقرب المقربين إليهم من أصدقائهم وذويهم . ثم ها هو يُدعى إلى مؤتمر للكتاب في هذه الدولة الأجنبية أو تلك، أو إلى إلقاء محاضرات في جامعة أوروبية أو أمريكية، وقد يسعى حاكم آسيوي أو إفريقي إلى الاجتماع به، أو أمير عربي إلى استشارته والائتناس برأيه . فإذا هو وهو ابن الحاج عبد المقصود عمدة إحدى قرى الصعيد، وقد نزل ضيفاً على كاسترو، وتداول ساعة مع شوان لاي، وجال بين الآثار الإسلامية في سمرقند وطشقند، ودخل في نقاش مع أساتذة جامعة أوكسفورد وطلبته، وتناول العشاء هو وزوجته على مائدة يفتوشنكو أو مكسيم رودينسون، وأدلى بحديث لإريك رولو في صحيفة لوموند .

فإن كان كل هذا قد استغرق الكثير من وقته، وأثر في قدر قراءاته، فهو بالتأكيد قد أثرى حصيلة تجاربه، ووسّع من أفقه ومفاهيمه عن الحياة والعالم حوله، وقضى على خطر أن يتحوّل إلى دودة كتب، أوراها في صومعة . كذلك فلا بدّ أن يؤدي اطلاعه الجديد على عوالم النحت والرسم والسينما والاقتصاد والسياسة وغيرها، واختلاطه بأقطابها، إلى تغذية أدبه وتنمية جوانبه وأطرافه، فيضحي بذلك أدمم مضموناً وأعم نطاقاً . أو كما قال ابن قتيبة: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في

العلوم». فإن كانت الحياة الاجتماعية والمحاضرات والمؤتمرات والأحداث الإذاعية والتلفزيونية قد التهمت الكثير من وقته، فالمؤكد أن ثمة ساعات أخرى كثيرة قد وفّرتها له الشهرة والنجاح، وما جاءت به الشهرة والنجاح من ثراء، وما هيّاه له الثراء من قدرة على الاستعانة بالغير في السعي وراء إنجاز شتى احتياجا. وسيكون بوسعنا عندئذٍ باتصال تليفوني قصير أن يطلب من وزير معجب به إنهاء مهمة له، أو من رئيس مجلس إدارة بنك قابله في إحدى سهراته أن ييسر له تحقيق رغبة. وقد يحدث أن يكون مفتش الجمارك في المطار قد شاهده في التليفزيون فيرحب به مبتسماً ولا يفتح حقائبه، أو ناظر مدرسة مبهوراً بكتاب له فيقبل على الفور إلحاق ابنه بها، أو تاجر أثاث قد تابع مسلسله الإذاعية فيجري له خصماً عظيماً على مشترياته!

مستوى الإنتاج:

فإن كان صحيحاً أن الشهرة والنجاح يواكبهما في العادة إكثار من الإنتاج وإسراع في الكتابة فليست السرعة بالضرورة مدعاة إلى الخطّ من قيمة الإنتاج ما دام العقل خصباً زائراً بالأفكار. وإنما تمثل السرعة خطورة حين تتحوّل إلى عجلة، ويكون الإكثار من الكتابة ضاراً حين يتخذ صورة تجريف للعقل المنهك. وبوسعنا أن نذكر عشرات الأمثلة لأدباء عظام كانوا شديدي السرعة في الكتابة، (دوستوفسكي، بلزاك، تولوب، تشارلس ديكنز)، وكانت السرعة عندهم ناجمة عن الرغبة في رفع مستواهم المعيشي، وأنتجوا مع ذلك كتباً خالدة لم يعثرها خلل أو نقص. . فإن كان النجاح كثيراً ما يؤدي بالأديب إلى الاتجاه للكتابة للصحافة، إما لزيادة دخله، أو للإبقاء على تداول اسمه، فهناك عشرات من الأدباء المشاهير ممن أنقنوا حرفة الأدب بفضل كتابتهم للصحف، (صامويل جونسون، أديسون، هازليت، تاكري، برنارد شو، جورج أورويل، بريستلي، جراهام جرين). . والكتابة من أجل المال ليست عيباً في حدّ ذاته كما يزعم تولستوي، اللهم إلا إن كان الاشتغال بالقضاء أو الدبلوماسية

أو الجندية أو الزراعة أو غير ذلك لقاء أجر عيباً. وثمة عدد من الأدباء ممن قضى الفقر على مواهبهم أكبر من عدد أولئك الذين قضى عليهم الإفراط في الخمر، أو أودى بهم الغرور، أو أضربهم الثراء الفاحش.

هذا وقد يكون تأخر الشهرة والنجاح مدعاة للاسترخاء، وسبباً في الركون إلى الكسل. إذ ليس لدى الكاتب المغموّر حافز يدفعه إلى المواصلة والإنتاج المتدفق، ما دام لا يرى جمهوراً ينتظر إنتاجاً جديداً له، أو ناشراً يستحبه، أو رئيس تحرير يقف وراءه بالمرصاد. وما من أحد بوسعه أن ينكر أن المشاورة والعمل المتواصل يساعدان على صقل المواهب وإتقان الصنعة، وأنهما لا زمان للأديب لزوم التدريب المستمر للرياضي والرسّام وراقصي الباليه والمغنيين والموسيقيين.

غير أن أبرز النقاط الإيجابية في الشهرة والنجاح في رأيي هو حرص الكاتب بسببهما على ألا يهبط مستواه، وخشيته الدائمة، والمؤلمة المأساوية أحياناً، من أن يأتي إنتاجه الجديد دون إنتاجه السابق. فهو دائماً في خوف على موهبته من أن يعثرها نقصان، وفي شك من قدرته على أن يجعل كتابه الجديد في مستوى كتابه الأخير الممتاز. وهو يعلم أن النقد والجمهور بصفة عامة لديهم ميل خبيث إلى أن يحكموا بضعف الإنتاج الحديث بالمقارنة بالإنتاج القديم الذي هلّلوا له وأشادوا به. وقد كانت جلّ معاناة جوستاف فلوبر في حياته هو من قول الناس له إن روايته الجديدة، وإن كانت طيبة، لا يمكن مقارنتها بروايته الأولى «مدام بوفاري». والكاتب يدرك أن الجمهور متقلب هوائي، وأنه وقد كان بمقدوره أن يرفعه إلى السماء، على استعداد دائماً، وفي أية لحظة، لأن يخسف به الأرض وأن ينقل إعجابه وتهليله إلى غيره. . . فالنجاح إذن هو خير ضمان لمحاولة الكاتب أن يُبقي أدبه على مستواه الرفيع، وأن يُشَلّ يده عن الإسفاف، وعن الاستهانة بقارئه والاستخفاف. وهو أمر قد يكون مدمراً في بعض الأحيان، بدليل قوله شتاينبك إنه ما من كاتب حصل على جائزة نوبل في

الأدب إلا كَفَّ عن الكتابة بعد الفوز بها من جرّاء خشيته من أن ينتج عملاً جديداً يقال عنه : أهذا عمل يليق بحائز على جائزة نوبيل؟! قال هذا عام ١٩٥٦ مبرراً به عدم طمعه في أن ينال الجائزة. فلما نالها عام ١٩٦٢ ، ظل حتى وفاته سنة ١٩٦٨ لا يخطّ قلمه حرفاً!

خاتمة:

في عام ١٩٠١ ، سأل ليو تولستوي أنطون تشيخوف عمن يظنه من بين الكتّاب الروس صاحب أعظم الكتب رواجاً لدى الجمهور في تلك الحقبة. أجاب تشيخوف بقوله : أنت؟ قال لا. قال : فتورجينييف؟ قال لا. قال : دوستوفسكي؟ بوشكين؟ جوجول؟ قال لا. - فمن إذن؟ فذكر له تولستوي اسماً لا نجده اليوم مذكوراً في أي كتاب عن تاريخ الأدب الروسي.

فهل بوسعنا أن نعتبر مثل هذا الشخص الشهير في حياته، النكرة بعد وفاته، أسعد حظاً من فرائز كافكا الذي لم تسمع الجماهير باسمه أو بأدبه إلا بعد انقضاء الأعوام على موته، ثم بات منذ أن عرفه الناس إحدى القمم الشامخة في الأدب العالمي؟

إن الشهرة التي كثيراً ما ينالها أصحاب المواهب المتوسطة أو الزائفة هي كالثروة التي يغتصبها امرؤ لنفسه بناء على وصية مزورة. أو هي كالعملة الزائفة، يظل صاحبها في قلق مستمر من أن يُكتشف أمره ويسقط قناعه فيفتضح، وهو ما لا بدّ واقع. أما صاحب الموهبة الحقيقية، فهو حتى إن لم ينل الشهرة في حياته، سيظل أسعد حظاً من الآخر، سعيداً بقدراته ونبوغه ورهافة حسّه، سعيداً بثقته من أنه في يوم ما، في بلد ما، سيمرّ ناقد جليل الشأن، مسموع الكلمة، برصيف أمام إحدى المكتبات، قد ألقيت عليه أكوام من الكتب القديمة تباع بقروش زهيدة. وسيلتقط الناقد كتابه وينظر فيه، ثم إذا به وقد راعه جمال فقرة، أو عظمة فكرة، فيقرر شراءه لينظر فيه على مهل. . ثم إذا هو بعد

أيام يكتب عنه في صحيفة ويشيد به . وإذا بالكاتب المجهول وقد أضحي
حديث الناس أجمعين . . .

وهو بالضبط ما حدث حين التقط ناقد شهير من بين كتب قديمة على
الرصيف في أحد شوارع لندن ، ترجمة إدوارد فيتزجيرالد الانجليزية الخالدة
لرباعيات الخيام .

—————الفنان، هل هو بالضرورة إنسان مريض؟—————

صدرت منذ أشهر عن جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، دراسة أعدتها عالمة النفسية كاي جاميسون عن الصلة بين الأمراض العصبية والمشكلات النفسية وبين العبقرية الخلّاقة. وقد استندت عالمة في دراستها إلى تحقيق أجرته خلال عام ١٩٨٣ في كل من أوكسفورد ولندن حيث درست حالات سبعة وأربعين من الأدباء والفنانين البريطانيين كلهم إما من الفائزين بجوائز كبرى أو الأعضاء في أكاديمية الفنون الملكية البريطانية، فأتضح لها أن ثمانية عشر شخصاً منهم أدخلوا في وقت من الأوقات مصحات نفسية للعلاج من أمراض عصبية، إما بالصددمات الكهربائية أو بكمبونات الليثيوم. وإذا كانت نسبة المرضى بين هؤلاء الفنانين، وهي ٣٨٪، تزيد على ستة أضعاف نسبة المرضى بين مجموع الأفراد العاديين، فقد انتهت الباحثة إلى نتيجة خالتها قاطعة: وهي أن ثمة صلة وثيقة بين المرض النفسي وبين الموهبة الفنية والقدرة على الخلق، وأن هذا المرض قد لا يكون «خللاً في الموتور» كما وصفه الشاعر روبرت لويل، بل قد يكون هو الموتور ذاته!

صورة الفنان لدى العامة:

مثل هذه النتيجة «العلمية» لن تضيف جديداً إلى المفهوم الشائع لدى العامة عن الفنان وإن أضافت «سنداً» و«إثباتاً». فعند الناس اعتقاد بأن الفنان إنسان غير طبيعي، وأن اختلاله النفسي، أو مرضه، شرط لقدرة على النفاذ إلى

حقيقة الأمور والتعبير عن هذه الحقيقة تعبيراً فنياً. وكثيراً ما نراهم يلتمسون العذر ويفتخرون للفنان شذوذه، وغرابة عاداته وملبسه، واضطراب نمط معيشته وحياته العائلية، وشروذ ذهنه ومسلكه غير المألوف، واستخفافه بما تعارف عليه الناس من قيم، وبالقوانين الأخلاقية، ويرتدون فيما بينهم كلما صدمهم مسلك له أو استفظعوا منه مقولة: «معلش؛ أصله فنان!».

ولا شك أنه مما ساعد على تكوين هذه الصورة للفنان حقائق ثابتة وشائعة، معروفة لدى الكافة، عن مشاهير من الموسيقيين والمصورين والأدباء والممثلين وغيرهم، بل وما يلاحظ من مسلك المجاهيل العاملين في الوسط الفني، كأفراد الكورس وموسيقي التخت، وما تنشره الصحف والمجلات يومياً عن فضائح المغنيات والراقصات والممثلين. ومن منا لم يحط علماً بقصة قطع فان جوخ لأذنه وإرساله إياها في علبة إلى حبيبته، أو بقصة سيد درويش مع الكوكابين، أو بالعلاقة الشاذة بين الشاعرين فيرلين ورامبو، وبين لورد بايرون وأخته، أو بنبا الأيام الأخيرة في حياة هيمنجواي وانتحاره، أو بما كان يتتاب دوستوفسكي من نوبات الصرع. . إلى آخره؟ أو كيف يمكن للعامة أن تتجنب هذا الاعتقاد في الفنانين وهم يرون أحدهم وقد دأب على السير في شوارع باريس يجرّ وراءه فأراً قد ربطه بخيط، ويسمعون شاعراً يفخر بأنه نظم أجمل قصائده وهو تحت تأثير ما يتعاطاه من مخدرات، ويقرؤون في الصحف عن راقصة تصفع شرطياً إذ يعترض على تركها لسيارتها في غير موقف السيارات؟

فكرة الأسلاف عن الفنان :

هذه الفكرة عن الصلة بين الفن والآفات العقلية ليست بالفكرة القديمة، ولا هي بالتي كانت شائعة قبل القرن التاسع عشر. صحيح أن العرب الجاهليين نسبوا الشعر إلى الهواتف وإلى الجن القاطنة في وادي عبقر، وأن القرآن الكريم وصف الشعراء بأنهم إنما يتبعهم الغاؤون، وبأنهم في كل واد يهيّمون، وأن حديثاً منسوباً إلى النبي عليه الصلاة والسلام يذكر أن مأواهم جهنم. غير أننا

جميعاً نعلم المكانة الرفيعة التي كانت للشاعر الجاهلي في قبيلته، وللشاعر الإسلامي عند الملوك والأمراء، ولأمثال ابن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت عند الرسول ذاته .

أما في الغرب، فإن كانت العامة في العصرين القديم والوسيط كثيراً ما نعتت الشعراء وغيرهم من الفنانين بأنهم مجانيين، فإنما كانت تقصد بذلك في واقع الأمر أن عقل الشاعر أو الفنان يحمل بأسلوب مخالف للأسلوب الذي يعمل به عقل الرجل العادي، أوحى عقل المفكر الفيلسوف. وهناك وفرة من الدلائل التاريخية التي تشير إلى أن أهل العصر الوسيط كانوا يرون في نظم الشعر والموسيقى وحمل السلاح أرقى أوجه النشاط البشري مما يحقّ للمستغلين بها أن يتيّهوا بها على الناس. ولا حاجة بنا إلى التدليل على مدى الحظوة لدى الأمراء، أو التوقير لدى العامة، مما كان يتمتع به الفنانون من أمثال ليوناردو ومايكل أنجلو ورافائيل في عصر النهضة. فإن كان أهل القرن الثامن عشر يزدرون الشاعر المحترف، فالواقع أنهم كانوا يزدرون الاحتراف في حد ذاته، ومحترفي أية مهنة من المهن لا الشعر فحسب. بل إن ازدراءهم لاحتراف الشعر بالذات كان من قبيل التوقير العميق للشعر الذي رأوا احترافه واتخاذَه تجارة للتكسّب امتهاناً لقدسيته.

الفنان والمجتمع الصناعي:

ثم طرأ على صورة الفنان تغير جوهري في القرن التاسع عشر، وأضيفت إليها من الملامح ما لا يزال قائماً في أذهان العامة إلى اليوم. والسبب الرئيسي في تغير الصورة في اعتقادي مرتبط بغلبة النظام الرأسمالي، وازدهار الصناعة، ونمو الطبقة البرجوازية، واتساع نطاق نفوذها، وتفشي أخلاقياتها وقيمها. فقد ارتأت هذه الطبقة أنه في حين كان من واجب الفنان التجاوب والتعاطف مع هذه التطورات الجسيمة، والإشادة بالعصر الصناعي، والثناء على القيم الجديدة، اتخذت غالبية الفنانين موقفاً معادياً من هذه التطورات والقيم

والأخلاقيات، وكان الإضرار بها، والتندر عليها، والتحذير من أخطارها، من الموضوعات الأثيرة لديهم.

أضف إلى ذلك أن المجتمع الصناعي هو في حاجة إلى غرس عادات ومفاهيم وأسلوب عيش معين لدى أفراد من أجل ضمان حسن سير العمل فيه. وقد كان هذا المجتمع على استعداد لاحتفال لفيف هامشي من الفنانين، والتغاضي عن غرابة مسلكتهم، وتحررهم من القيود الأخلاقية، وضعف احترامهم للمواعيد وتقيدهم بالوقت، وعدم التأكد مما سيكون عليه تصرفهم وردّ فعلهم، لولا اقتناع البورجوازية بأن من الخطر كل الخطر على كل مقومات المجتمع الجديد أن يعمّ تأثير هؤلاء الفنانين، وأن تتشر العدوى، فيضيع الاحترام للرؤساء، ويشيع الاستخفاف بقيود الوظيفة، ويتزعزع الإلتزام بالمواعيد المحددة، وتضعف شهوة استهلاك السلع الجديدة، ويصعب صبّ الإنسان في القالب الواحد اللازم لازدهار ذلك المجتمع.

لذلك رأت تلك الطبقة الجديدة من الرأسماليين والبرجوازيين لزماً عليها أن تصبّد لهذا التأثير بالمقاومة عن طريق إثارة الشك فيما إذا كان الفنان إنساناً طبيعياً سليم العقل، وغرس الاعتقاد بأنه في جوهره شخص منحرف منحرف مريض، إن كان لا بدّ من أن تحتل الجماهير وجوده بين ظهرانيتها من أجل المتعة التي توفرها أعماله، فلا ينبغي أن يؤخذ فحوى تلك الأعمال على محمل الجدّ، وإن كان لا مفرّ من الإقرار له ببعض الامتيازات وحرية التصرف، فهي امتيازات أشبه بتلك التي تعطى لعبيط القرية، أو مضحك الملوك.

قد أشهر الفنان إذن حرباً على قيم المجتمع الجديد، فأشهر أرباب هذا المجتمع حرباً عليه من أجل الحدّ من فاعلية تأثيره، وذلك عن طريق تشويه معالم صورته. ولم يكن غريباً أن ينبري عدد من الفنانين أنفسهم، من أمثال برنارد شور وآرثر كوسلر وتوماس مان للإقرار بصلة الفن بانحلال الفرد والمجتمع والحضارة، حتى كان هذا الموضوع محور عدد كبير من قصص

توماس مان ورواياته. وقد أراد الروائي إميل زولا، وهو الحريص دائماً على أن يكون في خدمة التقدم العلمي، أن يتحقق من صحة هذا الاتهام للفنانين، فعرض نفسه على خمسة عشر طبيباً نفسياً، انتهوا إلى أن عبقريته تنبثق بصفة أساسية عن عناصر مرضية في جهازه العصبي ومزاجه، فصَدَّقَهم زولا، وأقرَّ الاتهام. ثم تبعه إدmond ولسون فشَبَّه الفنان بفيلوكيتيس في الأسطورة التي تتحدث عن محاربٍ إغريقي اضطر إلى أن يعزل نفسه عن سائر الناس بسبب الرائحة المخيثة المنبعثة عن جرح أصابه أثناء الحرب، غير أن الناس ظلوا يقصدونه مع ذلك دوماً لحاجتهم إلى الاستعانة بقوسه السحري الذي كان لا يخطئ هدفاً. وهي أسطورة لم تذكر أن خبث رائحة الجرح كان ثمناً للقوس الذي يمتلكه فيلوكيتيس، واعتقد ولسون مع ذلك أن عظمة القوس تتوقف على بشاعة الجرح ورائحته.

أسباب أخرى:

وثمة أسباب أخرى لشيوع هذه الصورة الجديدة للفنان غير السبب المتصل بحضارة المجتمع الصناعي البورجوازي.

فهناك اعتقاد قديم، خاصة في الفكر المسيحي والفكر الصوفي الإسلامي، بأن العذاب والآلام طريق إلى المزيد من القوة، أو على حد تعبير إسخيلوس: إن الآلام هي سبيل الإنسان إلى معرفة الآلهة. ثم نجم عن هذا قول بأن القوى الكامنة في الفرد يتم تصريفها عن طريق أعضاء جسمه أو ملكاته، وأنه إن تعطل عمل أحد هذه الأعضاء أو الملكات، تم التصريف في عضو آخر أو ملكة أخرى فتزداد بذلك قوة هذا العضو أو الملكة. وبعبارة أخرى: أن ثمة آلية في إعادة توزيع القوى، بحيث تنمو رهاقة السمع واللمس مثلاً عند الأعمى، وبحيث يضحي كل ذي عاهة جباراً. وقد كانوا في الماضي يَخْصُون الكهنة حتى تنصرف الطاقة الجنسية المعطلة لديهم إلى القدرة على كشف حجاب الغيب والتنبؤ بما سيحيي. وإذ أن الفنان يُضْحِي بالضرورة

بأشياء ثمينة وملذات وقدرات كبيرة الشأن، فلا بد أن تزدهر لديه في مقابل ذلك قدرات خارقة أخرى، وأن يستمتع بملذات وأشياء مغايرة لا يعرفها غيره. كذلك يمكن القول بأن أي تركيز على وجه واحد من أوجه النشاط، حتى عند الناس العاديين، لا بد من التضحية معه بأمور كثيرة، كتضحية الطبيب المشغول بعمله بعلاقاته الأسرية والاجتماعية. فلا غرابة في أن يؤدي استغراق الفنان في فنه إلى اختلال توازنه الروحي وما يسمى بالصحة النفسية.

والفنان عادة يرى في التصرفات «العاقلة» للأفراد العاديين حوله جنوناً، ويرى «صحتهم النفسية» مرضاً، في حين يرى في اختلال جهازه العصبي صحة روحية وأخلاقية، ويشير إلى أنه قد كان بوسع كاساندرام المجنونة في الأسطورة الإغريقية أن تدرك من الأمور الهامة وأسرار الغيب ما عجز غيرها عن إدراكه بفضل رفاهة حسها الناجمة عن توتر أعصابها وآفتها العقلية. وقد أبى الكثيرون منهم، ومن بينهم هيمنجواي، الانصياع لرغبة ذويهم وأصدقائهم وقبول العلاج، خشية أن يؤدي زوال مرضهم إلى زوال موهبتهم معه.

كذلك رأى بعض الفنانين، شأن بعض الصوفية، أنه من المحاققة محاربة شهوات النفس، وأن الانغماس في هذه الشهوات قد يكون خيراً سبيلاً لإدراك كذب الشهوة واقتلاعها، وأن ارتكاب الذنوب والموبقات هو في بعض الأحيان واجب إذ من شأنه إذلال النفس وسحق الكبرياء وإثبات القدرة على الاستهانة بالرأي العام وحكم البشر. ولا شك في أن البعض، مثل لورد بايرون، استغل فكرة العامة عن الفنانين والنظر إليهم على أنهم ليسوا كغيرهم، وبالتالي فإنه لا ينبغي أن تطبق عليهم نفس المعايير الخلقية المطبقة على الأفراد العاديين، الخلقية المطبقة على الأفراد العاديين، فأقدم على الإتيان في حياته الخاصة بتصرفات لا يجرؤ غيره على الإقدام عليها. كما أنه لا شك في أن شيوع هذا النمط من السلوك في الأوساط الفنية ظل إلى يومنا هذا مسؤولاً عن كراهة العائلة «المحترمة» في مجتمعنا الشرقي لاشتغال أبنائها وبناتها ببعض

الفنون، واعتباره كارثة وعاراً، إذ يرون من شبه المؤكد أن يؤدي ذلك إلى الانخراط في جو من الفساد والشذوذ.

الدفاع:

لقد وصف فرويد الفنان بأنه إنسان مريض يسعى إلى الهرب من الحقيقة والواقع بإيجاده بديلاً من الوهم يُشبع رغباته عن طريقه. غير أنه عاد فذكر في موضع آخر أنه مدين للأدباء والشعراء، خاصة دوستوفسكي، بفضل اكتشافه لعالم اللاشعور. فكيف يمكن إذن أن ينجم عن المرض والانحلال أنقى الحقائق، أو أن تؤتي التربة العفنة أجمل الثمار؟

في اعتقادي أن القول بأن الفنان هو بالضرورة إنسان مريض، وأن اختلاله النفسي شرط لموهبته، قول غير سليم. فما من أحد قط أشار إلى اضطراب نفسي لدى ليوناردو دافينشي مثلاً أو شكسبير وجوته وتولستوي وتشيفوف ومولير، ومئات غيرهم، ولا أعمالهم بالتي تفصح عن مثل هذا الاضطراب. فإن قال قائل إن صرَّح دوستوفسكي واختلال جهازه العصبي هما مصدر روعة إنتاجه وثقب نظراته النفسية، كان من حقنا أن نسأله: وما أدراك أن هذا الصرع وهذا الاختلال لم يُضعفا من قدرات كان يمكن أن تكون أكبر وأروع، أو أنهما لم يكونا مسؤولين عن عيوب معينة في أدب دوستوفسكي، مثل عجزه عن تصوير غير الشخصيات المريضة من الناس، أو عن أن يفهم من الحب غير الرغبة الجنسية العارمة، أو الخضوع الماسوكي، أو الحب الناجم عن الشفقة؟

قد نجد لدى المصابين بفصام الشخصية من الأفراد العاديين قدرة على التعبير عن أنفسهم تأخذ أحياناً مظهراً أخلاقياً. غير أن هذا التعبير ليس فناً. فإن كان جوخ مصاباً هو الآخر بفصام الشخصية، فقد كان فناً بالإضافة إلى مرضه، ولم يكن فناً بسبب مرضه. والخلل العقلي قد يؤدي إلى الفشل،

أو إلى الافتقار إلى النبوغ، فإن صحبه نبوغ أو عبقرية فإن من الخطل القول بأنه مصدر هذا النبوغ أو هذه العبقرية.

إن الضعف لا ينفي القوة ولا القوة تنفي الضعف. وجميع الناس هم بمعنى أو آخر، وبدرجات شتى، مرضى يعانون من خلل عصبي ما. والفنان إنسان مريض بهذا المفهوم وحده، ومثل غيره. غير أن الجانب السليم من روحه هو المسؤول عن كفاءة مخيلته، وقدرته على التصور والتخطيط لعمله الفني وعن إنجازة إياه. فإن كان سيد درويش فناناً يتعاطى الكوكاين، فهو فنان غير أنه يتعاطى الكوكاين، لا فنان لأنه يتعاطى الكوكاين. وشذوذ فيرلين ورامبو وبايرون، أو فطاعة تصرف الراقصة مع الشرطي، مواكب لفنهم لا مصدر له. قد تساعدنا معرفتنا لطبيعة الخلل عند الفنان على فهمنا لطبيعة المادة التي ينتقيا ويختارها موضوعاً لفنه، بل وقد تساعدنا على فهم بواعثه على الاشتغال بالفن، غير أنها لن تعرفنا سرّ نبوغه ومصدر قوته.

كل ما هناك هو أن النشوة التي يخبرها الرجل العادي حين يقرأ شعراً أو يستمع إلى سيمفونية أو يشاهد لوحة فنية أو رقصاً، نادراً ما يخبر مثلها في حياته اليومية إلا في حالة الأحلام، أو الحمى، أو تحت تأثير أحد المخدرات. وهو بالتالي يميل إلى أنه ينسب نشوة الفنان نفسه إلى حالة مرضية أو شاذة كحالة الأحلام أو الحمى أو تأثير المخدرات.

كذلك فإنه لا ينبغي أن ننسى أن الفنانين أناس قد سُلّطت عليهم الأضواء، وإن ما يُكتب عن حياتهم الخاصة وسلوكهم وتصرفاتهم يفوق بكثير ما يُكتب عن غيرهم. كما أن الأدباء هم أكثر الناس إقبالاً على الحديث الصريح عن أنفسهم، وبدقة عن لا شعورهم وعما يجول في خاطرهم، سواء في خطاباتهم الخاصة أو يومياتهم أو سيرهم الذاتية. والمعرف أن السير الذاتية للأدباء هي أفضل السير، كما أنهم أكثر الناس اعتناءً بقول الصدق، وأقلهم اكتراثاً بصدم مشاعر الغير. فلو أن غيرهم من المشتغلين بالمهن الأخرى، كالعلماء والأطباء

ورجال البنوك والأعمال، أوتوا من القسرة على التعبير عن ذواتهم ودفن مشاعرهم ما أوتي الأدباء، وتركوا لنا سيراً ذاتية في مثل صراحة السير الأولى، فلربما وضع لنا أنهم ليسوا أقل عرضة من الفنانين للإصابة بالخلل النفسي والاضطرابات العصبية.

لقد أورد تولستوي في روايته «الحرب والسلام» ملاحظة شيقة، هي أن المرأة فائقة الجمال إن شاب حسنها عيبٌ ضئيل الشأن، تُخيل إلى الناظرين أن هذا العيب بالذات هو مصدر جمالها كله!

وهو حكم يسري على الفنان سريانه على المرأة الحسناء.

عَرِيب جارية المأمون

العصر :

كانت الحياة في العصر الأمويّ أقلّ تكلفاً، وأكثر سذاجة، وأدّل على الذّوق العربي البدويّ البسيط من الحياة في عصر العباسيين، وذلك بالنظر إلى هيمنة العنصر العربي في العصر الأول. وكان العرب في ظل الأمويين إذا أرادوا الترف تخيّرُوا من ترف الأمم الأخرى، وعدّلُوا فيه حسب أذواقهم وميولهم، فيجيء ترفاً آخر عربياً لا فارسياً صرفاً، ولا رومياً صرفاً. أما العباسيون فقد انتقلوا بحذافيرهم إلى العادات الفارسية، بحيث انقطعت الصلات الاجتماعية وتضاءلت أوجه الشبه بين المسلمين في العراق والمسلمين في جزيرة العرب أو كادت. وقد كان لا بدّ لقيام الدولة العباسية من خلفاء جاذين غير لاهين، يصرفون كل وقتهم في تأسيس الدولة، واصطناع الموالين لها، وكبح جماح الثائرين. حتى إذا هدأت الدولة واستقرت، أصبح لدى الخليفة من الوقت ما يسمح بشيء من اللهو والترف، وإنفاق ما تجمّع لديه من المال الكثير فيهما.

فالمعروف عن أبي العباس السفّاح - وهو أولهم - أنه كان يؤثّر الجَدّ والعلم على ضروب اللهو. كذلك لم يُرَف في دار المنصور لهو قَطّ، وهو الذي كانت لا تزال به بقية من بدائة، وميل إلى البساطة والتقتير. فهو لا يحب الشراب، ولا يشرب على مائدته أحد. وهو لا يُسرف في عطاء لشاعر ولا لمادح، ولا يتغالى في ثوب ولا في مائدة. أعجبه مرّة إنشادُ منشد فامر

بإعطائه درهماً! وسمع خادماً له يضرب بالطنبور للجواري فضرب رأس الخادم
بالطنبور وأمر ببيعه!

فلما مات المنصور، شعر الناس بشيء من الإرتياح وقد أجهدوا
أنفسهم في عهده بما يتطلبه تأسيس الدولة وإرساء دعائمها من مشقة، وملأوا
الإفراط في الجَدِّ والاقتصاد، وتطلَّعوا إلى حياة فيها سعة في المال، وطرف من
النعيم. وقد كانت السنوات العشر التي حكمها المهديّ جسراً بين حياة الجَدِّ
والجفاف والعمل في عصر المنصور، وحياة الترف والنعيم في عصر الرشيد
ومن بعده. وكان المهديّ سخياً كريماً؛ فرّق في الناس ما خلفه المنصور من
المال، وكانت قيمته أربعة عشر مليون ديناراً وستمائة مليون درهماً، سوى
ما جُبيّ في أيامه. وإذ كان محباً للفنون الجميلة، فقد جرى الناس على أثره،
وأنفقوا الأموال على الفنانين، فرقي الفن، وبدأ ينتشر بين طبقات الشعب.

وأخذ المهديّ يجلس للمغنين. كان في البداية يسمع غناءهم وهم وراء
ستاره لا يرون له وجهاً. ثم بدأ يظهر لهم. وقد أصبح ولَّد له وبنات، هما
إبراهيم وعُليّة، بهجة عصرهما في الظرف والغناء.

كذلك كان المهديّ يحب القيان، مترفاً في ملبسه ومأكله. أما الخمر
فكان لا يشربه، لا تحرّجاً بل عن عدم اشتهاه له. غير أن أصحابه كانوا يشربون
عنده. ورغم أنه كان معتدلاً في لهوه وتّرفه، فإنه ما كاد يُرخي للناس العنان في
هذا السبيل، حتى استطابوه ولم يقفوا عند حدّ. ثم انتقلوا نقلة أخرى من حيث
السُّرف في التّرف في عهد هارون الرشيد حين زادت الثروة وعظم سلطان
الفرس، وهم المعروفون من قديم بالميل إلى اللهو والسرور وحب النّبذ
والغناء. ثم جاء الأمين فزاد في اللهو نغمات، وطلب الخصيان وصيّهم لخلوته
في ليله ونهاره، ورفض النساء الحرائر والإماء. أما المأمون فلم تكن شهواته
وملاهيّه كشهوات الأمين وملاهيّه. فقد كان للمأمون ملاذّ عقلية تشغل وقته،
كالكتّاب والفلسفة والجدل في المسائل الدينية والفقهية. وقد أقام بعد انتصاره

على أخيه ودخوله بغداد عشرين شهراً لا يسمع الغناء . ثم بدأ يسمعه . وكان يغنيه إسحاق الموصللي الذي كان أبوه إبراهيم يغني للرشيد . وكان الناس قد تجرّعوا عُصص البؤس أيام الحرب بين الأمين والمأمون، وخربت بغداد . فما عادت السكينة حتى عادوا إلى اللهو مفرطين يعوّضون ما فقدوه .

وقد قلّد الأغنياء في اللهو والبذخ قصور الخلفاء ، بل زادوا في لهوهم لما تقتضيه طبيعة مجالس الخلفاء من حشمة وقار لا يلتزمها غيرهم من الأغنياء . وسرت العدوى من الأغنياء إلى الطبقة المتوسطة ، فسار أفرادها على منهاجهم . ولعبوا بالنرد والشطرنج ، وتهارشوا بالديوك والكلاب ، وانتشر القمار حتى في حانات الفقراء ، وأولعوا بالنقش والتصوير . واشتهر من بينهم الراقصون ، وأحبوا البساتين ، وأكثروا الخروج إليها ، والأزهار يزینون بها موائدهم . وكان أهل الورع والصلاح يرون كل ذلك من حولهم في بغداد ، فتزید كراهيتهم لها ، واستنكارهم للفسق فيها . وكان بشر بن الحارث يقول :

«بغداد ضيقة على المتقين ، لا ينبغي لمؤمن أن يقيم بها» .

الجواري :

أسباب الرق في الإسلام ثلاثة :

الأول : وقوع غير المسلم أسيراً في يد المسلمين عند الحرب ، أو حمله عنوة من بلاد الأعداء ، بشرط أن يكون عند أسرهِ أو أخذهِ غير مسلم . غير أنه لو أسلم بعد استرقاقه لا يزول الرق عنه ؛

والثاني : أن يولد الولد من أمة مملوكة وأب من الرقيق ، أو من أب غير مالك للأمة ، أو من مالك الأمة ولكنه لا يعترف بأبوتِهِ للولد ؛

والثالث : شراء الرقيق .

ويعدّ الرقيق مالاً شأنه في ذلك شأن المتاع . والقاعدة هي أن يحتجز الإمام خمسَ الرقيق من الأمرى للمصالح العام ، وتقسم أربعة الأخماس على

من اشترك في الحرب، فيكون للفارس منهم سهمان، وللراجل سهم واحد.

وإذ كانت الحروب في صدر الإسلام تكاد تكون دائمة، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون مطرداً، صار الرقيق لا يُحصى كثرةً، متنوعاً تنوع الأمم التي حاربها المسلمون. وإذ كان يُعدّ مالاً فيجوز بيعه وشراؤه وإجارته ورهنه، فإن لم يقتصر على المحاربين، بل كان في متناول أيدي الناس جميعاً.

وقد أوصى القرآن الكريم بالعدل والرحمة في معاملة الرقيق، وجعل العتق كفارة لذنوب عديدة، وقربة من أحسن القرب: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ (سورة النور: ٣٣). وكان من البرّ والعادات المحمودة أن يُوصي الإنسان قبل وفاته بعتق بعض من يملكه من الرقيق. ومن الناس من كان يعتق الرقيق كرمأمنه عتقاً كاملاً، ومنهم من كان يُطلقه على أن يدفع له مقداراً من المال فيما بعد. فالرقيق له أن يشتري حريته، وله أن يشتغل أثناء رقه بالعمل الذي يريده. أما عن شراء الرقيق فليس في القرآن أو الحديث شيء بصلده.

والرجل المسلم الحرّ لا يحلّ له أن يكون على ذمته في وقت واحد أكثر من أربع زوجات، سواء كانت الزوجات الأربع حرائر أو إماء. ولا يحلّ له أن يتزوج أمة إذا كان متزوجاً حرة، على أساس أن في ذلك امتهاناً للحرّة. غير أن له أن يتزوج الحرّة على الأمة.

والأمة جلّ لمالكها سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، ولا يتقيّد في ذلك بعدد. ولا يجوز أن يشترك رجلان في أمة في وقت واحد. كما لا يصحّ للمالك أن يبيع أو أن يهب «أم الولد»، وهي الأمة التي تلد من سيدها، والتي كان لها منزلة أرفع من منزلة غيرها من الجوّاري. فإن مات، صارت أم الولد حرة. أما أولادها من مالكها فأحرار من يوم يولدون. وكانت عقوبة الأمة الزانية أقل من عقوبة الحرّة، لأنها تُعتبر أقلّ ذنباً لما ينقصها من حرية.

الاهتمام بتعليم الجوّاري :

كانت قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء تجمع رقيقاً من أمم متعدّدة تختلف في الطباع والعادات واللغات . وقد ذُكر أنه كان للمتوكل أربعة آلاف جارية من مختلف الأجناس . وقد ترك الخلفاء والأغنياء لمماليكهم حرية الديانة ، وكان البعض منهم يلبس لبسه القومي ويظل يتكلم بلغته .

واتجه العباسيون إلى تعليم الجوّاري ، خاصةً الغناء الذي انتشر في عصرهم انتشاراً عظيماً ، وعُدَّ حاجة من حاجات الإنسان الضرورية . وقد نما ذوق الناس في الغناء نمواً غريباً ، وشغفوا به حتى ليغني مغنٍ على الجسر فيجتمع السامعون حوله ويُخاف من سقوط الجسر بهم ! ولم يتحرّج الخلفاء أنفسهم ولا أولادهم من اختراع الأصوات والتغني بها .

واستبّح تعلّم الجوّاري الغناء تعلّمهن الأدب وحفظ الكثير من الشعر العربي حتى يُجِدْنَ مخارج الحروف ويَحْسُنَ غناؤهن بالشعر . بل كانت هناك من الجوّاري المغنيات من كنَّ ينظمن الأغاني .

وكان هذا التعلّم يُغلي قيمة الجارية أضعافَ ثمنها . وقد عُرِضت جارية بثلاثمائة دينار ، فلما علّمها إبراهيم بن المهدي الغناء عُرِضَ في ثمنها ثلاثة آلاف دينار . وكان إبراهيم الموصلي مغنيّ الرشيد من أكثر الناس نشاطاً في تعليم الجوّاري . وقد ألّف هو ويزيد حوراء شركةً لشراء الجوّاري وتعليمهن الغناء والمشاركة في ربحهن . وقد يتفق لدى المغني المشهور وجود ثمانين جارية لغيره يودعونهن عنده لتعليمهن فن الغناء .

وقد عُني الرجال بتعليم الجوّاري أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر ، ودعاهم إلى ذلك طلب الربح . فالجوّاري هنّ ملهى الرجال . ولذا حاول القائلون بأموّرهن أن يرقوا هذه الملاهي بكل ما يتطلبه اللاهون ، ورأوا أن الجارية إذا كانت مغنية أدبية موسيقية شاعرة كان ذلك أفعّل في قلوب الرجال ، وأجلب للمال .

وكانت الجوّاري أنشط من الحرائر في ناحية الإنشاء الأدبي، وفي ناحية الإيحاء إلى الشعراء وإلهامهم. فقد كان الناس يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجوّاري، ويحبّون الحرة دون الجارية. فالرجل لا يغيّر بالجارية كما يغيّر بقريته الحرة. والجارية سافرة إلى حدّ بعيد بحكم أنها عرضة لأن تباع وتشتري. وهي تقضي للرجل حوائجه، وتغشى الأسواق، وتجلس معه إلى أصحابه، وتستمع إلى أحاديثهم فتفيد منها. أما الحرائر فلا يقع عليهن إلا نظر أقاربهن. لذلك كان طبيعياً أن يغذي الأدباء والشعراء أدبهم وشعرهم بالجوّاري أكثر مما يغذونه بالحرائر.

وكان الجوّاري نوعين: جوار مغنيات للخاصة، يتهاذهن الأمراء والأغنياء حباً في التجديد، وفراً من الاقتصار على صوت واحد؛ وقيان عامة يملكن النخاس أو غيره، فيعرضهن للغناء في محال يأوي إليها الفتيان لسماعهن والإنفاق عليهن، ويقولون في النخاس وفي قيانه الشعر. وقد ساهم هذا النوع الأخير في نشر الخلاعة والمجون، غير أنهم ساهموا أيضاً في نشر الفنون الجميلة، ورقي الذوق الفني، ونشر أنواع من الظرف قلّدهن الناس فيها، كحب الأزهار، وكتابة الأشعار الرقيقة والجمل الظرفية تطريزاً على الأقمصة والأكمام والعصائب والمناديل والوسائد والبسط والأسرة والكُلل والنعال، وبالحناء على الأقدام والراح. ونجح الجوّاري في إشعار الناس بالظرف والتزام حدوده، حتى أصبح للظرفاء عُرْف خاص في الزي والنظر والطعام والشراب.

النخاسون وأسواق الرقيق:

انتشرت أسواق الرقيق في مدن الإسلام الكبرى. وكان في بغداد شارع يسمى شارع دار الرقيق. ونجد بالسوق طرقاً متشعبة فيها العُرْف والحوانيت للرقيق. فأما الرقيق الجيد فكان يباع في منازل خاصة أو بواسطة تاجر كبير. وأما غيره فيباع في السوق العامة، وهو ما كان بمثابة عقوبة تحطّ من قدره.

وإذ كان الرقيق تجارة من التجارات، تقع عليها المساومات، ويحتاج

المشتري إلى التأمل البين وخيار الرؤية المشترط في جميع السلع، حُلِّل
مكالمة القيان ومفاكتهن ومغازلتهن ومصافحتهن ووضع اليد عليهن للتقليب
والنظر.

وكان النخاسون يوصون الجوّاري بأن يُظهروا أجمل ما فيهن، ويُخفين
أقبح ما فيهن، وأن يتودّدن إلى المشايخ وناصري الطباع وقيحي الوجوه
ويستميلوهم، ويتمنّعن ويتجنّون على الشباب ليتمكّنوا من قلوبهم!

وكان الراغبون في الشراء يُحدّرون من شراء الرقيق في المواسم. ففي
مثل تلك الأسواق كان النخاسون يلجأون إلى الحيل؛ كأن يصيروا الثّوب
كالبرك، ويخفّوا حُمْل الجارية، ويطوّلوا الشعور بأن يوصلوا في طرفها شعراً من
جنسها. فكم من نحيفة بيعت بسمينة، وممسوح العجز بثقل الروادف، وأبخر
الفم بطيب النكهة. وكم صَفّروا البياض الحادث عن البرص والبهق في الجلد،
وجعلوا العين الزرقاء كحلاء، وحَمّروا الخدود المصفرة، وأزالوا عن الخدود
شعر اللحي، وأكسبوا الشعور الشُّقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السّطة،
وبيضوا الوجوه المسمرة، ودمَلجوا السيقان الضامرة، وأذهبوا آثار الجدري
والوشم. وكم من مريض بيع بالصحيح، وغلام بجارية، هذا بالإضافة إلى
ما يوصون به الجوّاري من دَلّ ومجانة. وكان بعض النخاسين يقول: «ربع
درهم جنّاء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضّة!».

ومن جملة ما حذّر منه المشتري ألا يستعرض جارية أو يفكر في شرائها
وهو شيق، إذ ليس لمُنْعِظ رأي كما يقال. فهو عندئذٍ يقطع بأول نظرة، وأول
نظرة سحر، وللجديد والغريب روعة. فإذا صادف منه حاجة داعية قطع بما
تكذّبه الحواس عند الاستغناء. ولهذا قيل: تكريرُ اللَّحْظِ يُخْلِقُ كُلَّ جِدَّةٍ،
ومعاودة التقليب تُظْهِرُ التَّصَنُّعَ.

وعليه أن يأخذ بسوء الظن، فلا يقطع بأول لفظ من غلام أو جارية؛ فربما
جاءت بالاتفاق، فوافقت قبولاً ولا يكون وراءها أمثالها.

وعليه أن يسأل عن سبب بيع المملوك، وعما إذا كان السبب من جهته أو من جهة مالكة.

وعليه أن يتحرّز في استبراء الإمام من الحمل، فكثيراً ما يجعلن في فروجهن خرقاً بدم غيرهن.

وليعلم أن في شحوب لون الجارية وشهوتها للطعام المالح دليلاً على توخمها.

وإن كان له عدو يخشى منه غيلة، أو يخاف أن يطلع له على سرّ، فليأخذ حذره حين يُقدّم على شراء خادم أو جارية، خاصة إن كانت تعمل قبل عرضها للبيع في دار السلطان، فإن هذه حيلة قد هلك بها جماعة من الملوك والرؤساء. وإذا اشتريت جارية غير بالغة فربما بلغت في ملكك وأنت لا تعلم، وَكَمَتَ ذلك عنك رغبة في الولد.

واحذر الجوّاري اللواتي يُوهِمْنَ أنهن عُمَم أو كارهات للحمل، فربما خَدَعْنِكَ بذلك. ولا تُخرج جارية من ملكك إلى نخاس إلا وهي حائض، فربما تحبل فتدعي أنه منك!

أصحاب القيان:

فلنا إن الرقيق الذي لم تكن له من المواهب والمزايا غير قدراته الجثمانية الظاهرة للأعين كان يُباع في الأسواق. أما أصحاب الموهبة الغنائية أو الشعرية، أو ذؤود الدّل والظرف وجمال الحديث وحسن المغازلة، مما يُحتاج لتبيينه إلى عشرة طويلة أو قصيرة، فكان لا بدّ من جمعهم في مجالس يعقدها التاجر في دار خاصة له، ويرتدّد عليها ذؤو الثراء أو الجاه.

وكان الناس يقصدون مالك القيان بالرغبة كما يُقصد بها للخلفاء والعلماء. فزار ولا يُكلّف الزيارة، ويوصل ولا يُحمّل على الصّلة، ويُهذَى له ولا تُقتضى منه الهدية. وهم يرسلون إلى بيته بصنوف الأطعمة والأشربة،

وَيُكْفَى مؤونة جواريه . ثم هو يُستقبل إذا أَعْسَرَ ولا يَرُدُّ ، وَيَسْأَلُ الحوائجَ فلا يُمنع ، وَيُلْقَى أبداً بالإعظام ، وَيُكْنَى إذا نُودِيَ ، وَيُحْيَا بطرائف الأخبار ، وَيُطْلَع على مكنون الأسرار .

وهو يعلم أن ثمن الجارية إنما يغلو بأحد سببين أو باجتماعهما : مواهب القينة ، أو عشق أحد المترددين عليه لها . فأما المواهب فهو يُعْنَى بإنمائها وإبرازها . وأما العشق ، فهو يُدْرِك أن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعة أعشار عشقه ، ونقص من برّه ورفده بقدر ما نقص من عشقه . ولذا فهو يُعْنَى بنصب الرقباء ، وبألا تتاح الفرصة للعاشق لأن يظفر بسؤله ، حتى يضطر إلى الشراء . وهو مع ذلك يُعْرِضُ عن الغَمَزَةِ ، ويغفر القُبْلَةَ ، ويتغافل عن الإشارة ، ويتعامى عن المكاتبَةِ . وهو يَمَيِّزُ أصناف تجارتها فيسعرها وفق قيمتها ، ويعرف ما يصلح لكل من زبائنه . وَمَنْ كان ذا جاه من العشاق اعتمد على جاهه وسأله الحوائج . ومن كان ذا مال اقترض منه بلا ربا . ومن كان مقرباً إلى السلطان دَقَّتْ عند زيارته الطبول ونُفِخَ في الأبواق ، نظراً إلى أنه كفيل بأن يردَّ عن التاجر مالك القيان مضايقات الشرطة والمشاعيين !

مجالس القيان :

والْقَيْنَةُ أَدْرَى بما فيه صالحها وما يتطلّب منها التاجر صاحبها من سلوك . فهي إن رأت في المجلس فتى له غنى وكثرة مال ، مالت إليه لتخذه ، ومنحته نظرها ، وغمزته بطرفها ، وداعبته بالتبسّم ، وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب عند شربه ، وسقته أنصاف أقداحها ، أو شربت من فضلة كأسه ، وناولته قُضُوض تَفَاحها ، وتحيّة من ريحانها ، وتغايرت على أهله ، وحمّته النظر إلى صوابحاتها ، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصباية لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . ثم ترسل إليه بالّرسل ، وتخبر عن سهرها ، وتشكو إليه القلق والأرق ، وتبعث إليه بخاتمها وخصلة من شعرها ، وقطعة من مِرْطَها ، وقلامة من ظفرها ، أو شُظْيَةً من مضرايبها ، ولُبَّان قد جعلته عوضاً عن قبلتها ،

وكتاب قد نَمَقته وطَبِيتَه وشَدَّتَه بوتر من عودها، ونَقَطت عليه قطرات من دمعها، تسأله المواتة على حَبِّها، وأن يبعث يطلب زيارتها، لتقرّ بالنظر إليه عينها. وتوهمه أن الذي بها منه أكثر مما به منها، وأنها لا تريد سواه، ولا تريد له لماله بل لنفسه. ثم تُظهر ستر الكتاب عن مواليها ليكون المغرور أوثق بها.

وهي تُهدي إليه في عيد النيروز سُكراً، وفي المهرجان خاتماً وتفاحة، وتنقش على خاتمها اسمه، وربما أتت إلى بيته فتَمَكَّنَه من القبلَة فما فوقها، وتُقرِشُه نفسَها.

وربما اجتمع عندها من عشاقها ثلاثة أو أربعة، فتبكي لواحد بعين، وتضحك للآخر بالآخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحداً يسرها، والآخر علانيته، وتوهمه أنها له دون الآخر، وأن الذي تُظهر خلاف ضميرها. وتكتب إليهم جميعاً عند الانصراف كتباً على نسخ واحدة، تُظهر لكل واحد منهم تبرُّمها بالباقيين، وحرصها على الخلوة به دونهم.

يقول الجاحظ: «وليس هذا بذمّ لهن، ولكنه من فرط المدح. وقد جاء في الأثر: خير نساكنكم السواحر الخلّات».

حتى إذا ما مال إليها الرجلُ بوَدِّه، وحوّت عقله وسلبت قلبه، أخذت في طلب الهدايا العظيمة، وتشهت الثياب والعصائب المرصعة، وخواتيم الباقوت، وتمارضت من غير سقم لتجيئها هداياه.

فإن نفذ اليسار وأتلف المال، أظهرت الملل، وتبرّمت بكلامه، وتبعت عليه سقطاته، وأخذت في الجفاء والعتاب، والقلى والإبعاد، ومالت إلى سواه.

على أن القينة وإن كانت لا تكاد تخلص في عشقها، لما جُبلت عليه من نَصَبِ الجبالة، فإن هواها أسرع إلى النفوس وأوقع في القلوب. فهي أقرب أملاً، وأقلّ عللاً، والظفر بها أسرع من الظفر بالحرّة. وهي تجمع للإنسان من

اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض؛ فللعين النظر إلى حُسْنِها، وللسمع منها حظٌّ، وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه. والحواس كلها رَواد للقلب وشهود عنده. وقد تطلب القينة الهدايا لمولاهَا لرغبتها في هوى عاشقها، لأن التاجر إذا تنابعت عليه أَلطافُ العشيِّق رغب في صفائه، فأخلاه معه الأيام الكثيرة، والليالي المتتابعة.

تبرير مسلك الجوّاري:

يقول الجاحظ:

«وكيف تُسَلِّمُ القَيْنَةُ من الفِتْنَةِ أو يَمْكُنُها أن تكون عفيفة، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء، وتُتَعَلَّمُ الألسُنُ والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لَدُنْ مولدها إلى أوان وفاتها بما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب، وبين الخلعاء والمُجَان، ومن لا يُسمع منه كلمةٌ جَدٌّ، ولا يُرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مُرُوَّة...»

«وتُروى الحاذقةُ منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيها بين البيتين إلى أربعة أبيات، ليس فيها ذكرُ الله إلا عن غفلة، وإنما بُنيت كلها على ذِكر الزَّنا والقيادة، والعشق والصُّبوة، والشُّوق والغُلْمة...»

«ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها مُنَكِّبةً عليها، تأخذ من المُطارحين الذين طَرَحَهم كلُّ مغازلة، وإنشادهم مراودة. وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها، لأنها إن جَفَّتْها تَفَلَّتْ، وإن أهملتها نَقَصَتْ، وإن لم تستفد منها وَقَفَتْ، وكل واقفٍ فإلى النقصان أقرب. وإنما فَرَّقَ بين أصحاب الصناعات وبين من لا يحسنُها التَزَيُّدُ فيها والمواظبة عليها. فهي لو أرادت الهُدَى لَمْ تعرفه، لأن فكرها وقلبها ولسانها وَيَدْنُها مشاغلٌ بما هي فيه...»



وننتقل بعد هذا كله إلى الحديث تفصيلاً عن حياة واحدة من هؤلاء.

عَرِيب :

عَرِيب جارية من أشهر الجواري المغنيات في التاريخ الإسلامي ، ولدت ببغداد عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) أثناء خلافة هارون الرشيد ، وتوفيت عن ثلاث وتسعين سنة عام ٢٧٧ هـ (٨٩٠ م) في أواخر عهد المعتمد ، فتكون بذلك قد شهدت عهود أحد عشر خليفة من خلفاء العباسيين ، هم : الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) ، والأمين (٨٠٩ - ٨١٣) ، والمأمون (٨١٣ - ٨٣٣) ، والمعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) ، والواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) ، والمتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) ، والمتنصر (٨٦١ - ٨٦٢) ، والمستعين (٨٦٢ - ٨٦٦) ، والمعتز (٨٦٦ - ٨٦٩) ، والمهتدي (٨٦٩ - ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢) . قالت عريب : « جامعي منهم ثمانية ، ما اشتهيت منهم أحداً إلا المعتز » . والمؤكد بالنظر إلى سنّها وقت تولية كل منهم الخلافة ، أن عدداً منهم إنما عاشوها قبل تقلّده الحكم .

صفتها :

قال عنها إسحاق الموصلي إمام أهل صناعة الغناء العربي : « ما رأيت امرأة قطّ أضرب من عريب ، ولا أحسن صنعة ، ولا أحسن وجهاً ، ولا أخفّ روحاً ، ولا أحسن خطاباً ، ولا أسرع جواباً ، ولا لعب بالشطرنج والنرد » . ووصفها أبو الفرج الأصفهاني صاحب « الأغاني » بأنها « مغنية محسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، مليحة الخطّ والمذهب في الكلام ، ونهاية في الحسن والجمال والظرف ، وجودة الضرب وإتقان الصنعة ، والمعرفة بالنغم والأوتار ، والرواية للشعر والأدب . لم يتعلق بها أحد من نظرائها ، ولا رُوِي في النساء بعد القيان الحجازيات القديمات ، مثل جميلة وعزّة الميلاء وسلامة الزرقاء ومن جرى مجراهن - على قلة عددهن - نظير لها . وكانت فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لهن مما يكون لمثلها من جواري الخلفاء ، ومن نشأ في قصور الخلافة ، وغُذِيَ برقيق العيش الذي لا يدانيه عيشُ الحجاز والنشء بين العامة والعرب الجفّة ومن غُلُظ طبعه » .

وقد أفرد ابن المعتز لأخبارها وغنائها كتاباً مفقوداً. وذكرها في كتابه «طبقات الشعراء»، ووصفها بأنها «شاعرة مُغلّقة مطبوعة»، وكانت تتبع آثار الشعراء فتخرج منها مواضع خطئهم وتعرضه على المأمون. وكانت من أظرف الناس وأسرعهم نادرة، ومن أحسن الناس وجهاً، وأفصحهم لساناً، وأبلغهم بياناً، وأصنعهم كفاً. ثم أضاف قوله:

«ولها حديث في غرامها أيام شبابها لم نودعه كتابنا هذا لشناعته!».

ابنة جعفر البرمكي؟

كانت عريب تزعم أنها بنت جعفر بن يحيى البرمكي من امرأة شريفة. وقد أيد زعمها هذا آخرون من بينهم خال المعتصم، وابن لمولاها المراكبي. وكان الفضل بن مروان يقول: «كنت إذا نظرتُ إلى قدمي عريب شبهتهما بقدمي جعفر بن يحيى». وعندما ذُكرتُ بلاغتها في كُتُبها لبعض الكتاب قال: «فما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر؟» وكانت إن تحدّثت عن البرامكة وصفتهم بأنهم أهلها. ويحكي المغني جَحْظَةً أنه دخل إليها وهو غلام فأنكرته وسألت عنه، فلما أعلمها أنه ابن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكي وأنها ابنة عم أبيه أدنته وقربت مجلسه وسمعت غناؤه وأمرت له بخمسين ديناراً.

وكانت أمها فاطمة صبية نظيفة تعمل لدى أخت لجعفر. فلما رآها جعفر هَوَّيها، وسأل أخته أن تزوجه إياها ففعلت. وبلغ الخبر أباه فأنكره، وقال لولده: «أنتزوج مَنْ لا تُعرف لها أم ولا أب؟ اشتر مكانها مائة جارية وأخرجها». فأخرجها وأسكنها، سرّاً من أبيه، دار امرأة كانت مربية للبرامكة، في ناحية بباب الأنبار ببغداد، ووكل بها من يحفظها، وكان يتردّد عليها، فولدت عريب سنة إحدى وثمانين ومائة.

طفولتها:

ماتت أم عريب وعريب طفلة صغيرة. فدفع جعفر ابنته إلى امرأة نصرانية وجعلها مربية لها. ثم أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر يوم أول صفر سنة

١٨٧ هـ (٢٩ يناير عام ٨٠٣ م) ، وجعفر في السادسة والثلاثين من عمره . وفي أثناء انتهاب البرامكة ، سُرِقَت عريب وهي طفلة في السادسة ، وبيعت لنخّاس في سوق الرقيق يُدعى سِنْبِس ، وقيل إن مربيتها النصرانية هي التي باعتها له ، فاشتراها من عبد الله بن إسماعيل المراكبي صاحب مراكب الرشيد .

عند المراكبي :

انتقلت الفتاة مع مولاها إلى البصرة . وتولّى المراكبي تأديبها وتخريجها ، فعَلَّمَهَا الكتابة والنحو والشعر والغناء ، فبرعت في ذلك كله ، وتزايدت حتى قالت الشعر . وقد حكّت عريب أن المراكبي اصطحبها معه في صباها إلى الحج ، فكانت في طريقها تطلب الأعراب وتستشدهم الأشعار ، وتكتب عنهم النواذر وسائر ما تسمعه منهم ، فإن استحسنت أبياتاً تسمعها منهم وضعت لها الألحان وغنّتها . وكان المراكبي يفرح بذلك فرحاً شديداً ، ويُجزل لها المكافأة ، ويزداد بها شغفاً .

عند الخليفة الأمين :

فلما وَلِيَ محمد الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد عام ٨٠٩ م ، جاء المراكبي ، والأمين راكب ، ليقبّل يده ، فأمر الأمين بمنعه ودفعه . فلما تولّى خادمه ذلك ضَرَبَه المراكبي وقال له : أتمنني من يد سيدي أن أقبلها؟ . وجاء الخادم إلى الخليفة يشكوه ، فأمر الأمين بحبس المراكبي ، وطالبه بخمسمائة ألف درهم أتهمه بأنه مدين بها لبيت المال . وبعث فأخذ عريب من منزله مع خدم كانوا له . ويقال إن الأمين كان قد سمع بها أثناء حياة أبيه ، فطلبها منه فلم يجبه الرشيد إلى ما سأل ، فاضطعن عليه الأمين لذلك .

وبعث الأمين في إحضار عريب فأحضرت ، وكانت وقتها في نحو الرابعة عشرة من عمرها . وغنّته بحضرة عمّه إبراهيم بن المهدي ، الذي كان من أساطين الغناء في عصره ، أغنية مطلعها :

لكل أناسٍ جوهرٌ متناسفٌ
وانتِ طرازُ الأنسِ الملائحِ

فطرب الأمين واستعاد الصوت مراراً، وقال لإبراهيم :
- يا عمّ، كيف سمعت؟

قال : سمعتُ حسناً . وإن تطاولت بها الأيامُ وسَكَنَ رَوْعُها، ازداد غناؤها
حُسناً.

وافترضها الأمين . حكا نحرير الخادم : دخلتُ يوماً قصر الحرم فلمحتُ
عريب جالسة على كرسي ناشرةً شعرها تغتسل ، فسألتُ عنها فقيل : هذه
عريب ، دعا بها سيدها اليوم فافتضها .

وقالت عريب : كنت لمحمد الأمين وصيفة في عداد الوصائف ، ألبس
قباء ومنطقة وأقوم على رأسه وربما سقيته . وكان أحسن خلق الله ، لم نر ذكراً
ولا أنثى مثله جمالاً وحُسناً مع حُسن خلق .

ثم انتقض أمرُ الأمين ، وشغل عنها بحربه مع أخيه المأمون ، وشُغِلت
عنه . فلما قُتل ، توجّه المراكبي إلى دار أمه زبيدة وأخذ عريب منها عنوةً .

هربها من المراكبي :

عادت عريب إلى مولاها المراكبي . وكان للمراكبي هذا صديقٌ يُدعى
حاتم بن عديّ من قَوّاد خراسان . وكان مولاها يدعوه كثيراً ويخالطه . ثم ركب
حاتماً الذّين فلجأ إلى دار المراكبي يستتر عنده . وهناك مدّ عينه إلى عريب ،
وكتبها فأجابته ، وكانت المواصلّة بينهما وعشقه . فلما انتقل إلى منزله ، اتفق
مع عريب على أن تهرب من المراكبي ، وأعدّ هولها موضعاً . فلم تزل تحتال
حتى اتّخذت سلماً من العصب الذي تُعمل منه الأوتار ، وخبأته ، ولقّت ثيابها
وجعلتها في فراشها بالليل حتى تُوهم المراكبي أنها هي ، ثم تسوّرت من
الحائط ومضت إلى حاتم ، فمكثت عنده زماناً دون أن يعلم مولاها بمكانها .

ويقال إن حاتماً لما صارت عنده، بعث ليلة إلى المراكبي يستعير منه عُوداً حتى تغنيه عريب به، فأعاره المراكبي عودها وهو لا يعلم أنها عنده ولا يتهمه بشيء من أمرها.

هربها من حاتم:

ثم إنها ملّت حاتماً بعد ذلك فهربت منه إلى قوم من معارفها، فكانت تغني عندهم وهي مستترة متخفية. فلما كان يوم من الأيام اجتاز ابنُ أخٍ للمراكبي بستان كانت فيه مع القوم تغني، فسمع الغناء وعرف صاحبته. فبعث إلى عمّه من وقته يستدعيه، وأقام هو بمكانه فلم يبرح حتى جاء عمّه. وأمسك المراكبي بتلابيبها وأخذها فضربها مائة مقرعة وهي تصيح:

- «يا هذا! لم تقتلني؟ أنا لست أصبرُ عليك. أنا امرأة حرة. . إن كنتُ مملوكةً فيُعني. لستُ أصبر على الضيقة».

فلما كان من غدٍ ندم على فعله، وصار إليها فقبل رأسها ورجلها، ووهب لها عشرة آلاف درهم.

قصة علويه:

ويحكى المغني المشهور علويه الذي وصف عريب بأنها أظرفُ الناس وأحسنهم وجهاً، وبأنها أحسن غناءً منه ومن مخارق، أن المأمون أمره وسائر المغنين في ليلة من الليالي أن يصيروا إليه بُكرةً ليصطحب. فلما غدا، لقيه المراكبي مولى عريب وهي يومئذٍ عنده، فقال له المراكبي:

— يا أيها الرجل الظالم المعتدي، أما ترق ولا ترحم ولا تستحي؟ عريب هائمة تحلم بك في النوم ثلاث مرات في كل ليلة.

قال علويه: أم المأمون زانية! (يريد بهذه العبارة الاستخفاف بموعد الخليفة كائنه ما تكون النتيجة). ومضى مع المراكبي. فلما دخل إذا عريب على كرسي عظيم تطبخ وبين يديها ثلاث قدور من دجاج. فلما رأت علويه

قامت تعانقه وتقبّله، وأدخلت لسانها في فمه، ثم قالت:

— أيّما أحبُّ إليك؛ أن تأكل من هذه القدور، أو تشتهي شيئاً آخر يُطبخ لك؟

قال علّويه: بل قدر من هذه تكفيني.

فغرفت قدراً منها، وجعلتها بينها وبينه، فأكلوا. ثم دعت بالنبيذ فصبّت رطلاً شربت نصفه وسقت علّويه نصفه، فما زالوا يشربون حتى سكروا. ثم قالت لعلّويه: يا أبا الحسن، أخرجتُ البارحة شعر أبي العتاهية فاخترتُ منه شعراً غنّيت فيه. قال: وما هو؟ فأنشدت:

عذيري من الإنسان لا إن جفوتُهُ صفا لي ولا إن كنتُ طوعَ يديهِ
واني لمشتاقٌ إلى قُرب صاحبٍ يروق ويصفو إن كدُرْتُ عليه

وقالت: قد بقي فيه شيء أريد إصلاحه. قال: ما فيه شيء. قالت: بلى! فظلاً يردّدانه حتى استوى اللحن. ثم جاء حجاب الخليفة وأخذوا علّويه، فأقبل على المأمون يمشي برقص وتصفيق من أقصى الديوان وهو يغني الصوت. فسمع المأمون وندماؤه ما لم يعرفوه، واستظرفوه. وسأله المأمون عن خبره فشرحه له. فقال له: اذنُ فردّه. فردّه عليه سبع مرات.

عن محمد بن حامد:

ثم إن عريب عشقت قائداً خراسانياً آخر يقال له محمد بن حامد الخاقاني، وكان أشقر أصهب أزرق العينين. وكانت إذا خرجت إلى الحمام أو إلى من تزوره من أهل المراكبي ومعارفه، يُرسل المراكبي معها جارية تدعى مظلومة لتكون رقيباً عليها. فكانت عريب تُعرّج مع مظلومة إلى بيت ابن حامد لزيارته.

ثم كان أن هربت عريب من مولاها إلى ابن حامد. فتقدم المراكبي إلى الخليفة المأمون يتظلم، فأمر بإحضار ابن حامد فأحضر. وسأله عنها فأنكر.

فقال له المأمون: كذبت. قد وصلني خبرها. وأمر صاحب الشرطة أن يجردّه في مجلس الشرطة ويضربه بالسوط حتى يردّها، فأخذه.

وبلغ عريب الخبر، فركبت حماراً وجاءت وقد جُرد ليُضرب، وصاحت وهي مكشوفة الوجه:

— أنا عريب! إن كنتُ مملوكة فليبعني، وإن كنتُ حرةً فلا سبيل له عليّ.

فُرفِع خبرها إلى المأمون، فأمر قتيبة بن زياد القاضي أن يقضي في أمرها. وتقدّم المراكبي إلى قتيبة مطالباً بها، فسأله البَيِّنة على ملكه إيّاها. فعاد متظلماً إلى المأمون وقال: «لقد طولبتُ بما لم يطالب به أحدٌ في رقيق، ولا يوجد مثله في يد من ابتاع عبداً أو أمة». وتظلمت زبيدة إلى المأمون من أن المراكبي هجم على دارها عقب مقتل ابنها الأمين وأخذ عريب منها. فقال المراكبي:

— إنما أخذتُ ملكي لأنه (أي الأمين) لم يُنقِذني ثمنها.

فأمر المأمون بدفع عريب إلى الواقدي (مؤلف كتاب «المغازي» الشهير)، وكان قد ولّاه القضاء بالجناب الشرقي. فأخذها الواقدي من قتيبة بن زياد، وأمر ببيعها ساذجة.

شراء المأمون إيّاها:

وفي هذه الأثناء، كان إسحاق الموصلي قد وصف عريب للمأمون وأوصاه بشرائها. فاشترأها المأمون بمائة ألف درهم. ودعا بالمراكبي فدفع المال إليه، وقال:

— «لولا أنني حلفتُ ألا أشتري مملوكاً بأكثر من هذا لَزِدْتُكَ. ولكنني سأوليك عملاً تكسب فيه أضعافاً لهذا الثمن مضاعفة.

ورمى إليه بخاتمين من ياقوت أحمر قيمتهما ألف دينار، وخلع عليه خلعاً

سنيّة. فقال المراكبي : يا سيدي، إنما ينتفع الأحياء بمثل هذا. وأما أنا فإني مَيّت لا محالة، لأن هذه الجارية كانت حياتي.

وخرج عن حضرته، فاختلف وتغيّر عقله، ومات بعد أربعين يوماً.

ويحكى إبراهيم بن رباح متولّي نفقات المأمون أنه لما أمره الخليفة بدفع المائة ألف ثمناً لعريب، ومائة ألف درهم أخرى إلى إسحاق الموصلي، لم يذّر كيف يُثَبِّتها في الديوان، فكتب أن المائة الألف خرجت في ثمن جوهرة، والمائة الألف الأخرى خرجت لصائفها ودّالها. وجاء الفضل بن مروان يراجع النفقات فأنكر ما رأى، وسأل المأمون عن أمر الجوهرة فأنكر الخليفة شراءها، ودعا إبراهيم يسأله. فدنا إبراهيم من المأمون وقال هامساً: أيها أصوبُ يا أمير المؤمنين، ما فعلتُ، أو أثبت في الديوان أنها خرجت في صلة مغنٍ وثمن مغنية؟ فضحك المأمون وقال: الذي فعلتُ أصوبُ. ثم أمر الفضل بالآي يعترض على كاتبه في شيء.

عند المأمون:

وتمكّنت عريب من المأمون وأخذت بمجامع قلبه، وذهب به حبّها كلّ مذهب. ويقول عليّ بن يحيى المنجم إن المأمون قبل في بعض الأيام رجّلها، وأنها قالت: أثر ذلك: والله يا أمير المؤمنين، لولا ما شرفها الله به من وضع فمك الكريم عليها لقطعناها! ولكن الله عليّ ألا أغسلها إلا بماء الورد ما عشتُ.

كانت عريب وقت ابتياع المأمون إيّاها دون العشرين. وقد قيل في صفتها في ذلك الوقت إنه كان يُقدّم إليها الفرس فتظفر عليه بلا ركاب. ولم تكن تقوم أبداً لأصلاة. وكانت تُروّي الجوّاري الأشعار ليتغنّين بها. فإن غنّت هي جلست على كرسي كالسرير يُقرّد لها، وعليها قميص موشّح بالذهب مكتوب في وشاحه:

واني لأهواه مسيئاً ومحسنأ وأقضي على قلبي له بالذي يقضي

فحتى متى رُوحُ الرضا لا ينالني وحتى متى أيامُ سَخَطِكَ لا تمضي
وعتب المأمون على عريب في أمر فهجرها أياماً، ثم اعتلت فزارها،
وقال لها: كيف وجدتِ طعم الهجر؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا مرارة
الهجر ما عُرِفَت حلاوة الوصل، ومن ذم بدء الغضب أحمد عاقبة الرضا. فخرج
المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقصة ثم قال:

— أترى هذا لو كان من كلام النّظام (الفيلسوف) ألم يكن كبيراً؟!

وجرى بينها يوماً وبينه كلام، فكلمها المأمون بشيء غضبت منه، فهجرتة
أياماً. ثم دخل القاضي أحمد بن أبي دؤاد على المأمون، فقال له: يا أحمد،
إفرض بيننا. فقالت عريب:

— لا حاجة لي في قضائه ودخوله فيما بيننا. وأنشأت تقول:

وَنَخِيطُ الهَجَرَ بالوصال ولا يدخلُ في الصلح بيننا أحدُ

وعندما تزوج المأمون بوران عام ٨٢٥ م، أرسلت إليه عريب برقة تهنيء
كتبت فيها:

إنعم تخطتك صروفُ الردى بقربِ بورانِ مدى الدهر
درةٌ خيرٌ لم يزل نجمُها بنجمِ مأمون العلا يجري
حتى استقرَّ الملُكُ في حجْرِها بُورك في ذلك من حجبر

وكان المأمون يصطحبها معه في خروجه لغزو بلاد الروم. يروي
ابن اليزيدي أنه رأى عريب هناك في هودج. «فلما رأته قالت لي: يا يزيد،
أنشدني شعراً قلته حتى أصنع فيه لحناً، فأنشدتها:

ماذا بقلبي من دوام الخفقِ إذا رأيتُ لمعانَ البرقِ
من قبلِ الأردنِ أودمشقِ لأم من أهوى بذاك الأفقِ
ذاك الذي يملك مني رقي ولست أبغي ما حييت عتقي

فَتَنَفَّسْتُ عَرِيبَ تَنَفَّسًا ظَنَنْتُ أَنْ ضُلُوعَهَا قَدْ تَقَصَّفَهُ مِنْهُ . فَقُلْتُ : وَيَحْكُ !
عَلَى مَنْ هَذَا التَّنَفَّسُ ؟ فَضَحِكْتُ ثُمَّ قَالَتْ : عَلَى الْوَطَنِ ! قُلْتُ : هِيَهَاتُ ! لَيْسَ
هَذَا كُلُّهُ عَلَى الْوَطَنِ . هَذَا وَاللَّهِ تَنَفَّسُ عَاشِقٍ . فَقَالَتْ : وَيْلَكَ ! أَظَنَنْتُ أَنَّكَ
تَسْتَفْزِنِي ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ نَظَرْتُ نَظْرَةً مَرِيئَةً فِي مَجْلِسٍ ، فَأَدَّعَاها مِنْ أَهْلِ الْمَجْلِسِ
أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رَئِيسًا ظَرِيفًا ، وَاللَّهِ مَا عَلِمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِمَنْ كَانَتْ إِلَى هَذَا
الْوَقْتِ ! » .

تَجَدَّدَ صِلَتُهَا بِمُحَمَّدِ بْنِ حَامِدٍ :

وَيُحْكِي أَنَّ الْمَأْمُونِ اصْطَبِيحَ يَوْمًا وَمَعَهُ نَدَمَاؤُهُ وَفِيهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ حَامِدٍ
عَشِيقُهَا الْقَدِيمِ ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمَغْنَنِ بَيْنَهُمْ عَرِيبٌ . فَأَوْمَأَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ بِقُبْلَةٍ
وَالْمَأْمُونُ مَشْغُولٌ عَنْ نَدَمَائِهِ . فَانْدَفَعَتْ عَرِيبٌ تَغْنِي :

رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَمَرَ بَطْعَنِي كَحَاشِيَةِ الْبَرْدِ الْيَمَانِيِّ الْمَسْهُمِ

تَرِيدُ بَخْنَائِهَا جَوَابَ مُحَمَّدٍ . فَقَالَ لَهَا الْمَأْمُونُ : أَمْسِكِي ! فَأَمْسَكَتْ . ثُمَّ
أَقْبَلَ عَلَى النَّدَمَاءِ فَقَالَ :

— مِنْ فِيكُمْ أَوْمًا إِلَى عَرِيبٍ بِقُبْلَةٍ ؟ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَصْدُقْنِي لِأَضْرِبَنَّ عَنْقَهُ .

فَقَامَ مُحَمَّدٌ وَقَالَ :

— أَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْمَأْتُ إِلَيْهَا ، وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى .

فَعَفَا الْمَأْمُونُ عَنْهُ .

وَاحْتَالَتْ عَرِيبٌ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَامِدٍ . وَيَقُولُ
الْمُؤَرِّخُ ابْنُ عَسَاكِرَ إِنَّهَا كَانَتْ تُدْخِلُهُ إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ سِرًّا . وَكَانَتْ إِنْ وَجَدَتْ
مِنْ الْمَأْمُونِ غَفْلَةً وَضَعَتْ عَلَى فَرَاشِهَا مِثَالِ رِخَامٍ يَحْسَبُ مَنْ رَأَاهُ مِنْ بَعِيدٍ أَنَّهَا
نَائِمَةٌ ، ثُمَّ تَصْعَدُ إِلَى سَطْحِ الْقَصْرِ وَتَنْزِلُ فِي سَلَّةٍ مِنْ خَوْضِ النَّخْلِ وَتَمْضِي إِلَى
حَيْثُ يَقِيمُ ابْنُ حَامِدٍ بِجَوَارِ قَصْرِ الْمَأْمُونِ ، حَتَّى إِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ مِنْهَا عَادَتْ

فقعدت في السلّة وتجذبها إحدى الجوّاري ثم تعود إلى مكانها.

وكانت تلقى ابنَ حامد في الوقت بعد الوقت في دور أصحابه ممن كان يطلبُ إليهم إخلاءها، ثم يأتي فتوافيه عريب فيها. ويحكي أبو عبد الله بن حمدون أن عريب زارت ابن حامد مرةً في حضرته، فجعل ابن حامد يعاتبها ويقول: فعلتِ كذا وفعلتِ كذا. فقالت له:

— أهذا في رأيك وقت عتاب؟! يا عاجز! خُذ بنا فيما جئنا من أجله وضمّني إليك، فإذا كان غَدُ فاكتب إليّ بعتابك في ورقة حتى أكتب إليك علري في ثلاثة!

ثم أنشدت:

دَعِي عَدُوَّ الذَّنُوبِ إِذَا التَّقِينَا تَعَالَيْ لَا أَعُدُّ وَلَا تَعْدِي!

ويروي أحمد بن حمدون عن أبيه قوله:

كنتُ حاضراً مجلس المأمون ببلاد الروم بعد صلاة العشاء الآخرة في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق. فقال لي المأمون: اركب الساعة فرس النوبة وسرّ إلى عسكر أبي إسحاق (يعني المعتصم) فأدّ إليه رسالتي في كيت وكيت. فركبتُ. وسمعت وقع خُفَر دابة في الظلام تقترب. ثم برقت بارقة فأضاءت وجه الراكب، فإذا عريب. قلت: عريب؟ قالت: نعم، حمدون؟ قلت: نعم. من أين أقبلتِ في هذا الوقت؟ قالت: من عند محمد بن حامد. قلت: وما صنعتِ عنده؟ قالت: يا أحمد! عريب تجيء من عند محمد بن حامد، في هذا الوقت من الليل، خارجة من مَضْرِب الخليفة وراجعة إليه، تقول لها: أي شيء علمتِ عنده؟! صليتُ معه التراويح! قرأتُ عليه أجزاءً من القرآن ودارسته في الفقه!! يا أحق! تعاتبنا وتحادثنا واصطلحنا ولعبنا وشربنا وغنينا وانصرفنا. . . . فأخجلتني وغازطتني وافترقنا. ومضيتُ فأذيت الرسالة، ثم عدت إلى المأمون وأخذنا في الحديث وتناشد الأشعار، وهممتُ والله أن أحذّته

حديث عريب، غير أنني هبته، ففكرت أن أقدم قبل ذلك تعريضاً بشيء من الشعر، فأنشدته قصيدة:

أَلَا حَيَّ أَطْلَالَا لَوَاسِعَةِ الْحَبْلِ أَلَوْ تَسْوِي صَالِحَ الْقَوْمِ بِالرُّذْلِ
(واسعة الحب: كناية عن أنها لا ترد يد لأمس. والأبيات في وصف امرأة منهتكة غاية التهتك).

فقال لي المأمون: اخفض صوتك لا تسمعك عريب فتغضب وتظن أننا في حديثها!

فأمسكت عما أردت أن أخبره.

وكتبت عريب مرة إلى محمد بن حامد تستزيه. فكتب إليها: إني خائف على نفسي. فكتبت إليه:

إِذَا كُنْتُ تَحَذِرُ مَا تَحَذِرُ وَتَزْعَمُ أَنَّكَ لَا تَجْسُرُ
فَمَا لِي أَقِيمُ عَلَى صَبَوْتِي وَيَوْمَ لِقَائِكَ لَا يُقْلَرُ
فصار إليها من وقته.

زواجهما من ابن حامد:

وظلت عريب على علاقتها بابن حامد حتى حبلت منه وولدت بنتاً. فلما وقف المأمون على خبرها أمر بإلباسها جبّة صوف، وحبسها في مكان مظلم شهراً لا ترى الضوء، يُدْخَلُ إليها خبزٌ وملح وماء من تحت الباب في كل يوم. ثم ذكّرها فرق لها، وأمر بإخراجها. فلما فتّح الباب عنها وأخرجت لم تتكلم بكلمة حتى اندفعت تغني:

حجبوه عن بصري فمثل شخصه في القلب فهو مُحَجَّبٌ لَا يُحَجَّبُ
فبلغ ذلك المأمون، فعجب منها وقال:

— لن تصلح هذه أبداً

واستدعاها وابن حامد، وقال لجلسائه:

— إشهدوا أنني زوّجت الزانية منه . . خُذْ بيدها.

فأخذ بيدها وقامت من المجلس إلى مضربه . غير أن المأمون اشترط عليه أن يحضرها إلى مجلسه كلما اشتهى سماع غنائها.

تزوَّج محمد بن حامد عريب . والظاهر مع ذلك أنه كان يتهمها بخيانتة . فقد عُثر بعد وفاته في صندوق مختوم له على رقاعٍ عريب إليه، منها رقعة كتبت إليه فيها:

وَيْلِي عَلَيْكَ وَمِنْكَ أَوْقَعْتَ فِي الْحَقِّ شَكَا
زَعَمْتُ أَنِّي خُشُون جُورًا عَلَيَّ وَإِفْكَ
إِنْ كَانَ مَا قُلْتَ حَقًّا أَوْ كُنْتُ أَزْمَعْتُ تَرْكَا
فَإَبْذُلْ اللَّهَ مَا بِي مِنْ ذِلَّةِ الْحَبِّ نُسْكَا

ويروي أحمد بن حمدون أنه وقع بينها وبين زوجها شرًّا، وكان يحبها الحب كله، فكادا يخرجان من شرهما إلى القطيعة . . قالت له ذات يوم: كيف قلبك يا محمد؟ قال: أشقى ما كان وأفرحهُ . قالت: استبدلْ تسْلُ! فقال: لو كانت البلوى باختيارٍ لفعلتُ . فقالت: لقد طال إذاً تعبُك . فقال: أَصْبِرُ مُكْرَهًا . أما سمعتِ قول العباس بن الأحنف:

تعبٌ يطول مع الرجاء بذِي الهوى خَيْرٌ لَهُ مِنْ رَاحَةٍ فِي الْيَاسِ
لولا كرامتكم لما عَاتَبْتُكُمْ وَلَكِنْتُمْ عِنْدِي كَبْعُضِ النَّاسِ

فلذرفت عينها واعتذرت إليه وأَعْتَبَتْهُ . واصطلحا وعادا إلى أفضل ما كانا عليه .

أبو عيسى بن الرشيد:

والواضح أن غرامها بابن حامد لم يكن باعثاً لها على الوفاء. يقول ابن المعتز إن عريب كانت وقتها تعشق أبا عيسى بن هارون الرشيد، وأنها كانت لا تضرب المثل إلا بحسن وجهه وحسن غنائه. وكانت تزعم أنها ما عشقت أحداً من بني هاشم وأصفتها المحبة من الخلفاء وأولادهم سواء. وكانت عريب تفسر اشتهاها فيما بعد للخليفة المعتز بأنه كان يشبه أبا عيسى.

واسم أبي عيسى هذا أحمد. وكان يقال إن الناس لم يروا أجمل منه وأخيه الأمين قط. وكان المأمون شديد الحب له، وكان يعدّه للخلافة بعده، ويقول: إنه ليسهل عليّ أمر الموت وفقد الملك أن يلي أبو عيسى الأمر بعدي. وكان أديباً ظريفاً مستخفاً بالدين. وتقول عريب إنها ما سمعت قط أحسن غناء منه. وكان يحب صيد الخنازير، فوقع يوماً من حصانه وأصيب في رأسه، فكان يُصرع بعد ذلك مرّات في كل يوم إلى أن مات عام ٨٢٤ م، وصلى عليه المأمون ونزل في قبره، وامتنع من الطعام أياماً حتى خاف أن يضُرّ ذلك به.

عند الخليفة المعتصم:

توفي المأمون وقد بلغت عريب السادسة والثلاثين من العمر. فبيعت في ميراثه، ولم يُبع للمأمون عبد ولا أمة غيرها. واشترأها خلفه المعتصم بمائة ألف درهم وأعتقها. غير أنه أقدم على فعله لا نجد لها تفسيراً في المصادر بين أبدينا، وهي أنه كتب وهو غائب عن العاصمة إلى إسحاق الموصلي بأن يأمر محمد بن حامد أن يطلق عريب. فلما أمره إسحاق رفض. فكتب المعتصم إلى إسحاق أن اضربه. فضربه بالمقارع حتى طلقها.

وظلت عريب مدة مُبَجَّلَة عند المعتصم مُحِبَّة إليه. غير أنها لَقِيَتْ من إحدى جواري المعتصم، وتدعى شارية، منافسة شديدة في الغناء. فكانت شارية تغني غناء إبراهيم بن المهدي، وهو من الغناء الخفيف، وعريب تحكي

في غنائها صنعة الأوائل على مذهب إسحاق. وكان أهل سامراء حزبين: قوم مع شارية وقوم مع عريب، لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء، ولا أصحاب هذه في هؤلاء. ويحكي أن أحد أصحاب شارية دعا يوماً عريب وجواربها لتغني بعض أصحابه العريبيين. فلما اتصل الخبر بشارية غضبت، وبعثت إليه بعد يوم أويومين بجواربها، وأمرت إحداهن أن تغني له:

لا تعودنّ بعدها فترى كيف أصنع!

فلما سمع الغناء ضحك، وقال: لست أعود.

ثم أقدمت عريب على فعلة عظيمة أثارت غضب المعتصم وجعلته ينحرف عنها. ذلك أنها أثناء غيابه في بلاد الروم، أرسلت كتاباً إلى العباس بن المأمون - وكان في صحبة المعتصم - تشير عليه بقتل الخليفة، على أن تتولى هي قتل الواثق ببغداد (وكان المعتصم قد استخلف الواثق فيها)، ووصفت الواثق في كتابها بالأعور الليلي، إشارةً منها إلى سهره بالليل. وعثر المعتصم على كتابها فأخرجها من قصره، وأهملها وتركها وشأنها. ويعلق النويري في «نهاية الأرب» على هذا الحديث بقوله:

«ولعمري إن هذا من الأمور العظيمة التي لا تُحتمل من الأولاد والإخوة، فكيف من أمة مغنية! ولو لم تكن عندهم بالمكانة العظمى والمحل الكبير لما أبقوها بعد الاطلاع من باطن حالها على هذه الطوية».

وانتقلت عريب وجواربها إلى دار لها ببغداد يتردد عليها فيها عشاقها والمعجبون بغنائها. ويروي المغني أبو العباس بن حمدون أنه زارها يوماً في دارها مع أصدقاء له، فدعتهم إلى البقاء حتى تطعمهم صنفاً من الطعام أعدته جارية لها من لوز رطب، ثم تغنيهم هي وجاريتها. قال أبو العباس: على شريطة. قالت: وما هي؟ قال: شيء أريد أن أسالك عنه منذ سنين وأنا أهأبك. قالت: ذلك لك، وأنا أقدم الجواب قبل أن تسأل فقد علمت ما هو. فعجب لها

وقال: فقولني . قالت: تريد أن تسألني عن شُرْطِي أَيَّ شرط هو. قال: إي والله ذلك الذي أردتُ. قالت: شرطي قوّة في الجماع، ونكهة طيبة، فإن انضاف إلى ذلك حُسْنُ يوصف، وجمال يُحمد، فقد زاد قدرُهُ عندي، وإلا فهذان ما لا بدّ لي منهما!

عند الخليفة الواثق:

تناسى الواثق، وقد ولي الخلافة بعد المعتصم، وُصف عريب له بالأعور الليلي واعتزامها قتله. ورغم أنه لم يُعرف عنه أنه اشتراها وضمّها إلى جواربه، فالمعروف أنها اتّصلت به، وكانت تقوم بمجالس الغناء لديه حين يطلبها. غير أن شارية الآن صار لها المقام الأول بين المغنين، وكان الواثق يسميها «سَيّ» ، وוכל إليها دون عريب تعليم جاريته المفضّلة فريدة.

قالت عريب:

كنت مع الواثق وهو يطوف على حُجَر جواربه عند خروجه إلى الأنبار متنزّهاً. فدخل إلى فريدة، وهي جارية كان يحبها جداً، وكان يهوى أيضاً وصيفة لها لم يكن يعلم بذلك غيري. فلما رآته الوصيفة عند مولاتها دخلت خزانتها وخرجت وقامت على رأس فريدة وعلى رأسها عصا مَكْتُوب عليها بالذهب:

عَيْنِي تَبْكِي حَذَرَ الْبَيْنِ مَا أَسْخَنَ الْفُرْقَةَ لِلْعَيْنِ
لَمْ أَر فِي الْحُبِّ وَلُوعَاتِهِ أَوْجَعَ مِنْ فُرْقَةِ الْفَيْنِ

فقال لي الواثق: فهمت يا عريب؟ قلت: نعم يا سيدي. فكتب على الأرض بقضيب كان في يده:

ظَهَرَ الْهَوَى وَتَهَتَّكَ أَسْتَاؤُهُ وَالْحُبُّ خَيْرَ سَبِيلِهِ إِظْهَارُهُ
فَاعْصِ الْعَوَازِلَ فِي هَوَاكَ مَجَاهِرًا فَالْدُّ عَيْنِ الْمُسْتَهَامِ جَهَارُهُ
وتضحكنا فَفَطَنْتُ فريدة، فقلت: يا سيدي، علمت ما أُنتما فيه، فامْنُنْ

على أمتك بقبولها. فقال الوراق: قد فعلت؛ خذ بها إليك يا عريب. فأخذت بيدها. فما ملك نفسه أن انصرف من خلفي مسرعاً وخلا بها. وأمر لي بألف دينار.

والواضح من هذه القصة أن دورها الآن في قصر الخلافة بات ثانوياً. فهي الآن قد جاوزت الخامسة والأربعين وإن ظلت على حُسنها وظرفها. والوراق متيم بغيرها. وكان كثيراً ما يحق عليها إذ كانت تكايدته فيما يصوغه من الألحان، وتصوغ في الشعر عينه أحياناً تكون أجود من ألقانه فيغتاظ.

صالح المنذري:

ثم نرى عريب وقد بلغت الخمسين وقت تولية المتوكل الخلافة، تعشق صالحاً المنذري الخادم وتقول فيه الشعر، وقيل إنها تزوجته سراً. وقد غنت يوماً بين يدي المتوكل بشعر قالته في صالح، فاستعاده، بينما جعل جواريه يتغامزن ويضحكن. فقالت لهن سراً من المتوكل: يا سحافات، هذا خير من عملكن.

وذكرت بعض جواريه المتوكل أنها دخلت يوماً على عريب، فقالت لها: تعالي ويحك إلي. فجاءت. فقالت: قبلي هذا الموضع مني فإنك تجددين فيه ريح الجنة. وأومات إلى مقدم عنقها. ففعلت. ثم قالت لها: ما السبب في هذا؟ قالت: قبلي صالح المنذري في ذلك الموضع.

غرامها بإبراهيم بن المدبر:

قال الفضل بن العباس بن المأمون:

زارتني عريب يوماً ومعها عدة من جواريه، فوافتنا ونحن على شراينا فتحدثنا ساعة. وسألتها أن تقيم عندي فأبت وقالت: «دعاني جماعة من إخواني من أهل الأدب والظرف، وهم مجتمعون في جزيرة المؤيد، فيهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد، وقد عزموا على المسير إليهم». فحلفت

عليها فأقامت عندنا، ودعتُ بدواة وقرطاس فكتبتُ في سطر واحد ثلاثة أحرف متفرقة لم تزد عليها، وهي : أردتُ، ولولا، ولعلِّي، (تعني : أردتُ الحضور إليكم، ولولا أنهم منعوني ما تخلفتُ، ولعلِّي أستطيع الإفلات). ووجهتُ به إليهم. فلما وصلت الرقعة أخذها إبراهيم بن المدبر، وكتبت تحت «أردتُ» «ليت»، وتحت «لولا» «ماذا»، وتحت «لعلِّي» «أرجو»، (يعني : ليت ما أردته نفذ، وماذا عساهم يفعلون لو تركتهم، وأرجو تنفيذ ما رجوته). ووجهوا بالرقعة إليها. فصفتُ عريب وصاحت وشربت رطلاً من النبيذ وقالت لنا : أأترك هؤلاء واقعد عندكم؟! إذا تركني الله من يديه! ولكني أخلف عندكم من جوارِي من يكفيكم، وأقوم إليهم. ففعلتُ ذلك، وخلفتُ عندنا بعض جوارِيها، وأخذتُ معها بعضهن وانصرفت.

كان ابن المدبر شاعراً كبيراً وكتاباً متقدماً من وجوه الكتاب. وكان المتوكل يقدّمه ويؤثّره ويعهد إليه بالكتابة في أمور الملك. وقد عشقته عريب في خريف حياتها وعشقها. قال فيها:

زعموا أني أحبّ عريباً صدقوا والله، حباً عجيباً
حلّ من قلبي هواها محلاً لم تدع فيه لخلق نصيباً
هي شمسُ والنساء نجوم فإذا لاحت أفلن غيوباً
وله فيها:

ألا يا سلوتي أنتم نأت دار بنا عنكم
فإن كنتم تبدّلتم فما قلبي ارتوى منكم
وإن كنتم على العهد فأحسنتم وأجملتم
ويا ليت المنى حقّت فنُبيديها ولا نكنتم
فكنتم حينما كنا وكنا حينما كنتم

وحَدَّث أبو عبد الله بن حمدون قال:

اجتمعتُ أنا وإبراهيم بن المدبر وابن ميادة وابن زُرْزُور في بستان في يوم

غيم ورداذ، ونحن في أطيب عيش وأحسن يوم. فلم نشعر إلا بعريب قد أقبلت من بعيد. فوثب إبراهيم من بيننا فخرج حافياً حتى تلقاها وأمسك بركابها حتى نزلت وقبل الأرض بين يديها. وكانت قد هجرته مدة لشيء أنكرته عليه. فجاءت وجلست وأقبلت عليه متبسمة، ثم قالت: إنما جئت إلى مَنْ هاهنا لا إليك. فاعتذر، وشفعنا له فرضيت. وأقامت عندنا يوماً ولبات. فقال إبراهيم:

بأبي من حَقِّ الظن به	وأتانا زائراً مبتدياً
كان كالغيث تراخي ملة	وأتى بعد قنوط مُروياً
طاب يومان لنا في قُربه	بعد شهرين لهجر مضياً
فأقرَّ الله عيني وشفى	سقمأ كان لجسمي مُبلياً

ومن شعره في عريب :

ألا يا عريب وُقيت الرُدى	وجنبك الله صَرْفَ الزمن
فإنك أصبحت زين النساء	وواحدة الناس في كل فن
فقربك يُدني لذيذ الحياة	وبُعْدُك ينفي لذيذ الوسن
فنعم الأنيس ونعم المجلس	ونعم السمير ونعم السكن

وأرسلت إليه مرةً رقعةً مع جاريتين لها، هما بدعة وتُحفة، كتبت فيها:

«بنفسي أنت وسمعي وبصري، وقلّ ذلك لك. أصبح يومنا هذا طيباً، - طيب الله عيشك - قد رق هواؤه، وتكامل صفاؤه، وكأنه أنت في رقة شمالك، وطيب محضرك ومخبرك. لا فقدتُ ذلك أبداً منك. ولم يصادف حسنه وطيبه منا نشاطاً ولا طرباً لأمور صدتني عن ذلك، أكره تنغيص ما أشتهيه لك من السرور بشرحها. وقد بعثتُ إليك ببذعة وتحفة ليؤنسك وتسرّ بهما، سرّك الله وسرّني بك». فكتب إليها:

كيف السُرور وأنتِ نازحة عني؟ وكيف يسوغُ لي الطربُ

إِنْ غَبَّ غَابَ الْعَيْشُ وَانْقَطَعَتْ أَسْبَابُهُ وَأَلَحَّتِ الْكُرْبُ
وَأَنْفَذَ الْجَوَابَ إِلَيْهَا. فَلَمْ تَلْبِثْ أَنْ جَاءَتْ عَلَى حِمَارٍ، فَبَادَرَ إِلَيْهَا وَتَلَقَّاهَا
حَافِئاً حَتَّى جَاءَ بِهَا إِلَى صَدْرِ الْمَجْلِسِ، يَطَأُ الْحِمَارُ بِسَاطِهِ وَمَا عَلَيْهِ، حَتَّى أَخَذَ
بِرُكَابِهَا فَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهَا.

وَمَعَ حَبِّهَ لَهَا فَإِنَّهُ كَثِيراً مَا كَانَ يَغْشَاهَا وَيَتَّصِلُ بِغَيْرِهَا وَيَخْلِفُ وَعْدَهُ إِذَاهَا.
وَكَانَ يُشْرِكُ فِي حَبِّهَا جَارِيَةً أُخْرَى تَسْمَى «نَبْت» كَانَتْ مَغْنِيَةً جَمِيلَةً وَقَالَ فِيهَا
كَثِيراً مِنَ الشَّعْرِ. وَقَدْ كَتَبَتْ إِلَيْهِ عَرِيبَ مَرَّةٍ فِي شَيْءٍ بَلَغَهَا عَنْهُ:

«مَا زِلْتُ أَمْسُ فِي ذِكْرِكَ، فَمَرَّةً بِمَدْحِكَ، وَمَرَّةً بِأَكْلِكَ وَبِذِكْرِكَ بِمَا فُكِّ
لَوْناً لَوْنًا. أَجْعِدْ ذَنْبَكَ الْآنَ، وَهَاتِ حَجِجَ الْكِتَابِ وَنَفَاقَهُمْ. فَمَا خَبَرْنَا أَمْسُ
فَإِنَّا شَرَبْنَا مِنْ فَضْلِ نَبِيذِكَ عَلَى تَذْكَارِكَ رِطْلًا. وَقَدْ رَفَعْنَا حَسَابِنَا إِلَيْكَ فَارْفَعْ
حَسَابَكَ إِلَيْنَا، وَخَبِّرْنَا مِنْ زَارِكَ أَمْسُ وَالْهَاكِ، وَلَا تُخْطِرْ فَتُحَوِّجَنَا إِلَى كَشْفِكَ
وَالْبَحْثِ عَلَيْكَ وَعَنْ حَالِكَ. وَقُلِ الْحَقُّ فَمَنْ صَدَقَ نَجَا. وَمَا أَحْوَجُكَ إِلَى
تَأْدِيبٍ، فَإِنَّكَ لَا تُحْسِنُ أَنْ تُوَدَّ... وَكَفَّاكَ بِهَذَا مِنْ قَوْلِي عَقُوبَةً. وَإِنْ عُذْتُ
سَمِعْتَ أَكْثَرَ مِنْهُ. وَالسَّلَامُ».

ثُمَّ حَدَّثَ أَنَّ حَامِتَ حَوْلَ ابْنِ الْمَدْبَرِ الشَّبَهَاتِ فِي بَعْضِ تَصَرُّفَاتِهِ
الدِّيَوَانِيَّةِ، فَقَبِضَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى بْنُ خَاقَانَ وَحَبَسَهُ. وَكَتَبَ ابْنُ الْمَدْبَرِ
إِلَى عَرِيبَ مِنَ السَّجْنِ يَشْكُو حَالَهُ:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو وَخَشْتِي وَتَفْجُعِي وَيُعَذُّ الْمَدَى بَيْنِي وَبَيْنَ عَرِيبٍ
مَضَى دُونَهَا شَهْرٌ إِنْ لَمْ أَحْلُ فِيهِمَا بَعِيشٌ، وَلَا مِنْ قَرِيبِهَا بِنَصِيبٍ
وَإِنْ حَبِيباً لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ حَقِيقٌ بِأَنْ يُفْلَدَى بِكُلِّ حَبِيبٍ

وَرِغْمَ أَنْ عَرِيبَ وَقْتُ الْقَبْضِ عَلَيْهِ كَانَتْ غَاضِبَةً مِنْهُ مَقَاطَعَةً لَهُ بِسَبَبِ
الْجَارِيَةِ «نَبْت»، فَقَدْ سَمِعَتْ لَدَى الْمُتَوَكَّلِ حَتَّى يَفْرَجَ عَنْهُ. وَكَتَبَتْ إِلَيْهِ كِتَاباً
تَشْوِيقَهُ وَتَخْبِيرَهُ اسْتِيحَاشَهَا لَهُ وَاهْتِمَامَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَنَّ الْخَلِيفَةَ وَعْدَهَا مَا تَحِبُّ.

فأجابها عن كتابها، وكتب في آخر الخطاب:

لعمرك ما صوتٌ بديعٌ لمُعبدٍ بأحسنٍ عندي من كتابٍ عريبٍ
تأملت في أثنائه خطَّ كاتبٍ ورِقّةً مشتاقٍ ولفظَ خطيبٍ
وراجعني من وصلها ما استفزني وزهدني في وصل كل حبيبٍ
فصرت لها عبداً مُقراً بملكوها ومستمسكاً من ودها بنصيبٍ

واستأنف ابن المدبر صلته بعريب بعد عفو المتوكل عنه، غير أنه استأنف كذلك صلته بنبت وعاد إلى التّغزل فيها. وقد أصبح في عهد المعتمد وزيراً، ومات بعد وفاة عريب بفترة قصيرة.

السنوات الأخيرة:

قُتل المتوكل عام ٨٤٧م وعريب في الرابعة والستين من العمر. وقد عاشت بعده نحواً من ثلاثين عاماً شهدت خلالها عهود خمس آخرين من الخلفاء لا نعرف صلتها بأيّ منهم خلاف المعتز الذي كانت تغني له وقد جاوزت السبعين، والذي ذكرت أنها كانت تعشقه في شبابها. وهي مع تقدمها في السن لم تنقطع عن غشيان مجالس الأمراء والشعراء والعشاق، تغنيهم وتشاركهم لهوهم.

يروى أحمد بن الفرات أنه كان يوماً عند جعفر بن المأمون وأصحابه يشربون وعريب حاضرة، إذ غنى بعض من كان هناك:

يا بدر إنك قد كُست مُشابهاً من وجه ذاك المستنير اللائح
وأراك تذهبُ بالمحاق، وحُسنها باقٍ على الأيام ليس ببارح

فضحكت عريب وصفت وقالت:

— ما على وجه الأرض أحدٌ يعرف خبر هذا الصوت غيري.

فسألها ابن الفرات عنه، فقالت:

— أنا أخبركم بقصته، ولولا أن صاحب القصة قد مات لَمَا أخبرتكم. إن أبا مُحَلِّم قدم بغداد فنزل في خان هناك. فاطلعت أم محمد ابنة صالح يوماً فرأته فأعجبها، وأحبت مواصلته، فجعلت لذلك عِلَّةً بأن وَجَّهَتْ إليه تقترض منه مالاً. فبعث إليها عشرة آلاف درهم، وحلف أنه لو ملك غيرها لبعث به، فاستحسنت ذلك وواصلته، فكانت تُدخله إليها ليلاً، وكنتُ أنا أغنيّ لهما. فشربنا ليلة في القمر، وجعل أبو مُحَلِّم ينظر إليها، ثم دعا بدواة ورقعة وكتب فيها:

يا بدر إنك قد كُستِ مشابهاً من وجه أم محمد ابنة صالح
والبيت الآخر. وقال لي: غني فيه. ففعلتُ. واستحسنه وشربنا عليه.
فقلت لي أم محمد في آخر المجلس:

— يا أختي، قد أحسنت في هذا الشعر، إلا أنه سيبقى عليّ فضيحة آخر
الدهر.

فقال أبو مُحَلِّم: أغَيِّره.

فجعل مكان أم محمد ابنة صالح «ذاك المستنير اللائح». وغَيَّيته كما
غَيَّره، وأخذته الناس عني. ولو كانت أم محمد حيَّة لما أخبرتكم بالخبر.

ويروي عليّ بن محمد بن الفرات:

كنت يوماً عند أخي أبي العباس وعنده عريب جالسة على دست مفرد
لها، وجوارها يغنين بين يدينا وخلف ستارتنا. فهمسْتُ لبعض الحاضرين:
تُرى كيف شهوتُها الساعة؟ فضحك. ولمحته عريب، فقالت:

— أيّ شيء قلتم؟

فسكت. فقالت لجوارها:

— أمسيكن! ففعلن. فقالت:

— هن حرائر لئن لم تخبراني بما قلتما لينصرفن جميعاً، وهن حرائر إن غضبتُ من شيء قلتماه مهما كان.

فأعدتُ عليها ما قلتُ. فقالت:

— وأي شيء في هذا؟ أما الشهوة فبحالها، ولكن الآلة قد بطلت.

ثم قالت:

— عودوا إلى ما كنتم فيه.

وغضبت عريب يوماً على بعض جواربها، فجاء إليها أبو العُبَيْس يسألها أن تعفو عنها. فقالت وهي تعدُّ عليها ذنوبها:

— يا أبا العُبَيْس، إن كنتَ تشتهي أن ترى زنايَ وصفاقة وجهي وجراءتي على كل عظيمة أيام شبابي، فانظر إلى هذه الجارية واعرف أخبارها!
وتوفيت عريب في سامراء سنة ٨٩٠ م عن ثلاث وتسعين سنة.

مكانتها في الغناء:

أمر المعتمد يحيى بن علي بجمع غناء عريب الذي صنعتَه، فُجِّمَت دفاترها وصحفها التي كانت قد دَوَّنت فيها غناءها فإذا هو ألف صوت. وقال بعضهم: بل كان ألفاً ومائة وخمسة وعشرين صوتاً.

وقد عاب عليها أبو عبد الله الهشامي أن الألف صوت كان في معنى واحد، ومن ثمَّ فإنه بمنزلة صوت واحد. غير أن الهشامي كان متحاملاً عليها لسبب دعاه إلى ظلمه إياها وغمطها ما تستحقه من التفضيل. فقد دخل مرة على المعتز وهو يشرب وعريب تغني. فلما أمره المعتز بالغناء أجاب بأنه قد تاب من الغناء مُدَّ قُتِل سيده المتوكل. فقالت له عريب:

— قد والله أحسنتَ حيث بُتِّتَ، فإن غناءك كان قليل المعنى، لا مُتَقَنَّ ولا صحيح ولا مُطَرَّب!

فأضحكت أهل المجلس جميعاً منه وخجل. فكان بعد ذلك يُسقط لسانه فيها ويعيب صنعتها.

ويجيب أبو الفرج الإصفهاني في «كتاب الأغاني» على زعم الهشامي فيقول إنه تحامل لا يجمل، «ولعمري إن في صنعتها لأشياء مرذولة لئنة، وليس ذلك مما يضعها، ولا عري كبير أحد من المغنين القدماء والمتأخرين من أن يكون في صنعته النادر والمتوسط، سوى قوم معدودين مثل ابن محرز ومُعبد من القدماء، ومثل إسحاق وحده في المتأخرين. وهذا إسحاق يقول في أبيه، على عظيم محلّه في هذه الصناعة وما كان إسحاق يُشيد به من ذكره وتفضيله على ابن جامع وغيره - «ولأبي ستمائة صوت، منها مائتان تشبه فيها بالقديم وأتى بها في نهاية من الجودة، ومائتان غناء وسط مثل أغاني سائر الناس، ومائتان تافهة ويدت أنه لم يُظهرها وينسبها لنفسه فاسترّها عليه! فإذا كان هذا قول إسحاق في أبيه فمن يعتذر بعده من أن يكون له جيّد ورديء... وحسب المحتج لعريب شهادة إسحاق بتفضيلها، وكلّما شهد لأحد أو سلم خلُق وإن تقدّم وأجمع على فضله من شئنه إياه وطعنه عليه، لتمكّنه من هذه الصناعة واستصغاره أهلها».

وروي أن أبا العباس بن حمدون جلس يوماً بعد وفاة عريب مع جحظة المغني يتحدثان عنها. فقال ابن حمدون:

— ما خلّفت عريبُ بعدها امرأةً مثلها في الغناء والرواية والصنعة.

فأجابه جحظة بقوله:

— لا، ولا كثيراً من الرجال أيضاً.

التطرف الديني في الجزائر

تقدمة :

بدأت تظهر في الجزائر، منذ وفاة الرئيس بومدين، جماعات سياسية معارضة للنظام الحاكم، أخطرها وأكبرها الجماعات الإسلامية المتطرفة، فأتباع الرئيس الأسبق أحمد بن بيلال؛ فالمنظمة الاشتراكية للعمال (OST)، فالتنظيم النسائي المناصر لحرية المرأة (الذي ساءه أن تعضد الحكومة قانون الأحوال الشخصية الرجعي؛ وأن يرى تزايد تأثير رجال الدين في الحياة العائلية والحياة الاجتماعية في الجزائر)، ثم قبائل البربر الساخطة على خطة التعريب التي تنتهجها السلطات، وعلى سعي الحكومة الدائب إلى إحكام وتنمية روابط الجزائر بالعالم العربي، والثقافة العربية.

غير أنه بالرغم من تزايد نشاط هذه الجماعات المعارضة في الداخل، وأنسام بعض أوجه هذا النشاط بالحدة والعنف المفرطين، فإنها لم تتبلور حتى الآن في صورة قوة سياسية محكمة التنظيم. ولعل أبرز أسباب ذلك هو الافتقار إلى زعامات لها وزنها واحترامها في صفوف الجماهير. فإن كان بن بيلال هو أشهر زعيم معارض، فالواضح أن آراءه لا تتمتع بحظوة ملموسة لدى الشعب الجزائري. وقد حاول بن بيلال بعد أن أفرج عنه الشاذلي بن جديد عام 1980، ومنذ هجرته إلى أوروبا، تنظيم معارضة للنظام القائم، دشنها في 20 مايو 1984، وأسماها بالحركة الداعية إلى الديمقراطية في الجزائر (MDA)،

داعياً كافة جماعات المعارضة إلى التوحد في إطار «جبهة ديمقراطية» تعمل من أجل إحلال نظام ديمقراطي متعدد الأحزاب محل النظام «الفاشي» الراهن. بيد أنه ما من أحد كان بوسعه أن يفهم ما يرمي إليه بن بيللا بالضبط، وهو الذي نراه تارة ينادي بديموقراطية ليبرالية، وتارة بحكم ثيوقراطي فاشي وإسلامية رجعية، وتارة بما هو بين هذه وتلك. وبالرغم من أن السلطات الجزائرية ترقب نشاطه ونشاط أتباعه بقلق بالغ، فالواضح لنا أنهم لا يشكّلون تهديداً حقيقياً للنظام، وأنهم أجدر بالاستخفاف والسخرية منهم بالاهتمام.

فأما عن السمات المشتركة التي تجمع بين هذه الجماعات المعارضة عدا الجماعات الإسلامية - فهي :

- * أنها تمثل الماضي أكثر مما تمثل الحاضر والمستقبل.
- * أنها لا تحظى بتأييد سياسي كبير من جانب المثقفين والصفوة.
- * أنها تعكس آراء أفراد ذوي أحقاد شخصية لا اتجاهات شعبية عريضة.
- * أنها لا تملك من الموارد والامكانات ما يؤهلها لمواجهة فعالة مع النظام القائم.

أما عن الفريق الذي يشكل بالفعل خطراً حقيقياً على النظام، فيشمل أفراد تلك الطبقة الضخمة من الشباب من أنصاف المتعلمين، وذوي الكفاءات المهنية المحدودة، ممن لا يعرف من اللغات غير العربية، وتكبّل خطاهم الروابط التقليدية والدينية، ويجدون مشقة بالغة في الالتحاق بعمل في المدن التي باتت تغصّ بهم. هذه الجماعات من الشباب هي أكثر الجماعات الجزائرية استعداداً للإذعان نفسياً للدعايات الإسلامية المتطرفة. فحيث أنه لا المثل الرأسمالية ولا النظرية الشيوعية لها رونق وجاذبية في أعين هؤلاء، فقد كان من السهل أن يشيع بينهم الاعتقاد بأن الثورة الإسلامية وحدها هي الكفيلة بأن تخفف عنهم عبء العزلة الاجتماعية التي يعيشون فيها.

الإسلام في الجزائر :

خلال سني الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830-1962)، وخاصة في سني الكفاح المسلح ضد هذا الاستعمار في السنوات الثماني الأخيرة منه، كان الجزائريون يجدون في العقيدة الإسلامية ملاذاً ومصدراً يزودهم بالقوة والهوية، ويعينهم على الوحدة والتلاحم.. كان الإسلام هو لغة الرفض للاستبداد الفرنسي، ورمزاً لإرادة تأكيد الذات في مواجهة قوة استعمارية تهدف صراحة إلى زعزعة المعتقدات والأنظمة والتقاليد المحلية بحجة «نشر المدنية والتحضّر»، وتعمل على إحلال المسيحية واللغة الفرنسية محل الإسلام واللغة العربية. وإذا كان ردّ الفعل العنيف لسياسة استعمارية عنيفة هو التركيز على الروابط القوية التي تربط الجزائر بالثقافة الإسلامية وبالعالم العربي، فليس من المستغرب أن نجد الإسلام وقد أضحي جزءاً لا يتجزأ من مفهوم القومية الجزائرية.

وقد كان من رأى السلطات الجزائرية عقب الاستقلال عن فرنسا عام 1962، أن الإسلام ينبغي أن يلعب دوره الهام في تحديد هوية الشعب، غير أنه لا ينبغي أن يسمح لرجال الدين أو السلطات الدينية أن يكونوا مركز قوة مستقل بمعزل عن أهداف الحزب والحكومة والجيش. بل إنه حتى في سني الثورة، وخلال لقاء بين جمال عبد الناصر وبين بيل عام 1957، استجاب الأول لطلب الثاني أن يحتجز في القاهرة عدداً من أعضاء وفد من رجال الدين الجزائريين (ومن بينهم الشيخ بشير الإبراهيمي والد وزير الخارجية الحالي)، جاؤوا إلى مصر يطلبون المساعدة للثورة الجزائرية، وأن يحول بينهم وبين العودة إلى بلادهم حيث ينشرون دعوتهم الإسلامية.. وقد كان بومدين نفسه رجلاً صادق الإيمان، حريصاً على دعم ثقافة قومية تقليدية عمادها الدين. بيد أنه في نفس الوقت، ألحق وزارة الشؤون الدينية إلحاقاً مباشراً برئاسة الجمهورية، ليضمن تعاون «الإسلام الرسمي» مع ثورته الثقافية، وأيديولوجيته

الإشترائية، ومساندة دعوته إلى التمدن السريع، والتركيز على التصنيع. وقد بدأ أن هذه الخطة قد نجحت لمدة تقرب من عشرين عاماً. غير أنه مع نهاية السبعينات وبوفاة بومدين واتجاه الشاذلي بن جديد إلى إحكام رقابة السلطة على النشاط الديني في البلاد، وإلى احتوائه والتحكم فيه، بدأت في الظهور معالم توتر واصطدام حادين بين «الإسلام الرسمي» وإسلام شعبي يناادي بإقامة حكم ديني خالص، وتطبيق شامل لأحكام الشريعة.

الإسلام الرسمي

منذ بداية القرن العشرين، شارك عدد كبير من علماء الإسلام الموقرين (من أمثال عبد الحميد بن باديس وبشير الإبراهيمي)، في الدعوة إلى مقاومة الآثار الحضارية للاستعمار الفرنسي، وفي تعبئة الرأي العام من أجل حماية الدين والتراث واللغة العربية والتقاليد الإسلامية. غير أن هؤلاء، وقد كانوا أكثر اهتماماً بالثقافة والتعليم منهم بنيل الاستقلال السياسي، وأكثر ميلاً إلى التطور التدريجي منهم إلى الطفرة الثورية بدأوا مع أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات يفقدون زعامتهم لحركة التحرير الوطني الناهضة لصالح قادة سياسيين علمانيين، حتى مع اعتراف هؤلاء الأخيرين بأهمية دور الإسلام سواء في مجال الكفاح ضد الاستعمار، أو في تكييف المجتمع والثقافة الجزائريين. وقد أضحى «الإسلام العلماني»، شعار السلطة منذ الاستقلال، ووصفت حكومة بومدين نفسها بأنها «الوريث الشرعي الوحيد لعبد الحميد بن باديس»، وأخضعت تلك الحكومة الدين كما أخضعت كل مظاهر الحياة الأخرى، لرقابة مباشرة وكاملة من جانب سلطات الدولة المركزية، ولم تسمح بممارسة أي نشاط قيادي ديني غير نشاط المسؤولين من علماء الدين. أو على حدّ تعبير الشاذلي بن جديد «إننا لن نسمح للجماعات الدينية غير المشروعة بأن تعلمنا ديننا، أو تعطينا دروساً في الإسلام».

ومفهوم السلطات عن الدين هو أن الإسلام أداة فعالة في تشكيل الهوية

الجزائرية، غير أنه ليس تشريعاً قانونياً ينظم أمور الدولة والمجتمع. فإن كانت المادة الثانية من الدستور تنصّ على أن الإسلام هو دين الدولة، فإن مادته الأولى تنصّ على أن الجزائر دولة اشتراكية (أي علمانية وثورية). وحصول هذه وتلك هي أن الدولة دولة علمانية ذات مقومات إسلامية حضارية. أما الشريعة التي أغفل تطبيقها تماماً في زمن الاستعمار الفرنسي، فلم ير الحكام الجزائريون بعد الاستقلال حاجة أو داعياً إلى إحيائها من أجل تنظيم المجتمع الجديد.

وفي رأي السلطة، كما في رأي فقهاء السلطة، أنه من الممكن الجمع بين التمدن والإسلام، وأن الحكومة هي وحدها القادرة على خدمة الإثنين معاً. وقد أنشئت وزارة للشؤون الدينية (تابعة، كما قلنا، لرئاسة الجمهورية)، وزيرها هو المتحدث الرسمي عن الدولة فيما يختص بالممارسات الإسلامية والعقيدة، ولها سلطة تعيين وفصل رجال الدين، وإدارة المدارس الدينية وغيرها من مراكز الدراسات الإسلامية، والرقابة على الأوقاف والمساجد، وعلى ما يُنشر من الكتب الدينية، وما يُلقَى من خطب في كافة مساجد الدولة أيام الجمعة. واختصاراً، فإن مهمتها هي ضمان ألا تخرج أمور الدين إلى أيدي القوى المعادية للنظام القائم وسياساته العلمانية.

الجماعات الإسلامية المتطرفة:

مثل هذه السياسة التي ينتهجها «الإسلام الرسمي» ارتأى بعض الجماعات من السانخطين وأصحاب المظالم الاقتصادية والاجتماعية أنها لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تسدّ احتياجاتهم الروحية، ولا تسعى إلا إلى خدمة النظام لا خدمة الإسلام، وتعزيز الهوية القومية للجزائريين لا تعزيز الإيمان. وقد أحلّت هذه الجماعات فكرة «الإسلام المناضل»، محل «الإسلام المؤمّم»، الذي يحاول دون جدوى إقناع الجماهير بإخلاصه حين يذهب إلى اتفاق التمدّن مع الدين، والإيمان بالاشتراكية مع الإيمان بالله.

وقد كان لثورة إيران عام 1979 تأثيرها العميق في نفوس الجزائريين كما في نفوس غيرهم من شعوب الدول الإسلامية. . غير أن ثمة اعتبارات محلية معينة لا شك في أنها ساهمت في نمو التطرف الديني بالجزائر: ذلك أنه لا المبدأ الاشتراكي، ولا «الإسلام الرسمي» هياً الراحة والعزاء النفسين لشعب يعاني معاناة قاسية من آثار التغيير الاجتماعي السريع، بما فيها من توترات وتفكك في العلاقات وتفسخ في القيم والتقاليد، ويشعر شعوراً قوياً بالإحباط والسخط إزاء التضحيات التي يطالب ببذلها في سبيل التمدن والتنمية. وقد حرص المتطرفون منذ البداية على تأكيد رفضهم القاطع للمفاهيم والقيم الغربية، ولأي تنازل للعقلانية الأوروبية، أو شعارات الاشتراكية. وعندهم أن كافة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية هي في جوهرها مشكلات أخلاقية، وأن الشرط الأساسي لإرساء دعائم مجتمع إسلامي سليم وقوي، وإقامة المدينة الفاضلة والدولة المثالية، هو الإيمان بالله من قبل شعب قوي الخلق والنزعات، صادق العزم على العيش وفق مبادئ الإسلام التي أوردتها القرآن والسنة، وعلى أن تدبر الشريعة كل مظاهر حياته بصورة مباشرة وشاملة.

وقد اكتسحت دعوة هذه الجماعات المدن الجزائرية منذ نهاية السبعينات، وتولى تدبيرها نوع من التنظيم وبعض الزعامات، تركّز نشاطهما على الدعوة إلى أمور مثل: عودة النساء إلى الحجاب، والإقبال على الصلاة في المساجد، ومنع بيع الخمور وتقديمها في الأماكن العامة، والتوسع في التعليم الديني في المدارس، والإسراع في تنفيذ برامج التعريب، وزيادة عدد الساعات التي تخصصها الإذاعة والتلفزيون للبرامج الدينية.

وكان أن لقيت الدعوة نجاحاً كبيراً في الجامعات على الأخص، حيث تميز نشاط الطلاب الإسلاميين بالحدة والعنف، وبصدّامات متكررة مع الطلبة اليساريين راحت ضحيتها أرواح الكثيرين. وعلى سبيل المثال هاجم الإسلاميون في عامي 1979 و1980 جماعات الماركسيين وجمعيات البربر في الجامعات، واعتدوا بالضرب على الطالبات المرتديات للزّي الأوروبي، كما

شجعهم نجاح سياسة التخويف والإرهاب والإرغام التي يتتبعونها داخل الحرم الجامعي على البدء في تنظيم مظاهرات خارج الجامعة، أحرقوا ودمروا خلالها عدداً كبيراً من الفنادق والمقاهي والمطاعم التي تقدم المشروبات الكحولية.

كذلك فقد أزعج الحكومة بصفة خاصة تزايد عدد المساجد غير المرخص بإنشائها وغير الخاضعة لرقابة وزارة الشؤون الدينية، وهي مساجد يتناول فيها أئمتها السلطة وسياستها الاشتراكية بالانتقاد والطعن الصريحين، والسخرية من دعوى رجالها بأن «الإسلام أيديولوجيتنا». وقد بلغ بالمتطرفين الأمر حدّ طرد أئمة المساجد المعيّنين من قبل الحكومة وأحلّوا مكانهم أئمة من بين رجالهم. كما أدت محاولة قامت بها الشرطة في أكتوبر 1981 في مدينة الأغواط شماليّ غرب الجزائر لإغلاق مسجد غير مرخص بإنشائه وتحطّي خطب الإمامه بشعبية كبيرة، إلى صدام دموي، واعتداء وحشيّ على الشرطة.

وفي نوفمبر 1982 قام الطلبة الإسلاميون في جامعة الجزائر (داخل مبانيها وخارجها) بتوزيع منشورات وكتيبات تدعو إلى وضع حدّ صارم للتأثيرات الغربية في المجتمع الجزائري، وتطالب بإقامة حكومة إسلامية، وإلغاء الميثاق الوطني الصادر عام 1976 (وهو المعبر عن أيديولوجية الدولة)، وبأن يحلّ القرآن محل هذا الميثاق العلماني أساساً لبيان معالم الحياة الاقتصادية والفكرية للأمة، وبإلغاء التعليم المختلط، وحظر مواصلة الفتيات لتعليمهن بالمدارس بعد سن الثانية عشرة.

وتنتهج الجماعات الإسلامية في سبيل نشر فكرها وفرضه سبيل الوعظ والإرشاد، وسبيل العنف المنظم في آنٍ واحد. ولا يقتصر العنف على اعتداءات فردية وغير منسّقة ضد أشخاص معينين أو طابقت في زيّ أوروبي. فقد بدأت تظهر الآن في المساحة اعتداءات جماعية محكمة التنظيم والتنسيق في سبيل تحقيق غايات ومقاصد تخدم فكر هذه الجماعات. وقد حدث في نوفمبر 1982 أن فاز الإسلاميون في انتخابات اتحاد الطلبة بجامعة الجزائر.

فلما شكك الطلبة الشيوعيون في سلامة هذه الانتخابات، حدثت اصدامات عنيفة بين الفريقين أسفرت عن مقتل طالب يساري وجرح الكثيرين، فاعتقلت الشرطة أكثر من أربعمائة من الإسلاميين، ما أن سري خبر اعتقالهم حتى تجمع في العاصمة نحو مائة ألف متظاهر بعد صلاة الجمعة يعصّدون الإسلاميين ويطالبون بالإفراج عن المعتقلين. وكان ردّ فعل السلطات هو الإلتجاء إلى سبل القمع العنيفة لهذه المظاهرة، تلتها بعد أيام قلائل تصريحات وقرارات تستهدف استرضاء الإسلاميين وتهذئة خواطرهم.

وقد كان من بين أخطر القيادات في الحركة الإسلامية المتطرفة، ضابط سابق في الجيش الجزائري يدعى مصطفى أبو علي، فصل في عهد بومدين بسبب اتجاهاه الدينية، وقام بعد ذلك بعدة عمليات إرهابية مثيرة، كتدبير هجوم على ثكنات الجيش في مدينة بوداواو بولاية بومرداس عام 1982 استولى خلاله على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة، ثم الهجوم عام 1985 على شركة للبناء تابعة للقوات المسلحة، وفي عام 1986 على كلية الشرطة في مدينة صومعة بولاية البليدة، ثم على إحدى المستشفيات التي استولى منها على كميات هائلة من الأدوية. وقد لقي مصطفى أبو علي هذا حتفه هو وستة من أتباعه بالقرب من العاصمة في معركة مع قوات الأمن في أوائل عام 1987 استخدمت خلالها الأسلحة الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية.

فإن صرفنا النظر عن الممارسات اليومية العادية لأفراد الجماعات المتطرفة، (كتبرع بعض زوجاتهم بمجوهراتهم مساهمة منهن في تمويل الجماعات)، أو التهديدات المتكررة بقتل المخالفين في العقيدة، كما حدث مؤخراً مع مخرج وممثل فيلم «حورية» الذي يصوّر معاناة المرأة الجزائرية في مجتمع رجعي متخلف، يصر على حرمانها من أبسط الحقوق، وكذا ممثلة الفيلم التي اتهمت بالكفر والخروج عن أصول الدين لمجرد قبولها تمثيل الدور)، وجدنا المظهر الأخطر لنشاط هذه الجماعات يتمثل في تلك الأحداث

من الشعب المصحوبة بأعمال التخريب، كذلك التي وقعت في ديسمبر 1986 في مدينة قسنطينية، وقام فيها بدور بارز طلبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية التي كان من أبرز أهداف إنشائها عام 1984 بث مفهوم عن الإسلام معتدل مستنير تقاوم به الدولة المفاهيم المتطرفة، والتي تستعين بخبرات بعض علماء الدين العرب المعروفين باعتدالهم، كالشيخ محمد الغزالي الذي عين أستاذاً بها، والذي أفسح للتليفزيون والإذاعة وقتاً لحديث ديني يلقى فيه فيهما مرة كل أسبوع.

وقد كان هذا الاشتراك من جانب طلبة الجامعة الإسلامية في اضطرابات قسنطينية الدامية، هو ما حدا بالبعض إلى التشكك في حكمة تشجيع تيار إسلامي مستنير معتدل، بدعوى أن مثل هذا التشجيع يخلق قاعدة عريضة من الإسلاميين سرعان ما ينتقل منها المعتدلون إلى التطرف متى ما لحقت بهم مظالم إجتماعية أو اقتصادية.

موقف الحكومة الجزائرية :

واجهت حكومة الشاذلي بن جديد إذن من مثل هذه الظواهر ما لم تواجهه حكومة بومدين قط. وقد كانت سياسة الشاذلي في البداية هي السماح للرأي العام بقدر أكبر مما كان يسمح به سلفه من سبيل التعبير بصدد مختلف الموضوعات والمشكلات. غير أنه سرعان ما أدرك إزاء ازدياد العنف وتعاضم خطر الجماعات الإسلامية، ودعوة بعض أئمة المساجد إلى الإطاحة بالقوة بحكمه «الوثني»، أنه لا مفر من اللجوء إلى سياسة حازمة حاسمة من المواجهة السريعة للعنف بالعنف، وإلى حملات واسعة النطاق من الاعتقالات لأفراد هذه الجماعات التي وصفها «بعضبات المجرمين والمهيّجين اللذين تساعدون دول أجنبية معادية للجزائر في محاولاتهم لتقويض النظام العام». وقد ذكر أن حملات الشرطة قد كشفت خلال النصف الأول من عام 1987 عن حيازة تنظيمات غير مشروعة لكميات ضخمة من المفرقات والأسلحة، كانت تنوي

استخدامها في محاولتها قلب نظام الحكم، مما برّر بعد ذلك اعتقال المثات من المتطرفين، ومحاكمتهم أمام محكمة أمن الدولة التي أصدرت في 10 يوليو 1987 أحكامها بالسجن على مائة وأربعة وثمانين شخصاً وإعدام ثلاثة.

وبالرغم من استمرار هذه الحملات والاعتقالات والمحاكمات الهادفة إلى استئصال كافة بوّار الإسلاميين في المدن الجزائرية، فقد بدا واضحاً للسلطة أن العنف وحده لا يكفي، خاصة وقد تزايدت احتجاجات المنظمات الدولية ضد «انتهاك حقوق الإنسان» في الجزائر، واستمرار حبس المتهمين دون تقديمهم إلى المحاكمة، وتبين أن نفوذ الجماعات الإسلامية قد تعدّى الجامعات إلى المدارس والمصانع والمعاهد الدينية والإدارات الحكومية ذاتها وسائر المهن والحرف في المدن. وقد وصلت الحكومة إلى اقتناع بأنه إلى جانب الردع والاعتقال، لا بدّ من اللجوء أيضاً إلى سياسة موازية من المصالحة والمهادنة والتهدئة. وكثيراً ما تبدأ السلطة بقمع الاضطرابات وتفارقة المظاهرات بأقصى درجات القوة والعنف، ثم يعقب ذلك تلبية معظم المطالب والتنازلات عند عودة الهدوء. فبعد انتهاء مظاهرات الطلبة، يتجه النظام عادة إلى منح الطلبة حقوقاً أوسع في توجيه السياسات الجامعية، ووعدهم بتوفير فرص العمل لهم في القطاع العام بعد تخرجهم. وبعد اعتقال المضربين من العمال وسجن قادتهم، يأتي رفع أجورهم والاستجابة لعدد متتقى من الانتقادات والمطالب.

كذلك تحاول الحكومة انتزاع المبادرة الإسلامية من أيدي المتطرفين والخطباء الشيعيين من المشايخ. وبالتالي فقد كثر استخدام رجال السلطة للتعبير الدينية، واقتباساتهم في خطبهم وتصريحاتهم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتركيزهم على أن «القرآن منبع حضارتنا وأسلوب عيشنا». . . غير أن الأهم من ذلك إقدام الحكومة على التوسع في إنشاء شبكة قومية من المعاهد الإسلامية ومراكز إعداد وتدريب أئمة المساجد ورجال الدين، بعد أن ظهرت بجلاء عواقب التقدير السابق في الإنفاق على هذا التدريب، ومنها أن أكثر من ثلاثة آلاف إمام من أئمة المساجد البالغ عددهم

نحو خمسة آلاف. كانوا حتى وقت قريب من الأميين الجهلة بأمور الدنيا والدين. وقد زاد الآن عدد مراكز تعليم القرآن، وزاد الإنفاق عليها، وشجعت الحكومة الشباب على الالتحاق بوظائف الأئمة مكان الشيوخ الأميين. ثم جاء متوجاً لكل هذا تأسيس جامعة الأمير عبد القادر التي ذكرناها والتي وُصفت مهمتها بأنها «ربط التعليم الديني بصورة أوثق بواقع المجتمع واحتياجاته، سواء في المجالات الدنيوية أو الروحية أو الفكرية».

والواضح الآن أن الحكومة تستهدف بصفة أساسية ضمان الحيولة بين الأئمة غير المعيّنين من قبلها وبين إلقاء خطب معادية لها في مساجد غير مرخص بإقامتها. وقد بات الآن من مستلزمات تعيين الإمام الحصول على شهادة من معهد ديني. كما تدأب الحكومة على استضافة وتنظيم ندوات ومؤتمرات قومية سنوية حول موضوعات إسلامية، وعلى إصدار المجلات الدينية، والتوسع في البرامج الدينية في كل من الإذاعة والتليفزيون.

ومع كل تلك الإجراءات والسياسات الجديدة لحكومة الشاذلي بن جديد في المجال الديني، فإن هذه الحكومة تدرك جيداً في قرارة نفسها أن المفاهيم الإسلامية لم يعد بالإمكان إبقاؤها حكراً على أجهزة الدولة، خاصة ما بقيت المشكلات الاجتماعية والاقتصادية قائمة دون حل، وما دام التوتر الحضاري، وتصارع الثقافات، يهزّان المجتمع الجزائري من جذوره. كذلك فهي تدرك أن هذه المفاهيم الإسلامية والتعابير الدينية الخطابية هي سلاح ذو حدين، وأداة يمكن للساخطين استعمالها لإذكاء التمرد والعصيان، وللحكومة استخدامها لحث الرعية على طاعة السلطان.

عناصر التوتر في المجتمع الجزائري التي تساعد على
نمو الاتجاهات الدينية المتطرفة

ربما كان المجتمع الجزائري من أكثر المجتمعات في العالم تعرضاً في حياته اليومية لمختلف أسباب التوتر والمتناقضات، والصراعات الخفية

والصريحة، وهو ما نجم عن ثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: حكم استعماري دام 132 عاماً حاول المستعمر أثناءها جاهداً، وبدرجة كبيرة من النجاح، أن يجتث اجتثاثاً الجذور الحضارية للأمة، من لغة ودين وتراث وهوية وتقاليده وانتماءات.

والثاني: ثماني سنوات من الجهاد الثوري وحرب التحرير ضد الفرنسيين، استشهد فيها نحو مليون ونصف مليون نسمة، وكان الإسلام خلالها إحدى الوسائل الرئيسية لتعبئة الطاقات، واستثارة الهمم، وتوحيد الصفوف، ثم إذا هي وقد تلاها إقامة نظام علماني لا يلعب في الإسلام دوراً أكثر من المساعدة على تعزيز الهوية الجزائرية.

والثالث: سنوات طويلة من سياسة التصنيع الثقيل والسريع في عهد بومدين ساعدت على انحسار التقاليد والقيم الموروثة، وتفكك الأسر والقبائل، واندثار تضامنها ومشاعر ولاء الأفراد لها، وإهمال الزراعة، وتزايد الهجرة من الريف إلى المدن التي غصّت بالعاطلين، مما هدد الجزائريين بانتزاع جذورهم، والمجتمع الجزائري ذاته بالتحلل، حتى بدت العقيدة الدينية وحدها القادرة على الحيلولة دون ذلك، خاصة وقد فشلت الأيديولوجيا الاشتراكية التي تبناها الدولة في إثارة الحماس لها، والإيمان بها.

غير أنه مع هذا الاعتقاد المتزايد لدى حشود الساخطين والعاطلين والفقراء المشردين، والنازحين من الريف إلى المدن، بأن الإسلام هو الحل، وفيه يكمن الخلاص والأمل في انصلاح الأمور، نلمس عدداً من المفارقات:

فغالبية أنصار الجماعات المتطرفة - كما ذكرناهم ممن لا يتمتعون بكفاءة

أو مهارة مهنية تيسر لهم الخروج من مأزق البطالة . وهم على جهل تام بأية لغة أجنبية ، ومع ذلك فإن جهلهم بالعربية ذاتها ليس بأهون خطراً . وضعفهم هذا في العربية لا يعينهم على فهم القرآن ، أو القراءة في كتب الدين للتعرف على تعاليمه . وبالتالي أضحي من السهل على المغرضين من رؤساء الجماعات استخدامهم أداة طيعة في أيديهم ، وتلقين أية فكرة يريدون تلقينها لهؤلاء السذج .

ثم إن الشعب الجزائري بطبيعته من أقل الشعوب الإسلامية حرصاً على إلزام نفسه بأداء الفروض الدينية . فالقليلون مثلاً هم الذين يؤدون الصلوات الخمس ، سواء في الريف أو المدن ، ويستعيضون عن هذه الفروض بواجبات أقل شأنًا ، كالامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، ولبس المرأة للحجاب ، وأحياناً بطقوس وشعائر ذات جذور وثنية ، كالتردد على مزارات الأولياء ، وتقديس أحجار أو أشجار معينة يتبركون بها . . . ومع ذلك الجهل بالدين ، والاستخفاف ببعض فروضه الرئيسية ، والمعجز عن قراءة الكتب الأساسية فيه ، أو فهم القرآن ذاته ، والجهل بعلم العربية الذي هو الإسلام بعينه على حدّ تعبير أبي عمرو بن العلاء ، فبوسع هؤلاء إقناع أنفسهم بأنهم متى أطلقوا اللحى ولبسوا الجلباب ، قد أضحوا حماة الدين والقيمين عليه ، وبات من حقهم وصم النظام بالكفر ، ونسبة الضلال إلى غيرهم .

كذلك فقد تسبّب الاستعمار الفرنسي ، واستحواذ المواطنين الفرنسيين على أفضل الأراضي الزراعية في الجزائر وطردهم أصحابها منها ، ثم ما تبع ذلك من حرب الاستقلال والغارات الفرنسية الانتقامية التي أدت إلى تهجير الفلاحين قسراً ، وتدمير آلاف القرى ، وإحراق الغابات ، وقتل المواشي ؛ في تدفق جماعي رهيب الأبعاد من جانب الفلاحين ورجال القبائل على المدن ، دون أن تكون لديهم أدنى خبرات صناعية أو حرفية ، مخلفين وراءهم عائلاتهم أو قبائلهم التي كانت في الماضي تزوّدهم بإحساس من الأمن والدفع والتضامن .

وقد ساهم النظام الجزائري بعد الاستقلال في استفحال وطأة هذه الضغوط، ولم يبذل أدنى محاولة لتوفير البدائل المناسبة أو الحلول الكفيلة بإضفاء المعنى والغرض على الحياة الاجتماعية المعاصرة. وقد كان الهمّ الأول لهذا النظام هو التصنيع الثقيل والسريع، وفتح الأبواب في أقصر وقت أمام التكنولوجيا والمدنية الحديثتين، دون اعتبار لأنماط الحياة التقليدية، وهما أوجد الفرد العادي الجزائري في وضع المعلق بين عالمين متباينين لا يدري إلى أيهما ينتمي، ولا لمن هو مدين بالولاء. بل إنه حتى في المناطق الريفية أو الرعوية والنائية من البلاد، حيث كان محور حياة الفرد هو أسرته أو قبيلته، قد حلّ مكتب الحزب، أو مقر الشرطة، أو مركز العلاج الصحي أو المدرسة، محل القبيلة، وقضت هجرة الرجال إلى المدن على الترابط الأسري. وبالتالي فقد انحسرت، ثم انقرضت، المعايير التقليدية للسلوك والقيم والمعتقدات التي لم تعد قادرة على ضمان الولاء الكامل لها، دون أن تكون للتمدّن والحداثة القدرة على إشباع الاحتياجات الروحية والنفسية للشعب، وللشباب من أفراده بالخاص.

قد أصبح سكان المدن الآن يشكّلون نحو 55٪ من مجموع الجزائريين، تأتي في قمتهم قشرة نحيلة من المثقفين والتكنيين، تليها طبقة عريضة نسبياً من البورجوازية من أصحاب الحوانيت والمقاهي والموظفين والكتبة، ثم العمال الصناعيين وعمال البناء والأشغال العامة، ثم طبقة كبيرة من المتعطلين وأشباه المتعطلين من العمّال اليوميين، ممن يفضلون الحياة البائسة في المدن (حيث يوجد قدر من الأمل في الحصول يوماً ما على عمل) على الحياة البائسة في الريف (حيث لا أمل على الإطلاق في تحسن الأحوال). وإذ يتضاءل الأمل في حياة كريمة يوماً بعد يوم بسبب تأزم الاقتصاد الجزائري ومشكلاته المستفحلة وانخفاض سعر النفط، ويسبب التزايد الخطير في عدد السكان ونسبة المواليد (أكثر من 3٪ سنوياً، علماً بأن نحو 65٪ من مجموع السكان هم من الشباب الذين تقل أعمارهم عن 18 سنة)، فإن الخوف من المستقبل ومن البطالة، قد

اتسع نطاقه حتى بات يشمل طلبة الجامعات والمدارس أنفسهم (خاصة ممن يتلقون تعليماً عربياً صرفاً ويجهلون اللغات الأجنبية، وهم 25٪ من مجموع الطلبة)، ممن فقدوا الثقة في قدرة الدولة على توفير الأعمال لهم عند تخرجهم.

وكان من الطبيعي أن يُلقي كل هؤلاء السمع لأي انتهازي سياسي، أو مأجور من ليبيا أو إيران، يبت في روعهم أن الإطاحة بنظام الحكم، وإقامة دولة تطبق شريعة الله، من شأنهما حل كافة مشكلاتهم، وتوفير الحياة الرغدة لهم، معززين دعواهم بالإشارة إلى مظاهر الفساد في الدولة. وشيوع الرشوة بين موظفيها، والثراء الفاحش لدى كبار رجال الجيش والحكومة والحزب، وتبديد الأموال على قضايا لا تعنيهم في شيء كقضية البوليساريو. وانتشار الدعارة على كافة المستويات، وحظر النقد والمناقشة الفعالة لسياسات الحكومة خارج دائرة ضيقة من أفراد معدودين من رجال السلطة، وشدة وطأة المخابرات والشرطة، وتعاظم نفوذ الجيش وهيمنته على جميع مظاهر الحياة الجزائرية، وقصر الترقى إلى المناصب العليا على المعروفين بولائهم الخالص للنظام.

وقد سهّل على هؤلاء مهمتهم استفحال المشاكل التي لا حصر لها في الحياة اليومية للشعب: كالنقص الحاد في السلع الاستهلاكية، وبشاعة الخدمات الاجتماعية وحال المواصلات العامة، وغلاء الأسعار وعدم كفاية المؤن الغذائية، والأزمة الشديدة في المساكن، وتدهور الأحوال المعيشية في المدن وفي نوعية الحياة بوجه عام. وقد أدّى ازدياد تعداد السكان خاصة في المدن - إلى أن أصبح البيت الواحد من حجرتين يشغله عشرة أشخاص أو أكثر. وهو ما أسفر عن ظاهرة مخيفة تكاد أن تنفرد بها الجزائر، وهي منظر الآلاف من الشباب والصبية مجتمعين ليلاً ونهاراً في حلقات على أرصفة الشوارع تحت عواميد الإنارة، يلعبون الورق أو الدومينو، أو يتحدثون أو يتصافون على الأقباء مازحين، أو يحاولون تضييع الوقت بسرقة فوانيس السيارات، أو السطو على الشقق، إما عن كراهة للعودة إلى مساكن غاصة

بقاطينها، أو في انتظار دورهم ليحلّوا محلّ الإخوة أو الآباء في السرير لبضع ساعات.

فالنوادي الاجتماعية والرياضية هنا غير معروفة بالمرة، والمدارس لا يمكنها استيعاب كل هذه الأعداد الغفيرة والمتزايدة من الشباب، وهي التي أدّى ازدحام الفصول فيها بالفعل إلى تدهور سريع في مستوى التعليم، بدليل أن نحو 18 ألف طالب فقط هم الذين يجتازون امتحان البكالوريا من بين حوالي مائة ألف طالب. أما عن نسبة الأمية فهي أكثر من ستين في المائة، وهي أعلى من ذلك بكثير بالنسبة للنساء اللواتي يسوء وضعهن وتنقص حقوقهن يوماً بعد يوم، عكس الحال في المغرب وتونس. فالمجتمع الجزائري هو في المقام الأول مجتمع رجال، ولا تكاد النساء يرين خارج ديارهن بعد غروب الشمس، بل وإن مجرد سيرهن في الشوارع نهاراً لا يخلو من خطر التعرض لهن بالتعابير البذيئة أو اتهان أجسادهن بالعبث الغليظ من جانب الرجال، خاصة إن كن يرتدين الملابس الأوروبية، وهي ملابس توحى للرجال بأن صاحباتها على استعداد لتقبل أي شيء... وقد ثبت في عقول معظم هؤلاء الرجال أن تحرر المرأة يعني الانحلال الخلقي. وهذا هو السبب الرئيسي في لجوء الكثيرات هنا إلى ارتداء النقاب، على أمل حماية أنفسهن من تعرض الرجال، وكرمز لعدم رغبتهن في المغازلة.

وقد حاولت الحكومة منذ عام 1963 إصدار قانون أحوال شخصية يوفر قدراً أكبر من الحقوق للمرأة، ويحررها من القيود الثقيلة التي تكبلها. غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل نتيجة معارضة قوية من الإسلاميين والمحافظين، فإذا بمشروع قانون جديد للأحوال الشخصية تقدمه الحكومة في سبتمبر 1981 ويتّسم بأقصى درجة من الرجعية، مما أثار ثائرة النساء التقدميات فنظّمن المظاهرات أمام مبنى المجلس الشعبي الوطني في العاصمة. فلما حاولت الحكومة تعديله لإرضائهن هاج غضب الإسلاميين الذين لم يهدأوا حتى أقرت الجمعية في 9 يونيو 1984 قانوناً يرضيهم، قائماً على أساس الشريعة الإسلامية

في كل ما يتعلق بالزواج والطلاق وتعدد الزوجات والموارث والولاية .

خاتمة :

فإن كانت حرب التحرير قد خلقت نوعاً من التضامن والتقارب ووحدة الهدف بين طبقات الشعب، فقد جاء مع الاستقلال بمضي السنين تمزق وفرقة، وانقسم الجزائريون بصفة أساسية إلى فريقين: مثقفين وتكنيين برجماتيين، لا يأبهون كثيراً للسياسة، قد حلّوا في المناصب العليا في الدولة محل الوطنيين المتحمسين، وينهضون وحدهم بإدارة القطاع الصناعي والتجاري من الاقتصاد المؤمم، وجماهير ينمو نفودها تدريجياً من الطابع العلماني للدولة والثقافة الجزائرية، ويتزايد إقبالها على نصره الجماعات الإسلامية والانخراط في صفوفها، وكذا كراهيتها لأولئك التكنوقراطيين الذين أرادوا للجزائر أن تصبح بمثابة ألمانيا في القارة الإفريقية، وفشلوا فشلاً ذريعاً في تحسين الأحوال المعيشية لشعبها» .

هذا إلى أن تدهور مستوى التعليم مع التوسع فيه، قد أسفر عن تخرّج حشود من الشباب الذي لم يلقّن غير الأوليات والقشور، وهي قشور قد أفلحت في تعاطم مطامحه وتزايد احتياجاته المادية، وإن لم تفلح في جعله مؤهلاً لتحقيق هذه المطامح، وسدّ تلك الإحتياجات. وقد أضحت هذه الحشود من الشباب نصف الأميّ كالجنّي الذي أطلق من القمقم وبات من المحال إرجاعه إليه؛ ليس لدى النظام أوهى فكرة عن كيفية تعامله معه، والجهة الوحيدة التي لديها مثل هذه الفكرة، وأفكار أخرى عن كيفية استغلال هذا الجنّي لخدمة مصالحها الخاصة، هي قادة الجماعات الإسلامية المتطرفة .

التطرف الديني عند اليهود

كتب فولتير في معجمه الفلسفي تحت مادة «يهود» :

«... والخلاصة أن اليهود شعب جاهل غير متحضّر، يجمع بين أبشع ألوان الشرّ، وأفظع ضروب الخرافة، وأقوى صنوف الكراهية لكافة الأمم التي تتسامح معهم، وتتيح لهم فرصة الإثراء على حسابها. . . ومع ذلك، فليس ثمة مبرّر لإحراقهم!»

كان هذا هو موقف فلاسفة عصر الاستنارة السابق للثورة الفرنسية من المشكلة اليهودية: مهاجمة كافة الأديان بما فيها اليهودية، والدعوة إلى فلسفة إنسانية يستظلّ بها البشر أجمعين، وتحلّ محلّ الديانات المتصارعة التي تبذر بذور العداوة والفُرقة بينهم. وقد أخذ قادة ثورة ١٧٨٩ بهذا الرأي، ودعوا إلى دين جديد هو دين العقل، وإلى التسامح والمساواة، وشاركوا مشاركة إيجابية في مناقشات الجمعية الوطنية الفرنسية للمشكلة اليهودية، وهي مناقشات دامت قرابة عامين، وأسفرت عن توفير المساواة الكاملة بين اليهود وغيرهم من المواطنين. وقد اعترضت على هذا القرار قلة قليلة تزعمها الكاردينال موري، محتجة بأن اليهود «لن يصبحوا أبداً جزءاً من الشعب الفرنسي، وسيظلون دوماً دولة داخل دولة، وسيستغلّون حرياتهم الجديدة من أجل تعزيز قوتهم وموقفهم الانفصالي، وأنهم مهما أعطوا من حقوق، أو استُقبلوا بالموَدّة والترحاب، فلن يكونوا غير أقلية غير قابلة للاندماج». غير أن النصر كان حليف الاتجاه التقدمي

المؤيد للمساواة، والذي كان من رأيه أن العيوب الملموسة في اليهود إنما نجمت عن اضطهادهم وسوء معاملتهم على مدى قرون طويلة، وأنها زائلة لا محالة مع منحهم المساواة الكاملة.

الاندماج ثمناً للمساواة:

ومع أن قادة الثورة هاجموا المعارضين الكاثوليك لمبدأ مساواة اليهود بغيرهم في الحقوق والواجبات، ووصفهم بأنهم أعداء الثورة ومبادئها، فقد أوضح رويسبير على نحو قاطع أن الشعب الفرنسي ينتظر من اليهود أن يتخلّوا عن عزلتهم، وأن يصبحوا في المستقبل القريب جزءاً لا يتجزأ من الأمة.

وقد قبل معظم اليهود الفرنسيين هذا الشرط، وسارعوا في همة لإنهاء عزلتهم والاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، بل وناصر بعض الشباب منهم في حماس دين العقل الجديد، وهلّلوا لمبادئ الثورة.

ومع ذلك فقد كان من رأي نابليون عند تولّيه الحكم أن عملية الإندماج لا تتم بالسرعة المطلوبة. فدعا مجموعة كبيرة مختارة من اليهود البارزين للاجتماع به، وموافاته بإجابات شافية عن اثني عشر سؤالاً حول كيفية التعجيل بتحقيق الإندماج. وقد أبدى الحاضرون استعداداً للتجاوب مع كافة اقتراحات نابليون ومطالبه سوى مطلب واحد، هو تشجيع التزاوج بين اليهود والمسيحيين، وهو ما كان نابليون يعتبره أجدى وسائل الإندماج المنشود.

على أي حال، فقد حققت عملية الإندماج في فرنسا قدراً عظيماً من النجاح. وانبرى بعض علماء الدين اليهود فيها يقولون إن مبدأ المساواة ومبدأ الأخوة بين البشر نبعاً في الواقع ولأول مرة في تاريخ الإنسانية من كتب اليهود المقدسة ومن تعاليم أنبيائهم، وهي مبادئ نقلتها الثورة الفرنسية من حيز الدين والمثل إلى حيز السياسة والواقع... وياحتلال الجيوش الفرنسية لقطر تلوقطر في أوروبا، وإعلانها تحرير اليهود في تلك الأقطار، انتشر تأثير مبادئ الثورة انتشار النار في الهشيم، حتى لقد خشي قيصر روسيا، الإسكندر الأول من أن يلعب

مبدأ المساواة يعقول اليهود في دولته فيؤازروا الفرنسيين في حربهم ضده فأسرع بإصدار قرارات تخفف من وطأة القيود المفروضة عليهم، وتمنحهم بعض الحقوق.

مشكلات التحرر:

بنشوب الثورة الفرنسية إذن فوجيء اليهود بقدر ضخم من التحرر لم يخبروا مثله إلا خلال القرون الأولى من الدولة الإسلامية، وربما في ظل الجمهورية الرومانية. فقد أصبحوا - رسمياً - مواطنين في الدول التي يسكنونها، لهم ما لغيرهم من غير اليهود من الحقوق، وعليهم ما على الآخرين من واجبات، وابتاتوا مطالبين في نفس الوقت، أوبات من المنتظر منهم، أن يندمجوا إندماجاً كاملاً في المجتمع الذي يعيشون فيه، بأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية، حتى مع احتفاظهم بديانتهم وهويتهم.

غير أن هذا التحرر أثار لليهود مشكلات عويصة جديدة، ربما كانت أعوص وأشدّ خطراً من مشكلات الاضطهاد والتمييز والتشريد. فهم كانوا قد اعتادوا في شتاتهم الذي دام ما يقرب من ألفي عام أوضاعاً معينة خاصة بهم، ونمطاً من العيش جاء التحرر والمساواة والاندماج تزلزل كيانه. والمؤكد أنه ليس صحيحاً ذلك الاعتقاد الشائع بأن كافة اليهود رحّبوا بمساواتهم بغيرهم من المواطنين. فالكثيرون من زعمائهم ورجال دينهم الذين ارتبطت مصالحهم الخاصة بالوضع التقليدي لليهود كأقلية مضطهدة مكروهة، وجدوا نفوذهم بين اليهود يتزعزع نتيجة لما منحوه من حقوق ووُفّر لهم من مساواة وتسامح ديني. وكانت هناك خشية لدى هؤلاء وغيرهم من العواقب «الوخيمة» على الديانة والتقاليد اليهودية للمساواة السياسية الكاملة، بما تتضمنه من حق الانتخاب والخدمة العسكرية، وما تعنيه أيضاً من مطالبتهم بإنهاء عزلتهم وعيشهم المستقل عن غيرهم وإلغاء حق زعمائهم في تدبير شؤونهم.

قد تبيّن للمفكرين والمتدينين اليهود بمرور الوقت أنه وإن كان التحرر والمساواة قد خدما الفرد اليهودي العادي، وحسّنا من ظروفه المعيشية

والاجتماعية والاقتصادية، وأراحاه من التمييز والبغضاء والاحتقار وسوء المعاملة، فقد ثبت أنهما يهددان الأمة ككل، وينخران في العقيدة اليهودية، خاصة مع ذلك الإصرار المستمر من جانب المسيحيين على أن الشرط الأكبر لتحقيق التحرر التام لليهود هو أن يتخلوا عن كل المظاهر الانفصالية والانعزالية لنمط عيشهم، وأن يهجروا تقاليدهم التلمودية، وأن يتزاجوا معهم، وهو موقف يعني انتشاره نهاية اليهودية، وذوبان كيان الأمة على النحو الذي كاد أن يحدث في أقطار الدولة الإسلامية في ظل التسامح الديني.

العواقب:

في ظل التحرر إذن بدأت وحدة الشعب اليهودي في التفكك . . . لقد ظلوا حتى القرن السابع عشر في شتاتهم يعرف يهود مدينة كراكاو مثلاً عن يهود مدينة صَفَد، ويهود صفد عن يهود كراكاو، أكثر مما كان يعرفه أولئك أو هؤلاء عن جيرانهم المسيحيين أو المسلمين على بعد بضعة خطوات منهم . . . أما اليوم فها هم يهود بريطانيا وقد بات جلهم يرون أنفسهم بريطانيين أولاً ثم يهود ثانياً، ولم تعد ثمة غير أوهى الروابط الروحية بين اليهود الفرنسيين والأرجنتيين والأمريكيين والعرب . . إلى آخره.

ثم خطر آخر يتمثل في انتشار المادية في العصر الحديث، وروح الاستخفاف بالدين، والسعي وراء الملذات خارج الحياة الروحية، وطلب صنوف المتع واللهو. وهناك تيار العقلانية الذي زعزع من القوى الروحية لليهود، وطابع عدم الاكتراث الذي سهّل على الكثيرين التحول إلى المسيحية لضمان قبول أكبر لدى الشعب المسيحي الذي يعيشون بين ظهرانيه. وقد كتب إسرائيل هيلديشايمر عام ١٨٦٧ يقول إن تسعة أعشار الشباب اليهودي قد باتوا إما ملحدين أو غير آبهين للدين. وهاجم كل من أَيْجَر وموشى شرايبر وصامويل دافيد لوتزاتو تحرير اليهود ومساواتهم بغيرهم، واستكروا تبني اليهود لأنماط العيش الغربية كتمن للتحرر، وأبرزوا أوجه الخلاف والاختلاف بين اليهودية

والحضارة المسيحية، ووصفوا التحرر بأنه لا يعدو أن يكون «عبودية في إطار الحرية»! وارتفعت الأصوات اعتباراً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنادي بالقومية اليهودية، وتطالب بدلاً من المساواة، بنظام من الحقوق للأقليات، والحكم الطائفي الذاتي، وحرية اللغة والتعليم المدرسي المستقل وتقرير المصير، بدلاً من الاندماج القومي في الغالبية من السكان.

أصاب المتدينين من اليهود الدُعر إذ يرون الكثيرين من بني جلدتهم - خاصة من أفراد الطبقات العليا - يتزوجون مع غير اليهود. ورأوا الآلاف من شبابهم تعتنق الماركسية وغيرها من المذاهب الاشتراكية، والتعاطف مع قولة فورييه «إن معظم اليهود الأتقياء متطفلون على المجتمع»، ومع قولة كارل ماركس الشهيرة: «إنه من المحتم أن تختفي اليهودية من الوجود، وأن تحرر اليهود الاجتماعي لن يتأتى إلا بتحرر المجتمع من اليهودية»، وقولة لينين: «إن كل من يتحدث عن ثقافة قومية اليهود هو - مهما حسنت نيته - عدو للبروليتاريا».

وها هم علماء ومثقفون من اليهود قد شرعوا يفسرون الديانة اليهودية وبداياتها وفق المفاهيم العلمية الحديثة، وينقدون «العهد القديم» على ضوء أفكار سبينوزا ومندلسون، ويحللون جذور العقيدة ويبرزون ما اقتبسته من الأمم المجاورة لدولتهم القديمة. ومنهم من ذهب إلى أنه ليس في التوراة في حقيقة الأمر جديد، وأنه يكاد يكون برمته مأخوذاً عن عقائد مصر الفرعونية وبابيلون وفينيقيا. وقد أضحى اليهود التقدميون من غلاة دعاة الوطنية والاندماج الكامل، وشاع بينهم هجر التقاليد وأنماط العيش القديمة، خاصة بين الأغنياء والمثقفين ذوي التأثير الأكبر في غيرهم، رغم أن اليهودية إنما تُعنى بنمط العيش أكثر مما تُعنى بالعقائد. فهم لم يعودوا يحترمون إجازة السبت ومتطلباتها، ولا يحتفلون بالأعياد، ويرونها ضارة بالاقتصاد ومضیعة للوقت ومجحفة بالتجارة. وقد ضاقوا بالتحريم الديني لبعض المأكولات ورأوه يحد من صلاتهم الاجتماعية بغير

اليهود. ونسأوهم اللواتي قرآن لفلاسفة عصر التنوير وغيرهم قد تُرن على الأخلاقيات اليهودية المتزمتة، وشجعن أولادهن على إغفال دراسة التراث اليهودي. وقد انكمش نفوذ رجال الدين وزعماء الطائفة، وخبا الاحترام لهم، وانتقل هذا الاحترام للمثقفين وكبار رجال المال والصناعة والتجارة والفنانين، وهم الذين لم يتلقوا تعليماً دينياً يهودياً عميقاً ولا يكتراثون بتراثهم. أما الشباب اليهودي الذي تلقى تعليمه في الجامعات الأوروبية والأمريكية فقد بدأ ينظر إلى ديانته نظرة رفاقه المسيحيين إليها، وتأثروا تأثراً عظيماً بسخرية فولتير من كافة التقاليد الدينية والخرافات، ووصل جميعهم إلى اعتقاد بأن الدين اليهودي يطالب بإذعان ثقیل الوطأة للتقاليد البالية، وأنه من الواجب تخفيف قيوده وتضييق نطاق سلطان رجال الدين. وهم في كل هذا إنما يحاولون إرضاء أصدقاتهم ومعارفهم من المسيحيين، وتيسير اندماجهم في المجتمع حولهم، راثين أن الإلحاد أو الاستخفاف بالدين من شأنه أن يسهل قيام علاقات اجتماعية وثقافية أوثق، ويخدم التحرر السياسي والاقتصادي.

تفسير جديد لظهور الحركة الصهيونية :

الاعتقاد الشائع بين الناس هو ان الحركة الصهيونية ودعوة القومية اليهودية هما رد فعل لمظاهر العداء للسامية، ولمظاهر الاضطهاد والظلم التي عانى منها اليهود في شتاتهم. وقد يكفي لبيان فساد هذا الاعتقاد أن نشير إلى أن الدعوة الصهيونية لم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي أوروبا الغربية، حين كان التحرر اليهودي ومساواتهم بغيرهم قد قطعاً شوطاً بعيداً، ولم تظهر لا في أقطار كروسيا وشرق أوروبا حيث كانت مظاهر العداء للسامية قوية ملموسة، ولا قبل الثورة الفرنسية في عصور الاضطهاد الحقيقي لليهود.

وواقع الأمر في رأيي أن الحركة الصهيونية إنما جاءت كرد فعل لتحرير اليهود ومساواتهم واندماجهم، لا للعداء للسامية.

ذلك أن زعماء هذه الحركة إنما كانوا من بين أناس آمنوا إيماناً قوياً بأن

اليهودية لا يمكن أن تظل قائمة بانتهاء عزلة اليهود وتآكل نمط حياتهم باندماجهم في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الدول المختلفة التي يعيشون فيها.

لقد كانت القومية في الماضي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالدين. أما في العصر الحديث فقد غدت القومية ذاتها ديناً، وأخذت كافة الدول بالعلمانية مذهباً، مرتئية أن الدين ليس إلا شأن من الشؤون الخاصة للفرد ولا دخل له بالحكم وغيره من شؤون الدولة، فأضحى على اليهود إن أصروا على تمسكهم بعقيدتهم أن يعبدوا إلههم في دورهم ومعابدهم، فإن خرجوا منها فهم أعضاء في المجتمع الذي هم فيه، لهم ما لغيرهم من حقوق وعليهم ما على غيرهم من واجبات.

نظر دعاة الصهيونية إلى اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، فإذا هم يرون العلمانيين منهم وهم يعلنون أنهم لم يعودوا في حاجة إلى مسيخ يخلصهم من الإضطهاد إذ لم يعد ثمة اضطهاد، ويرون المثقفين يجاهرون باعتقادهم أن الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والنواهي الدينية إنما كانت مرتبطة بأسباب وظروف تاريخية معينة قد زالت وانقضت، وأن استمرار مراعاتها واحترامها هو من قبيل السفاهة وخطل الرأي والرجعية. فهي ليست قانوناً ميتاً فحسب - على حدّ تعبير بولس الرسول - وإنما هي أيضاً عقبة في سبيل الاندماج وتأسيس روابط الودّ والإخاء مع أفراد المجتمع حولهم. بل إن بعض الفلاحين والعمال من اليهود ذوي الحظّ المحدود من التعليم كفّوا عن الإلتزام بالأوامر والنواهي، وهجروا فرض الختان الذي هو الطقس التقليدي للدخول في عهد إبراهيم، وبلغت بهم الفحة والصفافة حدّ وصف كل ذلك بالتقاليد البالية التي لا تناسب أحوال العصر الحديث واحتياجاته.

فالصهيونيون إذن هم في الأصل جماعة تؤمن بأن لليهود رسالة خاصة، وهوية خاصة، قد أضحتا في خطر نتيجة انتشار العلمانية والمادية والإلحاد، ومن اللازم حماية الشعب اليهودي من هذا الخطر بتجميعه في وطن خاص به،

يواصل فيه أهدافه الحضارية دون تدخل أو تأثير من الغالبية غير اليهودية .
وعندهم أن اليهود كانوا دائماً أمة واحدة ووحدة حضارية مستقلة . «والوطنية
الحقة ليست في حبّ أرض معينة، بل هي حبّ الماضي الحضاري وفي
احترام الأجيال التي سبقتنا» . وقد أعلنوا صراحةً تفضيلهم لوضع اليهود في
أقطار القارة الأوروبية قبل الثورة الفرنسية حين كانوا يتمتعون بحكم ذاتي واسع
النطاق دون المساواة . فالحكم الذاتي دون مساواة هو في رأيهم أفضل لليهود
من المساواة دون حكم ذاتي . أما عن خرافة «التسامح الديني» فهي ليست
ناجمة عن اتساع أفق وتهذيب طباع كما يدّعي البعض ، وإنما هي ثمرة الإلحاد
الذي ساد أهل هذا الزمان ، وما أسهل التسامح على غير المؤمن!

انقسام اليهود:

وقد كان من بين ما حذّر الصهانية اليهود منه خطر انقسام اليهودية - شأن
المسيحية - إلى طوائف ذات معتقدات متباينة . وهو بالضبط ما حدث خلال
المائة عام الأخيرة ، وبعد قيام دولة إسرائيل بالذات :

فالطائفة الأولى ، ويُعرف أفرادها بالإصلاحيين ، (ونجد معظمهم في
ألمانيا والولايات المتحدة والدول الاسكندنافية وإنجلترا وفرنسا) ، ترفض فكرة
الوطن القومي اليهودي ، أو الهجرة إلى إسرائيل ، وتذهب إلى أن خلاص اليهود
إنما يكمن في تحقيق المُثل التي نادى بها أنبياء اليهود من الالتزام بالمبادئ
الأخلاقية والإيمان بوحداية الله . وهو أمر بمقدور أيّ يهودي أن يحققه في أية
بقعة من الأرض ، وبين أي شعب من الشعوب . ومثل هذا الالتزام هو نفسه
«المسيح المخلص» ، لا الكائن الذي يزعمون أنه سيعود بهم إلى أرض الميعاد
في زمن لا يعلمه غير الله . وعند هذه الطائفة أن الإدماج مطلوب ومرغوب فيه
وفي مصلحة اليهود سواء من الناحية الحضارية أو الاقتصادية أو السياسية
أو الاجتماعية . أما شعارها فهو «كن يهودياً في بيتك ، وإنساناً في الطريق» .

أما الطائفة الثانية ، وهم الصهيونيون القوميون ، فيرون أن إقامة دولة

لل يهود في فلسطين ستجعل للحياة اليهودية بؤرة موحّدة، وأن فلسطين وحدها هي الأرض الصالحة لانتعاش الهويّة والتقاليد والحضارة اليهودية. . قد ينظر بعض المحافظين في حنين إلى الماضي وقت الشتات والاضطهاد والعزلة، حين كانوا يتمتعون بأكبر قدر من التضامن والتشبّث بالتقاليد ونقاء العقيدة وإطاعة الله. غير أنه ما من أحد بوسعه أن ينكر تغيّر الظروف في العصر الحديث، وأن تحرّر اليهود قد بات أمراً واقعاً خاصة بعد هزيمة النازية عام ١٩٤٥، في العالم الغربي على الأقل، وبعد أن نصّت كافة دساتير دول العالم تقريباً على الحق في حرية العقيدة، ولم يعد ثمة من لديه الجرأة على معاداة السامية. وقد قامت الصهيونية على أساس تحرر اليهود، وتحرّر اليهود جعل من الصهيونية ضرورة لا غنى عنها للإبقاء على اليهودية وحمايتها من أخطار التحرير والاندماج. ذلك أن الوطن اليهودي القومي من شأنه أن يضع المعايير التي يمكن بها لليهود خارج إسرائيل أن يقيسوا بها مدى يهوديتهم. . أما موقف المحافظين فلا يمكن أن يكون قوة فعّالة للحفاظ على اليهودية في العصر الحديث ما دام على عدائه للتحرر والمساواة. وما كان بمقدور دولة إسرائيل ذاتها أن تقوم إلا على أكتاف اليهود المتحررين، وما حصلوه في جامعات الغرب من المعارف العلمية والتكنولوجية الحديثة، ولولا المساعدات المالية الضخمة التي تلقّتها من أثرياء اليهود في أوروبا والولايات المتحدة، والتي ما كان ليتمكنهم تقديمها لولا تحررهم واشتراكهم الكامل في الاقتصاد الغربي، ولولا مؤازرة وتعصيد ونفوذ كبار اليهود في المناصب الرفيعة في الغرب، ولولا التدريب العسكري المكثّف الذي حصّله الجنود اليهود ممن خدموا في جيوش الحلفاء خلال الحربين العالميتين.

أما الطائفة الثالثة فطائفة المحافظين الأتقياء الذين يستنكرون تأسيس دولة إسرائيل، ويعتبرون قيامها مخالفاً للدين وضدّ إرادة الله. ذلك أن خلاص اليهود وعودتهم إلى أرض الميعاد لا ينبغي لهما أن يتحققا إلا بقدوم المسيح ويتدخل مباشر من الرب في الوقت الذي يشاؤه ويحدّده. أما أية جهود بشرية تأتي باليهود

إلى فلسطين، فهي ليست عبثاً فحسب، بل وكفراً صارخاً إذ تحاول تحقيق النتيجة وقطف الثمرة قبل الموعد المقرر عند الله .

الوضع الراهن في إسرائيل :

وفي إسرائيل اليوم، تُعرف هذه الطائفة الأخيرة من المتدينين المتطرفين باسم «حار يديم»، أي الأتقياء الذين يخافون الله . وهم يمثلون نحو خمسة في المائة من مجموع السكان، وللكتيرين منهم جذور عائلية في فلسطين ترجع إلى ما قبل وصول الصهاينة الأول إليها، حين كان لا يسكن فلسطين من اليهود غير الأتقياء شديدي التدين . وقد ظلوا حتى مؤخراً يعيشون بمعزل عن سائر المجتمع الإسرائيلي، ويرون أن العلمانية والحداثة اللتين هما طابع هذا المجتمع تهددان دينهم ونمط عيشهم، ولا يبذلون أدنى محاولة للاندماج أو حتى لنشر فكرهم . غير أنهم في الأعوام الأخيرة باتوا يرون الكثيرين من الإسرائيليين المتدينين تنجه إلى التعاطف معهم تعاطفاً زاد من ثقتهم بأنفسهم، إلى درجة حدث بهم إلى الخروج إلى النور يعلنون فكرهم، ويعرضونه كبديل للمجتمع الإسرائيلي الفاسد .

وهم لا يزالون على عدائهم للصهيونية التي تريد تحويل اليهود إلى أمة كسائر الأمم، وهو مامن شأنه - في زعمهم - أن يهدم الهوية الدينية الفريدة للشعب اليهودي . وبالتالي فهم لا يشاركون بقية الشعب في الاحتفال بعيد استقلال إسرائيل، وعندهم أن عيد الاستقلال الحق هو ذكرى خروج اليهود من مصر منذ نحو ثلاثة آلاف عام . وعندهم أن الإخلاص للتوراة والالتزام بتعاليمها، لا الوطنية، هما اللذان أعطيا للحياة اليهودية مذاقاً ومعنى، وحفظا الدين على مدى عشرات القرون .

وقد كانت الغالبية العلمانية من اليهود وقت تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، على استعداد لتقبل واحتمال هذه الجماعة الغربية التي يصّر أفرادها على ارتداء المعاطف السوداء الطويلة، وقلانس من الفرو الأسود، (تماماً كهيئة

يهود أوروبا الشرقية في القرن السابع عشر)، وينادون بإغلاق دور السينما والملاهي، وإزالة الملصقات التي تعرض صوراً للنساء في ملابس البحر، ومنع مباريات كرة القدم أيام السبت. . إلى آخره. فقد كان العلمانيون يرون فيهم صورة تذكّرهم بأجدادهم وبالماضي اليهودي، وكانوا واثقين من أنه بمرور الوقت، وبعد جيل على أكثر تقدير، ستندثر هذه الظاهرة الشاذة من الوجود.

غير أن هذا لم يحدث. . والدلائل اليوم تشير كافتها إلى أن التطرف الديني في إسرائيل في ازدياد، وإلى أن ميزان القوى يتجه أكثر فأكثر إلى أن يكون في صالح الكتلة الدينية التي تسيطر عليها الآن جماعة حارديم، بحيث بات الصهيونيون مضطرين إلى اتخاذ موقف الدفاع. كما توضح الإحصاءات أن متوسط عدد الأطفال في أسر الكتلة الدينية هو ٨، وفي عائلات الصهيونيين ٥، ٣، وفي باقي العائلات ٢، ٢، وأن الغالبية العظمى من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل هم من بين اليهود المحافظين المتدينين من كل من أمريكا الشمالية وغرب أوروبا.

فإن استمر هذا الاتجاه في التصاعد فلا شك أنه سيحدث تأثيراً هاماً في المجتمع الإسرائيلي، وفي علاقات دولة إسرائيل سواء بالدول العربية أو باليهود في سائر أنحاء العالم. وبإمكان المتابع لمجريات الأمور في إسرائيل أن يلمس بوادر هذا التأثير من الآن:

فمن ناحية، نجد الحزب الوطني الصهيوني الذي فاز في انتخابات عام ١٩٧٧ بإثني عشر مقعداً في البرلمان، لم تعد له اليوم غير أربعة مقاعد، ومن المتوقع أن ينخفض هذا العدد في الانتخابات المقبلة، في حين أن الحزب الديني المتطرف «شاس» الذي لم يكن له وجود عام ١٩٧٧، له اليوم أربعة مقاعد، ولجماعة أجودات إسرائيل المماثلة مقعدان.

ومن ناحية أخرى، نجد الأحزاب العلمانية الكبيرة، وعلى رأسها حزب العمال وجبهة ليكود، تراقب الموقف واتجاهات الرأي العام عن كثب، لتقرّر

على ضوءها مع أيّ الجماعات الدينية يمكنها أن تبرم الصفقات والمحالفات السياسية، مما سيضمن لها الأصوات والتأييد لسياستها مقابل بعض التنازلات في الشؤون الدينية. وبالتالي نرى السياسيين العلمانيين من الأحزاب المختلفة يتنافسون على مراعاة حارديم واستقطابها هي وسائر جماعات الكتلة الدينية التي باتت قوة لها وزنها في أي اقتراع يجري في الكنيست. وقد تمكن إسحاق شامير زعيم جبهة. ليكود ورئيس الوزراء في مايو ١٩٨٧ من عقد صفقة مع «شاس»، يقر بمقتضاها موقف «شاس» من موضوع الهوية الإسرائيلية، مقابل امتناع «شاس» عن مساندة شيمون بيريز زعيم العمال ووزير الخارجية في دعوته إلى عقد مؤتمر سلام دولي حول قضية الشرق الأوسط. ولو أن بيريز كان قد تقدم إلى «شاس» بنفس العرض بشأن الهوية الإسرائيلية، لكان من المؤكد أن يحظى بتأييد ذلك الحزب لفكرة المؤتمر الدولي.

بقي أن نذكر أن غالبية أفراد حارديم ترى تحقيق أهدافها بالطرق السلمية دون العنف، وينشر الدعوة والترويج لمبادئها لا بأعمال الإرهاب. وقد تمكنوا في الفترة الأخيرة من استقطاب اثني عشر رجلاً من نخبة ضباط الطيران الإسرائيليين الذين يعتبرون في إسرائيل صفوة العسكرية والمجتمع، وإقناعهم بالاستقالة وتكريس حياتهم للدراسة التوراة. وقد سارعت حارديم عقب ذلك بطبع الملصقات التي تحمل صور هؤلاء الضباط وتوزيعها على شوارع العاصمة والمدن الإسرائيلية الأخرى، للتدليل على مدى نجاح الدعوة، ولمحاولة إقناع الإرهابيين من أعضائها بفضل وسائلهم السلمية على وسائل العنف التي يلجأ إليها هؤلاء، من تفجير القنابل، وتحطيم الحوانيت وأكشاك بيع الجرائد، وإرهاب المخالفين لهم في الرأي، وهي ظاهرة أشارت الصحافة العالمية في الفترة الأخيرة إلى تفاقمها، خاصة في «بنى براك» إحدى ضواحي تل أبيب التي أصبحت معقلاً من المعازل الأساسية لهؤلاء الإرهابيين.

... قد مضى قولنا في اجتماع الخميس الماضي في بيان أوجه الضعف في النظام الراهن في مصر. وهو ما أوجزه الآن في ثلاث نقاط، كلها مما يمكن لشركائنا وللجماعات الإسلامية التي نمولها أن تستغلّ لصالحها، وأن تُفيد منه:

أولاً: إدراك فريق قويّ داخل السلطة أن قوة الحركة الإسلامية المتطرفة في مصر راجعة في المقام الأول إلى مظالم اجتماعية واقتصادية لا يتسنى حلّها وتداركها إلّا على مدى سنوات طوال، وأنه من الظلم بالتالي أن تلجأ السلطة إلى العنف في مواجهة المتطرفين الإرهابيين، إلا في حالات الضرورة القصوى، بل ولا بأس من بعض التنازلات لهم، حتى لا يجتمع على هؤلاء «البؤساء» همّ الضائقة الاقتصادية والاجتماعية، وهمّ اضطهاد الحكومة لهم.. وقد هيّا لنا ذلك فرصة أن نستغلّ استمرار الضائقة، ويد المصالحة التي تمّدها السلطة للإسلاميين، وإذعانها المتكرر لمطالبهم، في المطالبة بالمزيد من التنازلات، والتوسّع في تجنيد الشباب في صفوف الجماعات التابعة لنا، وخلق الاعتقاد لدى الصحفيين والكتاب والقضاة وكبار رجال الدولة والمسؤولين بأن وصول الإسلاميين إلى السلطة عن قريب أمر مفروغ منه، وبالتالي فإن من مصلحتهم أن يركبوا الموجة من الآن، وأن يحجزوا لأنفسهم المقاعد في ظل النظام الجديد، وهو ما سيزيد قطعاً من خلخلة دعائم النظام القائم؛

ثانياً: ذلك العجز المضحك من جانب الحزب الوطني عن أن يطرح في

الساحة الأيديولوجية فكراً متكاملأ قادراً على منافسة أيديولوجيا الأقسام التي جندناها، وعن إلهاب مخيلة الجماهير واجتذاب قطاعات واسعة منها. فالواضح للجميع أن برنامج ذلك الحزب خالٍ من أي فكر متبلور، أو طابع مميز، أو حلول عملية للمشكلات المتفاقمة بمجتمعنا، وهو معزوته في حديثي إلى طبيعة الظروف التي نشأ فيها الحزب أثناء حكم السادات. وقد ذكرت أن نقطة البداية في نشأة أي حزب سياسي هي أن يتجه أفراد يجمعهم فكر واحد إلى إقامة تنظيم له برنامج يعكس هذا الفكر. وهو بالضبط ما لم يحدث في حالة تأسيس الحزب الوطني الذي جاء بناءً على تعليمات من أنور السادات، واختير أعضاؤه بصورة عفوية وتحكيمية (بل انتقي بعضهم من أحزاب المعارضة ذاتها)، ثم أقبل على الانضمام إليه عدد هائل من الانتهازيين الذين ما كانوا لينضموا إليه أصلاً لولا أنه في السلطة. (وقد أعددت في هذا الموضوع ورقة مفصلة ستوزع على حضراتكم في نهاية هذا الاجتماع)؛

ثالثاً: عزوف مستمر من جانب الأحزاب القائمة عن توحيد صفوفها من أجل التصدي لمد الإسلاميين المتطرفين، واعتقاد اليسار واليمين معاً أن استمرار الإرهاب من شأنه أن يهدم هبة النظام وسلطانه، وأنهم المستفيدون من ضياع هذه الهبة وزوال هذا السلطان. وبالتالي فقد شغلت الأحزاب جميعاً، حاكمة ومعارضة، بالتناحر فيما بينها عن الخطر الذي سيبتلعهم جميعاً في المستقبل القريب جداً بإذن الله. . . فإن تركنا جانباً حزب العمل الذي وقع طواعية في الشراك الذي نصبناه له عام ١٩٨٧ بفضل جهود عادل حسين، وجدنا حزب الوفد يعمل من منطلق جد غريب، لا هو بالكافي ولا بالمقنع ولا بالفعال، ألا وهو الحنين إلى سنوات ما قبل الثورة، سنوات عزه ومجده، ويرتدّ زمناً بين التمسك بعلمانيته التقليدية التي جلبت له في الماضي تأييد غالبية الناخبين الأقباط، وبين التزلّف للتيار الديني ومراضاته، ثم يستقر رأيه على أن مثل هذا التزلّف من شأنه أن يفيد في المعارك الانتخابية أكثر مما يفيد التمسك بالعلمانية. . أما حزب التجمع فإن هويته الأصلية تضع شيئاً فشيئاً

بمرور الأيام، منذ أن أدار ظهره لوصية لينين الشهيرة للحزب الشيوعي السوفييتي بالحرص فوق كل اعتبار آخر على النقاء الأيديولوجي للحزب، والتضحية في سبيله بكثرة أعضائه، راثياً أن مائة صابرة صادقة أكثر فعالية من ألف من ذوي الاتجاهات المائعة والمواقف الانتهازية. . وقد أدرك الشعب في يسر ما طرأ على موقف التجمع من ضعف اضطره إلى التسوّل والاستجداء، حين سعى إلى التقرب من بعض جماعاتنا الإسلامية التي رآها أقل تطرفاً ورجعية من أجل زعزعة الحكم، في حين أدرك الشيوعيون القدامى أن النقاء الفكري للحزب قد ضاع، وأن موقفه الأيديولوجي قد ماع، فتركوا صفوفه عن احتقار لصورته الجديدة، ولم تُقد هذه التنازلات حتى في اجتذاب العمال والفلاحين. . . .

كان هذا هو محور حديثنا في الأسبوع الفائت. ونحن قائلون اليوم إن شاء الله في مهام الدعاة الإسلاميين ووسائلهم في نشر الدعوة إلى نظامنا وفي تجنيد الشباب.

مشاعر الإحباط هي عماد دعوتنا:

وأبدأ فأقول، إن كافة الحركات الجماهيرية الثورية، دينية كانت أو اجتماعية أو قومية، تشترك في عدة خصائص جوهرية، كالاستعداد للتضحية بالنفس، والميل إلى العمل الجماعي، والحماس والتعصب الأعمى، والكرهية وضيق الصدر بالآراء المخالفة، والأمل العظيم فيما سيأتي به الغد. وجميعها من المشاعر التي يوسعها أن تطلق من عقالة فيضاً هائلاً من النشاط، وتتطلب من أصحابها إيماناً أعمى وولاء مطلقاً.

وجميع هذه الحركات الجماهيرية تستهوي نفس الصنف من الناس، ومن العقلية. إذ مهما اختلفت الأهداف والمبادئ التي يُبدي أفرادها استعداداً للموت في سبيلها، فإنها - في الأساس والجوهر - تحمل نفس

الطابع، وتربط بينها وجوه شبه عظيمة، لا تكاد العين المجردة معها أن تفرّق بين حركة وأخرى.

أهم وجوه الشّبه هذه هو أن المقبلين على الانضمام إلى أيّ من هذه الحركات هم في الغالب من الشبان المُحبطين المقهورين الفاشلين، الذين يرون حياتهم قد فسدت وتبدّد معناها، والذين يُقْبِلون عادةً على الانضمام إلى حركات كمحركتنا من تلقاء أنفسهم دون ما حاجة إلى جهد كبير من جانبنا لتجنيدهم، ودون حاجة مسبقة إلى اقتناع عقلي كامل بالمبدأ الذي تمثّله الحركة. فبالإحساس بالقهر والإحباط كفيل وحده بأن ينبثق عنه معظم الخصائص التي حدّثكم لتوّي عنها. لذلك فإنّ أنجح وسائل الإقناع التي يمكنكم انتهاجها في تجنيد الأتباع والأنصار هي استغلال إحساس الأفراد بالإحباط، والتركيز عليه، وترسيخه وإلهابه والحيلولة دون تبدّده أو تضاوله إلى حين استيلائنا على السلطة بإذن الله، باعتباره خير ما يخدم مصالحنا، ويحقّق مطامحنا، ويضمن نجاح دعوتنا وحركتنا.

والفرد عادة - كما لا شك قد لاحظتم أثناء اضطلاعكم بمهام الدعوة لحركتنا - يميل إلى إلقاء المسؤولية عن فشله على الظروف المحيطة به، والأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة، حتى لا يفقد احترامه لذاته. ولذا فإنّ غالباً ما نرى أولئك الذين نجحوا في حياتهم، وحققوا معظم ما كانوا يصبون إليه من آمال، راضين عن العالم حولهم، حريصين على أن تبقى الظروف المحيطة بهم والأنظمة التي يعيشون في ظلّها على ما هي عليه، في حين نرى المخفقين المحبطين شديدي التطلّع إلى حدوث تغييرات جذرية في تلك الظروف والأنظمة. فالفاشلون إذن يصرون دائماً على البحث خارج أنفسهم عن أسباب فشلهم وخيبتهم، حتى إن حاول البعض أن يشير لهم إلى أهمية بعض الاعتبارات الشخصية كالمواهب والمقدّرات الذاتية والشخصية والصحة والمظهر الخارجي إلى آخره. أو كما يقول حكيم من حكماء الغرب: «ما يصيب الإنسان من آفة تعوّقه عن أداء مهامه، حتى إن كانت هذه الآفة مجرد

ألم في أمعائه، حتى يشور وينبري لإصلاح الكون!». .

وهذا الميل لدى الفاشلين إلى إلقاء تبعة الفشل على النظام القائم والظروف المحيطة، هو ما ينبغي عليكم في المقام الأول أن تغذوه وتقووه وتدعموه بكافة الوسائل .

مفاتيح الغد المشرق:

بيد أن السخط في حد ذاته لا يثير دائماً الرغبة في التغيير. إذ لا بد من أن تتوفر معه عوامل أخرى قبل أن يتحوّل إلى تمرد أو ثورة:

فأولئك الذين طحتهم الظروف المحيطة طحناً، والفقراء المعدمون الذين أذلّ الفقر أعناقهم، لا يتطلّعون إلى تغيير مهما بلغ بهم سوء الحال، ولا يرحّبون بثورة أو بتحوّل جذري، لدرجة أننا قد نجد بينهم من المحافظين مثلما نجد بين الأثرياء المحظوظين. والنظام الاجتماعي يدين باستقراره لأولئك قدر دينه لهؤلاء. وإذ أن شرط إقدام الفرد على محاولة تغيير الأوضاع هو ألا يرتبط السخط الشديد عنده بالإملاق الشديد، فإني أنصحكم بالألا تضيعوا الوقت والجهد في الدعوة إلى حركتنا في أوساط الفقراء المعدمين .

إن الفارق بين المحافظ والثوري ينبع أساساً من موقفهما حيال المستقبل. فخوفنا من المستقبل يجعلنا نتشبّث بمعالم الحاضر، في حين تدفعنا الثقة في المستقبل إلى الرغبة في التغيير. . . والراضون عن الحاضر ممن حققوا إنجازات كبيرة، أو يعيشون حياة خصبة سعيدة، يميلون إلى التجمّع في وجه كل تغيير جذري، ويرون في كل تغيير تدهوراً، ولا يريدون إلا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه. . هؤلاء إذن يخرجون عن نطاق محاولاتنا من أجل التجنيد والاستقطاب. أما من ينبغي أن نسعى إلى تجنيدهم فالشباب الذي يحده الأمل في تغيير هائل وجذري ومفاجيء في أحوال معيشتهم، المؤمن بأنّه بالوسع أن تتغير الأمور بلمسة واحدة من عصا سحرية، أو بتمتمة عبارة «إفصح يا مسمم». مثل هذا الأمل هو الكفيل بإثارة الحماس اللازم لإحداث الثورة.

وإنما فشل بطرس الأكبر في روسيا رغم ثورية مطامحه وبرامجه، إما لأنه لم ير ضرورة لإثارة حماس الجماهير لخطته أو لأنه عجز عن أن يجعل من هذه الخطط قضية مقدسة، في حين أنه من المهم للغاية في أية حركة - حتى إن كانت حركة إلحادية - أن تضفي على نفسها طابعاً دينياً، وأن تدفع الجماهير إلى النظر إلى أغراضها العملية باعتبارها قضايا مقدسة. . هذا هو ما صنعه الفاشيون والشيوعيون بالأمس، وهذا هو ما نصنعه نحن اليوم.

إنه لمن المَحْتَمَّ علينا، نحن قادة الحركة، من أجل ضمان النجاح في الوصول إلى السلطة، أن نخلق الاعتقاد لدى هؤلاء الشباب بأن في حوزتنا مفاتيح الغد المشرق، وأن نبعث في قلوبهم الآمال العريضة، والثقة في قدرتنا على تحقيقها، وفيما يخبئه هذا الغد لهم من كنوز؛ سواء تمثلت هذه الكنوز في جنّات الآخرة وملكوّات السماوات، أو في بناء المدينة الفاضلة، أرض اللّبن والعسل، أو في الهيمنة الدولية وفتوح البلدان على نهج فتوحات عهدني أبي بكر وعمر.

ولا يسعني هنا إلا أن أهنئكم على نجاحكم في خلق هذا الاعتقاد لدى قطاعات عريضة من الجماهير. وهو نجاح لا يُدانيه في الأهمية غير نجاحنا فيما فشل فيه بطرس الأكبر من قبل، وأعني إضفاء الطابع الديني على حركتنا، وخلع سمة القدسية على أغراضنا، بحيث بات أنصارنا يرون في خدمة أهدافنا خدمة الله وشريعته، وموتهم في سبيلها استشهاداً، وإطاعتنا من إطاعة الله والرسول، والعمل على تنفيذ مخططاتنا عبادة، والتخلّص من أعدائنا بالاغتيال والإرهاب قُربة إلى الله وزُلْفى.

وقد وصلتُ وأصحابي إلى اقتناع بضرورة هذا الأمر حين لمسنا من خلال قراءتنا في التاريخ الإسلامي أن من أبرز سمات هذا التاريخ أن الحركات الثورية التي أنارتها في دار الإسلام اعتبارات اجتماعية أو مظالم إقتصادية وسياسية، إنما ارتبط كل منها منذ بدايته ارتباطاً وثيقاً بفكر ديني، وما كان

ليدور بخلد أتباعها أن احتجاجهم على السلطة نابع عن غير العقيدة الدينية، ولا أن لهم من الأهداف غير تخليص الأمة من حكم لا يرضاه الله، والعودة بها إلى الشريعة وطريق الدين القويم.

فتعبير المسلمين إذن، وطوال تاريخهم، عن مناهضتهم أو مناصرتهم لهذا النظام القائم أذاك، كان دائماً تعبيراً دينياً بصورة أساسية. ولنا في طائفة الخوارج دوماً أسوة حسنة. فهم قوم ولوعون بالحرية البدوية المطلقة، ولوعون بشن الغارات على القوافل والقبائل من أجل الغنيمة شديدة، والبغض لحياة المدن وتنظيمها الدقيق الذي لم يألفوه. غير أنهم وجدوا حاجة إلى إيجاد أساس ديني لرغباتهم، وإلى أن يوهموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعها إنما يحرصون على الالتزام بأحكام الدين. فكان أن خرجوا على السلطة شديدة الوطأة واتهموها بالكفر، وكان أن هجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنبا جهاد، وكان أن ربطت أوثق الوشائج بين أفراد جماعتهم الصغيرة وقالوا إنهم أهل الجنة!

لستُ مبالغاً إذن حين أقول إن اتخاذنا الدين قناعاً لمطامحنا، وغلافاً لمصالحنا، هو من جميع الوجوه أعظم إنجاز لشركتنا. ذلك أن ربط أهدافنا بالإسلام جعل من العسير للغاية على الحكومة أن تفرض طاعتها وطاعة قوانينها على أعضاء الجماعات التابعة لنا. فمن خال أنه إنما يطيع الله بأعماله من المؤكد أنه لن يطيع غيره. ومن ظن أنه يتلقى الوحي مباشرة من السماء ليس في حاجة إلى أن يُصت لحدث من في الأرض. فأي نجاح إذن يمكن أن يعدل نجاحنا في إيهام الشباب بأن غايات شركتنا غايات إلهية، وصالح جيوناً مما تقضي به الشريعة الإسلامية، وتطلّعنا إلى الحكم هو إرادة الله من فوق سبع سموات. وإنما فشل العلمانيون وغيرهم في استشارة حماس الجماهير، لإحجامهم عن الحديث باسم الله. وكثيراً ما كنت في شبابي أقول لمعارفي من الماركسيين إنهم لو كانوا ملّمين بطبيعة تكوين شعبنا، وبتاريخه واحتياجاته

النفسية، لأقبلوا بمن طيب خاطر على تغليف مبادئهم الماركسية بالدين، وربط شعاراتهم بالإسلام، ونسبة أحاديث إلى النبي مثل: «من تملك وسائل الإنتاج عامداً متعمداً جيء به يوم القيامة وفي عنقه حبل من مسد»، أو «من قال بأن قيمة السلعة يحددها اعتبار غير جهد العامل في إنتاجها، فليتبوأ مقعده في النار» - أو كما قال.

إنه لشرط أساسي لإقدام أناس على محاولة تغيير الأوضاع، وقلب نظام الحكم، أن يتوفر لديهم اليقين بأن في جمعيتهم عقيدة لا يتطرق إليها الشك، وعلى رأسهم زعامة لا تخطيء، وفي صفوف جماعتهم قوة لا ترد، وفي انتظارهم مستقبل مشرق جم الوعود. كذلك فإنه شرط أساسي لإقدامهم وحماسهم أن يتمتعوا بجهل مطبق بالعقبات العملية التي تعترض تنفيذ مخططاتهم، وتحقيق آمالهم، وتنفيذ الإصلاحات المنشودة. فالخبرة الواسعة والتجارب العريضة عادة ما تعرقل مسيرة الحركة الثورية، وتبسط من العزم، وتضعف من الأمل. وهذا هو بالضبط سرّ عزوف الشعب الإنجليزي، بخبراته السياسية عريقة القدم، عن مباركة الحركات الجماهيرية وتأييد الثورات، وسرّ كراهيتهم للتعصب. فهم يعلمون أن عقلية المتعصب كحدقة العين، تزداد تقلصاً بازدياد قوة الضوء. ويعلمون أنه إن كان المحافظ سياسي مغرم بالشورور القائمة، فإن الثوري إنسان يسعى إلى أن يحل محل هذه الشورور شروراً من صنف آخر! غير أننا نقول لهم إنه ما دام العاقل هو من كيف نفسه وفق أحوال الدنيا، والأحمق هو من يسعى إلى تغيير أحوال الدنيا وفق أحلامه، فإن كل تقدم أو تغيير يحدث في أحوال الدنيا هو من صنع الحمقى!

التخلص من الذات بميلاد جديد:

ثم يهمني أن أغرس في أذهان حضراتكم فكرة بالغة الأهمية؛ وهي أنه لا يقبل على الانضمام إلى حركة كحركتنا إنسان يحب ذاته ويحترمها ويسعى إلى إنمائها ورعاية مصالحها. وإنما يقدم على الانضمام إليها كل من ينشد

التخلّص من ذاته التي يكرهها ولا يريدّها . . . فحركة كحركاتنا لا تجتذب الأتباع بسبب قدرتها على إشباع حاجتهم إلى تحقيق الذات ودفعها إلى الأمام، وإنما بسبب قدرتها على إشباع رغبتهم العارمة في أطراح الذات والتخلّص منها . . . فهنا شوق إلى ذات أخرى، وحياة مخالفة، وميلاد جديد . . . إلى اعتزاز بالنفس يقتلع كراحتها، وثقة تعرّض عن الاضطراب والحيرة، وأمل يحلّ مكان اليأس، وإحساس بالهدف يبدّد الإحساس بالضيق، وإيمان الفرد بأهميته وقيّمته وجدواه متى اقترن بغيره في تبني قضية مقدسة . . . وحركتنا تتيح لهم فرصة تحقيق كل ذلك؛ هي بدليل عن الذات البغيضة، تُوحى إلى من انضم إليها أنه قد وُلد من جديد ليبدأ حياة جديدة، مع مجموعة كبيرة من أمثاله ممن تعرّز كثرهم من ثقة الفرد منهم بنفسه وباختياره .

فلتحرصوا إذن أثناء دعوتكم وتصيّدكم للأنصار على مراعاة هذا الاعتبار . وقد سبق للمفكر الفرنسي باسكال أن عرض لهذه الفكرة حي قال :

«يودّ الإنسان لو أنه عظيم، بيد أنه ينظر فإذا هو ضئيل . ويودّ لو أنه سعيد، بيد أنه ينظر فإذا هو شقيّ . ويودّ لو أنه كامل، بيد أنه ينظر فإذا هو مُفعمٌ بالنقائص . ويودّ لو أنه موضع حبّ الناس وتقديرهم، بيد أنه ينظر فإذا عيوبه ليست أهلاً إلا لبغضهم واحتقارهم . فإذا الحيرة والارتباك وقد تملّكاه يثيران فيه أشدّ المشاعر إجراماً وأبعداً عن العدل والحق . ذلك أنه قد أضحى وقد غلبت عليه الكراهية القاتلة تجاه الحقيقة التي تُدينه وتُريه عيوبه ونقائصه في جلاء» .

عن الانتهازيين والأتقياء المخلصين :

صحيح أن كل حركة جماهيرية تجتذب بالضرورة عدداً لا يُستهان به من الانتهازيين - خاصة من بين الكتّاب والصحافيين ومحترفي السياسة - ممن ينضم إليها على أمل أن تصل يوماً إلى الحكم فيفيد منها على قدر مناصرتة إيّاها وهي في المعارضة . . . هذا أمرٌ حتميّ، بل ومرغوب فيه إلى حدّ ما . بل أقولها صراحة إنه من المفيد للحركة أن تلوّح من بعيد لضعيفي النفوس والخلق بالرفع

الشخصي الذي سيعود عليهم، والثمار التي سيجنونها متى نجحت الحركة. غير أنني أسارع فأقول أيضاً إن قوة الحركة إنما تعتمد أساساً وفي المقام الأول على المخلصين الأتقياء لا على الإنتهازين، وعلى مَنْ هم على استعداد للتضحية بالنفس في سبيل القضية لا على مَنْ مِنَ المؤكد أنه سيهجر القضية فور أن يتيّن عقبات ضخاماً تعترض سبيل نجاحها، أو يلمس أن مصالحه الشخصية قد باتت مهددة.

فالإيمان إذن هو المطلوب الأول. . وإيمان الفرد بقضية مقدسة - كما ذكرتُ لتوي - هو إلى حد بعيد بديل عن إيمانه المفقود بذاته. . ومن المؤكد أنكم لاحظتم أنه كلما تضاءلت مبررات ثقة المرء بنفسه ومناقبه، عظم استعداده لأن يُضفي المناقب والفضل على أمته، وعلى دينه، وعلى جنسه، وعلى قضيته.

كذلك لا بدّ قد لاحظتم أنه كلما فقد الإنسان إيمانه بجدوى شؤونه الخاصة، تحوّل إلى الاهتمام بشؤون الآخرين، وإلى الاعتقاد بأن من واجبه المقدس أن يتدخل في أمورهم الشخصية، في لهوهم وجدّهم، في مأكلكم ومشربهم، في طول لحاهم أو طول جلايبهم. وهو في أقدامه على إفساد حفل بإحدى الجامعات، تكسير آلات موسيقية، أو الحيلولة دون عرض مسرحي، أو الاعتداء على متاجر يمتلكها أقباط، يخال أنه إنما يخدم الصالح العام، وهو لا يخدم إلا ذاته. ويخال أنه إنما يمدّد المساعدة إلى غريق، وما الغريق إلا هو. ويخال أنه يعلمه إنما يثبت تواضعه وإنكاره لذاته واستعداده للتضحية بها، والحقيقة أن زهوّه بذاته الجديدة لا يدانيه زهو الطاووس، وأنه لو نفذ البحر لما نفذ كبرياؤه وخيلاؤه. قد حسبوا أن الله لا يرحمهم حتى يعذبوا أنفسهم ويأخذوها بالقسوة. وأظهروا التواضع في سلوكهم وحديثهم وأكثروا الكبر في قلوبهم، وإن أحدهم لأشدّ عُجباً بكسائه المرقع من صاحب الحلة الثمينة بحلته

طبيعة التطرف :

ثم أمضي فأحدثكم في طبيعة التطرف . . قد قلتُ إن فشل المرء في تحقيق آماله ومطامحه، ووصوله بسبب الإحباط إلى اقتناع بأن حياته قد غدت خالية من المعنى، يخلقان لديه حاجة ماسة إلى الانتقال إلى خدمة قضية خارج ذاته . وما كل أشكال الحماس الزائد والتطرف وإنكار الذات والولاء المطلق إلا من قبيل تعلق المحبط بشيء يضيف المعنى على حياته، ويجدد لديه الثقة والأمل . وإذا أن هذه الحاجة هي الأولى من بين احتياجات الإنسان، وأن إثبات الذات قد يفوق في ضرورته ضرورة الطعام والماء، فإن التعلق بهذا البديل لا بد أن يتخذ سمة التفاني والتعصب والتطرف، وأن يصبح الأمر مسألة حياة أو موت . وهذا الاستعداد لدى الفرد للموت في سبيل القضية التي جذدت لحياته معناها، هو نفسه أقوى دليل في نظره على أن هذه القضية هي أعظم القضايا قدسية وأنصعها حجة .

قد يتساءل أحدكم : ولكن، أية قضية؟ وإجابتي هي : أية قضية . . المطرقة والسندان، الصليب، الهلال، الصليب المعقوف، راية مصر الخضراء بهلالها ونجومها الثلاثة . . كلها قضايا لها سمة الدين، وطقوس الدين، ولها عقيدتها وقديسوها وشهادؤها ومحاربتها ونبئها الملهم أو الموحى إليه . وكلها مما يمكنه أن يشبع حاجة الشباب القلق الضائع إلى شيء يؤمن به . وحيث أن كل هذه القضايا وغيرها تجتذب إليها نفس النوع من الشباب، فجميعها متنافسة فيما بينها في مجال تصيد الأنصار، في مكاسب هذه خسارة لتلك، كما يصبح من المنطقي ومن الممكن بالتالي أن ينتقل هذا الشاب، ويكل يسر، من الولاء لقضية إلى الولاء لأخرى، وأن يتحمس للثانية تحمسه للأولى، ويضحي على استعداد للموت هنا كما كان على استعداد للموت هناك . وقد رأينا في التاريخ كيف تحوّل شاول بطبيعته النارية من اضطهاد المسيحيين ليصبح القديس بولس أحد أعمدة المسيحية، وكيف تحوّل عمر بن الخطاب بطبيعته النارية من اضطهاد المسلمين ليصبح أحد أعمدة الإسلام . قال هتلر في «كفاحي» : «إنه

لمن المستحيل أن يصبح البورجوازي الصغير نازياً، غير أنه من أسهل الأمور أن يتحوّل الشيوعي المتحمس إلى النازية». كذلك فقد كان كارل راديك الزعيم البلشفي يرى في الشباب النازي جنود المستقبل في صفوف الشيوعية!

ونحن نحمد الله على أن الحزب الوطني في مصر ليس ذا قضية يمكن للشباب المصري أن يتبنّاها ليموت في سبيلها! كما نحمد الله على أن قضايا الأحزاب الأخرى قد ضلّت وماعت، ولم يعد في الساحة غير حركتنا الإسلامية مما بوسعه أن يجتذب المُحبّطين، وأن يبعث الأمل في غدٍ مشرقٍ في قلوب الفاشلين واليائسين.

في ألمانيا، رأى كبار الرأسماليين من رجال الصناعة في رعاية نموّ النازية أنجع وسيلة لضرب الديموقراطيين الإشتراكيين. وفي إيطاليا رأى ساستها في دعم التعصّب الكاثوليكي أفضل سبيل لصدّ الزحف الشيوعي. . غير أننا في مصر، والله الحمد، لا نرى ساسة ولا مفكرين ولا غيرهم يخططون لطرح فكر بديل عن فكرنا في الساحة الأيديولوجية، يمكنه أن يلهب مخيلة الشباب، ويصدّ الأنصار عن الانخراط في صفوفنا.

الهجرة والجريمة:

وأودّ الآن أن أذكر ملاحظة طريفة: إن الهجرة إلى خارج الوطن نهىء للفاشلين المحبطين نفس الآمال التي يُهيئها انضمامهم إلى جماعاتنا الدينية؛ الأمل في التغيير، والأمل في بدء حياة جديدة في أرض الميعاد. ولذا فإن كلاً من المهاجرين وأفراد جماعاتنا هم، في الجوهر، نفس الصنف من الناس. وليس من الغريب أن يتخذ التطرف الديني هو أيضاً شكل الهجرة حتى مع بقاء أصحابه داخل حدود الوطن. . هي هجرة «داخلية» إذن. . والمهاجر عن مصر يُتبع تحقيره لمجتمعه بالرحيل عنه، في حين يُتبع المتطرف تكفيره لمجتمعه بالهجرة الداخلية. فهنا «تخفيف وهجرة»، وهناك «تكفير وهجرة». وليس من

المصادقة على الإطلاق أن يشهد مجتمعنا في توقيت واحد اتساع نطاق الهجرة واتساع نطاق الانضمام إلى الحركات الدينية.

والأطراف من ذلك ما يتصل بالجريمة. ففي نفس الفترة التي زادت فيها جرائم القتل والسرقة والنصب وانتهاك العرض وغيرها في مصر زيادة كبيرة مفاجئة، زاد لجوء أفراد الجماعات الدينية إلى أعمال العنف والإرهاب والاعتقال وإحراق الكنائس. هذه باسم الشيطان، وتلك باسم الرحمن. وهنا أيضاً نجد الاقتران الزمني ليس من قبيل المصادفة. فالأوضاع الاجتماعية السائدة قد أسهمت في زيادة عدد العناصر الإجرامية. والكثيرون من هؤلاء المجرمين، بانضمامهم إلى الجماعات الدينية، قد أخفوا عن أنفسهم تلك النزعات الإجرامية الكامنة فيهم بإلباسها ثوب الدين والتقوى ومخافة الله وطاعته، فأمكن لهم بذلك الاحتفاظ بالنزعة الإجرامية وبسكينة الروح في آن واحد. وهو دافع بوسعنا أن نستغله أعظم استغلال في التخلص من بعض أعدائنا، وإرهاب البعض الآخر، وذلك باستدراجنا للمجرم الذي هو على استعداد لقتل امرأة عجوز من أجل حُلِيِّها، لتنفيذ اغتيال الشيخ الذهبي أو محاولة اغتيال حسن أبو باشا ومكرم محمد أحمد، و«الفتوة» ذي النزوع العارم إلى إثارة الشجارات أو الدخول فيها، وتحطيم المتاجر وتكسير الفوانيس بالشوارع، لتنفيذ تفريق الفرق التمثيلية، وتحطيم الآلات الموسيقية، وإشعال النار في نوادي الفيديو.

أعواننا:

المجرمون إذن، والفاشلون المحبطون، والعاطلون والمراهقون، وكل من أُلْقِيَ صعوبة في التكيف أو النجاح في مجتمعه، هم أعواننا الحاليون والقادمون. قد جمعت بينهم الكراهية لهذا المجتمع، فصاروا على أتم الاستعداد لهدمه وإشاعة الفوضى فيه، والتكاتف فيما بينهم لتخريبه، طائنين أن يد الله فوق أيديهم، وما فوق أيديهم إلا أيدينا. وبذا يضحي الحجر المرفوض

ركن الزاوية، لمجرد إيحائنا إليهم أن كافة آمالهم المحبطة مستحقّ فور وصولنا إلى الحكم.

لا تضيّعوا إذن وقتكم في محاولة استمالة العامل المباير، أو الفلاح القانع، أو الموظف الجاد، أو أيّ امرئٍ أعفاه جدّه ومثابرته - مهما بلغ به الفقر - من الإحساس بالضيق. ولتركّزوا بالأخص على أفراد الطبقة البورجوازية التي باتت اليوم في رُعبٍ من أن تتحوّل إلى بروليتاريا بسبب الأحوال الاقتصادية الراهنة.

وثمة صنف آخر من الناس - من جميع الطبقات - لا بدّ من أن تولوهم اهتمامكم، وأعني أولئك الذين يخشون نعمة حرية الاختيار، بل ويمقتونها. وهم بحمد الله أكثر مما تظنّون. فالحرية عبءٌ على من لا موهبة لديه في أن يصنع من نفسه شيئاً، ومن شأنها أن تُلقِي بتبعية الفشل على عاتق الفاشل لا على الظروف المحيطة به. وقد وصلتُ إلى إيمان بأن غالبية الناس إنما تنضم إلى جماعاتنا الدينية ليتحرروا من حرّيتهم، وفراراً من المسؤولية الشخصية. هم يخشون الحرية أكثر مما يخشون اضطهاد السلطة وسُجونها، وأخوف ما يخافونه هو تلك المنافسة الحرة المعروفة في كل مجتمع حرّ، والتي من شأنها أن تفضح حُجُزهم وافتقارهم إلى القدرات. وبالتالي يصبح جماعٌ همهم أن يتحوّلوا إلى تروس بلا هويّة في جماعة تسودها المساواة، أو إلى خيوط بين خيوط جمّة في ثوب أو قماش، لا يمكن التمييز بين هذا الخيط فيه وغيره.

كذلك ينبغي التركيز على أولئك الطلبة والعمال الوافدين من الريف إلى المدن الكبيرة للدراسة أو العمل، مخلفين وراءهم دماء الحياة العائلية الآمنة التي هي الدّ أعداء حركة كحركتنا. وقد علّمنا التاريخ أن جلّ الحركات الثورية كان يقف من العائلة موقف الخصومة والعداء، وأن رجالها كانوا دائماً يعملون جاهدين من أجل الوقعة بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنه، حتى

يضحي في النهاية بمفرده، وحيداً في محيط لا يأمن له أوفيه، فيسهل بذلك على الدعاة اصطياده. وما من شك في أنه من أقوى الاعتبارات التي ساهمت في نجاحنا ما شاهدته المجتمع في عهد ثورة يوليو من انهيار الولاءات القديمة، وحظر قيام الأحزاب، وتحلل الروابط الأسرية والاجتماعية التقليدية، وكثرة الشازحين من الريف إلى المدن ممن اضطرت نفوسهم، وضاع إحساسهم بالأمن نتيجة لهذا الزواج. وهو نفس الحال مع الجنود المسرّحين من الجيش.

أهمية تحقيق الحاضر وتمجيد الماضي والمستقبل:

أشدّ ما تخشاه السلطة من حركتنا ويُقلق بالها، ذلك الاستعداد الرائع لدى أفراد الحركة للتضحية بالنفس، بل وللموت في سبيل القضية، وذلك التنظيم الوثيق الذي يربط بينهم، والذي لولاه لما نما الاستعداد للتضحية بالنفس. فتدريب الأفراد على العمل الجماعي تدريباً على إنكار الذات، والتنكر لحياته الخاصة، ولحقه في التفكير الحر واستقلال الرأي، وتدريب على احتقار الموت. واحتقار الموت له شرطان: احتقار الحاضر، وتوهم المرء بأنه جزء من حركة تاريخية بالغة الأهمية، أو من تمثيلية رائعة الفخامة، وحلقة صلبة بين ماضٍ مجيد، ومستقبل مجيد، في حاضر تافه بغيض. وكل هذا يتطلب عدة أمور: محو شخصية العضو وإحساسه بالتفرد والتميز، وضمان ألا يستشعر الفرح والأسى، أو الفخر والثقة، إلا من خلال جماعته وقدراتها ومقدّراتها، وأن يشعر دوماً بأن أعين رؤسائه ورفاقه تراقبه.

تحقير الحاضر ووصمه بالبؤس، وتسفيه المجتمع ورميه بالكفر، لا زمان لاستثارة شجاعة أنصارنا وتوهمهم أنهم لا يخشون كثيراً بفقد حياتهم. غير أننا لن نكتفي بالقول وتكراره في هذا المجال. وإنما ينبغي على القادة أيضاً أن يضمنوا أن تكون حياة أتباعهم خشنة غليظة، قاتمة مملّة، لا لهُو فيها ولا متعة ولا راحة. علينا أن نصوّر لهم التسلية على أنها تافهة لا تليق بجلال قدرهم، والسعي وراء السعادة الشخصية على أنه من وساوس الشيطان، وأن نخترع

الأحاديث في تحريم الموسيقى والغناء والرقص والعروض المسرحية وكل ما من شأنه أن يروج عن النفس، ويخفف من عبء الحياة. ولتسهيل كل هذا فلنوجه أنظارهم دوماً للتطلع إلى روعة المستقبل الذي ينتظرهم، وأمجاد الماضي التي سيُحيونها. وبوسعي أن أؤكد لكم أنه من السهل جداً إقناع هؤلاء بأن في مقدورهم أن يقوموا بما قام به أبو بكر وعمر بن الخطاب، ويحققوا ما حققه صلاح الدين أو خالد بن الوليد. ذلك أنه ما من صعوبة في أن نخدع من أقدم سلفاً على خداع نفسه، بل ويطالبنا يومياً بأن نخدعه ونستمر في خداعه، حتى يطمئن ويستريح، وحتى يُلقى مسؤولية الفشل حين يفشل على قوة الجاهلين ويطش أعوان الشياطين، ويُرجعه إلى هول أبعاد المهمة الجسيمة الملقاة على عاتقه، في حين يؤدي فشله في مهام الحياة العادية؛ في الدراسة أو الوظيفة أو التجارة، إلى افتضاح قصوره الذاتي وضحالة قدراته.

قد كان إقناعه سهلاً لأنه كان مقتنعاً سائماً من قبل أن نحاول أن نقنعه. وسيكون خداعه سهلاً لأنه متهيئٌ لذلك سلفاً من قبل أن نحاول خداعه.

.. وأهمية إذكاء الكراهية :

قد لا ترى بعض الحركات الثورية الجماهيرية - كالشيوعية والفاشية والنازية - حاجةً إلى الله. غير أنه ما من حركة ثورية في التاريخ كله كانت في غنى عن الشيطان. وإنما تُقاس قوة الحركة بقوة كراهية أعضائها لعدو جسد لهم تجسيدا، يرون فيه مصدر بلائهم وأصل داءهم.. دليل ذلك أننا حين نحَبُّ لا نتلفَّت حولنا بحثاً عن حلفاء، بل وننظر إلى من يشاركنا في هوى المحبوب باعتباره غريباً ومنافساً. أما حين نكره، فنحن دوماً في حاجة إلى من يشترك معنا في مشاعر الكراهية، وإلى أكبر عدد ممكن من هؤلاء حتى تقوى ثقتنا في أننا في كراهيتنا قد أصبنا عين الحق.

وأفراد جماعاتنا بما دُرِّبوا عليه من إنكار الذات، والتضحية بالمتع والملذات، وبشظف حياتهم وخشونة معيشتهم، يسهل عليهم أن يكونوا

شديدي القسوة والمرارة في حقدهم وكراهيتهم للآخرين، خاصة إن خالوا أنهم أسعد منهم، وأرضى نفساً، وأوفر حظاً من النجاح في الحياة وفي تحقيق ذواتهم. وقد قيل عن الثَّوار إِبَّان الثورة الفرنسية أنهم كانوا كلما أمعنوا في كراهيتهم لأعدائهم، وفي قطع الرقاب وسفك الدماء، زاد إيمانهم بصحة مبادئهم. وهو ما يثبت ضرورة الكراهية والعنف ليس فقط في إرهاب الأعداء وقمع الخصوم، وإنما أيضاً في تعزيز إيمان الإرهابي بعدالة قضيته، كما تعززه كثرة الأعضاء في جماعته. أو كما قال مونتيني في إحدى مقالاته: «بوسع الحماس الزائد أن يصنع المعجزات، ولكنَّ شريطة أن يستند إلى ما جُبلنا عليه من القسوة ومشاعر الكراهية».

السلطة والتطرف:

أيها السادة،

تساءل بعضكم في اجتماع الأسبوع الماضي عما إذا كان من المحتمل أن تلجأ السلطات الحاكمة في يوم من الأيام إلى موجة عارمة من إجراءات العنف والقمع تجاه حركتنا الجماهيرية، وعن احتمالات نجاح هذه الإجراءات. . وأجيب الآن صراحةً أن أية حركة جماهيرية من الممكن قمعها واستئصالها بالعنف مهما بلغت قوتها وشعبيتها، ولكنَّ بشرطٍ أساسي، هو أن يتوفر لهذا الحزم الثبات والدوام والقوة، بالإضافة إلى إيمان قوي لدى رجال السلطة (يعادل في قوته إيمان أفراد جماعاتنا) بأن الحق في جانبهم، وأنهم إنما يقاومون خطراً رهيباً يهدد مستقبل البلاد.

ونحن نحمد الله أن هذا الشرط لم يتحقق إلى وقتنا هذا، وأنَّ عنف السلطة وحزمها تجاه التطرف لا يزالان على تذبذبهما وترددتهما وتقطعهما وضعف الإيمان وراءهما، وهو ما يضمن لنا أنهما لن يحققا طائلاً، ولن يدوما طويلاً. وقد علّمتني الحياة أنه متى تذبذبت السلطة بين العنف والتساهل، والمكافحة والمصالحة، والتشدّد والتنازل، فسيكون من المقدر للحركة أن تغيق

دوماً بعد كل كبوة، وأن تستردّ قوتها بعد كل هزيمة، بل وستزيد هذه القوة بعد كل مواجهة عنيفة معها، بالنظر إلى اكتسابها خبرات جديدة، واكتساب ضحاياها حالة الشهداء الأبرار نتيجة كل صدام.



أيها السادة،

أشكر لحضراتكم صبركم وحسن استماعكم. وسيُفتح باب المناقشة بعد استراحة قصيرة تُقدّم خلالها المرطبات.

وفقكم الله . . .

خاطرات على ضفاف الراين

عند القنصل المصري في بون. . . دخل علينا أثناء حديثنا شاب ألماني غاضب، يسجل شكواه من أمر وقع له أثناء جولته السياحية بمصر.

قال إنه في يوم ٣ مارس توجه إلى مكتب للتلغراف بالقاهرة، كي يرسل إلى أبيه في ميونيخ برقيةً يهنئه فيها بعيد ميلاده السبعين. وقد تسلم منه البرقية موظف يدعى صالح، كان بالغ الظرف والأدب معه، وطمانه إلى أن البرقية ستصل والده يوم عيد ميلاده الموافق ٤ مارس، ثم تقاضى منه مبلغ ثمانية جنيهات وعشرة قروش أجراً لها، مقابل إيصال مختوم أرائنا الشاب إياه.

عاد الشاب إلى ألمانيا فإذا والده يوبخه توبيخاً عنيفاً إذ قد نسي أن يبعث إليه بالتهنئة في عيد ميلاده. فالبرقية إذاً لم ترسل. والغالب أن يكون الموظف، رغم ظرفه وأدبه، قد احتفظ بالمبلغ لنفسه. وهو يطالب الآن القنصلية المصرية برد قيمة ما دفعه بالمارك الألماني، وإلا فقد احترامه للشعب المصري، وعاهد نفسه ألا تعاد قدماء مصر مرة أخرى.

لم أملك نفسي من الابتسام بعد الاستماع إلى القصة. إذ أين يمكن أن نجد مثلاً أصدق من هذا لعجز أبناء البيئات الحضارية المختلفة عن فهم بعضهم البعض؟ فهنا موظف مصري بائس مطحون، ليس واسع الذمة بالضرورة. ولو أن البرقية كانت خاصة بحادث وقع، أو أزمة مالية يطلب الشاب من والده إنقاذه منها، لكان من المؤكد أن يرسلها الموظف. غير أنها مجرد تهنئة

بعيد ميلاد رجل عجوز. وهو أمر لا يمكن للموظف أن يتخيل إنفاق ثمانية جنيهات من أجله. ثمانية جنيهات يمكنه أن يشتري بها لنفسه وزوجه وأولاده من اللحم ما لا يأكله إلا مرة كل أسبوع أو أسبوعين. والغالب أن الشاب الألماني سيرحل عن مصر عن قريب، ولن يعلم أن البرقية لم تُرسل إلا بعد عودته إلى ألمانيا. كما أن المؤكد أنه لن يثير ضجة بسبب ثمانية جنيهات، وهو مبلغ لا شك ناه في نظر مواطن من دولة غنية كألمانيا. أما عن الألماني فهو يراه أمراً هاماً أن يبعث إلى أبيه بتهنئة في عيد ميلاده، وأمراً مستفظعاً أن يدفع مبلغاً مقابل خدمة لن تؤدي. وهو يعتبر الموظف مجرمًا في حق دولته، ينبغي أن يفصل أو يسجن. والغالب أنه يحسب أن موظف البريد والبرق في مصر يتقاضى ما يتقاضاه زميله الألماني من أجر، أو أن موضوع المرتب لم يخطر بذهنه. وهو واثق من أن القنصلية المصرية ستعاطف مع شكواه، وستنزعج إزاء تأثير مثل هذه التصرفات في حجم السياحة إلى مصر.

تسلم منه القنصل الإيصال، ووعدته بالكتابة فوراً إلى السلطات في مصر لاتخاذ اللازم، والتكرم بالإفادة.



دلفت وزوجتي - بعد انتهاء الحفل الموسيقي بصالة بيهوفن - إلى مطعمها المطل على نهر الراين لتناول العشاء. كانت أصوات كورال سيمفونية بيهوفن التاسعة لا تزال ترن في أذني، ونشوة أقرب إلى النشوة الدينية تملأ كياني كله. . . وساءلت نفسي عما إذا كانت هناك طُرُق إلى الله أقصر من مثل هذا الطريق. ثم قفزت إلى ذهني صورة أفراد الجماعات «الدينية» المتطرفة في أسيوط وهم يحطمون الآلات الموسيقية بالجامعة، معلنين تحريم الموسيقى والغناء: أحمد عدوية وموتزارت على سواء.

جاءت الجرسونة الألمانية إلى مائدتنا تسألنا مبتسمة عن طلبنا. ثم قطعت تدوين الطلبات في دفترها لتسأل زوجتي: «أعندك برد يا سيدتي؟» فما أجبتها

زوجتي بالإيجاب حتى اختفت لتعود بعد بضع لحظات بصينية فضية صغيرة عليها كأس من النبيذ الأحمر الدافئ، وطبق صغير به قرصان من الأسبرين، وغازة نحيلة قصيرة بيضاء بها أزهار الزنبق.

في أي بلد آخر، يمكن أن تأتي هذه اللفتة الظرفية من جارسونة في مطعم؟ وابتسمتُ إذ تذكرت سائق السفارة المصرية (وهو حديث العهد بالوصول إلى ألمانيا من مصر)، وحديثه إليّ ظهر اليوم وهو يوصلني بالسيارة إلى فندقتي بوسط المدينة. قال وهو يتلفت حوله إلى الزهور والأشجار والأرصفة بالشارع الواسع:

— حسين بك!

— نعم.

— همّ موش كانوا يقولوننا زمان إن مصر أمّ الدنيا؟

— صحيح.

— أمال ألمانيا تبقى أم مين؟



غير أن تفكيرى - تحت تأثير بيتهوفن - سرعان ما عاد إلى حكاية أسبوط، وبالأخص إلى مقالات استنكار الفعلة في الصحافة المصرية. وجدت غضبي على المتخلفين الذين حطموا الآلات الموسيقية أخفّ حدة من غضبي على «المستيرين» الذين أدانوا هذا التحطيم مستندين إلى سندين لا ثالث لهما: أن الأحاديث التي تحرّم الموسيقى والغناء أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وأن ثمة أحاديث «صحيحة» تحللّ الموسيقى والغناء، وقصصاً في السيرة النبوية تثبت أن محمداً، أو إحدى زوجاته، أو أحد العشرة المبشرة بالجنة، كان يستمع إلى الموسيقى والغناء ويستمتع بهما.

إلى هذا الحد من التخلف إذن قد بلغنا! إثبات قضية من القضايا قد بات عندنا محصوراً في إثبات ورود حديث بصدها أو نفي ورود حديث. قد أفهم عداء قوم متخلفين للغناء والموسيقى بسبب ما يخالونه حديثاً صحيحاً. غير أنني لا أفهم أن يأتي دفاع «المستنيرين» عن الموسيقى والغناء مستنداً إلى حديث أوسيرة لا إلى اعتبارات العقل والمنطق.

هل بوسعنا أن نتخيل شاباً ألمانياً يتحدث عن الموسيقى على النحو التالي:

«إنني شديد الولع بالموسيقى لأنني قرأت أن مارتن لوتر - قدس الله روحه - مرّ يوماً هو وزوجته بقوم في قرية قرب فيتنبرج يعزفون ويغنون، فشرعت زوجته تغني مع القوم، بينما وقف لوتر أمامها وهو يهزّ رأسه استحساناً. وفي قول آخر، ظل يدقّ الأرض بمقدمة قدمه مسائراً للنغم. أما عن ثقتي من أن الموسيقى هي من أهم الفنون طراً وأجداها على البشرية فنباعة عن القصة التي أوردها إدموند لودلو، عن هنري لوتريل، عن أوين فليتهام، من أن بعض رفاق لوتر سألوه يوماً «ما قولك يا مارتن في بابا روما الذي يكره الموسيقى؟» فأجاب لوتر: «دعوكم منه، فهو لا يفقه شيئاً». (وهو حديث متفق عليه).

هل يمكن أن نصادف ألمانياً يتحدث على هذا النحو؟ المعرفة عند الفرنجة هي استخدام المعروف في إمطة اللثام عن المجهول. والمعرفة عندنا معشر المسلمين قائمة جاهزة كاملة بين أغلفة الكتب، وكلما كانت الكتب أقدم كانت المعارف أصح. هذا هو موقف متخلفينا ومستنيرينا على سواء. قد لا أعبأ كثيراً بالقرار المتخذ بشأن تحريم الموسيقى أو تحليلها، غير أن الكارثة الحقيقية في رأيي هي في المنهاج، صحته أو فساده. وقد بدأت الحضارة الغربية الحديثة حين شرع فرانسيس بيكون في مستهل القرن السابع عشر بتشكك في النتائج التي وصل إليها أرسطو (وكانت من المسلّمات في القرون المظلمة)، فأصرّ على رفض المسلّمات، وإخضاع كل شيء للتجربة ولإعمال

العقل والتفكير. . فإن كان موقف مستنيرينا في القرن العشرين على ما هو عليه، فمن ذا الذي سيعدّ أمتنا يا ترى لاستقبال القرن الحادي والعشرين؟
يا معشر العلماء، يا ملّح البلد ما يصلح الجُلّح إذا الملحُ فسَد؟



على الشاي مع المستشرقة الألمانية أنا ماري شيميل. سألتني عن خلاصة رأيي في الجماعات الإسلامية المتطرفة، فأجبت:

— حين يفقد المرء احترامَ الغير، يوحى لنفسه بأنه يتمتع برضا الآلهة!

— فسُر؟

— إن كان من شأن تطوير الدين أن يخفّف من حدّة الصراع بين أهله وبين الظروف والأحوال المعيشية والقيم المستجدة، فإن هناك من العوائق ما لا يسمح باستمرار هذا التطوير إلى ما لا نهاية. . من هذه العوائق:

● أن ثمة حدود للتطوير والتأويل تكاد الكافة أن تجمع على أن تجاوزها يمثل خروجاً على الدين.

● لجوء الفقهاء لظروف معينة إلى قفل باب الاجتهاد.

● ظروف تسمح بغلبة علماء الدين المتمرّتين ضيق الأفق، وبسيطرتهم على الحياة الفكرية في مجتمع معين.

* جمود وانغلاق وعزلة طويلة الأمد تسمح باستمرار العقيدة دون تطوير، ودون احتمالات صراع. وقد تنتهي هذه العزلة فجأة (نتيجة غزو عسكري وحضاري قوي مثلاً، كذلك الذي تعرّض له العالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر) فتدقّق على ذلك المجتمع قيم ومفاهيم شديدة الاختلاف، ودون تدرج أورفق، بحيث لا يسهل هضمها واستيعابها وتبنيها. أما السبب في شدة التباين في القيم فهو انعدام أو ضعف

الاتصال والتأثير المتبادل التدريجي بين المجتمعين لقرون طويلة .

وقد تكون الصدمة الحضارية هنا من القوة والقسوة، والفجوة بين المفاهيم من الاتساع، بحيث يعجز الكثيرون عن مواجهة هذه عبور تلك دون التعرض لخطر فصام الشخصية، فيفضّلون التمسك بما ألفوه على محاولة التكيف والتأقلم وملاءمة الفكر للأحوال الجديدة. وبالتالي، وبسبب هذا الموقف الذهني، تبدو عقيدة هؤلاء عاجزة عن مسايرة العصر، وتبدو لغيرهم عقبة في سبيل التطور والتقدم والمعاصرة والتكيف وفق تطورات حتمية. وهنا ينشأ عادة صراع مرير بين الرجعيين والمستبشرين، بين رافضي التطوير وقابليه، تكون ثمرته مرارة شديدة لدى جماعتيهما، وشك عميق من جانب كل طرف في نوايا الآخر، ورد فعل عنيف من جانب البعض يتمثل في هجر الدين بأسره باعتباره من الأوهام البالية، ودعوة إلى تشييد صرح فكري جديد على أنقاض العقيدة الدينية. وغالباً ما يكتب النجاح لهؤلاء الأخيرين، بحيث يتحوّل أنصار التشبث بالقديم إلى جماعة من المتخلفين عن ركب الحضارة. غير أن جماعتهم لا تستسلم بسهولة للمصير الذي تدرك لا شعورياً بأنها آيلة إليه. وهي في نفس الوقت لا تملك الإمكانات العقلية والروحية التي تؤهلها لتجنب هذا المصير بانتهاج سبيل غير السبيل الذي اختارته مضطرة بسبب ضعف هذه الإمكانات. وهنا يحدث لها ما يمكن تشبيهه بصحوة الموت، ويتحول أفرادها من الاعتدال والجدال المهدّب الواصل من نفسه، ومحاولة التوصل الهادئ إلى حقيقة الأمور، إلى العنف وأعمال الإرهاب والاغتيال والبطش بالمخالفين، وتكفير المجتمع، والتجمع في إطار جماعات دينية متطرفة، كمحاولة أخيرة بائسة لإثبات الحق في البقاء.



تمشية طويلة على ضفة نهر الراين . . ليس ثمة أجمل من المناظر إلى

يمينك غير المناظر إلى يسارك. . الأزهار والورود في أحواضها لا يعث بها عابث، ولا تمتد إليها يدٌ إلا بالرعاية. . فالأزهار تُترك حتى تذبل على أغصانها ويستقبل الثري أوراقها. . فيا ألف حسرة على الأزهار في الشرق. . وعلى الإنسان في الشرق. . . أب وأم قد خرجا بطفلهما الرضيع لاستقبال أشعة الشمس وكلبهم على مقربة منهم يعدو ويلهث جيئةً وذهاباً في ابتهاج. . . لفيف من السيدات في السبعين أو الثمانين في ثياب ريبعية الألوان، وقبعات أنيقة، يسترحن على المقاعد من سيرهن، وإذا أقترب منهن أسمعهن يتحادثن في أشعار هايني. . شاب وفاتة على دراجتيهما يتحادثان مبتسمين وقد أمسك كل منهما بعجلة القيادة بيد، ويد رفيقه باليد الأخرى. . قد عشتُ فيما مضى سنوات بين ظهرائي هذا الشعب، فما رأيت من بين شعوب الأرض من هو أظهر وأعف منه عشقاً، ولا رأيت رجلاً أحرص من الرجل الألماني على النظر إلى المرأة باعتبارها بشراً، ورفيق حياة، وأختاً في الحياة الإنسانية، لا موضع شهوة، ولا رمزاً جنسياً، ومحَلّ تحكم واستعباد. . . ومع ذلك فإن بعض السائحين العرب ممن يقدمون إلى هنا بحثاً عن المتع الجنسية، وعيونهم تكاد تقفز من محاجرهما كلما لمحوا فستاناً في الطريق، لديهم من القحة ما يجعلهم عند عودتهم يتحدثون عن انحلال الأخلاق الجنسية هنا بالمقارنة بأخلاقيات مجتمعنا الطاهر.

وأعود من الجولة إلى فندقي فأدير التليفزيون للاستماع إلى نشرة الأخبار. . القوم مشغولون بإجراءات الاستعداد للوحدة الأوروبية عام 1992، واجتماعات وزراء مالية واقتصاد وزراعة وصناعة وتجارة دول المجموعة. غير أن الأولوية في أنباء الساعة هي كالعادة للشرق الأوسط والعالم العربي! مناظر مرعبة لضحايا الأسلحة الكيميائية في شمال العراق. . أفراد عائلة كردية أموات حول مائدة طعامهم. . أم ميتة تحتضن طفلتها الرضيعة الميتة على أسفلت الطريق. . شيخ جاحظ العينين قد أسند ظهره إلى حائط البدروم الذي آوى إليه متوقفاً أنه سيعصمه من الموت. ثم أنباء قصف المدن في حرب الخليج:

المباني الأثرية في عروس الدنيا شيراز التي ألهمت أشعار حافظ وسعدي في خراب، وكذا آثار أصفهان... والأحياء السكنية في بغداد و طهران والبصرة وغيرها، وحول المباني المتهدمة فيها يقف ساكنوها السابقون حياري يلطمون.. ثم أنباء الطائرة الكويتية المختطفة والخاطفون يلقون منها في مطار لارناكا بجثة إنسان في كيس قمامة إلى أرض المطار.. ثم أنباء الصدمات بين حزب الله ومنظمة أمل في لبنان.. وأنباء عن تدفق الصبية السودانيين اللاجئين من حرب الجنوب في السودان إلى أثيوبيا والصومال.. ثم مناظر عن استعدادات الصحراويين في تندوف لشن هجمات جديدة على المغاربة..

وتقفز إلى ذهني قولة رسول الله للأوس والخزرج يوم تنادوا بالمدينة لقتال بعضهم البعض: «يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وألف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً!!؟ الله الله!!».. ولكن هيهات! فزغاريد النصر التي سمعناها بالأمس في طهران إنما تسجل إبادة جيش من المسلمين لجيش من المسلمين. وزغاريد النصر التي نسمعها اليوم في بغداد إنما تعبّر عن فرح إذ يقوم مسلمون بتدمير ثروات المسلمين. وكل من هؤلاء وأولئك إنما يستعينون على هذه الإبادة وهذا التدمير بأسلحة يزودهم بها فرنجة لا يريدون لأولئك أو هؤلاء الخير، ولا يهمهم في شيء أيّ الفريقين على حق في غضبه وفي حربه، وإنما يهمهم إنهاك قوى الفريقين، وتبديد ثرواتهم، وإنهاك قوى الإسلام، وتبديد قدراته وإمكاناته.

وأهرع إلى كتاب المنقري «وقعة صفّين» لأعيد قراءة هذه الكلمات لأحد المسلمين الذين حضروا الحرب بين عليّ ومعاوية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولأنظر فيما إذا كان فيها حرف واحد لا ينطبق على حال الأمة الإسلامية اليوم. قال:

«كانت حياتنا ورقاً لا شوك فيه فأضحت شوكاً لا ورق فيه.. خيار الناس يقتلون خيار الناس، دعوتهم واحدة، ورسولهم واحد، وصلاتهم واحدة،

وحجّهم واحد . وكل فريق يرى أنه على الحق فيما يطلب ، وأنه إنما يغضب الله ويقاتل في سبيل الله ! ألا والله لقد هلكت العرب ! سبعون ألف مسلم في القتلى ! ! فمن لقتال المشركين إن فني الناس ؟ من لحماية الشام بعد أهل الشام ، وحماية العراق بعد أهل العراق ؟ لو دُتُّ أنهم قُتلوا في سبيل الله في حرب الروم ، وما أرى غير أنه سيجيء الفرقاء يوم القيامة تنضح أوداجهم دماً ، كلهم يستعدي الله فيما أريق دمه . . يقول عليّ إن العراق لن يستقيم أمره إلا بهلاك الشام . ويقول معاوية إن الشام لن تستقيم أمره إلا بهلاك العراق . . وما خيرنا بعد ضياع الشام والعراق ؟ الله الله في الإسلام يا رجال ! الله الله في الثغور ! أكلتنا الحرب وقُتلت الرجال ، وسبحتم في الدماء وما أضجركم القتال ؟ ألا أَيْتَمَ الله منكم أولادكم كما أَيْتَمَ أولاد المسلمين ! سيوف المسلمين قد أرصدت لقتال العدو لا لقتال الصديق . . ولكن لا رأي لمن لا يُطاع ! لا رأي لمن لا يطاع !



في جريدة الصباح (دي فيلت) تصريح للحكومة الألمانية تعترف فيه بأنها هي التي زوّدت العراق وإيران بالمواد التي صُنعت منها الأسلحة الكيميائية وإن كانت قد زوّدتها بها لصناعة المبيدات الحشرية لا الأسلحة ! . . لا بأس ! ما عليكم ! هي لا تزال مبيدات حشرية . . كما أن أكياس القمامة الملقاة من الطائرة المختطفة لا تزال أكياس قمامة . .



برنامج ديني في إذاعة كولن العربية . سؤال من مستمع يمني يجيب عنه أحد شيوخ المركز الإسلامي بمدينة كولن :

السؤال : استخدام التليفون ، حلال هو أم حرام ؟

الإجابة : استخدام التليفون حلال إذا ما استُخدم فيما أحله الله ، كتهنئة

قريب، أو تعزية صديق، وحرام إذا استخدم فيما حرّمه الله، كاتفاق على منكر، أو تهديد بمكروه... قال تعالى...

لا بأس! ما عليكم! وما ضرّ الألمان أن يذيعوا في إذاعتهم العربية الإجابات السخيفة على أسئلة سخيفة ما دامت هذه الأسئلة هي كل ما يشغل أذهان شعوبنا المتخلفة..



في مقهى «بونار كافي هاوس» مع صديق مصريّ يعمل بالسفارة.. شكّا لي من آلام رهيبة في المعدة تتنابه كلّ بضعة أشهر منذ حلوله بألمانيا ولا يعلم لها سبباً.. أجبتّه على الفور:

— أشاهدتَ فيلم «المهاجر» للمخرج الألماني فاسبيندر؟
— لا.. لماذا؟

— حاول أن تشاهده، فهو معروض الآن بإحدى دور السينما في باد جودزبرج.. إنه عن عامل جزائري مهاجر إلى ألمانيا. وإذا يصاب بآلام رهيبة في المعدة بعد قدومه بأشهر، يهرع إلى طبيب ألماني، فإذا بالطبيب يخبره أن تسعة أعشار المهاجرين إلى ألمانيا من الدول المتخلفة يصابون بمثل هذه الآلام كل ستة أشهر، وأنه قد تبين أنه لا سبب لهما غير الصدمة الحضارية التي تتنابهن نتيجة العيش في دول متقدمة.

قال صديقي في ضيق: ماذا تعني؟ لقد عشت سنوات طوالاً في كندا وإنجلترا والإتحاد السوفييتي والأرجنتين.. وما أنا ممّن يمكن أن يُنعتوا بالتخلف، أو يصعب عليهم التأقلم والتكيف، أو يجدون الحياة في ألمانيا غريبة عليهم.

أجبتّه بقولي: ولو.. ثم غيّرت الموضوع.



في مبنى إدارة جامعة بون مع ابنتي نسرين لتقييد اسمها طالبة بالجامعة. . قلبي وقلب أمها يكادان ينفطران لفكرة افتراقنا عنها مدة أربع سنوات كاملة. . غير أنني إذ أمسكت بالقلم لإمضاء التعهد بالإفراق عليها طوال سني الدراسة، أحسست وكأنما أركبها سفينة نوح، أعود بعدها مع أمها إلى اليوم. .



في قديم الزمان، كان البحارة متى أهدقت بسفينتهم المتاعب، وأسقط في يد الریان إذ يرى اضطراب البحر وصخب الأمواج والريح، هتفوا صائحين. لا بد أن ثمة جثة قد أخفيت في أحد صناديق البضائع المشحونة على ظهر السفينة! ثم إذا بهم يشرعون في البحث عنها للتخلص منها، مؤمنين بأنها سبب محتتهم، وبأن التخلص منها بإلقائها في البحر كفيل بأن يرفع عنهم ما حلّ بهم من بلاء ولعنة.

هل أحذو حذو هؤلاء - وقد عصفت بأفطار العالم الإسلامي الرياح واضطربت الأمور واختلت الأوضاع - فأبحث عن الجثة المسؤولة في حمولة السفينة؟ لا شك في أن البحث سيكشف عن عدة جثث لا جثة واحدة. . . . غير أنني واثق من أنني سأجد إحداها وقد بلغت من الضخامة والعفن درجة لن تدع مجالاً للشك في أنها المسؤولة الأولى عما أصاب سفينة العالم الإسلامي من نقمة: ألا وهي استعداد أبناء الأمة لثمكين يد الماضي الميتة من أن تقبض على أعناقهم، وتمسك بخناقهم، وأن تتحكم قيم هذا الماضي ومعتقداته في حاضرهم ومستقبلهم.



الفجوة بيننا وبينهم في اتساع، ما في ذلك ريبة، وبسرعة مخيفة، وبرغم كل ما تبذله حكوماتنا من جهود من أجل ما أسماه أخي جلال «تحديث الفقر» في كتابه بهذا العنوان. وبوسعنا أن نلتمس للأمر آلاف الأسباب، غير أن منظرًا

واحداً هذا الصباح في شارع بسمارك الذي قصده لثقل أمتعة ابنتي نسرين إلى شقة فيه ، وضع يدي على سبب جوهرى قد يفسّر الفجوة :

سيارة مكشوفة يركبها أربعة من الشباب الألماني وقد أداروا المذياع فيها فجاء صوت الموسيقى منه أعلى مما ينبغي . . وإذ تقف السيارة عند إشارة مرور حمراء ، يتقدم من الشباب شيخ ألماني غاضب ، يعنفهم على صخب مذياعهم الذي قد يزعج المارة والسكان ، فلا يعاؤون بتوبيخه ، ولا يخفضون الصوت ، بل ويشيح أحدهم بذراعه في وجه الشيخ هائلاً . . فما يكون من الشيخ إلا أن يخرج ورقة من جيبه ، وقلما من جيب آخر ، يسجل رقم السيارة من أجل إبلاغ الشرطة . فإذا بالأربعة يقفزون من سيارتهم على الفور بعد إغلاق المذياع ، ليحيطوا بالشيخ على الرصيف ، متوسلين إليه أن يغتفر زلتهم .

أئمة ما هو أصدق دلالة من هذا الحادث على الفارق بيننا وبينهم ؟ هذا الإحساس المدنيّ ، هذا الشعور لدى الفرد بالمسؤولية عن المجتمع بأسره ، هذا الإلتزام الصارم بالقاعدة الإسلامية التي هجرناها نحن وتبنوها هم والتي تقضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هذه المبالاة ، هذا الإكتراث ، هذه الجدّية في تقييم الحياة ، أي شيء من كل هذا قد بقي لنا ونحن نردّد في كل مناسبة مماثلة . . « يا عم صلّ على النبي ! هوّه لحنا حانصلّح الكون ؟ ! » أو « خلّيسم . . دي غرقانة غرقانة ! » . .



﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيإذن الله ، وليعلم المؤمنون ﴾ .

لقد التقى الجمعان في زمننا هذا ، فأصابت العالم الإسلامي مصيبة هي من عند نفسه ، وأصبح اليوم أشبه شيء بخلية النحل التي فقدت ملكتها . . قد نرى النحل مستمراً في مجيئه وذهابه ، وقد تحسب هذه الحركة حياة . غير أننا

متى اقتربنا من الخلية لتأملها بعناية، هالتنا مظاهر الفوضى التي ضربت أطنابها فيها بعد رحيل الملكة، والتي جعلت من الأجدى التخلص من الخلية بإلقائها طعمة للنيران.



أخبار فيضان نهر الراين تشغل صفحات كاملة من الصحف هنا. تليها أخبار قصيرة عن الجفاف والقحط في أفريقيا السوداء ولايات عديدة من البرازيل. وفي المساء، حديث طبي في التيليفزيون عن كيف أن أحد الأسباب الرئيسية للموت لدى الألمان عامي 45 و 1946 كان فقر التغذية، فأوضحت البطنة اليوم والإفراط في تناول الأطعمة الدسمة أبرز أسباب الوفاة.

فيا سبحة الله! فيضان مدمر هنا وجفاف مدمر هناك. وبطنة مدمرة هنا ومجاعة مدمرة هناك. أفما هناك وسط عدل؟



زيارة للمنزل الذي ولد فيه كارل ماركس بمدينة تريو. لقد تنبأ الرجل في القرن الماضي بأنه من شأن النظام الرأسمالي أن يزيد الفجوة بين مستوى معيشة الأغنياء ومستوى معيشة الفقراء، وأن من شأن تزايد اتساع الفجوة بين الطب أن يعجل بشورة الكادحين. غير أن الواضح كالشمس أن الكثير من النظم الرأسمالية (ومنها النظام الرأسمالي في ألمانيا الغربية) قد أمكنه في القرن العشرين أن يحبط نبوءة ماركس عن طريق العمل على تضيق هذه الفجوة بشتى الوسائل ورفع مستوى معيشة أفراد الطبقة العاملة فيها، وتحقيق قدر معقول من العدالة الاجتماعية ينفي شبح الثورة ويبعد أسباب التوتر والسخط.

ومع ذلك، فإن نبوءة ماركس بدأ يظهر صدقها واحتمال تحققها في مجال آخر ما كان هو نفسه ليتوقعه أو يحلم به، ألا وهو اتساع الفجوة بين مستوى المعيشة في الدول الغنية والدول الفقيرة، مما ينذر الآن بأوخم العواقب في

ميدان العلاقات الدولية. . لقد تمكن عدد من الدول من تحقيق رفاهية في عيش شعوبها تصل أحياناً إلى حدّ البذخ، في الوقت الذي تتفاقم فيه المشكلات الاجتماعية والضائقة الاقتصادية في دول أخرى. وقد كان الفقراء في الماضي أقل إحساساً بفقرتهم، وأقل تبرّماً به، وثورة عليه من فقراء يومنا هذا الذين باتوا يدركون جيداً - بفضل الإذاعة والصحافة والسينما - كيف يعيش غيرهم في الدول الغنية المتقدمة، وما يتلقَّبون فيه من نعيم وترف. فالفجوة قد صارت واضحة لكل عين ترى وأذن تسمع. ومع وضوحها زاد إحساس الفقراء بفقرتهم، وضيقتهم بوضعهم، وثورتهم على واقعهم، إذ يُحرَمون مما يرون غيرهم يستمتعون به. وقد نما عندهم من التطلّعات والمطامح ما لم يعرفه أجدادهم، وما ليس بوسع اقتصاد الدولة الفقيرة أن يحققه لهم أو يُشبعه.

وبالتالي فقد غلب عليهم الشعور بالقهر والإحباط والسخط والمذلة، وهي مشاعر كثيراً ما باتت تجد متنفساً لها في حروب أهلية، أو حروب بين الدول المتخلّقة ذاتها، أو في أعمال عنف وتخريب، أو في عمليات إرهابية تنفّذ ضدّ مصالح الدول الغنية في الخارج، أو في أراضيها ذاتها وضد رعاياها.

وقد بدأت الدول الغنية تستشعر القلق إزاء هذه التطورات، وتدرك أن أمنها ورفدها عيشها لا يمكن الاطمئنان إلى استمرارهما ما دامت هناك شعوب ودول خارج حدودها تغلب عليها مشاعر الحسد والإحباط والإحساس بالظلم والقهر. وقد يحسب رؤساؤها والسلطات فيها أن الخطر منحسر إن هي اتخذت الإجراءات القوية لمحاربة الإرهاب، أو لمنع اختطاف الطائرات، أو عزّزت من حراسة مصالحها في الخارج، أو حدّت من دخول رعايا الدول الفقيرة إليها أو أبعدتهم عنها، أو وحدّت جهودها مع جهود غيرها من الدول الغنية لوضع حدّ لهذا الخطر المستفحل. غير أن الخطر - في اعتقادي - سيظل ماثلاً وقائماً ما دامت المظالم ماثلة، والفجوة بين الشعوب قائمة، وما دام السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في نطاق الأفراد والطبقات في الدولة الواحدة لم يتبعه السعي إلى تحقيقها بين الدول كافة.

كان المسيح يقول: «لكي تكون كاملاً، بع ما تملك واعط للفقراء». لم يقل إن هذا التصدق واجب لصالح الفقراء، وإنما ذكر أنه لصالحك أنت، ولكي تكون كاملاً. وهو بالضبط ما ينطبق اليوم حيال الدول الغنية لكي يكتمل نعيمها.



في القطار من بون إلى فرانكفورت أقرأ في مقال بالصفحة الأولى من «الهيرالد تريبيون» عن مشكلة العمال الأجانب في ألمانيا، من أتراك ويوغوسلاف وعرب. . يذهب المقال إلى أن حماس الألمان المشهور للعمل قد خبا بعض الشيء، وأنهم قد باتوا يفضلون ممارسة هواياتهم الخاصة، وينصرفون عن الأعمال الوضيعة كجمع القمامة، وكس الشوارع، والأعمال اليدوية وبيع الصحف والفاكهة والخضروات، وهي أعمال صار الأتراك والعرب واليوغوسلاف يقومون بها، إلى النشاطات القيادية في المصانع والمؤسسات. . ثلاثة أرباع العمال في صناعة السيارات الألمانية مثلاً هم الآن من المهاجرين الأجانب، والربع الألماني متفرغ فيها للإدارة والرقابة والاختراع.

ليس من المحتمل أن يكون هذا الوضع نديراً بما سيكون عليه الحال في المستقبل غير البعيد بصدد الدول المتقدمة جمعاء والدول المتخلفة جمعاء؟ أن يتخصص رعايا المتخلفة بعد انقضاء أجل الصراعات الدموية فيما بينها، وحين تكفّ في النهاية عن اختطاف الطائرات وإلقاء المتفجرات في مطاري روما وفيينا، في الأعمال الوضيعة التي يعزف رعايا الدول الغنية عن القيام بها، ويتفرغ الآخرون للفنون والرياضة والاختراع والتكنولوجيا الرفيعة، وإحكام الرقابة على المتخلفين؟

كل الدلائل الراحنة تشير إلى هذا الاتجاه.



في مطار فرانكفورت لاستقلال الطائرة الجزائرية عائداً إلى الجزائر. .
الغالبية العظمى من الركاب في انتظارها من العرب، كلٌ يحمل أحمالاً من
البضائع الألمانية. . وإذ تعلن المضيق في الميكروفون عن بدء استقبال الطائرة
لركابها، إذا بهم فجأة يهبون من مقاعدهم ويهرعون إلى الباب رقم 32، يدفع
بعضهم بعضاً دفعاً غليظاً، ولو كانوا أطفالاً أو نسوة، حتى يكون لهم السبق في
الصعود إلى الطائرة. . وتحاول المضيفة الألمانية في البداية إقناعهم بالتريث
والثبات، شارحة لهم أن المقاعد محجوزة لكل منهم، وعلى بطاقات الصعود
أرقامها، فلا داعي إذن للتزاحم والتدافع. . غير أنها إذ تفشل في إقناعهم تلجأ
إلى النهر والتفريع. . وإذ تفشل في هذا أيضاً، تلجأ بذراعيها يائسة وعلى وجهها
تعبير من الازدراء الجَمِّ. . وأحاول أنا وزوجتي أن نلفت نظرها إلى أننا لسنا من
المزاحمين المدافعين، وإلى خطواتنا الهادئة البطيئة، عساها أن تظننا من
جنسية أخرى. . غير أننا رأيناها مع الأسف تشيح بوجهها عن الجميع، وتدير
لنا ظهرها. . وهو ظهر احتكّ بمؤخرته أحد المسافرين العرب، وكأنما عن غير
قصد. . .

تاريخ الإسلام

من روايات جرجي زيدان

شهدت الفترة ما بين عام ١٨٨٢ ونشوب الحرب العالمية الأولى، ازدهاراً اقتصادياً في مصر، وقدراً عظيماً من حرية التعبير، كان لهما الفضل في إرساء الدعائم اللازمة لقيام نهضة فكرية. وقد اجتذبت هذه النهضة نخبة من العلماء والأدباء والصحفيين في الشام حيث كانت وطأة الحكم العثماني تزداد ثقلًا يوماً بعد يوم، وحيث كان المسيحيون بالأخص يلقون من الاضطهاد ما دفعهم إلى الهجرة زرافات ووحداناً إما إلى العالم الجديد، وإما إلى مصر التي باتت لها في العالم العربي مكانة فريدة لا ينافسها فيها قطر آخر.

وقد تولّد عن هذا التلاقي والتلاحق بين أفذاذ المصريين والوافدين حركة فكرية نشطة، وظهور عدد كبير من الصحف والمجلات والمطابع والجمعيات، وبزوغ نجم حشد من ألمع الشخصيات في أدبنا الحديث. وقد ساهم في إنضاج هؤلاء، وفي توسيع أفقهم ونظرتهم إلى العالم الخارجي وإلى أنفسهم، سعة اطلاعهم النسبية على الآداب الأوروبية، وتأثرهم الإيجابي بشار الفكر الغربي، مما أدى بمضي الوقت إلى هجرهم الأساليب البلاغية العتيقة، واتجاههم إلى تبسيط اللغة، وتغليب المعنى على اللفظ، واستحداث الكلمات الكفيلة بالتعبير عن الأفكار الجديدة، وابتعاد النماذج الأدبية الغربية. وكلها سمات من سمات الأدب العربي الحديث، بحيث يمكن اعتبار ذلك الجبل مؤسسه ورافع رايته.

كذلك فقد كان من أثر احتكاك هؤلاء بالفكر الغربي، أن دفعهم دفعاً إلى النظر من جديد - وعلى نحو أكثر عمقاً - في تاريخهم وتراثهم الحضاري. وكان متهم من ركز جهوده على دراسة تاريخ قطره دون غيره من الأقطار العربية أو الإسلامية، لينبري بعد ذلك للدفاع عن تطلعات هذه القومية أو تلك، عن طريق إبراز جذور مصر الفرعونية، أو جذور إيران الهندية الأوروبية، أو الجذور التركية المنبثقة عن آسيا الوسطى، بدلاً من التأكيد على التراث الإسلامي الذي يوحد بين كافة هذه الأقطار. وإنه لمن الغريب حقاً، ومن الشائق، أن يكون من أبرز الداعين إلى التأكيد على هذا التراث الإسلامي، مسيحي من لبنان، هو جرجي زيدان.

قد كان ثمة من بين مواطنيه المسيحيين، مثل يعقوب صروف وفارس نمر مؤسس مجلة «المقتطف»، من استمر معه تأثير التعليم الديني الذي تلقاه في حداثة بمدارس كالمدرسة البروتستانتية في بيروت. وكان منهم من ساورته الخشية نتيجة لما عاناه المسيحيون من اضطهاد على يد العثمانيين، من أن يؤدي التركيز على التراث الإسلامي إلى تأكيد ذاتي إسلامي يضع المسيحيون العرب من جرائه. وبقي جرجي زيدان، في ثلة قليلة، يرى أن التاريخ العربي والتراث الإسلامي ينبغي أن يكونا من المكونات الفكرية الأساسية للمسلمين والمسيحيين العرب جميعاً، ويحلم بأمة عربية تضمهم جميعاً على أساس من المساواة التامة في الحقوق والواجبات، شأن أتباع الديانات المختلفة في أقطار أوروبا الليبرالية.

وقد سعى الكثيرون غيره، كبطرس البستاني وناصريف اليازجي وابنه إبراهيم، ثم ذلك الكاتب الفذ جميل نخلة المدور صاحب كتاب «حضارة الإسلام في دار السلام» (١٨٨٨)، إلى إثارة اهتمام العرب بأمجاد تاريخهم وعظمة ماضيهم. غير أن زيدان كان أنجحهم في خلق الإحساس العميق لديهم بذلك الماضي، سواء بكتابه الكبيرين «تاريخ التمدن الإسلامي» بأجزائه الخمسة، و«تاريخ آداب اللغة العربية» بأجزائه الأربعة، أو برواياته التاريخية

الإسلامية الثماني عشرة التي عالجت تاريخ العرب منذ أواخر العصر الجاهلي (فتاة غسان)، إلى عصر السلطان عبد الحميد في القرن التاسع عشر (الانقلاب العثماني). وقد كان في هاذين وتلك باحثاً مخلصاً يغمره الإعجاب بالحضارة والآداب العربية، مع علم غزير، ونظرة شاملة، وأسلوب شائق رائق، ولغة سهلة طيعة.

وقد اتهم عدد من المؤرخين المتخصصين بعض مؤلفاته بالسطحية، ورأى رواياته تفتقر إلى التحليل النفسي العميق لشخصياتها، وأنها جميعاً قد كتبت في عجلة لا يغتفرها الباحث للباحث. غير أن هؤلاء - وإن أصابوا - ينسون أن زيدان كان رائداً في ميادين شتى، وأول من عالج من العرب بعض فنون الأدب، وأن بعض كتبه كان أول ما ألف من كتب عربية في موضوعها، ككتابه في تاريخ بريطانيا، وأنه أخذ على عاتقه رسالة تعليمية في العالم العربي، قد تبدلونا دون كيشوتية غير قابلة لأن يحققها رجل بمفرده، حتى نرى آثاره المعجزة فيها. وليس من قبيل المبالغة القول بأن ما من كاتب في أي أدب من الآداب الحديثة، شرقيها وغربيها، يدانيه من حيث وفرة الكتب التي ألفها، وتنوع الموضوعات التي عالجها.

فهو إلى جانب ما تركه من مؤلفات في التاريخ الإسلامي، وفي اللغة العربية وآدابها، ورواياته التاريخية، عمل أكثر مما عمل أي كاتب عربي آخر على نشر الثقافة الغربية، والتعريف بتاريخ الدول الأوروبية، وبث المفاهيم والأفكار الجديدة عن الحضارة والعلم والأخلاق والمجتمع. فإن نظرنا إلى قائمة بأسماء كتبه وجدنا من بينها: تاريخ اليونان والرومان، والفلسفة اللغوية، وطبقات الأمم أو السلائل البشرية، وعلم الفراسة الحديث، ومختصر جغرافية مصر، وعجائب الخلق، وتاريخ الماسونية، والتاريخ العام منذ الخليفة إلى الآن، وتراجم مشاهير الشرق، وتاريخ إنجلترا، وتاريخ مصر الجديد... الخ. وإن نظرنا إلى عدد واحد من مجلة الهلال التي أسسها عام ١٨٩٢ وظل رئيساً لتحريرها حتى وفاته فجأة عام ١٩١٤ عن ثلاثة وخمسين عاماً، (وهو عدد فبراير

سنة ١٩١٣)، وجدناه يحوي مقالات بقلمه عن تاريخ لبنان، وحصار الصليبيين لدمياط، ومقارنة بين ماكيافلي وابن خلدون، وصلة التعليم بالنظام الاجتماعي، والشيخوخة وأعراضها، والسمنة وعلاجها، بالإضافة إلى وصف لرحلته إلى فرنسا وإنجلترا وسويسرا، وفصل من روايته «صلاح الدين ومكايد الحشاشين»!

من حق كاتب كهذا ألا تسلم بعض كتاباته من السطحية، وهو الذي وصفه المستشرق سير هاميلتون جيب بأنه، وإن لم يكن كاتباً عظيماً بالمعنى الشائع، فهو «مدرّس مصر خارج المدرسة»، قائلاً إن جهوده كانت «أعظم أثراً من جهود الشيخ محمد عبده في توجيه الأدب العربي في مصر». غير أن أثر زيدان تعدّى موطنه المختار إلى سائر الأقطار العربية والإسلامية. فقد استطاع هو من ناحية، والشيخ محمد عبده من ناحية أخرى، أن يصلا طرفي الهوة الواسعة التي تفصل بين الثقافة العربية القديمة والثقافة العقلية الجديدة الآتية من الغرب، فاتاحا بذلك لأبناء الشرق أن تنطلق طاقاتهم من عقّالها، ولأدبائه أن يقدموا أدباً غزيراً تقدماً داخل إطار إسلامي أو عربي. فإن كان زيدان، بوصفه لبنانياً بين مصريين، ومسيحياً بين أغلبية مسلمة، قد اضطر إلى تجنب الخوض في موضوعي السياسة والدين حتى لا يثير غضباً أو شبهة، فقد كانت كتاباته تسطع بحماس المبشرين في دفاعه عن قيم الحضارة، وضرورة الاهتمام بالعلوم، والنهل من منابع المعرفة، باعتبارها جميعاً المصدر الرئيسي لقوة أي مجتمع، بما في ذلك المجتمع الإسلامي. فإن كانت الفكرة قد باتت في جيلنا من البديهيات، وفي غير حاجة إلى تكرار أو إثبات، فإنما يرجع جانب كبير من الفضل في ذلك إلى جهود زيدان، وهو الذي جابه حرباً مريرة من جانب الدوائر المحافظة في مصر والشام والعراق بسبب تعبيره عنها، في وقت كان التعبير عن مثل هذه الأفكار بدعة.



كان ثمة الكثير الكثير مما يريد الرجل التنبيه والدعوة إليه، والحديث إلى قومه فيه. فكان لا بدّ من إنتاج سريع غزير. وقد كان يهّمه رجل الشارع والقاعدة العريضة أكثر مما يهّمه ذوو الثقافة الرفيعة، فكان لا بدّ من التبسيط سواء في اللغة أو في عرض الفكرة. والكاتب الذي يهّمه الإنتاج الغزير السريع أكثر مما يهّمه الفن والفكر العميق والأصالة، كثيراً ما يفضل الاتجاه إلى الرواية التاريخية استسهالاً للأمر. فالحوادث قائمة في الكتب ليست في حاجة إلى اختراع. والشخصيات التاريخية واضحة المعالم في ذهن القارئ المتعلم من قبل أن يفتح الرواية فليست في حاجة إلى الرسم والتحليل النفسي الدقيقين. وما يسهو عنه المؤلف من الأحداث أو معالم الشخصية، يمكن الاعتماد على القارئ اللبيب في إكماله بمعرفته. ثم إن عامة القراء تقبل عادةً على الرواية التاريخية، لاعتقادهم أن الماضي ألذّ وأغنى وأحفل بالأحداث المثيرة من الحاضر المقفر المل.

وكاتب الرواية التاريخية هو المؤرخ الشعبي بلا منازع. وبدونه لن يصل التاريخ إلى عامة القراء اللهم إلا عن طريق الكتب المدرسية في التاريخ، وهي التي لا يحبها أحد، ولا يستفيد استفادة حقيقية منها أحد. فالجمهور لا طاقة له بالسرد الموضوعي والتحليل البارد والوثائق المملة التي تميز كتب التاريخ الجاد. وهو لا يطلب الحقيقة بقدر ما يطلب التسلية والترويح، ويفضل العرض الشائق السهل، والتفاصيل الطلية الحافلة بالألوان، حتى إن خالطها الكذب، على الحقائق الصارمة الجافة. ومؤلف الرواية ليس مقيداً بمراعاة الدقة التاريخية، ولا يشعر بمسؤولية عما أوردته تجاه الأجيال التالية. أما المؤرخ فمقيّد بما بين يديه من وثائق، لا يخطئ إلا ما ثبتّ عنده أنه حقيقة، أو اطمأن إلى رجحانه، ويستشعر المسؤولية لاتجاه أبناء جيله فحسب، وإنما تجاه الأجيال التالية أيضاً إذ يهّمه ألا تصممه بالكذب المتعمد.

ولا أقصد من وراء ما ذكرته لتوّي أن أحطّ من قدر الرواية التاريخية. فهي

بادئ ذي بدء قد تكون المدخل الرئيسي - أو الوحيد - للتاريخ لدى عامة القراء، خاصة إن تحولت بعد ذلك إلى فيلم تاريخي أو تمثيلية تاريخية. ثم إننا ننظر فترى عدداً من الروايات التاريخية هي من قمم الأدب العالمي، وأذكر على سبيل المثال: «الطلسم» لوالتر سكوت، و«دير بارما» لستندال، و«أنا، كلودبوس» لروبرت جريفرز، و«المصير الدموي» لروي أولدنبرج، و«المصارعون» لأرثر كوسلر، و«الملك يجب أن يموت» لماري رينو. ثم أذكر أن أعظم رواية في تاريخ الأدب في رأي غالبية النقاد، وهي «الحرب والسلام» لليوتولستوي، رواية تاريخية.

فالرواية التاريخية، حتى إن اتخذت من يوليوس قيصر أو صلاح الدين موضوعاً لها، قد تجيء هزيلة سخيفة في هزال وسخف أية رواية غرامية تكتب لإرضاء المراهقات متى عجز مؤلفها عن تمثيل الماضي وروحه وأنماط شخصيات المجتمع الذي يصفه. حيثئذ تصبح حتماً من الأدب الرخيص، وأشبه شيء بالحفلة التنكرية التي تختفي فيها الوجوه وراء أقنعة من الجبس أو الورق المقوى. والأمثلة على هذه الروايات أكثر من أن تخضع لحصر، أكتفي منها بذكر روايات رافايل ساباتيني، و«عبر إلى الأبد» لكاثلين وينسور، و«ذهب مع الريح» لمرجريت ميتشل. وقد تكون أرفع شأنًا - في مجال التاريخ - من أروع كتب التاريخ البحتة، متى تحولت الوقائع والوثائق، بفضل خيال الكاتب، إلى تجربة عاطفية فريدة، وصورة جلية تنبض بالحياة عن مجتمع لم نره، وأحداث لم نشهدها. ويكفي هنا أن أعيد إلى الأذهان حكم النقاد على تاريخ كارلايل للثورة الفرنسية، ورواية «قصة مدينتين» لتشارلس ديكنز. قالوا: إن كارلايل - من أجل تأليف كتابه - قرأ كل الكتب والوثائق المتعلقة بالثورة الفرنسية فلم يفهم شيئاً عن روحها، ولم يقرأ ديكنز - وهو يعد نفسه لكتابة الرواية - غير كتاب كارلايل، فأصاب كبد الحقيقة!

وروايات زيدان التاريخية ليست من هذا الباب ولا من ذاك. فهي بالقطع ليست من الأدب الرخيص. ويوسع القارئ العربي المثقف - حتى في أيامنا

هذه - أن يجد المتعة في قراءتها، وأن يفيد منها، كما أن من النادر أن يكون بوسع المؤرخ المتخصص أن يشير إلى أخطاء تاريخية رهية كذلك التي تحفل بها روايات ألكسندر ديماس الأب، أو حتى سير والتر سكوت. وإنه لمن الطريف حقاً أن نجد زيدان - دون غيره من كتاب الرواية التاريخية - يحرص على أن يورد في هوامش صفحات رواياته ذكراً للمصادر التي اعتمد عليها في ذكر هذا الحادث أو ذاك، أو حتى في وصف هيئة هذه الشخصية أو تلك! غير أنها، في نفس الوقت، ليست من روائع الأدب، لا العالمي ولا حتى الأدب العربي الحديث. كل ما يمكن قوله بصدها هو أنها روايات جيدة، ولا تزال إلى يومنا هذا مقروءة مستساغة، ثم فوق كل شيء، أنها في زمانها كانت فتحاً مذهلاً، بل وحدثاً هاماً في تاريخ الأدب العربي، وأنها خلقت في نفوس قرائها العرب احتراماً لأنفسهم ولتراثهم، وعرفت أناساً منهم بتاريخهم لولاها ما كانوا ليعرفونه، وأنها خلّفت تأثيراً عميقاً في أدب طائفة كبيرة من شباب الكتاب في كل الأنظار الإسلامية، بما فيها الهند، نذكر من بينهم محمد فريد أبو حديد، وعلي أحمد باكير، ومحمد سعيد العريان، ونجيب محفوظ في مرحلته الأدبية الأولى، ثم بالآخر، أديباً من أعظم أدباء سوريا، هو أحمد أرناؤوط (١٨٩٢ - ١٩٤٨)، الذي فاق أستاذه، وأضحى في نظر الكثيرين من النقاد أبا الملاحم الشرية العربية.

فمنذ أن كتب جرجي زيدان رواياته هذه، أصبحت الرواية التاريخية النوع المفضل في الأدب المبدع لدى كتابنا، الذين مزجوا - شأن زيدان - التقاليد الموروثة من الملاحم الشعبية (أبوزيد الهلالي وعنترة والأميرة ذات الهمة) بالأساليب الفنية المستخدمة في روايات سكوت وديماس وجورج ألفريد هينتي. وقد كان لوالتر سكوت بالذات تأثير ذو حدّين في أدب زيدان. فهو من الناحية الإيجابية قد زوّد زيدان بالأسلوب الفني لمعالجة الأحداث التاريخية. غير أنه من الناحية السلبية كان المسؤول الأول عن اتجاه زيدان إلى خلق صورة رومانسية للماضي الإسلامي وأبطاله. وكان زيدان بدوره المسؤول الأول عن

استمرار هذه الصورة الرومانسية في أذهان عامة المسلمين إلى يومنا هذا .

إن كافة عيوب أدب زيدان تبدو كالكلف على الشمس متى أخذنا بعين الاعتبار خدماته الجليلة للعالم الإسلامي ، وللأدب العربي ، إلا هذا العيب . غير أن الأمر هنا في حاجة إلى إيضاح .

لم يكن المؤرخون المسلمون في العصر الوسيط بالغافلين عن منهج البحث التاريخي وسبله . وقد طبقوا بالفعل على ما تحصّل لديهم من مادة تاريخية نفس المبادئ العلمية التي ابتدعها ونماها علماء الحديث في دراستهم للأحاديث المنسوبة إلى النبي . وما من شك . في أن المؤرخين المسلمين قد حققوا إنجازات رائعة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، والتزموا بالمعايير العلمية الدقيقة التزاماً لا يزال المؤرخون الغربيون يخطونهم عليه إلى يومنا هذا . غير أنه بمضي السنين ، وبازدياد تحررهم من تأثير الفقهاء ورقابتهم ، أثاروا عداوة هؤلاء الأخيرين وريبتهم ، وهما عداوة وريبة تحولتا إلى حرب مريرة على المؤرخين في عصور الانحطاط الفكري في الدولة الإسلامية . وقد أسفرت هذه الحرب عن انتصار الفقهاء ، وعن اضطراب المؤرخين إلى تبني موقف من أحداث الماضي شبيه بموقف الفقهاء منها ، وأضحى الهدف من الكتابات التاريخية هو الهدف الذي حدّه الفقهاء للمؤرخين ، ألا وهو أن يكون علم التاريخ وسيلة من وسائل غرس القيم الدينية ، والمبادئ الأخلاقية الرفيعة ، والمثل العليا ، لا تسجيل الحقائق بعد تمحيص ما تجمّع منها .

ومن هنا بدأت تتكون نظرة المسلمين الرومانسية إلى تاريخهم وأبطال ماضيهم ، وأضحت للحقيقة التاريخية مكانة تقل في الأهمية كثيراً عن هدف تعزيز الإيمان ، والوعظ ، وبيان نماذج السلوك التي ينبغي على المتقين أن يحذوا حذوها أو يتجنبوها . تكونت لديهم مثلاً صورة ثابتة شوهاء من الصعب تغييرها عن يزيد بن معاوية ، لمجرد أن جيشه قتل الحسين بن عليّ وصحبه ، غير آخذين في الحسبان كفاءة يزيد الإدارية المتميزة ، ولا الآثار الوخيمة التي

كان لا بدّ وأن تعود على الدولة الإسلامية من جرّاء ثورة الحسين . وهم دائماً متحازون في عواطفهم إلى المأمون في حربه ضد الأمين بتأثير القصص التي رواها المؤرخون عن تهتك الأمين في مسلكه الشخصي ، ووقار مسلك المأمون ، دون أن يلقوا بالاً إلى حقيقة نوايا أنصار المأمون ، وهم الفرس الذين ساءهم تغليب الأمين ، الخليفة العربي الفتح ، للعنصر العربي عليهم ، وأمّلوا أن تكون لهم الهيمنة على مقاليد الحكم بتولية المأمون نصف الفارسي ، وهو ما حدث فعلاً .

على أي الأحوال فإن مثل هذه النظرة إلى التاريخ وشخصياته التي لا تعرف فاصلاً بين التقوى والسلوك الشخصي ، وبين اعتبارات السياسة والمصلحة العليا للدولة ومقتضيات الإدارة الجازمة الرشيدة ، لا يمكن أن تخدم الفهم السليم لمجريات الأمور والأحداث التاريخية ، ولا يمكن أن تتمخض إلا عن تمجيد سطحي لهذا ، وحط من قدر ذاك ، وحنين إلى الماضي من الصعب تبريره أو الدفاع عنه .

ثم جاء الغزو العثماني للأقطار العربية بما صاحبه من موات فكري ، فانصرفت غالبية المسلمين عن القراءة إلا في كتب الأدعية والحديث والحكايات الشعبية ، وأدارت للمؤلفات التاريخية ظهرها حتى نست ماضيها أو كادت ، وتلاشى التأثير السيء الذي كان لهذه المؤلفات فيما يتصل بالنظرة الرومانسية إلى الأحداث والشخصيات . وإذ بزغت مع القرن التاسع عشر بوادر نهضة فكرية جديدة ، كان جرجي زيدان من أبرز حاملي شعلتها ، كان المفروض أن يتولى هو وأقرانه مهمة تصويب هذا الخطأ . وقد كان من السهل عليهم جميعاً - نظرياً على الأقل - أن يغرسوا بكتاباتهم في التاريخ الإسلامي نظرة جديدة إلى ذلك التاريخ وأبطاله في أذهان قرائهم التي باتت غاليتهن جاهلة كل الجهل به وبهم ، بحيث اعتمدوا اعتماداً كلياً على المؤلفين المحدثين في تحصيل معارفهم . غير أن هؤلاء القادة لم يفعلوا ، وتبنوا نفس

النظرة ونفس القيم والمفاهيم التي كانت للأسلاف، وكانوا أعجز من أن يطبقوا معايير جديدة مستتيرة في الحكم.

وقد كان جرجي زيدان، في رأيي، أقدر أهل ذلك الجيل على توفير هذه المعايير المستحدثة، بدليل ما حفل به كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» و«تاريخ آداب اللغة العربية» من نظرات صائبة. غير أنه يبدو أن وقته كان أضيق من أن ينمّيها ويوفّرها في رواياته التاريخية، وأن تأثير روايات والترسكوت بتصويرها الرومانسي الخالص لأحداث التاريخ الأوروبي، كانت عنده فوق كل تأثير. وقد لقيت هذه الروايات لزيدان نجاحاً ورواجاً منقطع النظير لدى جمهور القراء، واستمرت إعادة طبعها لا تنقطع إلى يومنا هذا. وقد اطلع هذا الجمهور على أحداث تاريخه في رواياته ربما لأول مرة، وتكيفت نظره وتكوّن حكمه على هذه الأحداث وأبطالها وفق النظرة والحكم الواردين في هذه الروايات؛ فكان أن كتبت الحياة من جديد لمعايير القدماء، وهيمنت مقاييس الموتى على الأحياء.

لقاء مع المحقق الكبير الأستاذ محمود شاكر

١٢ ديسمبر ١٩٨٣

كنت اليوم في «دار الشروق» حين أخبرني صاحبها الأستاذ محمد المعلم أنه ينوي القيام في الثامنة مساءً بزيارة لمحمود شاكر في منزله لتهنئته بفوزه بجائزة الملك فيصل في الأدب، وسألني عما إذا كنت على استعداد لمرافقته. وإذا كنت شديد التطلع إلى مقابلة محمود شاكر منذ قراءتي لكتابه الغريب «أباطيل وأسمار» والمقدمة الشيقة لكتابه عن المتنبي، ولما أحمله من تقدير لجهوده الفذة في تحقيق كتب التراث، وما أسمعته عن شخصيته القوية، وآرائه الفريدة، وضخامة تأثيره في دائرة المعجبين به، رغم حدة طبعه، وسلطة لسانه، فقد رحبت بمرافقة المعلم إليه، وإن خالط سروري شيء من الوجل والرغبة، والخشية من الاصطدام به إن كان قد قرأ بعضاً من مقالاتي في مجلة «المصور» أو كتابي «دليل المسلم الحزين».

وتذكرت ونحن في الطريق إليه حديثاً كان قد دار منذ نحو عام بيني وبين صاحب مكتبة «وهبة» بعابدين.. قصدت المكتبة لشراء الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب ابن سلام «طبقات فحول الشعراء» الذي حققه شاكر. وإذا دخلت مع وهبة في حديث عبّرت خلاله عن إعجابي بشاكر كمحقق، سألني عما إذا كنت أعرف الرجل شخصياً، فأجبت بالنفي. فإذا به يتمتم وهو يتسم:

— أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

وسألته مندهشاً: كيف؟ أتعرفه شخصياً؟

— قضينا فترة في السجن في زنزانة واحدة خلال حكم جمال عبد الناصر. وكنت شديد الإعجاب به قبلها، فلما عاشته إذا هو أثقل الناس وطأة، وأقلهم أدباً ومراعاة لمشاعر الآخرين. . كنت على استعداد بسبب تقديرِي العظيم له لأن أكون خادمه في الزنزانة. غير أنه تقبّل خدمتي له كأمر طبيعي، وعاملني معاملة الخادم الأجير.

— أي نوع من الشخصيات هو؟

— فظاً، فظاً، فظاً! وفي ظني أن مفتاح شخصيته يكمن في إحساسه العميق بالفشل رغم ثقافته الأصيلة، ومواهبه الجمّة، وشعوره بأن حياته قد ضاعت سُدى في حين كان مؤهلاً لأن يكون أكبر-كاتب في العالم العربي. هذا الإنسان الضخم الذي حصل من الثقافة الإسلامية ما لم يحصله غيره ولن يحصله غيره، ماذا أنتج؟ كتاب عادي عن المتنبي كتبه في صباه، وديوان شعر هزيل ضحل، وكتاب ضخّم في هجاء لويس عوض، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. أهذا إنتاج خليق برجل مثله؟ أهو إنتاج يؤهله لأن يشغل مكانة رفيعة في حياتنا الأدبية؟ لقد كان مؤهلاً لأن يعطي الكثير. غير أنه لم يفعل. وإحساسه بقدراته مع عجزه عن ممارستها جعلاً منه إنساناً حقوداً مُراً فظاً لا يطيق أن يرى غيره يتّج ويحرز الشهرة كطه حسين مثلاً الذي لم يحصل جزءاً من المائة من ثقافة محمود شاكر. وكانت النتيجة أنه راح يدور كالشور الهائج يهاجم ويطن، ويسبّ ويلعن، وينسب المسؤولية عن فشله وقلة إنتاجه إلى آخرين، وعلى رأسهم طه حسين. . إنه، بكل تأكيد، المثل الكلاسيكي لمرارة الفشل.

— أي حالة شبيهة بحالة زكي مبارك؟

— لا يا سيدي. مرارة الفشل تجمع بين الرجلين، كما تجمع بينهما كراهية طه حسين والميل إلى إلقاء المسؤولية عليه. غير أن الفشل في حالة

زكي مبارك كان فشلاً في نبيل الجاه والثروة والمنصب الرفيع، وهو في حالة محمود شاكر فشل في الإنتاج. وهو الآن وقد جاوز السبعين وبدأت قواه تضعف ونظره يذهب، كلما لمس من الناس إعجاباً وتقديراً زاده ذلك التقدير ثورة ومرارة وهياجاً إذ يزيد من إحساسه بأنه أضاع حياته هدراً ولم ينتج ما كان بوسعه إنتاجه من مؤلفات تهز الحياة الفكرية عندنا هزاً... إنني لا أحب لويس عوض، وأشارك محمود شاكر رأيه فيه. ولكن قارن بالله عليك بين حجم إنتاج لويس وحجم إنتاج شاكر، بين نشاط لويس وتوجهه وكسل شاكر وقعوده همتاً، بين تأثير هذا في حياتنا الثقافية وتأثير ذلك...



وصلنا إلى الشقة ففتح لنا بابها شاب دميم شديد الأدمة، يرتدي جلباباً، حسبته الخادم حتى حيّاه محمد المعلم تحية حارة وناداه باسمه «فهر»، فأدركت أنه ابن رب الدار. ودلفنا مباشرة إلى الصالة، فإذا بمحمود شاكر وأم فهر وابنته وزوج ابنته وقد اجتمعوا حول جهاز التليفزيون يتابعون إحدى حلقات تمثيلية مسلسل. وقد كانت صدمة لي أن أرى هذا العملاق المخيف جالساً أمام التليفزيون يضيع وقته بمراقبة تمثيلية غثة. غير أنه ترك مقعده أمام الجهاز عن طيب خاطر، واصطمعنا إلى صالون صغير ملحق بالصالة. وإذا اعتذرنا له عن قدومنا في وقت غير مناسب ودعواناه إلى إكمال مشاهدة التمثيلية، تظاهر ضاحكاً بعدم المبالاة بتفاهات التليفزيون.

هناك المعلم بجائزة الملك فيصل، وكان واضح السرور بها. وعندما عرفت أنه بنفسه لم ألحظ في وجهه أي رد فعل، فأيقنت أنه لم يقرأ شيئاً من كتاباتي، كما رجحت - بسبب فتور ترحيبه بي - أنه لم يكن على علاقة طيبة بأبي... ثم بدأنا نتحدث عن الجائزة، فقال شاكر في مرارة إنه رغم أهميتها العظمى، ورغم أنه شرف عظيم لمصر أن تُعطى الجائزة لأحد أبنائها، لم نتحدث أي من الصحف أو المجلات المصرية ولو في سطر واحد عن فوزه

بها، وهو ما ارتآه دليلاً قاطعاً على أن ثمة مؤامرة حكومية ضده. غير أن محمد المعلم نفى أن يكون الإغفال مقصوداً، ونسبه إلى قصور من صحافتنا في تغطية الأخبار. ثم قال:

— سأتصل الليلة بأحمد بهجت في الأهرام وأطلب منه أن يكتب مقالاً في الموضوع في الصفحة الأدبية.

قالها بلهجة الواثق من أن أحمد بهجت لا بدّ ممثّل للأمر، وكأنه موظف عنده في «دار الشروق». غير أن هذا لم يكن مفاجأة لي. فأنا أعلم أنه هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالين في الأهرام في الإشادة بكتابي «دليل المسلم الحزين» وقت صدوره عن الدار، وأن إبراهيم المعلم هو الذي طلب من بهجت أن يكتب مقالات يهاجم فيها سياسة الحكومة حيال تصدير الكتاب المصري، وسياسة مدير الجمارك بصدد استيراد مستلزمات الطباعة، مما يسبّب ضيقاً شديداً لدار الشروق.

— هيهات يا سيدي، هيهات! أليس كافة موظفي الأهرام من تلاميذ حسنين هيكل، ذلك الذئب الأكبر للاستعمار الغربي؟. وعلى أيّ حال فإن رسالة الأهرام هي هي لم تتغير منذ كان يرأس تحريرها تقلا الذي بصق في وجه أحمد عرابي. . هي عملية الاستعمار منذ عهد تقلا إلى عهد إبراهيم نافع.

ثم شرع يتحدث عن كيف أن لويس عوض، بعد صدور «أباطيل وأسما»، شعر بأن من واجبه إزاء فداحة الاتهامات التي وجهها شاكر إليه، وعجزه عن الردّ عليها، أن يتقدّم باستقالته من الأهرام إلى حسنين هيكل، غير أن هيكل رفض قبولها، وأصرّ على أن يواصل لويس عمله وكتاباتاته في الصحيفة.

ثم قال موجّهاً الحديث إلى المعلم:

— أنتحسب أن أحداً من زملائي الأفاضل أعضاء المجمع اللغوي خطر

في ذهنه أن يهتني على فوزي بالجائزة؟ لا يا سيدي . بل إن منهم من بلغت به
الفحة حد الاستهزاء أمامي بقيمتها الأدبية . غير أنني لم أعبأ بالرد أو المعاتبة ، إذ ماذا
عساي أن أتوقع من أناس كهؤلاء؟

ولاحظ المعلم أن شاكرًا لم يوجّه إليّ كلمة منذ أن استقرّ بنا المجلس ،
ولا يكاد يلتفت إليّ بوجهه أثناء حديثه ، فحسب أنه لم يسمع إسمي واضحاً
حين عرفته بنفسي . فأنبرى يقول :

— الأستاذ حسين أمين هو ابن أستاذنا المرحوم أحمد أمين .

قال شاكر : أعرف ذلك .

— وقد نشرنا له مؤخراً كتاباً بعنوان «دليل المسلم الحزين» أحرز نجاحاً
عظيماً . سأرسل إلى سيادتكم في الصباح نسخة منه .

إذاً بمحمود شاكر يشير بذراعه إلى الباب المفتوح لغرفة مكتبه (إشارة
إلى أن الكتاب موجود بها) ، ويتمتم قائلاً :

— قرأته !

قلت في دهشة :

— قرأت سيادتكم «دليل المسلم الحزين»؟

— أبوه يا سيدي !

— وما رأيك فيه؟

— قوّت ! (أي لا داعي للحديث عنه) .

— إسمح لي بأن أصرّ على سماع رأيك مهما كان .

اعتدل في مجلسه ليواجهني ، ثم قال :

— أتحسبني غافلاً يا سيد حسين عما تفعله؟ أتحسبني غافلاً عن نواياك
وخططك من وراء مقالاتك في «المصور» أو كتابك هذا؟ لا يا سيد حسين !
لا أنا بالغافل ولا أنا بالأبله حتى أسميك كما أسماك عبد العظيم أنيس منذ

أسبوع في «الأهالي» بالكاتب الإسلامي المستنير. ما معنى «الإسلام المستنير» بالله عليك؟ أهنك إسلام مستنير وإسلام غير مستنير، أم أن الإسلام كله نور ومن لم يستنر به لا يجوز وصفه بأنه مسلم؟ .. الكاتب الإسلامي المستنير حسين أمين! محمد عمارة! فهمي هويدي! حسن حنفي!! دعني أقول لك إن كل ما تكتبونه هو عبث أطفال. نعم، مجرد لعب عيال! كلكم أطفال.. يقرأ أحدكم كتابين أو ثلاثة فيحسب نفسه مجتهداً ومؤهلاً للكتابة عن الإسلام والإصلاح والاستنارة! .. محمد عمارة هذا تبلغ به الصفاقة والادعاء والجهل مبلغاً يجعله يصف كتاب محمد عبده «رسالة التوحيد» بأنه من أهم ما كتب في التراث الإسلامي في علم الكلام! لا يا شيخ!! هل قرأت يا سيد عمارة كل ما كُتب في التراث الإسلامي في علم الكلام ثم وصلت إلى اقتناع بأن هذا الكتاب الهزيل الحقيقير الغث لمؤلفه ضحل الثقافة، من أهم الكتب في الموضوع!! ما هذا العبث وهذا الاستغلال لجهل الناس!! لا.. الأمر أخطر من ذلك.. إنها مؤامرة!

— مؤامرة؟

— مؤامرة تستهدف تمجيد رجلين من أخطر عملاء الاستعمار في تاريخ أمة الإسلام: جمال الدين الأفغاني الماسوني، ومحمد عبده الصديق الصدوق لكرومر.

ودخلت زوجته السمينة، بعد انتهاء التمثيلية، تدور علينا بأكواب الشاي. فرشف شاكر من كوبه رشفة بصوت هائل، ثم عاد يتمتم:

— نعم. تبدو مندهشاً. غير أنني قائل لك إن المسؤولية عن معظم ما يعاني منه الإسلام اليوم تقع على عاتق هاذين الخبيشين، خاصة الأفغاني الذي هو أسّ الفساد كله. وقد تعجبان إن قلت لكما إنني متفق مع لويس عوض في الرأي بأن الأفغاني كان مجرد متآمر وأنه لم يكن صحيح الإسلام.

وعلى أي حال فإن رأي لويس ليس جديداً، وكل هذه الأمور كانت معروفة عن الأفغاني حتى أثناء حياته .

وبدا محمد المعلم نفسه مذهولاً، رغم صلته الوثيقة القديمة بشاكر . فكان أن خيم علينا الوجوم، وساد المجلس سكوت لم يقطعه غير صوت احتساء رب الدار لشايه وقد بدا غير عابىء بما أصابنا .

— ألف حسرة على العالم الإسلامي وأمة الإسلام ! . جهل مطبق بالفكر الإسلامي وبالتاريخ الإسلامي . . تدهور رهيب في اللغة العربية . . نظم التعليم في مدارسنا غريبة محضنة . . حتى الجماعات المسماة بالإسلامية قد ألفت بترات أربعة عشر قرناً في صندوق القمامة . . نعم . ولكنهم ينبرون للتهليل لإسلام جارودي وكأنه حدث هام في تاريخ الإسلام، وذلك لمجرد أن هذا الأفاق الإنتهازي نطق أمامهم بالشهادتين وأثنى على الإسلام في كتب له كلها أخطاء وكفر ومغالطات . . وبعضهم يهلل للخميني والثورة الإيرانية والإثنا عشرية، وما منهم من يدري أن الإثنا عشرية هم غلاة الشيعة لا معتدلوها كما يزعمون، وأن الخميني كافر زنديق .

— كافر زنديق؟

— بالتأكيد . . ألم يقل بتحريف القرآن وتزنية عائشة؟

قلت: إزاء فرحة اتهامك للأفغاني ومحمد عبده، سأكون شاكراً لو فصلت لنا الأمر .

— وسأكون أنا شاكراً لو غيّرت الموضوع .

— وهو كذلك . . هل لي أن أسألك سؤالاً يحيرني منذ مدة؟

— قل .

— ما السبب يا ترى في قلة إنتاجك مع غزارة علمك؟

امتنع وجهه امتقاعاً شديداً لسؤالي، وخُيِّل إليّ لأول وهلة أنه في سبيل
أن يسبّي سباً غليظاً. غير أنه سرعان ما تمالك نفسه وقال في هدوء:

— لماذا توقفت عن الكتابة بعد صدور كتابي عن المتنبي؟ أقول لك بكل
بساطة يا سيد حسين إنني خشيت على نفسي من أن يصيبي الغرور. لقد كتبت
«المتنبي» في أيام الحداثة، ووصلني بعد صدوره أكثر من ثمانين رسالة تنني
عليه وترفعه إلى السماء. وظللت مدة لا تكاد الدنيا تسعني من النشوة والزهو،
إلى أن أفقت لنفسي. أفقت لنفسي وقررت التوقف عن الكتابة. بالضبط كما
فعل الشاعر علي محمود طه ولنفس السبب... الكتابة لا تهمني وإنما تهمني
نفسي وتقويم ذاتي... وكان أن انصرفت إلى تحقيق الكتب القديمة وبذلت كل
جهدي وطاقتي في أن يكون التحقيق غاية في الدقة والإتقان.

— غير أنك توقفت عن إكمال تحقيقك لتفسير الطبري...

قال في ضيق وهو يتململ في مقعده:

— نعم. لأن الناشرين معظمهم لصوص... لا تؤاخذني يا محمد بك!
ولأن الناس لم تعد تقرأ... فإن قرأوا فليست الكتب الجادة هي التي يقرأونها،
وإنما يقرأون لأنيس منصور، ومحمود السعدني، ومحمد عمارة...

— وحسين أمين.

— وحسين أمين!

— هل لي أن أسألك عن علاقتك بوالدي كيف كانت؟

ابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال:

فُوت!

— لا يا أستاذ شاكر لن أُفوت!

— لم أكن أحبه.

لحظة صمت.

— ولم؟

— ما كل هذه الأسئلة المخرجة؟ تريد أن تعرف لماذا لم أكن أحبه؟
حسناً. لم أكن أحبه لأنه كان رجلاً خبيثاً داهية.

— لم يكن ثمة رجل أطيّب قلباً ولا أبسط من أبي.

وانفجر شاكر ضاحكاً. ولدهشي البالغة إذا بمحمد المعلم هو أيضاً
يشاركه الضحك لقولي إن أبي كان طيب القلب.

قال المعلم:

— لا تؤاخذني يا حسين بك، ولكن المرحوم أحمد أمين لم يكن طيب
القلب على الإطلاق، ولا كان رجلاً بسيطاً.

— كيف؟ كيف؟

قال شاكر:

— لن نخوض في هذا الأمر... عبد الوهاب عزام، على عيونه، كان
رجلاً طيباً بسيطاً، أما أحمد أمين فلا. ولكنه على أي الأحوال لم يكن في خبث
طه حسين ودهائه ومكره... غير أن ما أعيبه حقيقة على أحمد أمين هو أنه
وهو الرجل العالم المثقف الذي كان بوسعه أن يقدم فكراً جديداً مبتكراً في
ميدان الدراسات الإسلامية، والذي يُجِبُّ علمه علم كافة المستشرقين،
امتسلم وأذعن لتأثير طه حسين وآرائه، ووقف موقفاً ذليلاً من أحكام
المستشرقين الخبثاء الحاقدين على الإسلام، وتبنّى في كتبه فجر الإسلام
وضمحه وظهره هذه الأحكام، دون أن يجرؤ على تنقيدها والتصدي لها...
ما هذا اللذل، وهذه الاستكانة، وهذا الضعف، سواء منك أو من أهلك، تجاه
المستشرقين الغربيين؟ أهم أدري بترائنا وأقدر على إصدار الأحكام بصدده من

علمائنا نحن الذين نهلوا من هذا التراث مع لبن أمهاتهم ونشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم؟ كيف يكون من حق «خواجة» بدأ في تعلم العربية في سن العشرين أو الثلاثين، ويظل «يتهته» بها إلى أن يموت، أن يُدلي برأي في المعلقة السبع، وأن يصدر حكماً على المتنبي أو أبي العلاء؟ كيف تسوّغ لمسيحي صليبي نفسه أن يتحدث عن الأشاعرة أو المعتزلة حديث الوثائق المطمئن لمجرد أنه قرأ كتابين أو ثلاثة في الموضوع؟ أيجوز لي، وأنا العربي، مهما بلغ إتقاني للغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي أن أولف كتاباً عن تشوسر شبيهاً بذلك الذي كتبه بلاشير الفرنسي عن المتنبي؟ هل أسمح لنفسي، وأنا المسلم، أن تبغ بها الصفاقة والغرور حدّ الكتابة عن دقائق الاختلاف بين المذاهب المسيحية؟ كيف يمكن لعالم إسلامي فدّ كأحمد أمين أن يقع في فخّ هؤلاء الصليبيين؟ الأمر في حالة طه حسين أيسر فهماً؛ فهو لم يقع في الفخ، وإنما قرّر باختياره الحرّ أن يشارك الصليبيين في نصف الأفخاخ لبني قومه ودينه. أما أحمد أمين، بالرغم من ذكائه وعلمه وصدق إسلامه، فقد وقع «زّي الشاطر» في خبائل الشيطان.

ثم استطرد يقول:

— كلّمني هذا الصباح المدعو مارسدن جونز الأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، يريد أن يجتمع بي.. رفضت، وقلت له إنني لا أريد أن أجتمع به. أسمع عن مارسدن جونز هذا؟

— محقّق كتاب «المغازي» للواقدي.

— آه! حتى أنت قد صدّقت هذه الأكاذيب كسائر الناس.. مارسدن جونز لم يحقّق مغازي الواقدي ولا بذل فيه إلا أضعف الجهد. وهذا هو السبب في أنني رفضت مقابلته. فقد حدث يوماً أن جاءني رجل مصري «غلبان» إسمه عبد الفتاح الحلو، وأخبرني أنه هو الذي حقق كتاب المغازي من أوّله إلى آخره بناء على تكليف من مارسدن جونز ومقابل بضعة جنيهات كان في حاجة ماسة

إليها، ولم يظهر إسمه على الغلاف لا باعتباره محققاً ولا حتى باعتباره مشتركاً في التحقيق، واكتفى جونز بالإشارة إليه في المقدمة باعتباره أحد الذين قدموا له العون أثناء تحقيقه للكتاب!! هذا مجرد مثل لأخلاقيات هؤلاء المستشرقين الذين تغنى والدك بفضلهم!

— وما الذي مال بك إلى تصديق زعم عبد الفتاح الحلو دون تصديق زعم مارسدن جونز أنه محقق الكتاب؟

قال شاكر في ضيق وهو يتململ في كرسية مؤذناً بانتهاء الجلسة:

— الذي مال بي إلى تصديق زعم الحلو يا سيد حسين هو معرفتي بأخلاقيات المستشرقين.. بالمر، جيب، ماسينيون، مرجوليوت، شاخت، كلهم خنازير استعماريون. وإني لأردّ على كل عربي يتحدث عن فضل هؤلاء سواء في تعليمنا المنهج العلمي في تحقيق التراث أو في كتابة التاريخ. أو غير ذلك، بأن المسلمين هم الذين خرجوا على الدنيا في عصرهم الذهبي بالمنهج العلمي في التأليف، وهم الذين ابتدعوا وضع الفهارس للكتب لا الغربيون كما يدعون..: لقد وضعت بنفسى فهرس كتاب المقرئ «إمتاع الأسماع» الذي حققته، فوصلتني رسالة من مستشرق فرنسي شهير يُبدي فيها انبهاره بروعة هذه الفهارس، ويقول إنه ليس بوسع أي غربي أن يأتي بمثلها.. فالمسألة إذن ليست مسألة فضل، وإنما هي تتعلق بخيبة المسلمين المحدثين حيال تراثهم.. كل الأمور معنا تسير من سيء إلى أسوأ؛ في الثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والأخلاق، أو ما شئت.. والله سبحانه وتعالى إنما يعاقبنا على ما نرتكب وما نهمل، وهو على كل شيء قدير.

وتحرّك في مقعده حركة من يهمل بالوقوف، فنهضنا على الفور للإصراف.

— بلدي يا جماعة!

وكرر محمد المعلم عند باب الشقة وعده بأن يتصل بأحمد بهجت حتى يكتب عن الجائزة. قال شاكر:

— لا تتعب نفسك... لن ينشروا شيئاً. إنها مؤامرة يا صديقي، وعزم قاطع من جانب السلطة على ألا يُذكر اسم العبد الفقير في الصحف والمجلات لا بخير ولا بشر حتى ينسى الناس وجودي... لا بأس... لا بأس... شرفتم... خطوة عزيزة.

وعاد المعلم يهتئ بالجائزة. غير أنني حين حاولت أن أحلّو حذوه لم يطاوعني لساني.

البرازيل : مارذ القرن الحادي والعشرين

«خلق الله جمال الطبيعة في سائر أنحاء الدنيا
من أجل البشر، وخلق جمال البرازيل لنفسه».

مثل شعبي برازيلي

ها أنذا أسجل انطباعاتي عن دولة البرازيل ولما تمض على إقامتي بها بضعة أشهر. وقد شجعني على الإقدام على هذه الخطوة المتسرعة بعض الشيء قوله بريستلي الشهيرة: «من حق المرء أن يتحدث عن دولة أجنبية بعد إقامته بها إما لمدة اثني عشر يوماً أو اثني عشر عاماً، أما فيما بين هاتين المدةتين فلا يجوز له الحديث عنها!» فهي إذن - كما ذكرت - مجرد انطباعات أولى. وقد أعود إلى القارئ بعد اثني عشر عاماً للحديث عن البرازيل حديثاً أعمق وأشمل!

دولة نامية أم متقدمة؟

أول سؤال يفرض نفسه على زائر هذا البلد هو ما إذا كانت البرازيل تنتمي إلى مجموعة الدول النامية أم المتقدمة. فالنظرة الأولى، خاصة إلى مدن الساحل الشرقي وإلى العاصمة «برازيليا»، توحى برخاء جم، وتقدم في التكنولوجيا والصناعة ليسا بدون الرخاء والتقدم في دول أوروبا الغربية، مع إمكانيات وثروات لا حدود لها وحديث دائم عن أوجه النشاط الإنتاجي وغيرها بصيغة أفعال التفضيل؛ وهي الصيغة المفضلة في حديث البرازيليين عن بلادهم وعن أنفسهم.

فهنا دولة تبلغ مساحتها أكثر من مساحة أوروبا الغربية والشرقية معاً (إذا استبعدنا الاتحاد السوفيتي)، ولا يفوقها في الاتساع غير الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والصين وكندا. وقد اكتشفوا منذ أشهر قلائل أن نهر الأمازون أطول من نهر النيل ببضعة أميال، فبات نهرها أطول أنهار العالم. والعاصمة «برازيليا» هي أحدث مدن العالم تخطيطاً ومعماراً، كما أن العاصمة السابقة «ريودوجانيرو»، بشهادة الكثيرين ممن يعتدّ برأيهم، وعلى رأسهم الكاتب النمساوي الشهير شتيفان تسفايج، هي أجمل مدن الدنيا قاطبة. والشعب البرازيلي هو أكبر أمة كاثوليكية في العالم، ولا يفوق تعداده (١٣٥ مليون نسمة) غير تعداد الصين والهند والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وإندونيسيا. ولا يفوق البرازيليين في فن الطهي غير الفرنسيين والصينيين. أما في مجال الاقتصاد فإن الناتج القومي الإجمالي الذي يقدر بنحو ٢٣٠ بليون دولار يحتل المرتبة الثامنة بالنسبة لاقتصاد دول العالم. وهي الدولة الأولى في إنتاج البن والسكر والبرتقال وفي احتياطي الذهب، والثانية (بعد ساحل العاج) في إنتاج الكاكاو، وبعد الولايات المتحدة. في إنتاج فول الصويا، والحديد الخام، ومن حيث قيمة الصادرات الزراعية والسلع المشتقة من الإنتاج الزراعي، والثالثة في إنتاج الذرة (بعد الاتحاد السوفيتي والصين)، واللحوم (بعد الولايات المتحدة وروسيا)، والرابعة في إنتاج المنجنيز، والخامسة في إنتاج القطن والدبابات، والسابعة في إنتاج الألومنيوم والنحاس، والتاسعة في إنتاج الصلب، والعاشرة في إنتاج السيارات والأسمت وتوليد الكهرباء.

فإن كان هذا هو الوضع، فما بال البرازيل صاحبة أكبر دين خارجي من بين دول العالم (١٠٤,٤ بليون دولار)، ورابع أكبر معدل للتضخم (٢٢٥٪ سنوياً) بعد إسرائيل وبوليفيا والأرجنتين؟ وما سر هذه المشكلات الاقتصادية الرهيبة التي تركت بصماتها على الكيان الاجتماعي والسياسي للدولة، وهذا الفقر الذي تعيش في ظله غالبية السكان، وحياة الفطرة التي

يحياها سكان البلاد الأصليون من الهنود الحمر، وارتفاع نسبة البطالة إلى أكثر من ٧٪، ثم ما ترتب على الفقر والبطالة من انتشار جرائم السطو المسلح والسرقه والاعتداء على المتاجر، مما رفع البرازيل إلى المرتبة الثانية من بين دول العالم (بعد كولومبيا) في عدد السرقات بالإكراه، ومما كان له تأثيره الضار في قطاع السياحة الذي كان يحتل حتى عام ١٩٨٣ المرتبة الثالثة في الأهمية بالنسبة للاقتصاد البرازيلي؟

ابن اللورد!

في رأيي أنه مما يساعدنا على فهم طبيعة هذه المشكلات، تشبيه سلوك البرازيل بسلوك ولد لأحد أثرياء اللوردات، لا يزال أبوه على قيد الحياة، والولد مع قلة ما في يده من مال يصبر على أن يعيش حياة رغدة تليق بما يشير به المستقبل - بعد أن يرث ثروة أبيه - من ترف عظيم، ولا يرى وسيلة لتحقيق مراده غير الاستدانة من هنا وهناك، ومن كل من هب ودب، والدائنون يقدمون له القروض عن طيب خاطر، لاطمئنانهم إلى قدرته على سدادها حين ينتقل والده المسن إلى رحمة الله!

يقول المثل المصري: «على قدر لحافك، مدّ رجلك!». وهذا بالضبط هو ما تأبى البرازيل أن تفعله. فهنا اطمئنان كامل إلى المستقبل، إلى ما سيأتي به الغد من رخاء عميم بالنظر إلى الإمكانيات الهائلة ومصادر الثروة التي لم تستغل بعد، وهي ما يؤكد الجميع - في الداخل والخارج - أنها ستجعل من البرازيل في المستقبل القريب إحدى الدول العظمى في العالم، بل ومازاد القرن الحادي والعشرين. وعلى أساس هذا الاطمئنان إلى المستقبل (رغم ضخامة المشكلات الراهنة وقداحة الدين الخارجي) يتصرف البرازيليون... أراد حكامها منذ عام ١٩٥٦ أن يدفعوا عجلة التقدم في البلاد بحيث ينجزوا خلال خمس سنوات ما لا ينجزه غيرها خلال خمسين! وهو ما تمّ لهم فعلاً بفضل ترسيخ دعائم الانتاج الصناعي، خاصة صناعة الحديد والصلب

والصناعات الثقيلة. وقد كان سبيلهم إلى ذلك هو اللجوء إلى طلب القروض من الخارج، وتشجيع الاستثمارات الأجنبية من أجل استغلال المناطق الداخلية وتعميرها، بعد أن كانت العناية منصبّة في الماضي على المناطق الساحلية في الشرق. وقد شجّعتهم صورة المستقبل المضيء على تجاهل القيود التي يفرضها حجم الموارد الراهنة. فهم لا يريدون أن ينشئوا مدناً أو يؤسسوا صناعات أو يضعوا برامج لا تليق بمستقبلهم كدولة عظمى... فحين شرعوا عام ١٩٥٧ في بناء عاصمة جديدة في الداخل تكون أقرب إلى المناطق المراد تعميرها من ريو دوجانيرو الساحلية، أنفقوا على بنائها البلايين من الدولارات، وكانوا ينقلون إلى موقعها أكياس الأسمنت وقضبان الصلب ومعدات البناء الثقيلة بالطائرات عبر مئات الأميال! غير أن النتيجة والثمرة كانتا «برازيليا»، مدينة المستقبل، مدينة القرن الحادي والعشرين، لا يفوقها في جمال معمارها أي من عواصم العالم. وهم حين قرروا إنشاء مترو الأنفاق في ثلاث من المدن الكبرى، جعلوا منه أكثر نظم مترو الأنفاق تقدماً في العالم. وقد أطلقت البرازيل أعمارها الصناعية، وأدخلت الكمبيوتر في كافة مجالات نشاطها الاقتصادي، وطوّرت صناعاتها الإلكترونية بحيث لم يعد لها في ميدانها غير القليل من المنافسين، وحفرت مئات ومئات من الأنفاق في بطون الجبال، وشقّت أكثر من مليون ونصف مليون كيلومتر من الطرق المرصوفة حتى عبر الجبال الصخرية الشاهقة، وأقامت ناطحات السحاب من المباني في المدن الرئيسية. غير أن الأهم من ذلك كله هو العناية الفائقة بالصناعة. فقد تمكنت البرازيل خلال ربع القرن الماضي فقط من تصنيع كل ما تحتاج إليه وكل ما يغيثها عن الاستيراد من العالم الخارجي، من الكمبيوتر إلى السفن والطائرات والسيارات والملابس وأجهزة التليفزيون والفيديو والآلات الحاسبة والأسلحة والذخيرة والأدوية والورق والصناعات البتروكيميائية والميكانيكية والمعدنية. وكانت رغبتها الملحة في تصدير فائض إنتاجها إلى العالم حافظاً لها على استخدام أحدث وسائل التكنولوجيا من أجل إنتاج سلع تعنى بمتطلبات

السوق الدولية وتنافس منتجات الدول المتقدمة.

كل هذا كان له الفضل في تقريب البرازيل من مستوى الدول الصناعية الغنية. لقد ظلت أمداً طويلاً، وحتى الماضي القريب، دولة زراعية، وكان العالم الخارجي لا يكاد يعرف عنها غير إنتاجها للبن، (ولراقصة السامبا الشهيرة كارمن براندا)، تماماً كما كان لا يعرف عن اليابان غير إنتاج الراديو ترانسيستور ولعب الأطفال! أما اليوم، فقد بلغت قيمة صادراتها نحو ٢٦ بليون دولار سنوياً، أربعة أضعافها من السلع الصناعية.

أيلول الأسود:

ولأجل تحقيق هذه الطفرة الهائلة، كان على البرازيل أن تدفع الثمن. وهو ثمن باهظ نجده اليوم يرهق كاهلها ويؤرق حكومتها، دون أن يفقد شعبها ثقته في المستقبل. قلنا إنه كان عليها من أجل الإنفاق على كل هذه المشروعات الطموحة أن تلجأ إلى الاقتراض، الاقتراض من الحكومات والبنوك الأجنبية ومن صندوق النقد الدولي. وكانت معظم هذه القروض قصيرة الأجل وذات فوائد بلغت حوالي ١١,٥٪. وكان سبيل البرازيل إلى دفع قيمة الفوائد المستحقة، إلى جانب زيادة صادراتها، هو طلب المزيد من القروض، هي أيضاً قصيرة الأجل وذات فوائد باهظة. وقد عرفت البرازيل هي الأخرى «أيلول الأسود». وكان أيلولها الأسود (سبتمبر ١٩٨٢) حين وجدت لزماً عليها سداد عشرين بليون دولار من الأقساط والفوائد واجبة الأداء، منها ١١ بليون دولار فوائد على أصل الدين، فلم تتمكن من أن تسدد غير ثلث هذا المبلغ. وكان أن أسفر الوضع عن ظهور أزمة ثقة لدى البنوك العالمية والحكومات الأجنبية في قدرة البرازيل على سداد ديونها، بل وعلى مجرد سداد فوائد هذه الديون. عندئذٍ تراجع الدائنون عن منح تسهيلات ائتمانية جديدة لها ما لم يثبت اقتصادها جدارته بالثقة، وانبرى صندوق النقد الدولي يحاول أن يفرض على البرازيل شرط اتخاذ إجراءات تقشف و«إصلاح» تمكنها من تسديد الديون،

كخفض الإنفاق الحكومي ، وتجميد الأجور والمرتبات ، وتخفيض قيمة العملة ، ورفع الضرائب ، والتركيز على الاستثمار في مجالي الزراعة والطاقة دون الصناعة ، وإلا امتنع عن تقديم قروض جديدة . غير أن البرازيل ردت غاضبة بأنها ترفض مثل هذه الوصاية وهذا التدخل الأجنبي في سيادتها الوطنية ، والحد من حريتها في انتهاج السياسة التي تريد ، وبأن من حقها أن تطلب إعادة جدولة تواريخ استحقاق الديون ، خاصة أن جزءاً كبيراً منها كان في صورة أجور للخبراء الأجانب .

ومع ذلك فلا شك في أن البرازيل تحرص أشد الحرص على تهدئة مخاوف الممولين الدوليين ، وإقناعهم بتقديم قروض جديدة ، إلى حين «وفاة الأب العجوز» ! لذا فقد اتجهت بكل طاقاتها إلى زيادة صادراتها إلى أقصى حد ممكن ، وتقليل وارداتها إلى أدنى مستوى ، حتى توفر فائضاً في الميزان التجاري يمكنها من سداد فوائد ديونها على الأقل . ولا تعدو الحقيقة إن قلنا إن هذا الهدف الأسمى هو أهم عامل - إن لم يكن العامل الأوحد - الذي يصوغ سياسات البرازيل الداخلية والخارجية . فالدولة ذات الحاجة الملحة إلى زيادة صادراتها تحاول دوماً أن تكون على علاقة طيبة وثيقة بالجميع ، وأن تبادر إلى تسوية أية خلافات تدبّ بينها وبين غيرها من الدول . فإن اضطرتها ظروف دولة خارجة عن إرادتها إلى التظاهر بالانحياز إلى جانب دون آخر في نزاع لا شأن لها به ، حددت لها حساباتها وعلاقاتها الاقتصادية ومصالحها التجارية أي الأطراف تؤيده في المحافل الدولية . وهو تأييد نادراً ما يأخذ عدالة القضية بعين الاعتبار .

فن الاستمتاع بالحياة :

غير أن الذي يبدو واضحاً جلياً للأجنبي الزائر لهذا البلد ، هو أن الشعب البرازيلي قد ترك لحكومته وسياسييه مهمة القلق إزاء كيفية التخلص من هذه

الورطة الاقتصادية، وانصرف هو بكليته إلى ممارسة فن الاستمتاع بالحياة. ولا أعني بقولي هذا عزوفاً عن الإنتاج والعمل، وإلا لما حقق الشعب خلال سنوات قلائل هذه النهضة الاقتصادية الرائعة التي لا يكاد يكون لها نظير سوى تلك التي شهدتها ألمانيا الاتحادية بعد الحرب العالمية الثانية. وإنما أعني تلك القدرة المذهلة على الجمع بين الإنتاج واللهو، مع عشق للحياة وإقبال نهم على الاغتراف من مباهجها، ومرح زائد، ونفور طبيعي من كل ما من شأنه تنغيص المتعة، وتكدير المزاج.

تحدّث عن جمال الطبيعة في البرازيل ما شئت، أو عن سحر ريودو جانيرو. غير أن أجمل ما في البرازيل في اعتقادي هو طبيعة شعبها. وقد كان أول ما ذكره لي القنصل البريطاني في ريو خلال الأسبوع الأول من إقامتي أنني لن أقدر حق التقدير مدى سماحة هذا الشعب وطيبته واستعداده المطلق لمعاونة الغير وخدمته دون انتظار مقابل، إلا حين أترك البرازيل إلى أي بلد آخر. صحيح أن الأزمة الاقتصادية الراهنة، والتضخم الرهيب، وسوء أحوال الأمن، قد حدّت بعض الشيء مما عرفوا به من كرم الضيافة والترحيب بالغرباء. غير أنهم لا يزالون مع هذا أكرم شعوب الأرض وألطفها عشرة. وقد مرت بي الآن هنا بضعة أشهر زرت خلالها عشر مدن، لم يطرق سمعي خلالها صوت غاضب، ولا رأت عيني شجاراً في طريق، أو مظاهر انفعال، إلا أثناء مباريات كرة القدم! لا أدخل مع عائلي مطعماً إلا وجدنا مائدة على الأقل. قد أتى الجالسون إليها بآلات موسيقية يعزفون عليها ويغنون على أنغامها قبل الأكل وأثناءه. ونذهب إلى شاطئ البحر المزدهم دائماً طيلة أيام الأسبوع، فإذا العزف والغناء والرقص على قدم وساق، ولعب الكرة والضحك والغزل. والملابس هنا على الشاطئ، سواء الرجال أو النساء، لا يكاد قماشها يكفي لصنع بدلة بحر محتشمة لعصفور صغير! فالعري في البرازيل - ربما بتأثير الأفارقة والهنود الحمر وحرارة الجو - غير مستنكر أو مستهجن، ولا يلفت غير أنظار الأجانب. وليس أمراً نادراً أن تبادرك عائلة برازيلية تجلس على مقربة

منك وعائلتك بالحديث، ثم تبادر بعد الحديث إلى دعوتكم لزيارتها في دارها وتناول وجبة طعام معها.

وبوسعنا أن نقول في ثقة إن الرقص والبحر وكرة القدم وكارنفال شهر فبراير هي أهم ما يشغل بال البرازيليين. أما الاهتمام بالسياسة فلا يكاد يخطر بذهن أحد غير من اختار لسوء حظه وتكد طالعه أن يشغل بها. وقد قابلت هنا من الشباب البرازيلي من لا يعرف اسم رئيس جمهوريته، ناهيك عن اسم رئيس جمهوريتي! واهتمامهم بشؤون العالم الخارجي ضئيل للغاية، أو قل هو غير قائم أصلاً، كما أن الصحف ووسائل الإعلام الأخرى لا تخصص لهذه الشؤون من المساحة أو الوقت إلا قدرًا. يفرضه الواجب وتحتمه اللياقة. فإن ذكروا الولايات المتحدة فإنما يجيء ذكرها بمناسبة قرار مجلس الشيوخ الأمريكي فرض قيود على استيراد الأحذية أو عصير البرتقال من البرازيل. وهو الأمر الوحيد الكفيل بإغضابهم! ولا أدري ما إذا كان عدد كبير منهم قد سمع بالحرب العراقية الإيرانية، فإن كانوا قد سمعوا بها فلا بد أن يكون السبب هو إبرام العراق صفقة كبيرة لشراء الدبابات البرازيلية «كاسكافيل» لاستخدامها في تلك الحرب!

وهم - عكس الكثير من شعوب أمريكا اللاتينية الأخرى - شديدو الكراهية للثورات والحروب وكل مظاهر الإرهاب والعنف. شعب وديع يفضل الغناء على الشكوى، والرقص على الشجار، خاصة أهل ريو دو جانيرو المعروفين باسم «كاريوكا» الذين لا يرون شيئاً أهم وأخطر من أن يكون مثاراً للمرح ومداراً للضحك. ولم تعرف البرازيل في تاريخها ثورة دموية واحدة، أو اغتيالاً لزعيم سياسي، أو إرهاباً أو حرب عصابات، رغم حدوث بعض المواجهات في مناسبات معينة بين وحدات من الجيش وجماعات من المتظاهرين كانت دائماً تنتهي بتبادل القبلات والنكات، قبل أن ينصرف كل من الفريقين إلى شأنه، ودون إطلاق رصاصة واحدة.

كرنفال! سامبا! ماكومبا!

فأما عن الكارنفال الأكبر في شهر فبراير فهو حدث تفوق أهميته عندهم أهمية عيد الميلاد المجيد وعيدي الفصح ورأس السنة. والبرازيليون يعيشون سائر عامهم على ذكرى الكرنفال المنصرم، واستعداداً للكارنفال التالي. وهولا يقتصر على حيٍّ من أحياء المدينة أو على طبقة اجتماعية من الطبقات وإنما هو بمثابة احتفال صاخب يشارك فيه الكافة في مختلف أنحاء البلاد. وإنك لو اجد أفقر الفقراء هنا وما من هم عنده غير أن يكسب خلال العام ويدخر ما يمكنه من شراء زيّ تنكري باهر لهذه المناسبة المجنونة التي يظلل الناس فيها على مدى أربعة أيام وخمس ليالٍ متتالية لا يعرفون النوم، ولا يتوقفون عن رقص السامبا والغناء وعزف الموسيقى وقرع الطبول والطواف بالشوارع لعرض أزيائهم العجيبة بهيجة الألوان. غير أن الحديث عن كرنفال البرازيل في حاجة إلى مقال طويل يُفرد له.

وأما شاطئ البحر فيلعب هو الآخر دوراً رئيسياً في حياة البرازيليين، من سكن منهم على الساحل أو في مدينة بالداخل. وقد لجأت الحكومة الفيدرالية إلى عشرات الوسائل من أجل تشجيع البرازيليين على استيطان المناطق الداخلية والسكنى في العاصمة الجديدة، كمضاعفة الأجور والمهايا فيها، والإعفاء من الضرائب، وتخفيض إيجارات المساكن. غير أن البحر ظل دائماً عاملاً جذب يحول دون الابتعاد عنه لمسافة طويلة، أو لمدة طويلة. والحياة على شاطئه تبدأ في ساعة جد مبكرة من اليوم. فمنذ الخامسة صباحاً تجد الشباب يلعبون القولي أو كرة القدم، والكبار يؤدون تمرينات الصباح الرياضية قبل توجيههم إلى مكاتبهم ورجال الأعمال يرمون الصفقات التجارية ويوقعون العقود وهم مسترخون على الرمال في ملابس البحر، والباعة المتجولون يمشون وعلى رؤوسهم صينيّات نحاسية كبيرة تحمل جوز الهند والأناس والبرتقال وعصير الفاكهة، ورجال الشرطة يراقبون ملابس السابحين في البحر خشية أن

يخطفها اللصوص، والنساء وقد ارتدين «البيكيني» (والبيكيني من اختراع البرازيليين) يأتين بأطفالهن الرضع في سلال من القش للاستمتاع بالشمس ونسيم البحر، والمربيات يراقبن الصبية والصبايا يمرحون بين الأمواج العالية، أويذاكرون في كتبهم المدرسية، والفتيات يقابلن أصدقائهن، أو يرين صديقاتهن خاتم الخطوبة . حتى إذا ما اكتملت الدورة، إذا بصبية الأمس وقد جاءت بولدها إلى الشاطئ في سلة من القش، للاستمتاع بالشمس ونسيم البحر!

غير أن أغرب المناظر طراً وأحفلها بمظاهر الوثنية ورواسبها ذلك الذي تراه على الشاطئ ليلة رأس السنة من كل عام . آلاف مؤلفة من وثنيي البرازيل ومسيحييها على سواء، تتوجه في حوالي العاشرة من مساء ٣١ ديسمبر إلى شاطئ المحيط في ملابس بيضاء، يحملون الشموع البيضاء الموقدة في يد، والقرايين في الأخرى. أناس من مختلف الأعمار والأجناس والألوان والطبقات، قد تبني المسيحيون منهم هذا الجانب من عقيدة الوثنيين المدعّوين بالماكومبا، المتأثرة بدورها بديانات الأفارقة والهنود الحمر. حتى إذا ما وصلوا إلى الشاطئ، شرعوا يرسمون علامات غريبة على الرمال، ويفرشون المفارش البيضاء ليضعوا عليها القرايين التي سيقدمونها لإلهة البحر «بيمانيا»، من زهور وعطور ونبذ ودجاج وأمشاط ومرايا، وحولها سجاج من الشموع المضاءة. ثم يشرعون في الترنم بترانيم خاصة، ثم في الرقص وقرع الطبول. حتى إذا ما أعلنت دقائق الساعة منتصف الليل، إذا بالصواريخ الملونة تطلق، والأجراس تدق، والصرخات تعلو، وإذا هؤلاء القوم جميعاً وقد نزلوا إلى البحر بهداياهم وأزهارهم، فلا يخرجون حتى تأخذها الأمواج بعيدة عن أنظارهم. حينئذ يطمثون إلى أن إلهة البحر قد تلقت قرايينهم قبولاً حسناً، وأنها ستحقق لهم أمانهم وأحلامهم خلال العام الجديد!

البوتقة الكبرى:

هنا إذن، وعلى نحو شبيه إلى حد ما بما حدث في الولايات المتحدة

الأمريكية، قد امتزجت الأجناس والأديان والعادات والتقاليد في بوتقة واحدة، بعد موجات متعاقبة من الهجرات من مختلف بقاع العالم. فهنا سلالات السكان الأصليين من الهنود الحمر، والبرتغاليين المستعمرين الأوّل للبلاد، والأفارقة الذين أتى بهم البرتغاليون قسراً لفلاحة الأرض، والمهاجرين الإيطاليين والألمان والبولنديين واليابانيين والإنجليز والإسبان واليهود، بالإضافة إلى ستة ملايين من اللبنانيين والسوريين من نسل أولئك الذين تركوا وطنهم في أواخر القرن الماضي وبداية هذا القرن فراراً من سطوة الحكم العثماني، أو طلباً للرزق في الدنيا الجديدة. وتقدر نسبة البيض هنا بحوالي ٥٤, ٢٤٪ يتركزون في المنطقة الجنوبية المماثلة في مناخها لمناخ أوروبا. أما الزنوج فتقدر نسبتهم بحوالي ٥, ٩٢٪ يتركزون في منطقة الجنوب الشرقي ويعملون في مصانعها. أما الهنود الحمر فلا يتجاوز عددهم ٢٣٠ ألف نسمة يعيشون حياة بدائية في الولايات الشمالية عند حوض نهر الأمازون. وأما باقي السكان (أي نحو ٣٨, ٨٥٪) فيعرفون باسم «المولاتو» Mulatto، وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية «مولود»، إذ هم ثمرة التزاوج بين البيض والزنوج والهنود الحمر، لون بشرتهم أقرب ما يكون إلى لون بشرة العرب، ويسكن معظمهم في المنطقتين الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية.

فإن كنا قد قارنا وضع الأجناس هنا بوضعها في الولايات المتحدة، فإن هناك فارقاً ضخماً يتعلق بالتعايش بينها. إذ ليس ثمة في البرازيل ما يوحي بوجود تفرقة عنصرية بين أجناسها. فهنا العشرة الطيبة بين الأبيض والأسود والأسمر، والاحترام المتبادل، والتزاوج غير المقيد أو المنهي عنه، وغير المغضوب عليه. وهنا سسمفونية رائعة من الألوان، من الأسود الفاحم كلون بشرة موجابي أو نكومو، إلى الأبيض الناصع كلون بشرة مسز تاتشر، مروراً بلوان بشرة الحبيب بورقيبة والسادات وأنديرا غاندي، مما يجعل من المحال التفرقة بين البرازيلي والأجنبي إلا حين يشرع الأجنبي في الحديث بلغة برتغالية ركيكة. وقد كان للزنوج تأثير عظيم في الحياة البرازيلية، خاصة في العقيدة

والعادات والموسيقى والرقص وفن التصوير والرياضة والاعتقاد في السحر. كما استفاد اقتصاد البلاد استفادة عظمت من النشاط التقليدي المشهود لليابانيين والألمان الذين توافدت أعداد كبيرة منهم على البرازيل في السنوات السابقة على الحرب العالمية الثانية والثالثة لها. وقد أبدى هؤلاء جميعاً - عدا الألمان - استعداداً كاملاً للانخراط في البوتقة البرازيلية الكبرى، وهجر لغاتهم الأصلية إلى اللغة البرتغالية. فمن النادر مثلاً هنا أن تصادف برازيلياً من أصل لبناني أو سوري يعرف العربية، أو شديد الاهتمام بالأوضاع الراهنة في لبنان وغيره من الأقطار العربية. كذلك فإن المسلمين البالغ عددهم حوالي مائتي ألف نسمة لم يعودوا يعرفون الكثير عن دينهم، والبعض من شبابهم يلبس حول عنقه سلسلة ذهبية تحمل علامة الصليب دون أدنى إدراك منه لوجود تناقض. ثم من يدري، لعل بعضهم يقدم أيضاً القرايين في ليلة رأس السنة لإلهة البحر «بيمانيا»!

نعم قد لا نجد إلا القليلين من السود البرازيليين في مناصب القضاة أو الدبلوماسيين، أو الوزراء وكبار رجال الدولة، أو حتى من الأطباء والأساتذة والمحامين وقادة الجيش. غير أن هذا يرجع إلى المستوى الاقتصادي الناجم عن تباين الحظوظ من التعليم والثقافة (وهو تباين من ثمار الماضي)، والناجم أيضاً عن تفضيل الزواج عادةً للاستمتاع بالحياة على العمل الشاق، وقلة حاجاتهم وتطلعاتهم. غير أن الظاهرة الهامة في الأمر كله هي ما ذكره لي أحد كبار رجال الحكومة هنا من أنه في حين كان الرجل البرازيلي الأبيض في الماضي القريب يحاول جاهداً إنكار سريان دم زنجي أو هندي في عروقه، لم يعد هناك اليوم إلا من يصرح علناً وعن طيب خاطر بأنه رغم بياض بشرته من المولدين، بل ويفخر بأنه منهم، وهي دلالة طيبة على أن ما بقي من آثار ضئيلة للتفرقة العنصرية هو في طريقه إلى الإندثار.



وأقول في النهاية: إنني قد أكون صادفت هنا ما هو أهل للاستنكار، غير

اني أحببت كل شيء . قد تطلعتني الأيام في المستقبل على بعض الخبايا مما قد
يغير من نظرتي ورأيي . غير أنني في يومي هذا وقت تسطيري لهذا المقال أكاد
أجزم بأن الرحيل عن البرازيل هو بمثابة خروج آدم من الجنة . وكثيراً ما أجدني
إذ أرقب الشعب هنا في الشوارع والمطاعم والمتاجر وعلى شاطئ البحر،
يضحكون ويرقصون ويغنون، أتذكر ما نحن فيه في عالمنا العربي من بلاء
وفرقة، وتعصب وتطرف، وتطاحن وتناحر وإرهاب، وعنف وعداوة، فأقول في
نفسي: لقد قيل قديماً «سعيد هو الشعب الذي لا تاريخ له»، غير أنني أقول:
سعيد هو الشعب الذي لا يابه لأمر السياسة، ولا يقرأ من الصحف غير نتائج
مباريات الكرة، ولا يرى ما هو أفضل من الضحك والغناء، ولا أسمى من مَد يد
العون للغير، ولا تسمح طبيعته بأن يرى من الأمور غير جانبها المضيء البهيج،
ولا يكاد يعرف ماهية التطرف الديني أو التعصب العرقي . . وكلها أمور قد
اجتمعت لهذا الشعب الكريم الذي أحيى الآن بين ظهرانيه . . . شعب
البرازيل .

—————نزهة الأئدة والنفس ، في معرفة أحوال الروس—————

كان للمسلمين في العصور المسماة عند الإفرنج بالعصور الوسطى قصب السبق في ميدان الرحلات والدراسات الجغرافية . وقد ساهمت في ذلك عدة اعتبارات :

* سيادتهم في البر والبحر ، وانبساط دولتهم من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالاً إلى صحاري أفريقيا جنوباً .

* ما جمع بين الدول الإسلامية - حتى بعد زوال وحدتها السياسية - من روابط الدين واللغة والثقافة ، مع ضعف القوميات الإقليمية في ذلك العصر .

* حاجة الحكام إلى من يقوم برحلات في أنحاء الدولة لدراساتها ووصفها ومعرفة طرقها وحاصلاتها وخارجها وما إلى ذلك ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة .

* الرغبة القوية لدى الكثيرين في طلب العلم في مراكز الثقافة المتعددة في ديار الإسلام ، والدّرس على مشاهير الفقهاء والمحدثين واللغويين والأطباء والفلاسفة والرياضيين .

* قيام ألوف المسلمين بأداء فريضة الحج كل عام ، ورحلتها إلى الحجاز في شتى بقاع العالم الإسلامي ، مارةً بمختلف البلدان .

* إتساع نطاق التجارة حتى شمل بلاداً خارج حدود الديار الإسلامية .

* إيفاد أمراء المسلمين الرّسل والسفراء إلى غيرهم من أمراء المسلمين وملوك غير المسلمين .

* تنقّل الفنانين ومهرة الصّناع من إقليم إلى آخر سعياً في طلب الرزق، أو بناءً على تكليف من الأمراء .

* ما أسهم في تسهيل الرحلات من اعتبارات مثل عادة إكرام الضّيف عند الشرقيين، وبساطة العيش في القرون الوسطى، وانتشار الرّباطات والخانات التي يمكن للمسافرين الإقامة بها، وحبس الأوقاف للإنفاق منها في سبيل راحتهم، وحثّ الإسلام على السّفر، وإباحة تعدّد الزوجات بحيث يمكن للمسافر الذي يتغيّب مدّة طويلة عن بلده التزوّج في البلاد التي ينزل فيها .

وقد خلّف الرحالة والجغرافيون وغيرهم من المؤلّفين المسلمين بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين (التاسع والخامس عشر الميلاديين) مؤلّفات كثيرة حوت وصفاً لرحلاتهم، أو تلخيصاً لرحلات غيرهم، كما ضمّن المؤرخون المسلمون كتبهم ذكر العلاقات والحروب بين دولة الإسلام ودول غير المسلمين، وملاحظاتهم عن سلوك الأجانب في الحرب والسلام .

وقد رأينا أن نجتمع هنا بعض ما دوّنه عدد من هؤلاء الرحالة والجغرافيين والمؤرخين في وصف روسيا وعادات أهلها وأخلاقهم، نلحق به وصفاً أورده المؤرخ مسكويه (توفي عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠م) في كتابه «تجارب الأمم» لحادث غزو الروس واحتلالهم لأرض من أراضي المسلمين عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣م، ولمقاومة المسلمين لهذا الغزو حتى اضطر الروس إلى الانسحاب، ووصفاً أورده المسعودي في «مروج الذهب» لغزوري آخر .

* * *

البلد والشعب:

أرض الروس أرض واسعة، إلا أن بلادها قليلة، وعماراتها منقطة، وبين البلد والبلد مسافات متباعدة^(١). وهي بلاد وخمة^(٢). وأهل هذه الأرض من ولد يافث، ويُنسبون - على ما زعم صاحب كتاب «نزهة المشتاق» (الإديسي) إلى مدينة من مدنها تسمى روسيا^(٣). ويُقال إنهم ينتسبون إلى روس بن ترك بن طوج^(٤). والروم تسميهم أروسيا، ومعنى ذلك «الحمرة»^(٥). ويقال لهم «رس» بغير واو^(٦). وهم أمة عظيمة، لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة^(٧). وجملتهم على التقدير مائة ألف إنسان. وليس لهم زرع ولا ضرع^(٨)، وإنما يأكلون مما احتملونه من أرض الصقالبة^(٩). وليس لهم عقار ولا قرى، وإنما حرفةهم التجارة في السمور والسنجاب وغير ذلك^(١٠)؛ وللروس في أرضهم معدن فضة كبير، ويختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية والقسطنطينية والخزر^(١١).

وأهل هذه الأرض شقر الأبدان، صفر الشعور، طوال القامات. وهم أشدَّ

(١) جامع الفنون لابن شبيب الحرّاني.

(٢) عجائب الأقطار لابن إلياس.

(٣) مناهج الفكر للوطواط.

(٤) نخبة الدهر للدمشقي.

(٥) التنبيه والإشراف للمسعودي.

(٦) معجم البلدان لياقوت.

(٧) مروج الذهب للمسعودي.

(٨) أحسن التقاسيم للمقدسي.

(٩) أطلق المسلمون لفظ «الصقالبة». لا على السلافيين فحسب وإنما على الجرمان وسائر سكان أوروبا أيضاً.

(١٠) الأعلام النفيسة لابن رسته.

(١١) مروج الذهب للمسعودي.

خلق الله تعالى، ولهم لغة غريبة^(١). وقد رأيت الروسية فلم أر أتم أبداناً منهم، كأنهم النخل، شقر حمر، يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه. ومع كل واحد منهم سيف وسكين وفأس لا يفارقها أبداً^(٢). وهم يحلقون لحاهم، وبعضهم يفتلها مثل أعراف الدواب ويضفرها^(٣). ولهم جث ومنظر وإقدام وبسالة، فإذا نزلوا بساحة قوم لم ينصرفوا عنهم دون أن يهلكوهم ويستبيحوا حرمهم ويسترقوهم. وإن استنفرت طائفة خرجوا جميعهم ولم ينفروا، وكانوا يداً واحدة على عدوهم حتى يظفروا بهم^(٤). ولهم بأس شديد، لا يعرفون الهزيمة، ولا يولي الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل^(٥). وإذا ولد لرجل منهم مولود قدم إلى المولود سيفاً مسلولاً فالتقاء بين يديه وقال له: «لا أورثك مالاً، وليس لك إلا ما تكسبه لنفسك بسيفك هذا»^(٦). وإذا حكم ملكهم بين خصمين بشيء ولم يرضيا به، قال لهما: «تحاكما بسيفيكما، فأَي السيفين كان أحدٌ كانت الغلبة له!»^(٧).

وهم مستهترون بالخمير، يشربونها ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده^(٨)، ولا يدخل إليهم غريب إلا قتلوه^(٩). ولهم مدينة تسمى «أرثاء» لا يدخلها أحد من الغرباء لأنهم يقتلون كل غريب يصل إليهم البتة، ولا يتجرأ أحد أن يدخل أرضهم^(١٠).

(١) ابن إياس.

(٢) رسالة ابن فضلان.

(٣) نزهة المشتاق للإدرسي.

(٤) ابن رسته.

(٥) تجارب الأمم لمسكويه.

(٦) ابن رسته.

(٧) المقدسي.

(٨) ابن فضلان.

(٩) ابن شبيب الحرائي.

(١٠) الإدرسي.

وهم أقدر خلق الله ، لا يستنجون من غائط ولا يقتسلون من جنابة ، كأنهم الحمير الضالة^(١) ولا يبرز أحدهم لقضاء حاجته وحده ، إنما يصحبه ثلاثة نفر من رفقاته يتحارسونه بينهم ، ومع كل واحد منهم سيفه ، لقلة أمانتهم والغدر الذي فيهم . فإن الرجل إذا كان له قليل مال طمع فيه أخوه وصاحبه الذي معه فيقتله ويسلبه^(٢) .

وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم ، وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ، ولا يقربونه ولا يكلمونه بل ولا يتعاهدونه ، لا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً . فإن برىء وقام رجح إليهم ، وإن مات أحرقوه ، وإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . وإذا أصابوا لصاً جاؤوا به إلى شجرة طويلة غليظة ، وشدوا في عنقه حبلاً وثيقاً ، وعلقوه فيها ، ويبقى معلقاً حتى يتقطع من المكث في الرياح والأمطار^(٣) .

نساؤهم وحياتهم العائلية :

وهم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ، وتُحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهن^(٤) . وإن ماتت المرأة لم يُحرق الرجل . وإن مات عزب زَوْجٌ بعد وفاته . والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن في ظنهن الجنة . وهذا فعل من أفعال الهند^(٥) .

وكل امرأة منهم على ثديها حَقَّة مشدودة ، إما من حديد وإما من نحاس وإما من فضة وإما من ذهب ، على قدر مال زوجها ومقداره ، في كل حقة حلقة فيها سكين مشدود على الثدي أيضاً . وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة . لأن

(١) ابن فضلان .

(٢) ابن رسته .

(٣) ابن رسته .

(٤) ابن فضلان .

(٥) المسالك والممالك للإصطخري .

الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامراته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر. فربما كان في عتق الواحدة منهن أطواق كثيرة. وأجلّ الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف، يُبالغون فيه، ويشتررون الخرز منه بدرهم، وينظمونه عقوداً لنسائهم^(١).

وبيوتهم كبار من الخشب. ويسكن في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر. ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه. وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحداء بعض. وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها، فلا يزول عنها حتى يقضي أربه^(٢).

ولا بدّ لهم في كلّ يوم بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتقدّمها إلى مولاه فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه، فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يتسخط ويصق فيها، ولا يدع شيئاً من القدر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه، حملت الجارية القصعة إلى الذي يليه، فيفعل مثل ما فعل صاحبه. ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يتسخط ويصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها^(٣).

الملك والديانة:

ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، فهم يموتون بموته ويُقتلون دونه. ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى يطأها.

(١) مروج الذهب للمسعودي.

(٢) ابن فضلان.

(٣) المرجع السابق.

وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سرير الملك. وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر. ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفرشه^(١). بأيديهن مجامر من ذهب وفضة وهي مطلقة بالبخور^(٢)، وربما وطئ الملك الواحدة منهن بحضرة أصحابه. ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قَدَمُوا دابته إلى السرير فركبها منه، وإذا أراد النزول قَدَمَ السرير أمام دابته حتى يكون نزوله عليه^(٣).

ولهم لغة ودين وشريعة لا يشاركهم فيها أحد^(٤). وساعة موافاة سفنهم بالمرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيد، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نُصبت في الأرض. فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد لها ثم يقول: «يا رب، قد جئت من بعيد ومعني من الجواري كذا وكذا رأساً، ومن السَّمُور كذا وكذا جلدًا» - حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: «وقد جئت بك بهذه الهدية». ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة، ويقول: «أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودرهم، فيشتري مني كل ما أريد، ولا يخالفني في جميع ما أقول» ثم ينصرف. فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه، عاد بهدية أخرى ثانية وثالثة. فإن تعذر عليه ما يريد، حمل إلى صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال: «هؤلاء نساء ربنا وبناته». فلا يزال إلى صورة فصورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها، فربما تسهل له البيع فباع، فيقول: «قد قضى ربي حاجتي، وأحتاج أن أكافئه». فيعمد إلى عدة من البقر والغنم ويقتلها، ويتصدق ببعض اللحم، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها، ويعلق رؤوس البقر والغنم على ذلك

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن إياس.

(٣) ابن فضلان.

(٤) ياقوت.

الخشب المنصوب في الأرض. فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك، فيقول: «قد رضي عني ربي وأكل هديتي!»^(١).

وأما الآن، فالمشهور من دين النصرانية^(٢).

الموت وطقوس الدفن:

وكان يقال إنهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنْتُ أحبُّ أن أقف على ذلك، حتى بلغني موت رجل منهم جليل. فجعلوه في قبر وسقّوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها. وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها. أما الغني فيجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث، ثلث لأهله، وثلث يقطعون به له ثياباً، وثلث يشترّون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتُحرق مع مولاها.

وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانهم: «من منكم يموت معه؟» فيقول بعضهم: «أنا» فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، لا يستوي له أن يرجع أبداً ولو أراد ذلك. فلما مات ذلك الرجل الذي ذكرته، قالوا لجواريه: «من يموت معه؟» فقالت إحداهن: «أنا» فوكلوا بها جارتين تحفظانها، والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة. فلما كان اليوم الذي يُحرق فيه هو والجارية، حضرتُ إلى النهر الذي فيه سفينته، فإذا هي قد أخرجت وجُعِلَ لها أربعة أركان من الخشب، ثم مُدَّت حتى جُعِلت على ذلك الخشب. وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهمه، وهو بعد في قبره لم يخرجوه. ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة. فلما وافوا قبره نَحَوُ التراب والخشب، واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه. فرأيتُه قد اسودَّ لبرد البلد، وكانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهةً وطنبوراً، فأخرجوا جميع ذلك، وإذا هو

(١) ابن فضلان.

(٢) ياقوت.

لم يتغير منه شيء غير لونه. فالبسوه سراويلًا وخُفًّا وجعلوا على رأسه قلنسوة، وحطوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة، وأجلسوه وأسندوه بالمساند، وجاؤوا بالنبيذ والفواكه والريحان فجعلوه معه، وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه. وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة. ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه. ثم أخذوا دابتين وقطعوهما بالسيوف وألقوا لحمهما في السفينة. ثم أحضروا بقرتين وديكاً ودجاجةً فقتلوا وطرحوها فيها.

كل هذا والجارية التي تُقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قباهم فيجامعها صاحبها ويقول لها: «قولي لمولاي إنما فعلت هذا من محبتك». فلما كان وقت العصر جاؤوا بالجارية فوضعت رجلها على أكف الرجال وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها، ثم أصعدوها ثانيةً ففعلت كفعالها في المرة الأولى. ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثةً ففعلت فعلها في المرتين. فسألتُ الترجمان عن فعلها فقال: «قالت في المرة الأولى: هوذا أرى أبي وأمي. وقالت في المرة الثانية: هوذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً. وقالت في المرة الثالثة: هوذا أرى مولاي قاعداً في الجنة، والجنة حسنة خضراء، وهو يدعوني، فاذهبوا بي إليه».

ثم مروا بها نحو السفينة، فنزعت سوارين كانا معها ودفعتهما إلى امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت، وهي التي تقتلها. ونزعت خلخالين ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المعروفة بملك الموت. ثم أصعدوها السفينة، ودفعوا إليها قدحاً من نبيذ فغنت عليه وشرته. وأخذت العجوز برأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها، وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يُسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجوّاري فلا يطلبن الموت مع موالهن. ثم دخل القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية، ثم أضجعوها إلى جانب مولاها الميت، وأمسك اثنان رجلها، واثنان يديها، وجعلت العجوز في عنقها حبلاً، ودفعته إلى ائتين ليجذباه، وأقبلت ومعهما

خنجر عظيم عريض النصل، وأقبلت تُدخله بين أضلاعها وتُخرجه، والرجلان يخفئانهما بالجبل حتى ماتت.

ووافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة فأشعلها بالنار، ثم مشى القهقري نحو قفاه إلى السفينة، والخشبة في يده الواحدة ويده الأخرى على إسته وهو عريان، حتى أحرق الخشب المعبى تحت السفينة. ثم وافى الناس ومع كل واحد خشبة وقد ألهب رأسها، فُلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية.

وكان إلى جانبي رجل من الروسيّة فسمعتُه يكلم الترجمان الذي معي، فسألتُه عما قال له، فقال: «إنه يقول: أنتم معشر العرب حمقى، لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم فتطرحونه في التراب، فتأكله الهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة، فيدخل الجنة من وقته وساعته». ثم ضحك ضحكاً مفرطاً. وما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رماداً، نصبوا في وسطه خشبة كبيرة وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس، وانصرفوا^(١).

الغزو الروسي لبلد إسلامي:

قال المؤرخ مسكويه في كتابه «تجارب الأمم» في حوادث سنة ٣٣٢ هـ/٩٤٣م^(٢):

وفي هذه السنة خرج عسكر الأمة المعروفة بالروس إلى آذربيجان،

(١) رسالة ابن فضلان. وكان ابن فضلان في بعثة أرسلها الخليفة العباسي المقتدر عام

٣٠٩ هـ/٩٢١م، إلى ملك البلغار فمرّت البعثة في طريقها ببلاد الروس.

(٢) تجارب الأمم: الجزء الثاني ٦٢-٦٧ مختصراً.

وقصدوا مدينة برذعة^(١). فتوجّه إليهم المرزبان بن محمد بن مسافر^(٢) ومعه من المطوّعة نحو خمسة آلاف رجل لجهاد هؤلاء. وكانوا مغترين لا يعرفون شدة الروس، وحسبوا أنهم يجرون مجرى الأرمن والروم. فلما صافوهم الحرب، لم تكن إلا ساعة حتى حملت الروسية حملة منكبة فهزموا العسكر، ووَلَّت المطوّعة بأسرهم وسائر العسكر إلا الديلم، فإنهم ثبتوا ساعة فقتلوا كلهم. وهرب كل من كان له مركوب، وتركوا البلد، فنزلته الروسية وملكوه. وبادروا فنادوا فيه وسكّنوا الناس وقالوا لهم: «لا منازعة بيننا وبينكم في الدّين، وإنما نطلب الملك، وعلينا أن نُحسن السيرة، وعليكم حسن الطاعة».

ووافتهم العساكر من كل ناحية، فكانوا يخرجون إليهم ويهزمونهم. وكان أهل برذعة يخرجون معهم، فإذا حمل المسلمون على الروس كبروا ورجضوهم بالحجارة، فكانت الروسية تتقدّم إليهم بأن يضبطوا أنفسهم. فأما العامة فكانوا لا يضبطون أنفسهم ويظهرون ما في نفوسهم ويتعرّضون لهم إذا حمل عليهم أصحاب السلطان. فلما طال ذلك على الروس نادى مناديتهم بالأا يقيم في البلد أحد من أهله، وأجلوهم ثلاثة أيام من يوم نداءهم.

فخرج كل من كان له ظهر يحمله ويحمل حرمه وولده، وهم نفر يسير. وجاء اليوم الرابع والأكثر مقيمون، فوضعت الروسية فيهم سيوفهم فقتلوا خلقاً عظيماً لا يُحصى عددهم، وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف رجل وغلّام مع

(١) برذعة، بلدة جنوب جبال القوقاز كانت فيما مضى قسبة أرّان، وهي على بعد ١٤ ميلاً تقريباً من نهر الكُرّ. وكانت في عهد الساسانيين الفرس ثم في عهد العرب حصناً على الحدود لصدد غارات الغزاة من الشمال والغرب فتحها العرب حوالى عام ٦٢٢هـ/٦٠٢م. وكانت وقت الغزو الروسي لها في أوج ازدهارها، تشغل مساحة تمتد عدة أميال طويلاً وعرضاً، في منطقة خصبة تتوفر فيها مياه الري، وتضارع في الحجم الري وأصفهان.

(٢) هو والى آذربيجان.

نسائهم وبناتهم. ثم جمعوا الرجال إلى المسجد الجامع ووكّلوا بأبوابه، وقالوا لهم: «اشترُوا أنفسكم». وتوقّف الروسية عن قتل الرجال طمعاً في المال، فلما لم يحصل لهم شيء وضعوا فيهم السيوف فقتلهم عن آخرهم، إلا عدداً يسيراً. وربما وافق الواحد من المسلمين الروسي على مال يفتدي به نفسه، فيحضر معه إلى منزله أو حانوته، فإذا استخرج ذخيرته وكانت زائدة على المال المتفق عليه لا يمكن صاحبها منها وإن كانت أضعافاً مضاعفة عليه. فإذا علم أنه لم يبق له عين ولا ورق ولا جوهر ولا فرش ولا كسوة، أفرج عنه وأعطاه ظيئاً مختوماً يأمن به من غيره (من الروس). فاجتمع لهم من البلد شيء عظيم يجلب قدره. وكانوا قد حازوا النساء والصبيان فججروا بهن وبهم واستعبدوهم.

فلما عظمت المصيبة وتسامع المسلمون في البلدان بخبرهم تنادوا بالنفیر. وجمع المرزبان بن محمد عسكريه واستنفر الناس، وأتاه المطوعة من كل ناحية، فسار في ثلاثين ألف رجل. ومع ذلك لم يمكنه أن يؤثر في الروسية أثراً، وكان يغاديهم القتال ويرأوه وينقلب عنهم مغلولاً. واتصلت الحرب بينهم على هذه الصورة أياماً كثيرة، فكانت الدبرة أبداً على المسلمين.

واتفق أن الروسية لما ملكوا برذعة تبسطوا في أكل الفاكهة، وهناك أنواع كثيرة منها، فمرضوا ووقع فيهم الوباء، لأن بلادهم شديدة البرد ولا ينبت فيها شجر، وإنما يحمل إليهم الشيء اليسير من البلاد الشاسعة عنهم. فلما قلّ عددهم فكر المرزبان في الحيلة، ووقع له أن يكمن لهم ليلاً، وواطأ عسكريه أن يادروا الحرب، فإذا حمل عليهم الروس انهزموا فيطمعون بذلك الروس في المسلمين، فإذا تجاوزوا موضع الكمين، عطف المرزبان ورجاله عليهم، فإذا حصر الروسية في الوسط تمكّنوا منهم. فلما أصبحوا تقدّم المرزبان وأصحابه، وبرز الروسية وأميرهم راكب حمار، واصطفوا للحرب فانهزم المسلمون، واتّبعهم الروسية حتي تجاوزوا موضع الكمين، واستمرّ الناس على هزيمتهم. فلما رأى المرزبان ذلك اجتهد بالمسلمين أن يراجعوا الحرب فلم

يفعلوا لما تمكن في قلوبهم من هية الروس. فرجع المرزبان وحده مع من تبعه، وحينئذ استحى أكثر الديلم فرجعوا وخرجوا من وراء الروس وصدقوهم الحرب وقتلوا منهم سبعمائة نفس فيهم أميرهم. وعاد الباقون إلى الحصن في البلد، وكانوا نقلوا إليه غلات كثيرة.

ولم يزل أصحاب المرزبان في قتال الروسية وحصارهم إلى أن ضجر الروس. وأتفق أن زاد الوياء عليهم. فكان إذا مات الرجل منهم دفنوا معه سلاحه. فاستثار المسلمون بعد زوال أمرهم مقابرهم فاستخرجوا منها سيوفاً يُتنافس فيها إلى اليوم لمضائها وجودتها. فلما قُتل عددهم خرجوا ليلاً من الحصن، وحملوا على ظهورهم كل ما أمكنهم من المال والجواهر والثياب الفاخرة، وأحرقوا الباقي، وساقوا من النساء والصبيان والصبايا ما شاؤوا، وقصدوا السفن التي خرجوا فيها من بلادهم، فجلسوا فيها ومضوا، وكفى الله المسلمين أمرهم^(١).

وسمعتُ ممن شاهد هؤلاء الروسية حكايات عجيبة عن شدتهم وقلة مبالغتهم بمن يجتمع عليهم من المسلمين. فمن ذلك خبر شاع في الناحية، وسمعتُه من غير واحد، أن خمسة نفر من الروسية اجتمعوا في بستان ببرقة وفيهم غلام أمرد وضيء الوجه من أولاد رؤسائهم، ومعهم نسوة من السبي، وأن المسلمين لما عرفوا خبرهم أحاطوا بالبستان واجتمع عدد كثير على حرب أولئك النفر الخمسة، واجتهدوا في أن يحصل لهم أسير واحد، فلم يكن إليه سبيل لأنه كان لا يستسلم أحد منهم، ولم يمكن قتلهم حتى قتلوا من المسلمين أضعافاً كثيرة لعدتهم. وكان ذلك الأمرد آخر من بقي، فلما علم أنه يؤخذ أسيراً، صعد شجرة كانت بالقرب منه، ولم يزل يجرح نفسه بخنجر معه إلى أن سقط ميتاً.

(١) استمر الاحتلال الروسي لبرذعة عدة شهور، وفي رواية ياقوت (معجم البلدان) سنة.

غزو روسي آخر يصده المسلمون:

وقد أورد المسعودي في «مروج الذهب» ذكراً لغزو روسي آخر تم في حوالي ذلك الوقت (أي النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، فيقول:

ورد للروس نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس، فدخلوا خليج بنطس المتصل بنهر الخزر، وراسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا ببلاده وينحدروا في نهره فيدخلوا بحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما، على أن يعطوه النصف مما يغنمون هنالك من الأمم على ذلك البحر. فأباحهم ذلك، فدخلوا. وانتشرت مراكب الروس في هذا البحر، وطرحت سراياها إلى الجبل والديلم وبلاد طبرستان ونحو بلاد آذربيجان. فسفكت الروس الدماء، واستباحت النسوان والولدان، وغنمت الأموال، وشنت الغارات، وأخربت وأحرقت، فضج من حول هذا البحر من الأمم لأنهم لم يكونوا يمهدون في قديم الزمان عدواً يطرقهم فيه، وإنما يختلف فيه مراكب التجار والصيد. وكانت الروس تأوي عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر بقرب النفاطة. فاستعد الناس، وركبوا في القوارب ومراكب التجار وساروا نحو تلك الجزائر. فمالت عليهم الروس فقتل من المسلمين وغرق ألوف. وأقام الروس شهوراً كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا، لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم، والناس متاهبون لهم، حذرون منهم.

فلما غنم الروس وسثموا ما هم فيه، ساروا إلى قم نهر الخزر ومصبه، وراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم على ما اشترط عليهم. وعلمت بشأنهم من في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر، «خلفنا وهؤلاء القوم، فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذرياري». فلم يمكنه منعهم، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم.

وعسكر المسلمون وخرجوا يطلبون الروس منحدرين مع الماء . فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وصافوا المسلمين . وكان مع المسلمين خلق من النصارى ، فكان المسلمون في نحو من خمسة عشر ألفاً بالخيـل والعدد . فأقامت الحرب بينهم ثلاثة أيام ، ونصر الله المسلمين عليهم ، فأخذوهم بالسيف ، فمن قتيل وغريق ، ونجا منهم نحو من خمسة آلاف ، تعلقوا بالبر ، فمنهم من قتله أهل برطاس ، ومنهم من وقع إلى بلاد البرغر المسلمين فقتلوهم . وكان من وقع عليه الإحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ نهر الخزر نحواً من ثلاثين ألفاً .

ولم يكن للروس من تلك السنة عودة .

فيساريون بيلينسكي

ورسائله الشهيرة إلى جوجول

يأتي على الدول المتخلفة في مضمار الحريات السياسية والشخصية، وفي المضمار الاقتصادي، حين من الدهر تتطلع فيه أنظار المثقفين بها إلى مدى ما وصلت إليه أوروبا في هاذين المضمارين بإعجاب وحسد شديدين. فالرخاء المادي، والديموقراطية السياسية، واحترام الشخصية الإنسانية، يصبح لها لدى هؤلاء المثقفين أهمية لا تعادلها أهمية، حتى ترى الحديث عن «شخصية مستقلة للأمة»، و«ضرورة الاحتفاظ بالطابع المميز لها»، وأن «لكل أمة طريقها الخاص للوصول إلى الحقيقة»، ممجوجاً خليقاً بالسخرية، وترى أصحابه إما من المضللين عن عمد، أتباع الحكومة الرجعية، الساعين إلى تحويل أنظار الجماهير عن مشاكلها الحقيقية (المادية)، وإما من السذج المضللين، الروحانيين اللاواقعيين، قد شبت بطونهم، وتضاعل اتصالهم بالشعب وهمومه، فشرعوا يتحدثون عن طابع خاص وشخصية مميزة. فالارتقاء باقتصاديات البلاد هو عندهم الواجب الأول والذي يليه. والنهوض بالصناعة وتطوير العلم وإشباع الحاجات المادية للفرد، هي الغرض الأسمى، وهي الوسائل الوحيدة للوصول إلى السعادة والحق. ولذا تقوم الحضارة الأوروبية أساساً على هذه المبادئ، فالحضارة الأوروبية إذن هي الأولى بالتقليد والاحتذاء. وعلينا أولاً أن نطعم الفرد ونكسّوه ونردّ عليه أنفاسه قبل أن نتوقع منه أن يستخدم هذه الأنفاس في التعبير عن شخصيته وذاته. أما أن نتركه يسير عاري القدمين، خالي الوفاض، ثم نتشّدق بعد ذلك بروحانيته

وفضائله، وندادى ببناء كيان متميز للأمة على هذا الأساس، فجهد أشبه بجهد
الرأسم على الماء، أوباني القصور في الهواء.

إيشان وأليوشاكارا مازوف :

وقد كان من الطبيعي أن يظهر هذا التيار الفكري في روسيا في بداية
العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لا لأن الاستبداد القيصري كان قد زاد
وقتها زيادة ملموسة، ولا لأن الفقر استفحل واتسع نطاقه، وإنما لازدياد الشعور
بالاستبداد القائم، وشروع الناس في التساؤل عن الأسباب الحقيقية للفقر. وإذا
كان الاتصال بين روسيا والغرب قد بدأ يعظم خاصة بعد الحروب النابوليونية
واشتراك روسيا الفعّال في معترك السياسة الأوروبية، فقد امتدت أنظار المثقفين
الروس للتطلع والمقارنة، والإعجاب والتحسّر، والتحمس والسخط. ألم يزعم
بطرس الأكبر أنه قد جعل من روسيا دولة أوروبية؟ فما بال نظمها السياسية إذن
أقرب إلى نظم الشرق؟ وما بال غالبية الشعب فيها لا تزال ترسف في أغلال
الرق، وترزح تحت أعباء الفقر والحاجة؟ إن خلق اللحي ليس بالمظهر الوحيد
من مظاهر إدخال المدنية الغربية في البلاد. فلندخل المبادئ الاشتراكية،
ولنمدّ خطوط السكك الحديدية، ولنقض على سلطان الكنيسة في ميادين
العلوم، ولنلغ نظام الرق، ثم لتطلقوا اللحي بعد ذلك إن شئتم إطلاقها!

وقد كان الصراع بين زعماء هذا التيار (بيلينسكي، هرتزن، تورجنيف،
تشرنشفسكي، دوبروليوبوف)، وبين المؤمنين بأن لروسيا رسالة خاصة، ونمطاً
ثقافياً متميزاً مناقضين للمدنية الغربية المادية الآخذة في الأفول والانحلال
(جوجل، دوستويفسكي، أكساكوف، وإلى حد ما تولستوي)، أشبه بالصراع
بين عقيلتي إيشان كارمازوف وأخيه ألوشا في رواية «الإخوة كارامازوف»
لدوستويفسكي. فأما في ميدان الأدب الروسي في عصره الذهبي، فقد انتصر
أليوشا الروحاني المتدين، وكان على إيشان المنطقي المادي أن ينتظر حتى
الثورة البلشفية عام ١٩١٧، حتى تكون الغلبة له. والواقع أنه مهما اختلفت

وجهات نظرنا حول مزاعم المذهبين، فلا شك في أن جانباً كبيراً من الفضل في عظمة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر راجع إلى هزيمة مدرسة بيلينسكي، وأن انتصار أشياع الروسية في ذلك الأدب، هو الذي مكّن روسيا من أن تقدم مساهمتها الفريدة في الفكر الإنساني، حيث أن المساهمة القومية، متى اقترنت بطابع إنساني، هي وحدها القادرة على أن تجعل من أدب ما أدباً عالمياً.

السلافيون ودعاة التغريب:

كانت الصحافة قد بدأت تتعش في روسيا خلال العقد الرابع والخامس من القرن الماضي، رغم الرقابة الصارمة التي فرضتها حكومة القيصر نيقولا الأول، ورغم الاضطهاد الفكري الشائع في ذلك العصر. وسرعان ما أضحت الصحف والمجلات الروسية، لأول مرة، رائدة للرأي العام في البلاد، وذات تأثير قوي فيه، واتخذت لنفسها شكلاً وطابعاً ظلّ غالبين على الصحافة الروسية حتى عام ١٩١٧.

فأما عن لواء الثقافة والفكر فقد انتقل بعد هزيمة الديسمبريين إلى الجامعات (خاصة جامعة موسكو)، والحلقات الأدبية التي كانت غالبية أفرادها من غير المنتمين في فكرهم إلى طبقة اجتماعية معينة. وبينما انتعشت الصحافة في العاصمة بطرسبورج تحت رعاية القيصر، وكسب رجالها المال الوفير مقابل إحتائهم الرأس للسلطات، كان تاريخ الصحافة في موسكو سلسلة طويلة من التضحيات والمآسي والمعاناة المرة من سطوة الرقابة والضائقة المالية.

وقد شهدت جامعة موسكو في أوائل العقد الرابع جماعتين من الشباب المثقف الطموح، اختلفت مطامحهما واتجاهاتهما الفكرية. كانت الجماعة الأولى التي تزعمها الكسندر هرتزن، قد وجهت اهتمامها إلى المشاكل السياسية والاجتماعية متأثرة في فكرها بالاشتراكية المثالية وتعاليم سان سيمون وفورييه وجورج صاند. أما الجماعة الثانية فقد حمل لواءها ستانكفيتسن

وبيلينسكي، وعנית بدراسة الفلسفة المثالية الألمانية، وتحمس أفرادها لمؤلفات شيلنج وفيخته وهيجل وفيرباخ تحمساً فاق تحمس الألمان أنفسهم لها. غير أن ظهور جماعة ثالثة في الميدان، هي جماعة «السلافيين»، وتحد بين الجماعتين الأوليين، ودفعهما إلى التحالف من أجل مقاومة تأثير هذه الجماعة الجديدة.

كان كل من السلافيين ودعاة التغريب متفقين على ضرورة القضاء على نظام الرق والحد من أوتوقراطية القيصر. غير أنهم كانوا كالأطبيين لمرضى واحد، قد اختلفا في تشخيص الداء، ووصف الدواء. ذهب السلافيون إل أن لروسيا تاريخاً فريداً في تطورها لا تشاركها فيه غيرها من الدول. وهي قد تكون في حاجة إلى اقتباس العلوم وبعض الأساليب الفنية من أوروبا. غير أن عليها قبل كل شيء أن تجاهد من أجل الحفاظ على شخصيتها، حتى لا تفقد هذه الشخصية المتميزة بتقليدها الأعمى للغرب، وبتهوينها من شأن نفسها. وأما طريق الخلاص فيتمثل في تمسكها بعقيدتها الأورثوذكسية، وحماية تقاليددها الشعبية من الاندثار، والعمل على إقامة علاقات شخصية بين مالِك الأرض والفلاح يسودها شعور أبوي كفيل بضمان سعادة الكافة.

وقد سخر دعاة التغريب، وجلهم من الاشتراكيين، من هذه الآراء، وكرهوا طابعها الديني، ورأوها سندا للأوتوقراطية القيصرية. وذهب هؤلاء إلى أن حدود الدولة أمر عارض لا قيمة له ولا أهمية، وأن الروس ينتمون إلى الإنسانية أولاً وقبل كل شيء، وأن طريق الخلاص، على حد تعبير بيلينسكي، يكمن في تحسين الظروف المادية وأحوال المعيشة، ولا يتأتى ذلك إلا بفتح الباب على مصراعيه لريح الآراء الحرة التي تهب من الغرب، وتوثيق الصلات بين روسيا والبلدان الأوروبية.

حياة بيلينسكي:

ولد قيساريون بيلينسكي، أعظم النقاد الروس وزعيم طائفة المفكرين من

دعاة التغريب، عام ١٨١١. وهو ابن لطبيب فقير يقيم ببلدة صغيرة إقليمية كانت تدعى شيمبار ثم غيّرت الحكومة السوفيتية اسمها فيما بعد فصارت تحمل اسم «بيلينسكي» وإذ بلغ الصبي الثامنة عشرة من العمر، التحق بجامعة موسكو حيث جمعته الصداقة بطائفة من الشبان المثاليين المتحمسين لهيجل، وعلى رأسهم ستانكفيتش. غير أنه بعد سنوات ثلاث من الدراسة بالجامعة، كتب مسرحية طويلة بعنوان «دمتري كالينين» هاجم فيها نظام الرق، فهددته السلطات بالنفي إلى سيبيريا إن هو عاد إلى كتابة مثلها. وسرعان ما فصل الشاب من الجامعة (عام ١٨٣٢)، وبررت الإدارة فصله «بسوء صحته، وقدراته الذهنية المحدودة»! وبذا لم يتمكن بيلينسكي من نيل شهادة جامعية. بيد أنه لم يهمل تعليمه بعد فصله، فقد انكب على الكتب يقرأ فيها الساعات الطوال، واتصل بزملائه السابقين في الدراسة يناقشهم ويناقشونه فيما يقرأ ويقرأون، ويغذي عقولهم ويغذون عقله بما اطلع وأطلعوه عليه.

ومع ذلك فقد ظل بيلينسكي ضعيفاً واضح الضعف في اللغات الأجنبية فلم يتمكن طيلة عمره من قراءة الكتب الألمانية أو الانجليزية التي تأثر بها إلا مترجمة. كذلك اعتمد أساساً في تحصيله للمعارف الفلسفية على ما زوده به منها زملاؤه الأكثر ثقافة.

ظل بيلينسكي قرابة عامين بعد فصله من الجامعة يعاني فقراً مدقعاً. ثم تمكن من العثور على وظيفة في مجلة «تيليسكوب»، وبدأ ينشر فيها وهو في الثالثة والعشرين مقالات في النقد تحت عنوان «خواطر أدبية»، تعرض فيها للرواية الروسية ومؤلفات جوجول بالأخص. وقد اعتبرت هذه المقالات بداية النقد الأدبي في روسيا، بل بداية صحافة روسية راقية واعية، وبداية عهد ظل بيلينسكي طوالها وحتى وقت وفاته الحَكَم الفصل وصاحب الكلمة الأخيرة في تقييم الأعمال الأدبية الروسية. وقد تميزت هذه المقالات بعدم احترام لكل ما هو قديم في الأدب الروسي وكل ما ظل الناس أمدأ طويلاً يجلونه ويوقرونه. كما تميزت بالتحمس الشديد للأفكار المثالية الجديدة ولمستقبل الجيل

الناشئ من بني وطنه. وقد جلب له تحمسه هذا لقب «فيساريون الغاضب»، أطلقه عليه المعجبون به من الشباب الذين اعتبروه زعيمهم ورائدهم، كما جلب عليه نقمة الرقابة، وكرامية المحافظين، وارتباب السلطة، وحقن الكنيسة ورجال الدين.

وفي عام ١٨٣٦، صدر الأمر الحكومي بتعطيل مجلة «تيليسكوب»، فعاد بيلينسكي إلى فقره. وبعد بحث مضن عن عمل يقات منه، اضطر إلى قبول وظيفة مدرس للأطفال، وتأليف كتاب مبسط في قواعد اللغة. غير أن صداقته بالفيلسوف الفوضوي باكونين صاحب إحدى المجلات الروسية، مهّدت له طريق العمل كصحفي فيها. فلما أفلست المجلة وأغلقت أبوابها، انتقل بيلينسكي إلى مجلة أخرى أصبح الناقد الأول فيها مقابل مرتب ضئيل لم يكن ثمة مفر من قبوله.

وصيته الأخيرة:

وأصبح بيلينسكي بفضل مقالاته منذ ذلك الحين روح التقديمية في روسيا، والمبشر بنوع جديد من الأدب. كان يرى أن الوقت قد حان كي يهجر الأدب الروسي اتجاهي الكلاسيكية والرومانسية، وأن يصبح أدباً جديداً متصلاً بالواقع الحاضر، يعكس الحياة الواقعية في صدق وأمانة، ويستمد أسسه من الأفكار الحديثة في الفلسفة وعلم الاجتماع. وكان يرى في الواقعية الاجتماعية في مؤلفات جوجول تحقيقاً لذلك الحلم الذي شغل مخيلته، وتجسيداً لمثله العليا في الأدب.

وفي عام ١٨٤٧ تفاقم عنده داء السل، فاضطر إلى الرحيل عن روسيا يلتمس العلاج في كل من فرنسا وألمانيا: ومن ألمانيا، بعيداً عن سلطان الرقابة، كتب خطابه الشهير إلى جوجول عقب صدور كتاب الأخير «مراسلات مع الأصدقاء»، عبّر فيه عن غضبه على خيانة جوجول للشعب والأدب الروسيين بتحوله المفاجيء إلى مؤازرة حكم القيصر، والولاء للكنيسة الأورثوذكسية،

وإعلانه الندم على كتابة مؤلفاته السابقة. ويُروى عن هرتزن أنه عندما قرأ عليه بيلينسكي الخطاب بعد فراغه من كتابته، مال على صديق كان معه يهمس في أذنه:

«إنه عمل لا يأتي إلا من عبقرى. وليخيل إليّ أنه أيضاً وصيته الأخيرة».

وقد كان. ففي يوم ٢٦ مايو عام ١٨٤٨، بعد عودة بيلينسكي إلى روسيا بفترة قصيرة، توفي من دائه وهو في السابعة والثلاثين من العمر. وإذ بلغ نبأ موته كبير الرقباء على الصحافة، عبر عن حزنه الشديد وصاح فيمن حوله:

«يا للأسف! لقد كنا نأمل أن ندفنه حياً في السجن، فإذا الوغد يتمكن من الفرار!».

تأثير هيغل:

ظل بيلينسكي مدة طويلة (خاصة في الفترة ما بين عامي ١٨٣٤ و١٨٣٧) شديد التأثر بمؤلفات هيغل، خاضعاً في تفكيره وكتاباته للجانب المثالي من فلسفته. فهو يؤمن مع هيغل بالفكرة المطلقة تصطنع تطور الحياة المادية والروحية في سبيل تحقيق حريتها الكاملة. وهو يرى أن «هذا العالم الجميل الخالد ليس إلا نفحة من فكرة واحدة خالدة تكشف عن نفسها في أشكال غير محدودة، كأنها مشهد عظيم لوحدة مطلقة تظل تتنوع تنوعاً لا يدركه حصر». حتى إذا ما تحول إلى النقد الأدبي رأى في الفن «بعثاً لفكرة روح الطبيعة بواسطة الألفاظ والأنغام والألوان، وتعبيراً عن فكرة الوجود المتجلية في مختلف الظواهر. وإنما يسمو الشاعر بفنه إلى القمة حين ينجح في تمكين قارئه من النظر إلى الوجود من زاوية تبدو له الطبيعة منها مصغرة كرسم الخريطة، وحين ينجح كذلك في إنعاش روح قارئه بنفحة الحياة التي تحرك الوجود، وباللهب الذي يعطيه الدفء».

وكان في البداية يؤمن بمبدأ هيغل الشهير «كل ما هو حقيقة واقعة

معقول، وكل ما هو معقول حقيقة واقعة». ومعنى هذا أن بقاء أية حقيقة في عالم الواقع دليل على أن تغلب نقيضها عليها لم يحن أوانه، إذ لو أنها صارت غير ملائمة لزمانها لاستسحقها الجديد. وهي فلسفة رجعية استندت إليها حكومات أوروبا الاستبدادية في تعزيز طغيانها. ففي وجودها دليل على ملاءمتها لاحتياجات الزمن، وتبرير لبقائها، ولا معنى أو مبرر لمحاولة التخلص منها بالثورة عليها.

وعلى هذا أقرّ بيلينسكي في أول عهده بقاء حكومة القيصر على أساس أنها مرحلة انتقال لم يحن بعد أوان تخطّيها وتجاوزها بالنظر إلى أن القوى التقدمية لم تبلغ بعد من النضج القدر الكافي الذي يمكنها من تحقيق رسالتها. وكان مع عدائه لنظام الرق لا يرى مناصاً من تقبله ريثما تنضج القوى التقدمية فتدمره وتطلع بالجديد الذي سيحل مكانه.

أثارت هذه الآراء الرجعية لبيلينسكي سخط الشباب الروسي الثائر وغضبه، وقاد هرتزن حملة على اتجاهه المسالم للسلطة، داعياً إلى خوض ميدان الكفاح وحض الفلاحين على الثورة على نظام الرق. وقد قاوم بيلينسكي هذه الحملة في بادئ الأمر، ثم لم يلبث أن تحول عن موقفه، وقابل هرتزن في بطرسبورج عام ١٨٤٠، وأقر له بخطأه، وبتحوله إلى الاعتقاد بأنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالثورة.

أهم ناقد في تاريخ الأدب الروسي:

وكانت توبته وتحولته عن فلسفة هيجل عميقين صادقين. كتب يقول: «أولى بالإنسان أن يموت من أن يوافق على النتائج التي توصل إليها هيجل». فهو الآن يؤمن بالاشتراكية «التي أصبحت عندي مسألة المسائل، وأمّ الآراء، وكيان الكائنات، والبداية والنهاية لكافة المعارف والمعتقدات». وقد كتب دوستويفسكي في يومياته يقول: «كنا جالسين يوماً إلى بيلينسكي نستمع إليه يتحدث عن المسيحية. فإذا به يقطع حديثه فجأة ويصبح بي: كلما تطرّق بي

الحديث إلى المسيح أجد لونك قد امتنع وبدوت وكأنك على وشك البكاء. صدّقني أيها الشاب، لو أن المسيح ولد في زماننا هذا لاعتنق المذهب الاشتراكي على الفور!».

وبتغير معتقدات بيلينسكي الفلسفية تتغير مفاهيمه عن الأدب والفن. فهو يعرف الفن الآن بأنه «التأمل المباشر في الحقيقة، وإعادة لخلق الكون دون تحوير». ولا يعني هذا أن الفن يعكس لنا الحياة والطبيعة كما تعكس المرأة الصورة، «غير أن عليه دائماً أن يبرز للناس حقيقة أحوالهم وحقيقة أنفسهم، وأن يتناول المشكلات التي تجثم على صدورهم فيستحثهم على التخلص منها، واجتثاثها من جذورها».

بات لدى بيلينسكي نظرية نامية واضحة المعالم في الأدب ورسالته. بل إنه يمكن القول (وهو قول لا ينطبق إلا على عدد صغير من النقاد) إن كل ما أصدره من أحكام على ما ظهر من مؤلفات روسية بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨، يمكن التسليم به دون اعتراض. أما أحكامه على أدب الأجيال السابقة على تلك الفترة، فقد انتقص من قيمتها تعصبه المذهبي، وإصراره الشبيه بإصرار الشيوعيين في قرننا هذا على تطبيق معايير صارمة محددة لا تلين، وذوق أدبي واحد معين. فبيلينسكي لا يُكنّ احتراماً إلا لنوع واحد من الأدب، عاجز عن استساغة غيره. فإن رفض أديب الدخول إلى حظيرته هاجمه وسفّهه مهما بلغ أدبه من النضج، وإن دخلها أديب قرّظه وأثنى عليه حتى لو لم يبلغ في فنه مبلغ الأول.

وقد كان بيلينسكي أهم ناقد في تاريخ الأدب الروسي نادى بضرورة غلبة الأفكار في الأدب على ما عداها. وبذا بات مسؤولاً عما شاع بين الأدباء في العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر من إهمال للحبكة الفنية والأسلوب الرصين واللغة القويمة. فالمادة والموضوع هما الأهم. أما الشكل فمقترن عنده بضحالة المادة وفراغ جعبة الأديب.

أعمق الصحفيين تأثيراً:

ومع ذلك، فالكل مجمع على أنه كاتب هو أقرب إلى النبي منه إلى الناقد، وأنه أعمق الصحفيين الروس تأثيراً في الرأي العام التقدمي، وأنه مهما بالغنا فلن يمكننا المبالغة في تقدير أهميته التاريخية. لقد كان أباً للإنتليجنتريا في بلاده، وزعيماً من الزعماء المثاليين الاشتراكيين، لا هم له إلا صلاح أحوال بلاده دون أدنى احترام لما لا يرضي ضميره عن احترامه. وكان أميناً نزيهاً إلى أبعد الحدود، لم يكتث لفرص تدبير الرقباء له، ولم يخن مبدأه طمعاً في حياة أكثر راحة، أو تجنباً لفقر جلب عليه في النهاية المرض والموت. ومن أبرز أفضاله على الصحافة والنقد في زمنه إدراكه الدقيق لروح عصره، وعلله وأمراضه، ومحاولته تطوير المجتمع في الاتجاه الذي ارتآه سليماً ولازماً له. وقد ظلت رسالته إلى جوجول تُشكّل عقيدة المثقفين التقدميين مدة تزيد عن نصف قرن، ومنع الرقيب نشرها وتداولها حتى عام ١٩٠٥ بعد الثورة الروسية الأولى. وهي الرسالة التي حكمت السلطات على دوستويفسكي بالإعدام بتهمة الاستماع إليها في إحدى الحلقات وهزّه لرأسه إعجاباً بها! وقد كتب عنها إيثان أكساكوف يقول:

«إن اسم بيلينسكي معروف لدى كل شاب قادر على التفكير والتأمل، ولدى كل من يسعى إلى تنسم الحرية والحياة الحقة. وإني شخصياً لا أعرف مدرساً واحداً في المدارس الثانوية بعواصم الأقاليم لا يحفظ رسالة بيلينسكي إلى جوجول عن ظهر قلب. فإن أردت العثور على رجل أمين تكلفه بالسهر على مصالح المضطهدين والفقراء، أو على طبيب نزيه أو قاض عادل تشاركهما في الكفاح من أجل الحرية، فلتبدأ بالتنقيب عنهم بين أتباع بيلينسكي وأنصاره!».

رسالة بيلينسكي إلى جوجول:

وأختم مقالتي بترجمتي لبعض فقرات من تلك الرسالة:

«لم تُصب إلا جانباً من الحق إذ تبينت في مقالتي رجلاً غاضباً. فهي صفة من الضعف بحيث تعجز عن التعبير عن الحالة التي سببتها لي قراءة كتابك. وقد كان بوسعي احتمال هجومك عليّ، غير أنه ليس بوسعي احتمال إهانة وجهتها إلى الحق وكرامة الإنسان، أو السكوت إذ أراك تدعو إلى الفن وفساد الخلق تحت ستار من الدين، وتحت حماية سياط السلطة، ملبساً هذا الفن والفساد ثياب الحقيقة والفضيلة.

فإذا كان الجميع (عدا حفنة من الناس كان من الواجب أن تراهم قبل أن تسمح لنفسك بأن تسر لتأييدهم لك)، أقول، إنه إذا كان الجميع قد رأوا في كتابك حيلة لثيمة (وإن كانت مألوفة) كي تحصل على مآرب دنيوية عن طريق الاتجار بالدين، فعليك أنت تقع التبعة والذنب. وقد شاع في بطرسبورج أنك ألّفت كتابك طمعاً في أن تُعين مدرساً خاصاً لولي العهد، وأنك كتبت خطاباً إلى وزير المعارف تشكو فيه من أن كتبك السابقة قد أساءت تفسيرها، وتذكر أنك غير راضٍ عنها، وأنك لن ترضى عن كتاب لك إلا متى رضي القيصر عنه. فهل من المستغرب إذن أن يحطّ كتابك الجديد من قدرك لدى الجمهور؟ أن يحطّ من قدرك كأديب وكإنسان؟ إنه ليس بالأمر الغريب، وإنما الغريب حقاً أن تراه أنت غريباً.

إن بلادنا يا سيدي ليست في حاجة إلى الوعظ، فقد سمعت منه أكثر مما ينبغي، وإنما هي في حاجة إلى من يوقظ لدى شعبها شعور الكرامة الإنسانية، ومن يتيح بمؤلفاته الفرصة له حتى يرى نفسه كما يراها في المرأة. ثم إذا بكتاب عظيم ساهم بفضل أعماله الفنية الرائعة الصادقة في مساعدة روسيا على تحقيق ذاتها، يخرج بكتاب مشين باسم المسيح والكنيسة يتغنى فيه بمدح رجال الدين الروس الحقراء، وينعت الفلاحين بالغوغاء الأوسلخ، ويدعو المالك الزراعي إلى أن يبتز من أقتنائه المزيد من المال وأن يضاعف من قسوته ويطشه. وكان المفروض ألا أغضب من هذا!! أقسم أنك لو كنت حاولت اغتيال لي لما كرهت كراهيتي لك بسبب كتابك. ثم نراك تحاول بعد ذلك أن تقنع الناس بإخلاص

نواياك! لا. فلو أنك حقاً كنت قد استوحيت المسيح وتشبعت بتعاليمه لا بتعاليم الشيطان لخرج من قلمك كتاب جدّ مختلف عن كتابك الأخير. فهل من المعقول أن يكون مثل هذا الكتاب ثمرة تفكير عميق، وبحث دقيق، ونور هبط على القلب؟ محال! فإما أنك مريض يلزمك العلاج، أو أنك... إنه لمن الصعب عليّ أن أكمل الجملة. يكفي أن أسألك يا مبشر الغوغاء ويا رسول الجهل ودعامة الرجعية وفساد الخلق، عما أراك تصنعه. إلق بنظرة تحت قدميك فإني لأراك مشرفاً على هاوية سحيقة.

أهذا ممكن؟ أيمكن أن تكون أنت، مؤلف «المفتش العام» و«نفوس ميتة»، قد أثنتت بإخلاص على رجال الدين الروس؟ أحقاً أنك لا تدرك مدى الاحتقار الذي يكنه الشعب الروسي لهؤلاء القوم؟ على من تتنذر الجماهير؟ عن من يروون أبشع القصص؟ عن رجل الدين وزوجته وابنته وخادمتها. من يصفهم الشعب الروسي بأنهم قطيع من البله والمجانين؟ القساوسة. أليس رجل الذي في روسيا هو في نظر الشعب ممثلاً للشهوة والبخل والعبودية وانعدام الحياء؟

ثم إنني لذاكر لك أيضاً أنك تؤكد في كتابك زعماً تراه حقيقة لا يمكن نقضها، وهو أن التعليم ليس عديم النفع للجماهير فحسب، وإنما هو أيضاً ضار بالغ الإضرار. فكيف يمكن للإنسان أن يجيبك على هذا؟ ألا فليغفر لك إلهك البيزنطي هذه الفكرة البيزنطية، شريطة أن تكون وقت تسجيلك إياها على الورق غير مدرك لما تسجل. وفي اعتقادي أنك لا تفهم الجماهير في روسيا فهماً سليماً. إن شخصية شعبنا تكيفها ظروف المجتمع الروسي حيث تكافح قوى جديدة من أجل الظهور في حين يحاول الاستبداد قمعها. وإذ تفشل في الانبثاق تصيبها الكلاله والملل واليأس. في الأدب وحده (رغم الرقابة الوحشية) ظهرت حركة تقدمية نشطة. وهذا هو السبب في توقير الناس لوصف «الأديب» عندنا، وهو السبب في سهولة إحراز النجاح في الميدان الأدبي في روسيا حتى لو كان الكاتب صاحب نبوغ ضئيل. إن صفة «الشاعر» ورسالة الأدب قد سلبتا

المجد من رجال الحرب والإدارة. وهذه هي علة الاهتمام واسع النطاق الذي نوليه لأية ميول حرة حتى الضعيف منها، وعلة سرعة خفوت الإعجاب بأي نابعة يكرس موهبته عن إخلاص أو غير إخلاص لخدمة الأورثوذكسية والأوتوقراطية. وإن بوشكين لخبر مثال على هذا. فما كتب قصيدتين أو ثلاثاً في مدح القيصر وارتدى ثوب رجال البلاط حتى حرّمه الشعب من حبه.

والجمهور مصيب دائماً في حكمه. فهو لا يرى قادة له غير أدبائه. وأدباؤه هم المدافعون عنه ضد الأوتوقراطية والأورثوذكسية. لهذا فهو على أتم استعداد لأن يغفر للأديب كتاباً سيئاً، غير أنه غير مستعد لأن يغفر له كتاباً مسموماً. وهو دليل قاطع على صدق فراسة هذا الشعب، وعلى ما ينتظره من مستقبل عظيم. فإن كنت تعشق روسيا فلنشاركني فرحتي بفشل كتابك! لقد أزعجني احتمال أن تستغل الحكومة كتابك، أما عن تأثيره في الجماهير فلم أقلق بصده. وقد أصاب أصحابي الحزن عندما سمعوا أن الحكومة تنوي طبع الآلاف المؤلفة من النسخ من كتابك وبيعها بسعر زهيد. غير أنني طمأنت هؤلاء الأصدقاء على أن كتابك فاشل رغم كل شيء، وأن النسيان سرعان ما سيطويه. وإذا بكتابك فعلاً لا يذكره الناس إلا بسبب المقالات التي كُتبت عنه.

قد تكون عقيدتك مخلصّة صادقة. غير أنني زاعم لك أن عهد السذاجة في مجال الدين قد انقضى حتى في مجتمعنا. فالذين قد أشربت أرواحهم بالتعاليم المسيحية الحقّة هم أولئك الذين يتألمون إذ يرون غيرهم يشعرون بالألم، ويجزعون لمشهد اضطهاد أو قسوة. مثل هؤلاء ليسوا في حاجة إلى الحج إلى بيت المقدس سيراً على الأقدام. ولهذا فإني أراك عاجزاً عن إدراك شكل المسيحية في عصرنا وعن فهم روحها. وهي ليست تعاليم المسيح تلك التي ينضح بها كتابك. وإنما ينضح كتابك بالخوف من الشيطان، وبالجزع من الموت وفكرة الجحيم.

ثم أية لغة وأية تعبيرات تلك التي تستخدمها! أأراك كنت تحسبها في قوة

لغة الإنجيل وجماله؟! ألا ما أصدقها من قولة إن الرجل إذا ما استحوذ الباطل على لبه هجره ما كان يتمتع به من نبوغ وتعقل. ولو أن كتابك لم يحمل اسم جوجول فمن كان عساه أن يصدق أن ذلك السيل من الفقرات القنرة الغبية قد أتى من نفس القلم الذي سطر «المفتش العام» و«نفوس ميتة»؟

ولو أنني أطلقت العنان لنفسي لأضحت هذه الرسالة كتاباً. غير أنني أكتفي هنا بأن أكرر القول لك إنك مخطيء إذ رأيت في مقالتي رجلاً غاضباً قد أحنقه ما كتبته عني. فلو كان ذلك وحده ما أغضبني لكان ذلك وحده ما رددت عليه، ولرددت على غير ذلك في هدوء ودون حقد أو حنق. غير أن الأمر هنا لا يتعلق بشخصي أو بشخصك، وإنما يتصل بموضوع أسمى منك ومني. إنه يتعلق بالحق، بالمجتمع الروسي،

وهاك كلمتي الأخيرة:

«إذا كان سوء الحظ وكبرياؤك قد دفعاك إلى التنكر لمؤلفاتك العظيمة، فمن واجبك الآن، وبكل إخلاص، أن تتنكر لكتابك الأخير، وأن تكفر عن خطيئتك الكبرى إذ أخرجته إلى النور، بأن تطلع علينا بمؤلفات جديدة تذكّرنا بمؤلفاتك الأولى».

الشخصية اليهودية في الأدب السوفييتي

من الخطأ أن نعتبر الأدب، في مجتمع معين، مرآة دقيقة صادقة لكافة مظاهر الحياة في ذلك المجتمع. ومع ذلك فإن الأدب السوفييتي - بحكم طبيعته الخاصة، وتوجيه الحكومة والحزب الشيوعي له - يصلح إلى حد كبير أساساً عظيم الفائدة لدراسة التيارات السياسية والأوضاع الاجتماعية في الاتحاد السوفييتي. وسنحاول هنا أن نرسم ملامح الشخصية اليهودية كما تظهر في صفحات هذا الأدب، ونحدد معالم العلاقة بين اليهود وغير اليهود في المجتمع، وموقف اليهود من الحكومة ومن النظرية الشيوعية، معتمدين في دراستنا على الأدب السوفييتي وحده.

في أدب ما قبل الثورة:

فأما عن صورة اليهودي في الأدب الروسي السابق للثورة، فهي الصورة التقليدية التي لا تختلف كثيراً عن صورة شايلوك في «تاجر البندقية». فهو شخص هزلي عادة، يعيش على التجارة والربا، ولا يفوت فرصة لامتصاص دم ضحيته. بل إنه حتى في الصور الأدبية النادرة لليهودي الطيب، كشخصية «جيد» في رواية جوجول «تاراس بولبا»، وشخصية بومشتاين في رواية «منزل الموتى» لدوستويفسكي، نجد اليهودي أقرب إلى البهلوان، غير خال من النقائص الشائعة عن اليهود، كحب المال والميل إلى استغلال الآخرين. وقد كان العداء للسامية من المشاعر المألوفة في روسيا القيصرية التي كان يسكنها

في القرن التاسع عشر نحو نصف تعداد اليهود في العالم كله . وكان أبرز الأدياء الذين ظهرت في أدبهم هذه الكراهية لليهود الشاعر فيت Fet والروائي دوستويفسكي . وقد كتب الأخير في إحدى مقالاته العنيفة ضد اليهود أن الادعاء بأن اليهود شعب مضطهد هو جزء من مخطط يهودي يستهدف إزالة العقبات في سبيل السيطرة اليهودية الكاملة على الحياة المالية في العالم بأسره .

وقد سبق الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، محاولات في الأدب ، خاصة في أدب تولستوي وجوركي وأندرييف ، للدفاع عن اليهود ، واستنكار العداء للسامية ، ورسم صور لشخصيات يهودية ممتازة . وقد فُسرَت هذه المحاولات بأنها صدئ لتأنيب الضمير لدى المثقفين الروس ، أو بأنها تعكس ازدياد تأثير الفكر الماركسي . غير أن التطور والتغيير الحقيقيين جاءا عقب الثورة البلشفية ، نتيجة لما أحدثته من هزات عنيفة في الأنماط الاجتماعية والاقتصادية . ذلك أن الدين لم تعد له مكانته السابقة ، كما قضت السياسة الحكومية بمنح الحق في تقرير المصير والتنمية الحرة لكافة الأقليات القومية داخل الاتحاد السوفيتي . أو كما نصّت المادة ١٢٣ من دستور سنة ١٩٣٦ :

«مواطنو الاتحاد السوفيتي متساوون في الحقوق ، بغض النظر عن قوميتهم أو جنسهم ، في جميع مجالات الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية . . . ويعاقب القانون على أي انتقاص مباشر أو غير مباشر من هذه الحقوق ، وكذا على خلق أية امتيازات مباشرة أو غير مباشرة لبعض المواطنين على أساس جنسهم أو قوميتهم ، وعلى أية دعوة للتمييز العنصري أو القومي أو للحض على الكراهية والاحتقار» .

اليهود والثورة البلشفية :

أثرت مثل هذه المبادئ تأثيراً عميقاً في الحياة اليهودية وشخصية اليهودي . فقد أقبل اليهود في حماس على الاستفادة من الفرص الجديدة المتاحة لهم ، وشغل المناصب والمراكز التي كانت من قبل موصدة دونهم .

فبالرغم من أن نسبتهم إلى مجموع السكان لم تكن تزيد على ١,٧٨٪ عام ١٩٣٩ ، فإن إحصاءات ذلك العام تشير إلى أن نحو ١٠٪ من المثقفين (الانتليجنتزيا)، و ١٧٪ من الأطباء، و ١٠٪ من طلبة معاهد التعليم العالي في الاتحاد السوفييتي، كانوا من اليهود. هذا إلى كثرة اليهود بين القادة السياسيين والأدباء والموسقيين والمخرجين مثل: تروتسكي وزينوفيف وكامينيف وكاجانوفيتش وبابل وإهرنبورج وإيلف وكافرين وباسترناك وأويستراخ ومايرخول.

لقد انحازت الغالبية من اليهود إلى صفوف البلاشفة وقت الثورة وإبان الحرب الأهلية. ولم يكن انحيازهم هذا في أغلب الأحوال ناجماً عن عقيدة سياسية، وإنما بسبب شيوع روح العداء للسامية لدى القوى المناهضة للثورة، وإقبال جيوش أعداء البلاشفة على إحراق المدن اليهودية، وإعمال القتل في أفراد اليهود خلال سنين الحرب الأهلية. وهو ما طبع الشعر اليهودي في تلك الفترة بطابع الحزن العميق والقنامة، مما دفع النقاد الأدبيين فيما بعد إلى تسمية تلك المرحلة من الشعر اليهودي بمرحلة النواح!

ومع ذلك فقد كان هناك من اليهود من عارض الثورة البلشفية معارضة إيجابية نشطة، نتيجة لعقيدة سياسية، أو مصالح مالية، وهم اليهود الذين كانوا من البورجوازيين الناجحين في ظل النظام القيصري السابق. ففي رواية «أسبوع» ليوري ليبينسكي التي نشرت عام ١٩٢٢، نجد الصيدلي اليهودي رفائيل سيناتور الذي صودرت تجارته، يبكي على مجده الزائل كلما مرَّ على صيدليته القديمة باسمها الجديد «الصيدلية الجماعية رقم ١». وهو لحقده على الشيوعيين يجعل من مسكنه مقراً للاجتماعات السرية التي تعقدها جماعة من المناهضين للثورة، وذلك بالرغم من احتقار أفراد هذه الجماعة له لكونه يهودياً، ورغم تسميتهم إياه باليهودي القذر. وعندما يأسر أعداء الثورة ضابطاً شيوعياً، يواجهه رفائيل في فرح شديد وهو يصيح: «سنقتلكم جميعاً أينما الكلاب

المسعورة، وأعود إلى صيدليتي فأضع عليها اسمي من جديد. . أسمع؟ صيدليتي. . صيدليتي أنا. . فانا غني، بورجوازي، أسمع؟ وسأظل بورجوازيًا إلى أبد الأبدين!

التسعة عشر:

غير أن عدداً كبيراً من اليهود كانوا من العاملين النشطين في الحركات اليسارية وفي صفوف البلاشفة قبل نشوب الثورة، ولعبوا دوراً بارزاً فيها. وكان هؤلاء هم أساس شخصيات «الأبطال الإيجابيين اليهود» في الأدب السوفييتي بعد عام ١٩١٧. ومن أشهر هذه الشخصيات شخصية ليخينسون بطل رواية «التسعة عشر» التي نشرها فادييف سنة ١٩٢٦. وليخينسون هذا يهودي شيوعي لا يعرف الخوف، ذو لحية حمراء، وبدن سقيم، «وإرادة صلبة ورثها عن أبائه وأجداده». وبالرغم من أن أباه كان تاجر أثاث لم يخبر من الرغبات غير الرغبة في جمع ثروة طائلة، فإن الابن لا تربطه بنمط حياة أبيه رابطة. فهو ينحاز إلى الجديد، ويعلم سبب انحيازه:

«لقد سحق في نفسه كل ما ورثه من أوهام وأكاذيب عن الأجيال السابقة. فهو يريد أن يرى كل شيء كما هو في الواقع حتى يتمكن من تغيير كل شيء، والتحكم في كل شيء. وكان هذا الذي أدركه ليخينسون أبسط وأصعب ما يمكن للإنسان أن يدركه».

وصفت غالبية النقاد رواية «التسعة عشر» بأنها حدث عظيم في تاريخ الأدب الروسي، كما كان نجاحها هائلاً لدى جمهور القراء. فقد طبع منها حتى عام ١٩٤٧ نحو ١٦,٢٥٠,٠٠٠ نسخة في خمس وسبعين طبعة، وهو رقم لم تتعداه أية رواية سوفييتية أخرى غير «الدون الهادي» لشولوخوف. غير أنه من الجدير بالذكر أن كافة النقاد الذين أثنوا على الرواية تجنبوا الإشارة إلى دين بطلها، واعتبروا ليخينسون بطلاً سوفييتياً لا ينتمي إلى دين معين، أو قومية معينة.

كذلك تعرض شولوخوف لنفس الموضوع في روايته الكبرى «الدون الهادىء». فشخصية أنا بوجودكوكو فيها (وهي ليست شخصية رئيسية)، هي لفتاة يهودية في التاسعة عشرة من العمر، انضمت أثناء الحرب الأهلية إلى فرقة بلشفية، وتعلمت استخدام المدفع الرشاش. سألها قائد الفرقة:

— أمن أوكرانيا أنت؟

ترددت لحظة ثم أجابت بحزم: لا.

— يهودية؟

— نعم. ولكن، كيف عرفت؟ هل أتكلم كيهودية؟

— بل عرفت من شكل أذنك، ومن عينيك... إنه ليسرني أن تكوني معنا.

— ولماذا؟

— لأن الشائع بين الناس عن اليهود أنهم في المعارك يكتفون بإصدار الأوامر دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر. وهو أمر غير صحيح. وستبتين بتصرفاتك أنه غير صحيح.

ثم تلقى أنا بوجودكوكو حتفها في هجوم ضد الجيش المناهض للثورة.

اليهودي بين الأدب والواقع:

مثل هذه الشخصيات توضح التغيير الجوهرى الذي طرأ في المجتمع السوفييتي تجاه اليهود. فقد فتح الأدب - شأن السياسة والحياة العامة - الباب على مصراعيه لهم. غير أن الشخصية اليهودية التي بدأ ظهورها يتردد في الأدب قد طرأ عليها هي الأخرى تغيير كبير. فلم يعد اليهودي في الأدب مشغولاً بالمشكلة اليهودية، يستخدم لغته وحدها في الحديث، شديد الوفاء لعادات قومه ومطامحهم، وإنما هو الآن مشغول بالقضايا العامة، يتحدث بلغة المجتمع

حواله، ويسعى إلى خدمة الوطن السوفيتي والمبدأ الشيوعي. وهو أمر لا نجد مثيلاً له في التاريخ اليهودي.

غير أن هذه الصورة المثالية لليهودي في الأدب، لا يمكن اعتبارها ممثلة لكافة اليهود في الواقع. فقد كان ثمة عدد كبير من اليهود الأقل تمسكاً بالمبادئ والمثل العليا، ممن رحبوا ترحيباً حاراً بالسياسة الاقتصادية الجديدة N.E.P. التي بدأ إنتهاجها منذ عام ١٩٢٢، والتي أزالَت قدراً كبيراً من القيود على التجارة. وبذا تمكن الكثيرون منهم من العودة إلى المهنة المفضلة لديهم، فأنثروا من جراء التجارة ثراءً عظيماً. وقد كان الأدب السوفيتي وقتئذٍ من الأمانة بحيث لم يغفل تصوير هذه الظاهرة، ورسم شخصيات المضاربين اليهود الجدد.

ففي رواية «الآسة» لماتفي ريزمان (وهو من أصل يهودي) نجد صورة حية لأحد اليهود المستفيدين من السياسة الاقتصادية الجديدة، وهو هارون سليمانوفيتش فيشباين، رجل بالغ الدهاء واللؤم، شديد الحرص على المال، يسرق من أبيه في صباه ويدخل في مضاربات وتلاعب مالي حتى تحس السلطات به فتتفیه من موسكو. وهو عاجز عن فهم ما يجري في البلاد من تطورات هامة. ونسمعه يهتف حين يقرأ نبأ البدء في اتباع السياسة الاقتصادية الجديدة: «هذا يعني أنه سيصبح باستطاعتنا العودة إلى استغلال البروليتاريا!».

وقد هاجم النقاد هذه الرواية لما قد تسبب فيه من إثارة لمشاعر العداء للسامية. غير أن هذا العداء كان قد بدأ بالفعل يصبح حقيقة واقعة في المجتمع السوفيتي بسبب تصرفات اليهود تلك. وإذ ظهرت بوضوح مظاهر الكراهية لهم، اتجه الأدب اليهودي السوفيتي إلى تصوير ما يتعرض له اليهود من اضطهاد، وتذكير الشعب بأقوال القادة الشيوعيين بصدد العداء للسامية، وتصوير اشتراك اليهود الفعال في بناء المجتمع الجديد. ووصف الأدباء اليهود روح العداء للسامية بأنها مناهضة للثورة، ومخالفة للمبدأ الشيوعي. وقد

اشتركت الحكومة نفسها في الحملة المكافحة للعداء للسامية. فإلى جانب الروايات والمسرحيات المدافعة عن اليهود مثل رواية «الرجل الذي يقبل الأرض» لميخائيل كوزاكوف (١٩٢٨)، ومسرحية «المستوى الخامس» لماركيش (١٩٣٣) التي تتعرض لرفض عمال أحد المناجم قبول عمال يهود جدد، نجد الحكومة السوفييتية تصدر عدداً غير قليل من الكتيبات الدعائية الخاصة بالمشكلة، مثل: «من الذي يفترى على اليهود، ولماذا؟» و«كراهية اليهود» و«الحقيقة عن اليهود».

الوطن القومي:

وبالإضافة إلى نمو مشاعر العداء للسامية لدى الشعب، بزغت عوامل أخرى دفعت الحكومة السوفييتية إلى التفكير واتخاذ الخطوات الإيجابية في سبيل إنشاء وطن قومي لليهود داخل الاتحاد السوفييتي. من هذه العوامل ازدياد تحمس اليهود السوفييت للصهيونية، ثم رغبة الحكومة في حل مشكلة ذلك العدد الضخم من اليهود المتعطلين غير المنتجين الذين بلغت نسبتهم عام ١٩٢٦ نحو ٣٢,٣٪ من مجموع عدد اليهود السوفييت. وقد سعت السلطات في بادئ الأمر إلى حل هذه المشكلة الأخيرة عن طريق إنشاء هيئات إدارية وتنظيمية هدفها مساعدة اليهود المتعطلين على الالتحاق بالوظائف والصناعات، وفلاحة المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية التي خصصت لليهود في أوكرانيا والقرم. غير أن انتعاش الفكرة الصهيونية في ذلك الحين، حوّل الحكومة السوفييتية إلى فكرة تأسيس دولة يهودية في بيرويسدجان البالغة مساحتها ١٥ ألف ميل مربع، والواقعة في الشرق الأقصى عند الحدود السوفييتية الصينية.

وقد تم إعلان هذه الخطة في ٢٨ مارس سنة ١٩٢٨، ووجهت على إثره الدعوة إلى اليهود داخل الاتحاد السوفييتي وخارجه للهجرة إلى هذه المنطقة. وقد حرصت الحكومة على ألا تقدم على استخدام القوة في نقل اليهود

السوفييت إلى بيروبيدجان، واكتفت بمنح التسهيلات والمعونات السخية لليهود الراغبين في الاستيطان فيها. وفي ٧ مايو سنة ١٩٣٤، على أثر ما حققته بيروبيدجان من تقدم كبير في الزراعة والصناعة، أصبحت بيروبيدجان مقاطعة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاشتراكية الاتحادية. كما صرح القادة السوفييت بأن تخصيص منطقة واسعة لليهود، يستخدمون فيها لغتهم، ويمارسون في نطاقها تقاليدهم، من شأنه أن يضمن استمرار القومية اليهودية.

وتدفق سيل من الكتاب اليهود السوفييت على بيروبيدجان لزيارتها والكتابة عن الحياة فيها. فكانت كتبهم تلقى الترحيب والتشجيع، وتنشر على نطاق واسع، وترجم إلى لغات جمهوريات الاتحاد. ومع هذا كله، ظلت الغالبية من سكان بيروبيدجان من غير اليهود، وهو ما يفسر لنا التضال التدريجي منذ نهاية الثلاثينات في الإشارة إليها على أنها «المركز القومي للحياة اليهودية السوفيتية». فقد تزايدت مساحة المقاطعة شيئاً فشيئاً، في حين تضاعفت الهجرة اليهودية إليها تضاعفاً سريعاً رغم محاولة أخرى من جانب الحكومة في السنوات ما بين ١٩٤٦ و ١٩٤٨ للحث على هجرة اليهود إلى المقاطعة.

بابي يار:

غير أن فشل المشروع لم يحل دون استغلال الحكومة السوفيتية له في الدعاية لحكمة السياسة السوفيتية الخاصة بالقوميات ومقارنتها بالسياسة النازية. وفي مسرحية للكاتب يهودي من المقاطعة بعنوان «إنه من بيروبيدجان»، نرى ضابطاً روسياً في الجبهة يتحدث عن البطل اليهودي في المسرحية فيقول: «كلما نظرت إلى هذا الملازم الفتى القادم من بيروبيدجان جالت في خاطري صورة الوديان تغص بجثث القتلى من اليهود... هذا هو ما حققه هتلر! ثم أفكر في هذا الضابط اليهودي وفي المقاطعة التي جاء منها... هذا هو ما حققه السوفييت!».

جاء الغزو النازي للاتحاد السوفيتي في يونيو سنة ١٩٤١، فعانى اليهود من جرائمه الأثمة. أو كما كتب الشاعر الروسي سوركوف:

«وشاهدنا الأرض مرة أخرى إلى الشرق والغرب.

قد لطخت بدماء القتلى من اليهود».

ففي مدينة كييف، عند بابي يار، قتل أكثر من ٥٢ ألف يهودي رمياً بالرصاص. وفي دنيبروبتروفسك قتل نحو ٢٦ ألف، وفي بافلوگراد أربعة آلاف، وفي خاركوف ١٣ ألف. ويقول الكاتب فاسيلي جروسمان إنه في مدينة مينسك وحدها قتل أكثر من مائة ألف يهودي في مدى عامين. وبذا عاد الأدب اليهودي إلى طابع النواح، وإن حاول الكتاب اليهود - بضغط من السلطات - أن يبقوا في أدبهم على عنصر الأمل والتطلع إلى مستقبل منير. ففي مسرحية برجلسون «ساعيش» (١٩٤٢)، نجد إخصائياً زراعياً عجوزاً من اليهود يعذب النازيون حتى يفضي إليهم بمعلوماته. وعندما يصبر على الرفض، يأتون إليه بابتته «فريدا» ويقول الضابط النازي له: «أنظر إليها وامسحها بركتك. فهي من اليوم فصاعداً ستستخدم في إشباع شهوة الأبطال من الشباب الألماني في الجبهة». باركها أيها المعجوز وبارك دعاتها المقدسة!». فيضع اليهودي يديه على رأس ابنته ويخاطبها بقوله: «فلتبقى على نقائك يا بنيتي، وادفعي حياتك ثمناً له لو اضطرتك الظروف إلى ذلك. وإني لأباركك على هذا بدمي الذي يتساقط من يدي على رأسك الآن».

وفي قصة قصيرة لإسكندر بيزيمينسكي، يتحدث الكاتب عن امرأة روسية متزوجة من يهودي. وإذ يسوقه النازيون إلى القتل تختار لنفسها ولولدها نصف اليهودي مصير زوجها وقومه:

«وعادت إلى ذهنها ذكرى مساء قضته مع زوجها في قراءة مقال لينين (العزة القومية لدى الروس). . الآن قد وضح لها مغزى المقال. فهي امرأة روسية. والشعب الروسي هو المدافع عن كافة الشعوب المظلومة، وهو الأخ

الأكبر للكادحين من كافة الأجناس هذه الكلمات التي كانت تبدولها في الماضي مجردة مبهمه، أضحت الآن قريبة إلى قلبها: حبيبة إلى نفسها، مليئة بالمعاني، تعزها إعزازها للأرض التي تسير عليها، وللواء الذي تنفسه!

التحول بعد الحرب:

غير أنه ما انتهت الحرب، حتى شرعت الصحف السوفييتية تشن هجوماً عنيفاً على «أولئك الكتاب اليهود الذين اقتصروا في أدبهم على تصوير جرائم النازيين ضد اليهود، وكأنما لم تكن تلك الجرائم في حق الشعب السوفييتي كله». كذلك هوجم الكاتب اليهودي كينيس وطرده من اتحاد الكتاب الأوكرانيين عام ١٩٤٧ حين كتب في قصة قصيرة له: «لكم كنت أود أن أرى اليهود أجمعين، يسرون في جراً عبر شوارع برلين، وقد علّقوا على صدورهم بين الأوسمة والنياشين، نجمة النبي داود الجميلة!» وقد اتهم أمثال هذا الكاتب من اليهود بالتعصب الأحق لقومهم، وبالوطنية البورجوازية الزائفة. «فهم لا يريدون أن يفقهوا أن الجنود اليهود السوفييت لم يحاربوا من أجل داود ومطامح داود، وإنما من أجل الحياة السوفييتية والدولة السوفييتية والوطن السوفييتي».

ومنذ ذلك الحين (منذ عام ١٩٤٨ على وجه التحديد) تضاءلت في الأدب السوفييتي حتى كادت تختفي، تلك الإشارات إلى اليهود باعتبارهم قومية مستقلة، وأصبح من الصعب الاعتماد على الأدب في تكوين صورة عن أحوالهم ومشاكلهم. فمظاهر البطولة التي قد يبديها أفراد من اليهود في بناء المجتمع السوفييتي هي نفس المظاهر التي قد يبديها أي سوفييتي آخر. وإن رسم لنا كاتب صورة لبطل يهودي في رواية أو مسرحية، أفهمنا ضمناً أنه ليس بطلاً «لأنه يهودي»، ولا «بالرغم من أنه يهودي». ومن ثم فقد أصبح ينطبق على تصوير اليهود في الأدب ذلك التصريح السوفييتي الذي صدر وقت اندلاع حرب فلسطين:

«إن الاتحاد السوفييتي ليس في جانب اليهود، ولا هو في جانب العرب، وإنما هو في جانب المبادئ اللينينية الستالينية».

لقد عرّف ستالين الثقافة القومية في الاتحاد السوفييتي بأنها «ثقافة اشتراكية المضمون، قومية الشكل، تهدف إلى تثقيف الجماهير في ظل الروح الدولية، وإلى تعزيز ديكتاتورية البروليتاريا». وقد انصاع الأدب اليهودي السوفييتي إلى حد كبير لهذا التوجيه. غير أنه بينما اتجه الأدب الروسي على الفور إلى مهمة إرشاد العمال والفلاحين إلى طريق الاشتراكية، كان على الأدب اليهودي أن يجعل من اليهود بادیء ذي بدء عمالاً وفلاحين، ثم يرشدهم بعد ذلك إلى طريق الاشتراكية. وبينما سعى الأدب الروسي إلى استئصال شائفة العداء بين القوميات المختلفة بكافة مظاهره، سعى الأدب اليهودي السوفييتي - بتوجيه من الحزب الشيوعي - إلى التحذير من أي تأكيد للاختلاف بين اليهود وغير اليهود، وإلى دعوة اليهود السوفييت إلى أن يصبحوا جماعة مساهمة في بناء المجتمع، لا عنصراً غريباً أجنبياً مفسداً ومعرقلاً.

فهل يعني ذلك أن النظام السوفييتي قد نجح في إقناع اليهود بالاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، (وهو ما نصح به باسترناك اليهود في جميع أنحاء العالم في روايته «دكتور جيفاجو»)?

إن المقارنة بين وضع اليهود في الاتحاد السوفييتي ووضعهم في الدول الغربية مثلاً، قد تدفع إلى الإجابة بالإيجاب. كما قد يدفع إليها ذلك التضاؤل المستمر في توزيع الصحف اليهودية وفي عددها، وتضاؤل كمية ما يصدر عن دور النشر اليهودية من الكتب، حتى في المناطق التي تغص بالسكان اليهود، وانصراف اليهود الشبان عن تعلم لغة آبائهم. غير أن بعض تصريحات القادة السوفييت تثير من حين لآخر الشك في مدى ما حققوا من اندماج في المجتمع. فحين أثير مثلاً عام ١٩٦٢ موضوع العداء للسامية بمناسبة اختيار شوستاكوفيتش لقصيدة يفتوشنكو (باي يار) موضوعاً للحركة الأولى من سيمفونيته الثالثة عشر، صرح خروتشوف بقوله:

«ليس ثمة عدااء للسامية في الاتحاد السوفيتي . ومع ذلك فإنّه من الأفضل ألا يتولى اليهود المناصب الرفيعة في الدولة حتى لا يثير ذلك سخط الرأي العام . وفي رأيي أن القلاقل والفتن التي حدثت في بولندا والمجر عام ١٩٥٦ سببها تولي عدد كبير من اليهود للمراكز الهامة في الحكم» .

وأضاف خروتشوف موجهاً حديثه إلى الكاتب اليهودي إيليا إهرنبوج :
«يجب أن تفهم أنني كسياسي محترف أجد لزاماً عليّ أن آخذ الأمور كما أجدّها ، وأن أحذر الناس من الأخطار المحدقة» .

فماذا يمكن أن تعنيه عبارة «إثارة سخط الرأي العام» ما لم تكن هناك بقايا عدااء لليهود في الاتحاد السوفيتي ؟ أو الحديث عن مسؤولية اليهود عن القلاقل والفتن ما لم تكن هناك بقايا لمشاعر اليهود بالترابط فيما بينهم والولاء لليهودية ومصالحها دون الدولة ومصالحها؟ وهل هذه المشاعر «بقايا» ومخلفات من عهود طويلة سابقة سيتم استئصالها بازدياد تغلغل المبدأ الشيوعي في النفوس؟ أم أنها صفات لصيقة باليهود أينما كانوا ، وأن النجمة السوفيتية الحمراء لا يمكن أن تحل في قلب اليهود مكان «نجمة النبي داود الجميلة»؟
أسئلة تحتاج إلى المزيد من البحث .

رواسب الدين في تقديس لينين

إن استشهاد الشيوع المتنافرة، والطوائف المتنحرة، بأقوال مؤسسي الحركات الدينية وشبه الدينية، وإيمان كل فريق بأنه هو التابع الحق لصاحب المذهب، وأن أتباع غيره من الفرق هم المارقون المفسدون، أمران نلمسهما منذ أقدم العصور، وفي صفحات تاريخ كافة الأديان وغالبية المذاهب التي أحيط أصحابها بقدسية شبيهة بقدسية النبيين. كذلك فإن تمسك بعض الفرق التابعة لمذهب معين بحرفية أقوال مؤسسه، والقول بضلال المجتهدين بعده، وذهاب البعض الآخر إلى تطوير الفكرة وتطبيقها تطبيقاً مرناً على ما يجد من شؤون الحياة مما لم يعاصره صاحب الفكرة، هي من الأمور التي وقعت مراراً، وما نراه اليوم يتكرر حدوثه بصدد المبادئ الماركسية اللينينية.

لقد أحاط الشيوعيون كلاً من ماركس وإنجلز ولينين بهالة من الإجلال والتقديس وجدوا فيها بديلاً وعوضاً عن الدين الذي أداروا ظهورهم له. وهو تقديس يتنافى تماماً مع ما يركز عليه مذهبهم من الإلحاد والمادية، وحتمية التاريخ، والحرص على تجنب المبالغة في تقييم أهمية الزعامة والبطولة. وقد شعر ماركس نفسه في أواخر حياته بهذا الاتجاه من أتباعه، وتمسكهم غير المرن بحرفية كتاباته، مما جعله يصرح بجملته الشهيرة «أنا لست ماركسياً»؛ يعني بذلك أنه ليس من المتمسكين بعقيدة جامدة غير قابلة للتطوير. غير أن الواضح أن التقديس الديني عاطفة حتمية لصيقة بالإنسان. وهي لا بد لها من

أن تنصبّ على موضوع محدد حتى مع المجاهرة. الحماسية بالإلحاد. وهو ما يذكرنا بقولة هرتزن ودوستويشسكي عن الناقد الاشتراكي الملحد بيلينسكي: «كان من شدة الإيمان بالإلحاد بحيث كان يعتقد أن كافة غير الملحدين مصيرهم جهنم!»

إن التاريخ يعلمنا أن كافة الحركات الجديدة فيه لا مفر من أن تشويها في التطبيق شوائب من أفكار الماضي ومعتقداته. فوثنية روما، وفخامة معابدها وطقوسها، تركتا تأثيراً عميقاً في الديانة المسيحية حين انتشرت إلى العالم الروماني. كما كان للفكر المسيحي أثره في عقائد الشيعة، وللفكر الفارسي أثره في تكييف دعوة الصوفية في الإسلام. كذلك فإن مبدأ تقديس الفرد في ظل النظام الشيوعي يمكن أن يفسر جانب كبير منه بتخلف رواسب من المشاعر الدينية. وإلا فما الحكمة في تحنيط جسد لينين، وسر هذه الصفوف الطويلة من الخلق التي تحج يوماً إلى قبره، وتلك الأغاني الشعبية عند المسلمين التتر التي تزعم أن لينين لم يمت، وإنما اختفى في الجبال ليعود يوماً إلى الدنيا فيملأها نوراً وعدلاً؟

لقد احتجّت كرويكايا، أرملة لينين، أعنف احتجاج على فكرة تحنيط جسد زوجها، وأكدت أنه ما كان ليرضى عنها لو أنه استشير بصددتها. والحق أن لينين كان أكثر الناس استنكاراً لتسرب التعابير والعادات والأساليب الدينية إلى المذهب الشيوعي. سئل مرة: «ما قولك في امرئ يقول: الشيوعية ديني؟» فأجاب: «لو قالها عامل أو فلاح بسيط لكان معناها بدء انحرافه عن الدين إلى الشيوعية. ولو قالها مثقف لكان معناها بدء انحرافه عن الشيوعية إلى الدين»، أو كما قال.

قدسية كتابات ماركس ولينين:

بيد أن هذا لم يبدل من الوضع شيئاً. فكتابات ماركس ولينين لها قدسية الكتب المنزلة التي لا بد لجميع المتنافرين المتخاصمين الإشارة إليها، إن

أرادوا الإقناع بأنهم من أهل السنة المخلصين، والاحتجاج بها إن شاءوا أن يرموا خصومهم بالجحود والخيانة. فكل من المنشئيك والبولشفيك والماركسيين القانونيين يستندون إلى ماركس في نزاعاتهم. يستند بوخارين بكتابات لينين في خصومته مع زينوفييف وكامينييف، ثم ستالين في نزاعه مع بوخارين، ثم خروتشوف في هجومه على ستالين، ثم بريجنيف في حملته على خروتشوف، والقادة السوفييت في خلافهم مع القادة الصينيين، دون أن يجرؤ أي منهم، أو يخطر بباله، أن ينسب موقفه إلى ذاته، أو يدعي الحق في انتهاج طريق جديد.

وتكاد تكون كروبسكايا وليون تروتسكي الوحيدين من بين الزعماء السوفييت اللذين حذرا الشعب والأحزاب الشيوعية من أخطار تقديس لينين والشبث بحرفية كتاباته تشبثاً أعمى. فقد خطبت أرملة لينين في ١٨ ديسمبر عام ١٩٢٥ في المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي، فتحدثت عن العواقب الوخيمة لتأليه زوجها الراحل، وتوسلت إلى المندوبين أن يناقشوا الموضوعات المطروحة على بساط البحث أمامهم على ضوء الاعتبارات الموضوعية المحضة، بدلاً من ملء المناقشات باقتباس لا معنى له من كتابات لينين.

ومن جهة أخرى نقرأ في كتاب تروتسكي «الطريق الجديد» الذي نشره عام ١٩٢٣ أثناء مرض لينين الأخير:

«لقد بدأ الناس يفزعون من كل كلمة جديدة، من كل نقد، ومن كل مبادرة أصيلة أو دلالة على استقلال الرأي. وأصبحت الأداة الحكومية تعيش على الأكاذيب التي تحسب أن من شأنها إشعال الحماس وغرس الإيمان في النفوس، وتُضخّي بالحقيقة من أجل نسج الأساطير. فإن قرأت مثلاً ما يكتبونه عن الجيش الأحمر وتاريخ الحرب الأهلية، تُخيل إليك أنه ما من جندي في صفوفنا إلا لشجاع بطل يتحرق شوقاً إلى القتال، وأن العدو كان دائماً متفوقاً علينا في العدد والعدة، وأن جميع أوامرنا العسكرية كانت حكيمة مناسبة تماماً

للظروف، وأن تنفيذها كان دائماً رائعاً في دقته . . . وفي اعتقادي أن الادعاء بطيب أثر هذه الخرافات في النفوس هو نفسه من الخرافات. وسيستمع الجندي الأحمر إلى هذه الخرافات تماماً كما كان أبوه يستمع إلى «سير القديسين» تتلى عليه. فهي رائعة ممتعة، غير أنه لا صلة لها بالواقع أو بعالمنا هذا. . .»

ويستطرد تروتسكي قائلاً:

«إن أقوال السلف من الماركسيين ليست قانوناً ملزماً ينبغي حفظه عن ظهر قلب، وتقبله تقبل الكتاب المقدس. وما كل ما ينطق به أعلام الفكر الماركسي ينبغي تصديقه لمجرد أنهم هم قائلوه. فلو حدث هذا كنا كمن يشيد بناءه على الرمال. . . إنني لا أستنكر احترام شبابنا لأولئك الزعماء الذين أدوا خدمات جليلة لثورتنا. ولكنني أقبله بشرط واحد: هو ألا يؤدي احترام السلف إلى محو شخصية الشباب وإرهابهم. وأن أي إنسان تعود الموافقة على كل ما يقوله الزعماء إنسان تافه لا قيمة له. . .»

«فالأجلر بشبابنا أن يعتمدوا على أنفسهم فحسب، على تفكيرهم هم، وألا ينظروا إلى سلطان القادة الفكري على أنه سلطان مطلق. . . بل إن القادة أنفسهم في حاجة إلى التعاون الإيجابي المستمر مع الشباب، في إطار الديمقراطية، حتى تستمر ثورتهم قائمة، ويحولوا دون تحجرهم وتدهورهم إلى مستوى البيروقراطية.

«لنطرح إذن هذه الطاعة العمياء، وهذا القمع للشخصية، وهذه الذلة والسلبية تجاه السلطات. فالبلشفي ليس رجل نظام فحسب، إنه رجل يصل بنفسه إلى رأي حازم بصدد كل موضوع، وكل مشكلة تجدد، ويدافع عنه في حماس واستقلال، لا ضد أعدائه فحسب، بل وداخل حزبه أيضاً. . .»

نزاع الوريثة:

غير أن تروتسكي، كما نعلم، لم يفلح في مسعاه. فالواقع أنه من

الأسباب التي ساهمت مساهمة كبيرة في بلورة هذا التقديس للنين، تلك الخصومة التي حدثت أثناء مرضه الأخير وبعد وفاته بين ورثته من القادة السوفييت. فكما حدث من قبل في العديد من الأديان والمذاهب الفكرية، استغل المتنازعون هنا السلطان الروحي للمذهب من أجل خدمة مصالحهم ومطامعهم الشخصية. ولجأ ستالين وزينوفيف وكامينيف إلى سلاح كتابات لينين وأقواله للهجوم على تروتسكي، وكذلك قبل تروتسكي حربهم بنفس السلاح. والأمر الذي سهّل على جميع الأطراف سعيهم، أن لينين في تصديقه للمسائل والمشكلات التي واجهته أثناء كفاحه السياسي الطويل، قال بحلول مختلفة بالغلة التعارض بالنظر إلى أنه تعرّض لها في مواقف مختلفة، وفي ظل ظروف متباينة متناقضة.

كذلك فقد كان من عادة لينين أن يكيل لأتباعه أوصافاً ونعوتاً حادة، يطرحها يميناً ويساراً أثناء مناقشاته وجداله معهم. وكلما زاد القدر الذي يتمتع به التابع من حرية التفكير، زادت هذه الأوصاف والانتقادات اللينينية حدة وعدداً، فلم ينبج منها غير الشخصي الإئمة الذي لا رأي له. فتروتسكي هو عند لينين في وقت ما «يهوداً جديداً». وستالين «وقح متعجرف». وزينوفيف «هلوع جزوع». وكامينيف «خائن الثوار». وهلم جرا. وقد لجأ كل من ورثته إلى هذه الصفات في الاستشهاد ضد خصومه، (بما فيهم تروتسكي نفسه)، وكأنها لعنات بابوية، واعتبروا الأحكام التي كانت عند لينين مجرد عبارات سياسية لازمة للنضال، في مصاف المبادئ الدينية، متجاهلين أن اللينينية لا توفر دائماً الحلول الواضحة للمشكلات الجديدة، وأن هذه المشكلات التي جابهتهم لم تكن قد نشأت أصلاً خلال حكمه، أو كانت وقته في طور التكوين.



فإن انتقلنا إلى الاتحاد السوفيتي اليوم وجدنا أنه بالرغم من إخلاص القادة منذ خروتشوف في حربهم ضد تقديس الفرد، فإن هذه الحرب لا تمس

لينين من قريب أو بعيد. فتقديسه لا يزال قائماً. وهو تقديس لم يحل مع ذلك دون حرية الزعماء السوفييت منذ وفاته في انتهاج أية سياسة يرون الأخذ بها دون أدنى خشية منهم من أن يعجزوا عن إثبات ولائهم للمبادئ اللينينية. فالمثل يقول: «بوسع الشيطان أن يقتبس من الأنجيل ما يعزز رأيه». وفي كتابات لينين متسع للجميع كي يقتبسوا منها ما يؤيد مذهبهم: ففيها مبدأ «الثورة الدائمة» الذي أخذ تروتسكي به، وفيها مبدأ «الاشتراكية في بلد واحد» الذي تبناه ستالين، وفيها سياسة مراضاة المزارعين الأقوياء (الكولاك)، وسياسة العمل للقضاء عليهم، وفيها سياسة التصنيع السريع، وفيها سياسة التصنيع البطيء، وفيها سياسة العمل المستمر من أجل إشعال الثورات في الخارج، وفيها سياسة التعايش السلمي مع النظم الرأسمالية. فلا خوف إذن من ألا يجد صاحب أية سياسة فقرات تؤيده في مجلدات أعمال لينين الضخمة. غير أن احترام هذا الرجل مغروس في نفوس الجميع، ولا أحد يمكنه الاستغناء عن الاستدلال بما قال لإضفاء الوقار على ما يكتب، وكأنما قد فقد الفكر الإنساني الحر كل قيمة فيه ما لم يكن مطابقاً لأراء لينين ونابغاً منها. بل إنه ليخيل إلينا أنه لو حدث في وقت من الأوقات أن اضطرت الظروف القادة السوفييت إلى مهاجمة آرائه، لرأوا من الحكمة أن يقتبسوا من أقواله ما يعضد مهاجمتهم إياه!

بوادر التحرر:

ومع ذلك فقد ظهرت بالاتحاد السوفييتي خلال السنوات القليلة الماضية دلائل تشير إلى بوادر الخروج عن هذا الجمود. وهو ما نلمسه في العديد من المقالات الافتتاحية التي تنشرها صحف كالبرافدا وإيزفستيا، وفي بعض مجلات الحزب والكتب.

وتذهب هذه الكتابات إلى أن بعض المفكرين الشيوعيين قد تنكر لمبدأ من أهم مبادئ الماركسية - اللينينية، ألا وهو النظرة الخلاقة إلى المذهب. فهم يقيسون كافة ما يتمخض عنه الفكر الماركسي الخلاق في الاتحاد

السوفييتي على ضوء مدى اتفاقه أو اختلافه مع مؤلفات كتبت منذ أكثر من مائة عام (ماركس)، أو من ستين عاماً (لينين)، أو من ثلاثين (ستالين). وهم بذلك يتجاهلون الحقيقة الموضوعية، ويصرون على الاستناد إلى فقرات كتبها ماركس وإنجلز ولينين عن عصر غير عصرنا، وموقف تاريخي لم نعد نعيش فيه. وهم يتخيلون أن الماركسية - اللينينية إن هي إلا مجموعة من المبادئ والشعارات الجامدة، صالحة لكل زمان ومكان، وينبغي على الشيوعيين إلزام أنفسهم بها في صرامة شبيهة بصرامة تمسك رجال الكنيسة بأحكام الكتاب المقدس.

«غير أن هذا الموقف من النظرية غريب عن الماركسية - اللينينية، دخيل عليها. فلم يشعر ماركس ولينين قط بأن مهمتهما النظرية هي الإخلاص لحرفية مؤلفات كتبت قبل عصرهما، وإنما هي الإخلاص لروح النظرة العالمية العلمية لدى الطبقة العاملة، وتحليل الواقع المتغير تحليلاً دقيقاً، وتعميم الخبرة المكتسبة أثناء الكفاح، وحل المشكلات التي تواجهها كل حقبة من الحقب حلاً خلاقاً».

«وقد حدث أثناء المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي السوفييتي الذي عقد في مارس عام ١٩٢٢، أن خطب لينين موجهاً الكلام إلى جماعة من معارضيه الذين استشهدوا بماركس في موضوع معين، فقال:

— نعم، هكذا قال ماركس. غير أن ماركس لم يكن يكتب عن روسيا. كان يكتب عن الرأسمالية بوجه عام، عن الرأسمالية كما تطورت منذ القرن الخامس عشر. وقد ظل هذا صحيحاً مدة ستمائة عام. غير أنه غير صحيح إن طبق على روسيا في الوقت الحاضر».

ويمضي هؤلاء الكتاب فيقولون إن هذه النظرة السليمة هي التي تبناها الماركسيون الجدد في الاتحاد السوفييتي تجاه تعاليم ماركس وإنجلز ولينين. فهم يرون أن الماركسية - اللينينية ليست في الأعمال الكاملة لمؤلفين قدامى

فحسب، بل أيضاً في النتائج التي توصل إليها الفكر الماركسي الحديث بعد كل ما خاضه من معارك ثورية خلال السنوات الماضية. والقول بغير ذلك يفقر النظرية ويقعدها، ويجرّدها من ذلك العنصر الذي يحمل طابع العصر، والذي هو بالغ الأهمية بالنسبة لكفاح الطبقة العاملة.

«والحقيقة أن مثل هؤلاء المفكرين يستأصلون الواقع الراهن من الصورة، ويأبون الاقتناع بأن الأمر الجوهرى هو دراسة كل حقبة تاريخية على ضوء ظروفها، وكيفية تحقيق وحدة العمال في كافة الدول في وقتنا هذا، وكيفية شن كفاح فعال ضد الإمبرياليين في ظل أوضاع معينة، وأسلوب تحقيق النصر الكامل للثورة البروليتارية في الوقت الحاضر.

«إن في معظم أقطار العالم اليوم أحزاباً شيوعية. وقد أصبحت مهام هذه الأحزاب، والظروف التي يعمل في ظلها كل منها، متباينة أشد التباين، فما يحتم ظهور تنوع في الخطط وأساليب الكفاح، واختلاف معالجة كل حزب من هذه الأحزاب للمشكلة الواحدة التي تجابهها جميعاً».

لا أنبياء في الحركة الشيوعية :

ويرى أصحاب هذه الكتابات الماركسية الجديدة أن الحركة الشيوعية الدولية تواجه اليوم موقفاً تاريخياً يختلف عن ذلك الذي عاصره ماركس أولينين. فقيام النظام الاشتراكي في العديد من الدول، وتداعي الامبراطوريات الاستعمارية، ويزوغ الحركات الديمقراطية الشعبية، قد أيقظت أفراد جماعات كبيرة من البورجوازية الصغيرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من سباتهم وزجّت بهم في خضم الصراع السياسي. بعض هؤلاء قد استمالته التيارات الدينية، وبعضهم انضم إلى الحركة الثورية العالمية، بعد أن كانوا جميعاً سلبين ناقصي الوعي، وهو ما أدّى إلى زيادة تأثير العناصر غير البروليتارية في النشاط الثوري.

«إن طبيعة الماركسية - اللينينية تحتم الأخذ بعين الاعتبار الخصائص

القومية والظروف اللصيقة بكل مجتمع على حدة. ولا شك في أن خبرة كل من الأحزاب الشيوعية باللغة الأهمية في تطوير الأسلحة النظرية للطبقة العاملة وزيادتها ثراءً. فكل حزب، مهما صغر، يلعب دوراً إيجابياً في تنمية النظرية الثورية والماركسية اللينينية. وقد ساهم الحزب الشيوعي الصيني في ذلك بكفاحه ضد الامبريالية والرجعية، وخلال المراحل الأولى من البناء الاشتراكي، وبالنتائج الهامة التي وصل إليها بصدد حرب العصابات، وبصدد تكوين جبهة متحدة من القوى الوطنية ضد الاستعمار، ووسائل تغيير نظام الملكية الرأسمالية. كذلك ساهمت الأحزاب الشيوعية في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها في تطوير النظرية، وكان للشيوعيين في أقطار آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فضل كبير في حل المشكلات الخاصة بربط الكفاح من أجل الاشتراكية بحركة التحرر الوطني، وتأسيس تحالف واسع النطاق مع البورجوازية، وابتداع وسائل من أجل التطوير غير الرأسمالي للبلاد التي تحررت من ربة الاستعمار. غير أن ادعاء هذا الحزب أو ذاك، أو ادعاء هذا الرهط من المفكرين أو ذاك، بأن الحكم الأعلى في المسائل المتعلقة بالنظرية أو التطبيق، وأنه التابع الحق لماركس ولينين، وغيره من الخونة المنشقين، فادعاء خليق بكنيصة العصور الوسطى. أما الحركة الشيوعية السليمة الجادة فلا تؤمن بوجود أنبياء فيها من حقهم وحدهم التفكير للآخرين، واتخاذ القرارات نيابة عنهم.

المصالح الخاصة:

ويذهب السوفييت إلى أن القادة الصينيين في زعمهم أنهم الأنبياء الحقيقيون الوحيدون للينين، لاتهمهم إطلاقاً مشاكل اللينينية - الماركسية، وإنما يلجأون إلى مثل هذا الزعم لتغطية أهداف سياسية معينة تلخص في فرض إرادتهم على الحركة الشيوعية وحركات التحرير بأسرها، وإخضاعها لمصالحهم الشخصية دون أدنى اعتبار للمصالح الحقيقية لهذه الحركات.

«هم يتباهون بأنهم خير خلف للسلف الماركسي، وبغيرتهم على نقاء النظرية اللينينية. غير أنه متى تعارضت تعاليم ماركس ولينين مع مصالحهم الوطنية، يضرّبون بهذه التعاليم عرض الحائط... إن وطّدوا علاقاتهم مع فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها فلصالح الماركسية اللينينية، أما إن رأى الاتحاد السوفييتي أن مقتضيات سياسة التعايش السلمي «التي نادى بها لينين» تدعو إلى تحسين العلاقات بينه وبين الدول الرأسمالية، فإنهم يسادرون باتهام السوفييت بالتآمر مع الامبرياليين، والانحراف عن الصراع الطبقي وعن الماركسية - اللينينية».

غير أن تهمة «مراعاة المصالح الخاصة والسياسة الوطنية، والانحراف من اللينينية متى تعارضت مع الصالح القومي»، هي تهمة لا تقل انطباقاً على الاتحاد السوفييتي منها على الصين. فالمميزات القومية والجغرافية الخاصة، والمصالح الوطنية، وآثار الماضي الحضاري والتاريخ السياسي، لها الغلبة عادةً على المبادئ والنظريات. وتطبيق النظرية الشيوعية ذاته قد يكون في بعض الدول، كالاتحاد السوفييتي والصين، وسيلة لحماية المصالح الوطنية أساساً، لا مصالح الطبقة العاملة. وفي وسعنا أن نسوق هنا عشرات الأمثلة للحالات التي ضحى فيها الاتحاد السوفييتي بالمبادئ الماركسية - اللينينية في سبيل مصالحه الخاصة؛ من وقت تخليه عن الشيوعيين الصينيين في العقد الثالث من هذا القرن، إلى معاهدة الصداقة السوفييتية النازية، إلى الاستغلال الاقتصادي لأقطار أوروبا الشرقية عقب الحرب، بل وإلى الدعوة إلى مبدأ التعايش السلمي.

فالاتحاد السوفييتي اليوم يؤمن بأن استمرار الوضع الراهن في الميدان الدولي على ما هو عليه سيؤدي إلى تغير ميزان القوى في صالح السوفييت. فالاقتصاد المخطط فيه وسيلة أضمن وأسرع لزيادة قوته من التوسع والسعي لقلب نظم الحكم في الخارج. والتنمية الصناعية في الاتحاد السوفييتي كفيلة بأن تضيف إلى موارده في بحر عام أو عامين أكثر مما كان يضيفه إليها إخضاع

دولة أوروبية متوسطة الشأن للنفوذ السوفييتي . وهذا السعي من جانب السوفييت إلى الحفاظ على الوضع القائم هو الذي دفعهم إلى تغيير موقفهم من الحركات الثورية والأحزاب الشيوعية في آسيا وأفريقيا . فهم يشجعون هذه الحركات بقدر إضعافها للدول الغربية . غير أنه متى ما بدأ يلمس أنها قد تؤثر في استمرار الوضع القائم ، أحجم عن الاستمرار في مساندتها .

فإن أخذنا السياسة السوفييتية تجاه الشرق الأوسط مثلاً ، رأيناها تعتبر نشوب صدام في هذه المنطقة في غير صالح الاتحاد السوفييتي . . وقد كانت موسكو تنظر دائماً بعين الشك والحذر إلى محاولات زعزعة الزعامة البورجوازية للقومية العربية ، وإخضاع هذه الحركة للتوجيه الشيوعي . ففي العراق مثلاً كان الحزب الشيوعي القوة الدافعة الرئيسية في ثورة عام ١٩٥٨ ، وكان بإمكان الشيوعيين وقتئذٍ الاستيلاء بسهولة على مقاليد الحكم . غير أنهم لم يحاولوا . لماذا؟ لأن سياسة خروتشوف تجاه الشرق الأوسط كانت بالضبط كسياسة ستالين تجاه الصين في السنوات ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٧ حين كان ستالين يعتبر شيانج كاي شيك حليفه ، ويحث الحزب الشيوعي الصيني على قبول زعامة شيانج والخضوع لنظام الكومينتانج . فقد أقنع خروتشوف شيوعيين العراق بأن يعترفوا ، دون قيد أو شرط ، بعبد الكريم قاسم زعيماً وطنياً لهم ، بل ولاهم خروتشوف على السماحهم للتيار الثوري المتدفق أن يجردهم من الحكمة والحيلة . فإن أضفنا إلى ذلك دعوة السوفييت للشيوعيين المصريين في الستينات لوقف حملتهم المعادية للرئيس جمال عبد الناصر ، وإحجام السوفييت عن التدخل في حرب ١٩٦٧ أو في أحداث لبنان مثلاً ، فقد نقبل القول بأنهم إنما يهمهم أساساً تجنب المواجهة مع الكتلة الغربية لمدة عشر سنوات أو عشرين سنة تهيء الاتحاد السوفييتي تهيئة تامة للدخول في التزال الحاسم مع الغرب .

وليس من اللازم أن يكون هذا التزال مسلحاً . فالنظر في الصراع بين النظم الاجتماعية المختلفة سيكون حليف الدولة المتفوقة في مدى فعاليتها ، وفي قدرتها على استغلال قوى المجتمع الإنتاجية ، وطاقات الإنسان الخلاقة .

وقد ظل الاتحاد السوفييتي أمداً طويلاً غير قادر على تحدي الغرب في هذه المجالات، مما دفعه إلى انتهاج سياسة العزلة والحماية الاقتصادية والستار الحديدي. غير أن هذه السياسة تنكمش تدريجاً بتزايد قوته الصناعية. وقد يأتي الوقت الذي تضطر فيه الدول الرأسمالية إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحمايتها من الغزو الاقتصادي السوفييتي، والذي يدعو فيه الاتحاد السوفييتي إلى مبدأ حرية التجارة وفتح الأبواب. وهذا بالضبط هو المضمون الحقيقي لسياسة التنافس السلمي والتعايش السلمي. فالسوفييت يرون أنه عند تحقق هذه المرحلة ستجذب الشيوعية إليها العمال في الدول الرأسمالية، خاصة بعد التوسع في الحريات السياسية في الاتحاد السوفييتي، إذ يفقد الغرب بذلك كافة مزاياه. وهذا هو مادفع خروتشوف، أثناء المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، إلى الخروج على مبدأ من أهم المبادئ اللينينية، حين تحدث عن احتمالات «الانتقال السلمي من الرأسمالية إلى الاشتراكية» في مختلف الدول، دون ضرورة للحرب الأهلية التي كان لينين يظنها أمراً محتوماً.

حديث في الاقتصاد السوفييتي

دعني الشاعرة التتية الشهيرة بيلا أخمادولينا إلى العشاء في منزلها الريفى على بعد نحو عشرة أميال من موسكو مع نحو أربعين من الروائيين والشعراء والفنانين والاقتصاديين والصحافيين السوفييت. وقد كان جُلّ حديث القوم خلال الأمسية حول ما أعلنه المكتب السياسى فى الصباح من خطط تستهدف توسيع نطاق الاستقلال الاقتصادى للمؤسسات، وتقوية نظام حساب التكاليف، وتعديل نظام استثمارات رأس المال، وللأخذ قبل نهاية الثمانينات بمبدأ التمويل الذاتى فى كافة المشروعات مع وقف التمويل الحكومى لها.

وقد انتهزت فرصة جلوس خلال العشاء إلى جوار أحد الاقتصاديين الروس، فبادرت بسؤاله عما سمعته يتردد أثناء إقامتى عن تقرير قدمه مارشال جولدمان، (مدير مركز البحوث الروسية فى جامعة هارفارد) إلى السلطات السوفييتية حول «نقل التكنولوجيا الأجنبية إلى الاتحاد السوفييتى»، وما إذا كان قد اطلع على هذا التقرير. وعندما أجاب بالإيجاب، سألته أن يعطينى فكرة عن فحواه.

— جولدمان يرى أن معدل سرعة التغيرات الاقتصادية والنظور التكنولوجى فى الغرب من شأنه أن يجعل الاتحاد السوفييتى فى المرتبة الثانية سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية، وأن هذا أمر محتوم ما لم يبادر السوفييت من الآن إلى إصلاح الاقتصاد (الذى هو نقطة البداية الرئيسية فى أى

إصلاح)، ومواجهة التحدي الذي يتمثل في كيفية التجاوب مع مقتضيات الثورة الصناعية الثالثة. فالاقتصاد الذي يعتمد على درجة عظيمة من التكنولوجيا يتطلب سرعة القرار والأداء، ويتطلب روح المبادر والخلق والابتداع، ويتطلب القدرة على التكيف والتأقلم. وكلها - في رأي جولدمان - متطلبات سيظل الاتحاد السوفييتي عاجزاً عن توفيرها مع ما يشل اقتصاده حالياً من بيروقراطية، وأخذ بمبدأ التخطيط المركزي، وتركيز على الصناعة الثقيلة.

وهو يرى أن ميخائيل جورباتشوف مخلص النية، صادق العزم، ووافر القدرة على محاولة تحرير اقتصاد بلاده من الأغلال التي تقيدّه، بل ويراها أقوى زعيم سياسي شهده الاتحاد السوفييتي منذ قيام الثورة البلشفية. وعنده أن جورباتشوف يواجه اختيارات ثلاثة: إما إصلاح اقتصادي شامل واسع النطاق ويؤكد اعتماداً كبيراً على السوق (على نحو ما فعله دينج شياو بينج في الصين)؛ أو الأخذ بصورة منقحة من نظام التخطيط والرقابة المركزيين (على نحو ما تحاوله ألمانيا الشرقية)؛ أو الأخذ بنظام هو مزيج من عناصر الخيارين الأولين. أما جولدمان نفسه فيفضل للاتحاد السوفييتي الخيار الأول: اللامركزية، والاعتماد على السوق وتقليص دور المخططين المركزيين، وزيادة سلطات مديري المشروعات، والسماح بالملكية الفردية للفلاحين وأصحاب المشاريع التجارية الصغيرة والمشروعات التعاونية، مع الأخذ بمبدأ التنافس بين المشروعات، ومكافأة العمال والمديرين على جهودهم خاصة فيما يتصل بروح الخلق والابتداع.

قلت لمحدثي :

— ولكن ألا ترى في كل هذه الاتجاهات الجديدة خروجاً عن النظرية الماركسية؟

قال :

— دعنا في البداية نتفق على حقيقة أولية ثابتة، وهي أن كارل ماركس لم

يُعن على الإطلاق لا بيان التفصيلات، ولا بالخطوط العريضة للأحوال الإنتاجية في المجتمع الاشتراكي. . لقد كان معظم ما خلفه من كتابات متصلاً بتحليل المجتمع البورجوازي القائم في عصره من أجل إثبات أن النظام الرأسمالي، الذي كان في البداية عاملاً أساسياً في إطلاق إمكانية هائلة لاستغلال مصادر الثروة الإنتاجية، قد وصل في تطوره التاريخي إلى المرحلة التي أصبح فيها عقبة في سبيل هذا الاستغلال، وفي سبيل المزيد من التقدم، مما يحتم قيام نظام اجتماعي جديد يحل محله، هو النظام الاشتراكي.

وقد شغل ماركس أساساً بيان المتناقضات في المجتمع الرأسمالي دون بيان طبيعة النظام الاشتراكي الذي سيقوم على أنقاضه، قائلاً إن المجتمع الجديد سينظم نفسه بالطريقة التي يرى أنها أكثر الطرق فعالية لاستغلال الموارد الإنتاجية، وأن محاولة بيان هذه الطريق سلفاً أمر سابق لأوانه، ومن قبيل المثالية الحالمة. . . كتب في مقدمة كتابه «نقد الاقتصاد السياسي» يقول ما معناه :

«إن همة التوجيه إنما تنشأ عند تحقق الظروف المادية اللازم توجيهها، أو على الأقل، حين تكون هذه الظروف في طريقها إلى التحقق».

وفي كتابه عن الحرب الأهلية في فرنسا:

«إنه ليست لدى العمال مدينة فاضلة (يوتوبيا) جاهزة، ولا حتى مثل العليا يرمون إلى تحقيقها. . فهم يعرفون جيداً أن عليهم معاناة نضال طويل، وسلسلة من التطورات التاريخية التي تغير بدورها من الظروف والأشخاص» وفي كتابه «نقد البرنامج الجوهري»: «إن كل خطوة في سبيل الحركة الثورية أهم من عشرة برامج للمجتمع الجديد». كما ينقل عنه برنشتين أنه قال: «إن الشخص الذي يرسم برنامجاً للمستقبل هو في حقيقة أمره رجعي!».

مثل هذه الأقوال الصادرة عن ماركس تدفعني إلى الاعتقاد بأنه كان مشجعاً ومباركاً للاتجاه التجريبي، وبالتالي فلا محل لاتهام التجارب الراهنة في

الاقتصاد السوفييتي بأنها تخرج عن الإطار الماركسي .

قلت :

أضيف إلى ما ذكرت أنه حتى ضرورة تولي الدولة لمهمة التخطيط، في إطار النظرية الماركسية، مسألة فيها نظر. فكتابات ماركس لم تحدد قط السلطة أو الهيئة التي ستولي التخطيط في ظل النظام الاشتراكي، واكتفت بالقول إن هذه المهمة ستكون من شأن «المجتمع». لقد كانت فكرته هي أن التخطيط الاشتراكي ليس من مهام الدولة بقدر ما هو مهمة من شأنها أن تجعل نظام الدولة غير ذي موضوع. وأذكر أنه كتب في «البيان الشيوعي» يقول: «حين يؤدي التطور إلى اختفاء الفوارق الطبقية، ويتركز الإنتاج في يد تنظيم واسع يشمل الأمة كلها، ستفقد سلطة الدولة معالمها الأساسية». غير أن ماركس لم يحاول شرح مفهومه عن ذلك «التنظيم الواسع» الذي سيشمل الأمة كلها، أو تحديد كيفية قيام هذا التنظيم بعمليات التخطيط. والغالب أنه كان يفترض، شأنه شأن سيمون وغيره من الاشتراكيين، أن هذه المهام لن تتولاها الدولة أو أي تنظيم سياسي آخر، بل المنتجون أنفسهم الذين سينظمون عمليات تبادل المنتجات فيما بينهم.

قال محدثي :

— هذا حق. وخلاصة القول إذن أن ما خلفه ماركس إنما هو تحليل اقتصادي للرأسمالية لا صورة للمجتمع الاشتراكي. فإن كان قد كتب يقول: «إن الاقتصاد السياسي بتقسيماته المألوفة للقيمة والثلث والربح إنما ينتمي أساساً إلى النظام الرأسمالي، ولا يمكن أن يدوم»، وأنه حتى نظريته في القيمة التي تتخذ العمل معياراً لها ستفقد معناها في ظل الاشتراكية، فهو لم يحاول، ولم ير من حقه أن يحاول، بيان المعايير التي ستحل مكانها في النظام الشيوعي. بل إنه حتى لينين الذي تولّى عنه هذه المهمة بصدد المجتمع السوفييتي، يمكنه القول بقدر من الثقة إنه كان يقرّ جوهر الاتجاه التجريبي،

معتبراً أي تحليل نظري لا يأخذ في الاعتبار ظروف الإنتاج الواجب العمل على هديها في مجتمع معين ، تحليلًا منافيًا للماركسية .

الطريق البراجماتيقي :

قلت : في اعتقادك إذن أن الاتجاهات الاقتصادية الجديدة هنا لم تنحرف عن النظرية الشيوعية ، وأن اتهامها بالانحراف إنما يصدر عن صورة خاطئة عن الاشتراكية ساهم في رسم ملامحها النظام الستاليني ؟

قال : بالتأكيد . فوسائل الإنتاج ما زالت مملوكة للدولة ، وهو المعيار الرئيسي في التفرقة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي . ولا يزال التخطيط المركزي قائماً وقوياً ، والأثمان تحددها الهيئات المركزية لا إدارات المشروعات ، وتحقيق الربح سيتم أساساً لا عن طريق رفع الأثمان أو خفض أجور العمال كما في الرأسمالية ، بل عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة حجمه وزيادة المبيعات . وهذه الأرباح ستستخدم إما في صرف المنح والمكافآت للعمال ، أو في توسيع المؤسسة وتدعيم إنتاجها ، دون تحويلها إلى رأس مال مستغل . ثم إن الربح في النظام الرأسمالي ، كما تعلم ، هو هدف الإنتاج ؛ هو هدف في حد ذاته ، يسعى الرأسماليون إلى تحقيقه بأية طريقة ، ومتعذرين في سبيله كل حدود . أما في ظل الاشتراكية ، وتنظيماتنا الجديدة ، حيث الهدف هو مواجهة احتياجات المجتمع ، فإن زيادة الربح هي إحدى الوسائل لتحقيق أفضل إشباع لهذه الاحتياجات . والهدف هنا هو المعيار الذي يرسم حدود استغلال عامل الربح . أما تحقيق أقصى ربح ممكن بأية وسيلة بغض النظر عن تأثير ذلك في مصالح المجتمع والمستهلكين وظروف العمل والحياة ، فهو ما لم تقل به التنظيمات الجديدة قط .

والخلاصة أن المعايير الاقتصادية مثل : الربح والتمن والقيمة والائتمان ، إلى آخره ، ستظل تؤدي مهام مختلفة تماماً في ظل النظامين ، وأن الاتجاهات الجديدة في الاقتصاد السوفييتي لا تعني انحرافاً إلى الرأسمالية بقدر ما تعني

الأخذ ببعض الأساليب الإنتاجية الرأسمالية النافعة، واتجاه الطريق البراجماتيقي الذي تمليه الحياة نفسها والمصلحة المادية الملموسة.

قلت: — إذن فأنتم تقرّون بكفاءة بعض الأساليب الرأسمالية وضرورة أخذكم بها؟
أجاب بقوله:

— سيدي، لينين نفسه أوصى بأن يكون الاتحاد السوفيتي قادراً وقت الحاجة على الاستفادة من الرأسمالية، والتعلّم منها، وتبنّى كل ما قد يكون لديها من أساليب معقولة ومفيدة. إنها في حقيقة الأمر محاولة للتوفيق بين التخطيط المركزي ومقتضيات السوق الداخلية والخارجية، وإيجاد السبيل إلى إدارة المشروعات التابعة للدولة بربح. وهي محاولة ليست قاصرة على النظم الاشتراكية، وإنما نجد مثيلات لها في الدول الرأسمالية ذاتها التي بدأت تأخذ بقدر من التخطيط.

الحافز المادي:

قلت: إسمح لي أن أذكر اختلافاً واحداً لمستته بين الاتجاهات الاقتصادية الجديدة عندكم والنظرية الماركسية. فهناك عند ماركس إشارة أكيدة إلى حتمية اختفاء الحوافز المادية في المجتمع الاشتراكي وتحولها إلى حوافز معنوية محضة بعد خلق الإنسان الشيوعي الجديد. فإن كنتم اليوم تقولون بأن الحوافز المادية نابعة من صميم الاشتراكية، فإن كلاً من ماركس ولينين وعشرات الأيديولوجيين الماركسيين كانوا يرون في مراعاة الدولة لهذه الحوافز أمراً مؤقتاً كفيلاً بالتضاؤل حين يحلّ محلّها الباعث الاجتماعي الناجم عن إدراك الشعب العامل أنه المالك الحقيقي لوسائل الإنتاج، وأن رخاءه يتوقف بصورة مباشرة على تنميته لمصادر الثروة على أكمل وجه. وإنه لمن غير المفهوم عندي، على هذا الأساس وحده، أن نجد الاهتمام بالحافز المادي يتضاعف في ظل النظام السوفيتي حتى بدأ يطغى على غيره، ويتبوأ المقام الأول، كلما زاد نمو

الأساس المادي والفني للإنتاج الاشتراكي ، وبعد نحو سبعين عاماً من بدء محاولات خلق الإنسان الجديد .

صمت لبضع لحظات ثم قال :

- إما أن يكون ماركس قد أخطأ في توقّعه هذا ، أو أن تكون عملية خلق الإنسان الشيوعي الجديد لم تفرغ بعد . وأقولها صراحة أن الملاحظة العامة في غالبية السلبات السائدة في الإنتاج السوفييتي ، متصلة أساساً بضعف الوعي الاجتماعي والخلقي لدى المشتغلين به ، وهو ما ظهرت آثاره في جلاء بعد التحول عن سياسة الإرهاب والإكراه التي تميّز بها عهد ستالين . فإن كان الاتجاه الآن هو لتقوية الحوافز المادية ، فما هذه الحوافز في حقيقتها سوى الحل البديل الوحيد للوعي والضمير في سبيل تنمية الإنتاج وتحسينه .

لقد وجدنا المبالغ المخصصة في المؤسسات للحوافز المادية غير كافية على الإطلاق لتحسيس العامل أو المؤسسة على تحسين نتائج العمل . فالفرص المتوفرة لدى المشروعات لرفع مكافآت العمال فيها من موارد دخل المشروع محدودة للغاية . ولاحظنا أن خمسين في المائة من المؤسسات الصناعية لا تملك أية اعتمادات للحوافز المادية ناتجة عن أرباحها هي . والمؤسسات التي لديها مثل هذه الاعتمادات لا تملك منها غير مبالغ ضئيلة جداً بحيث لا يحصل العامل منها على أية مكافأة ذات قيمة . وتكاد تكون كافة المكافآت والمنح التي تدفع للعمال والموظفين مستمدة لا من الأرباح بل من اعتماد الأجور الذي تموّله الدولة .

كذلك فقد لاحظ الاقتصاديون عندنا أن الهمّ الأوحـد لإدارات المؤسسات والمصانع كان تحقيق متطلبات الخطة بأسهل طريقة ممكنة ، آخذة في الاعتبار المكافآت التي تصرف متى حقق المصنع الخطة أو تجاوزها ، والعقوبات المفروضة إن لم يحققها . فإن كان حجم الإنتاج يقاس بالعدد ، أنتجوا العدد

المطلوب من السلعة مع إغفال ملحوظ لنوعيتها. وإن كان يقاس بالوزن، كان الاتجاه إلى زيادة ثقل المنتجات حتى لو قلَّ ذلك من منفعتها! ولعلك قد شاهدت في مجلّتنا الهزلية «كروكوديل»، في عددها الصادر يوم أمس، رسماً كاريكاتورياً لعمال مصنع مسامير يسبّرون في موكب حاملين مسامراً واحداً بالغ الضخامة، وهم يردّدون: «حقننا الخطّة!». وقد شجّع على ذلك أن المعيار المعمول به هو الإنجاز الكميّ لا الكيفي. وقد بدا لنا الآن أن الأخذ بالمعيار الكميّ المحصن مقياساً للنجاح أو لمنح المكافآت التشجيعية لا يمكن أن يرقى بنوعية السلع ويزيد من تنوعاتها، في الوقت الذي يزداد فيه التقدم الفني، وترتفع مستويات الاستهلاك، وتشتد الحاجة إلى تنوع المنتجات.

أضف إلى ذلك أن إدخال التحسين على السلع وتنويعها يتطلبان وقتاً وجهداً إضافيين، للسماح مثلاً بتجربة السلعة الجديدة أو تعديل في الآلات المنتجة لها. إلى آخره. وحيث أن هذا يعطل تدفّق الإنتاج، وقد يؤدي إلى إعادة تنظيم عملياته وتعديل أدواته، فإن مديري المؤسسات، متى كانوا تحت ضغط من الجهات العليا لتحقيق هدف كميّ معين، لا يقبلون عادةً هذا التعطيل، مفضلين الاستمرار في إنتاج السلعة بشكلها القديم، سواء كان المستهلك راضياً عنها أم غير راضٍ. ومن ثم فإنه لم يكن للمستهلك أي تأثير مباشر على المنتجين.

كذلك فإن النظام القديم كان يُغري المصانع والمؤسسات بإخفاء حقيقة إمكانياتها. فالمعروف أن سلطات التخطيط مضطرة إلى حد كبير إلى الاعتماد على المؤسسات نفسها في بيان هذه الإمكانيات وتكاليف الإنتاج فيها. صحيح أن المخططين قد يمكنهم التحقق من صحة تقديرات المؤسسة عن طريق ممثليهم المحليين، أو بمقارنة هذه التقديرات بتقديرات مؤسسات أخرى تعمل في ظروف مشابهة. غير أن جهاز التخطيط، متى كان مثقلاً بالعمل، لا يمكنه التحقق من صحة كل بند في تقديرات ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف مصنع.

وقد شاع في الاتحاد السوفيتي مثل يقول: إن المدير العاقل قد يتجاوز الخطة في إنتاج مؤسسته بمقدار أربعة أو خمسة في المائة، ولكنه ليس من مصلحته أن يتجاوزها بمقدار عشرين في المائة. فلو أنه فعل ذلك لرفع جهاز التخطيط تقديرات الخطة له في العام التالي بشكل ملحوظ. وقد أدى هذا الوضع إلى تردد المديرين المخلصين أنفسهم في تقديم تقديرات واقعية عن إمكانيات مؤسساتهم خشية توقيع الجزاءات عليهم إن لم يحققوها.

لهذا كله كان لا بد من وضع نظم جديدة، نظم تزيد بمقتضاها قدرة المؤسسة على مكافأة عمالها بزيادة إنتاجها وتحسين نوعيته وتضخم أرباحها. فقررنا تخصيص اعتماد في كل مؤسسة، من الأرباح التي تحققها، من أجل الحوافز المادية، بحيث يتوقف حجمه على مدى الزيادة التي تطرأ على مبيعات سلعة. وستكون مبالغ المكافآت التي تصرف عند «تجاوز» تقديرات الخطة، أقل نسبياً من المبالغ المخصصة عند «تحقيق» تقديرات الخطة. وهو ما سيدفع المشروع إلى الموافقة على تقديرات أعلى لخطته. كما سيتوقف حجم اعتماد الحوافز المادية هذا على قدر الدخل الصافي الذي يتحقق للمؤسسة من رفع أسعار سلعتها نتيجة لتحسين نوعيتها، مما سيشجع المؤسسة على الإرتقاء بنوعية سلعتها وإنتاج أصناف جديدة منها في أسرع وقت ممكن.

المركزية المفرطة:

قلت:

— يتحدث الكثيرون في الغرب عن أن: «جُلَّ عيوب الاقتصاد السوفيتي ناجمة عن المركزية المفرطة في التخطيط، في حين يدافع بعض الشيوعيين عنها بقولهم إن من شأنها توفير الوقت، والإسراع بالنمو، وأنها هي التي مكّنت ستالين من جعل روسيا ثاني أكبر دولة صناعية في العالم، ومن تحقيقه نجاحاً نبتت عنه الجملة المشهورة القائلة إنه تسلم مقاليد الحكم وليس في روسيا غير

المحراث الخشبي، وخلفها وهي تملك الأسلحة الذرية. ما قولك أنت في هذا الأمر؟

قال محدثي :

— لقد كانت المهام الاقتصادية الرئيسية التي جابهت النظام السوفيتي خلال الأعوام الثلاثين التالية للثورة، أكثر بساطة وأقل تعقيداً من تلك التي تجابهه اليوم، حتى بالرغم من أن نجاح تحقيقها كان يتطلب جهوداً بالغة المشقة. وقد كان لابد من أجل إرساء أساس متين لصناعة متقدمة في بلد متخلف، وللحاق بالغرب عسكرياً واقتصادياً، من إقامة مركزية صارمة في التخطيط، وانحصار الغاية في تحقيق أكبر معدل ممكن من النمو، وتوجيه كافة الإمكانيات الاقتصادية المتوفرة نحو التركيز على الأهداف الرئيسية، مع ترتيب أسبقيات بصدد الصناعات. وقد كان نطاق هذه الصناعات خلال المرحلة الأولى محدوداً، وترتيب الأولويات بينها بسيطاً، كما كان عدد القرارات نفسها أقل حين كان الاستثمار يتعلق أساساً بعدد من المشروعات الإنشائية الكبرى، كمصانع الصلب والمحارث والسيارات والصناعات الهندسية. وكانت المنتجات في قطاع كبير من الصناعة موحدة الصنف عن عمد بغية توفير النفقات، وتحديد حجم الإنتاج في هذه الصناعات بسيطاً نسبياً، وعدد المصانع ضئيلاً، مما سهّل على إدارة التخطيط المركزية مهمتها. فإِنْ حدثت ومرت إحدى الصناعات الهامة بأزمة ما في المعدات أو المؤن، أو تعذّر تحقيق أهداف الخطة فيها لسبب أو آخر، عولج الموقف عن طريق تدخل إداري مباشر من المركز، وإصدار توجيهات مفصلة إضافية، مع الإسراع بنقل جزء من الموارد إلى هذه الصناعة من صناعة أخرى ليست في نفس الدرجة من الأهمية، لعدم توفر الاحتياطي الذي يعتبر أمراً كمالياً في الاقتصاد الذي يهدف إلى سرعة النمو بصفة أساسية. وكان نقل الموارد هذا يتم غالباً على حساب صناعات السلع الاستهلاكية الذي كان الاقتصاد السوفيتي وقت ستالين يعتبرها بمثابة الاحتياطي فيه!

مثل هذه المركزية كانت أمراً مفهوماً في السنوات السابقة للحرب العالمية، وفي فترة إعادة بناء الكيان الاقتصادي بعد الحرب. غير أن الأوضاع الآن قد تغيرت تغيراً باتت المركزية المفرطة معه عبئاً ثقيلاً على الإنتاج وعلى الشعب على السواء:

● فمن ناحية، نجد أن عدد المنتجات وأصنافها قد زاد زيادة ضخمة، وكذا عدد المصانع المنتجة لنفس السلعة، والعدد الكلي للمصانع بوجه عام. وهوما يعني أن التخطيط أضحي أكثر تفصيلاً وتعقيداً، وأن الهيئة المتولية له بات عليها اتخاذ قرارات لا حصر لها بصدد حشد من المشكلات، وهي بعيدة عن مواقع الإنتاج الذي ستطبق عليها هذه القرارات. وهو وضع لا شك في أنه يتنافى مع الواقعية والفعالية الواجب توفرهما في التخطيط.

● ومن ناحية أخرى، نرى أنه لكي تنمو الصناعة والطاقة الصناعية بدرجة أكبر، لا بد من أن تستحدث على نحو مستمر وسائل إنتاجية توفر العمل على أساس تحسين الأساليب الفنية واتباع أحدثها. غير أن التقدم الفني لا يمكن توفيره بتوجيهات من السلطات العليا، وإنما يتطلب مبادرة مستمرة من جانب المؤسسات، وحماساً لا ابتكار الجديد في مواقع الإنتاج ذاتها. ومن ثم فقد نجمت الحاجة الملحة في ظل الظروف الجديدة إلى توسيع حرية المؤسسات من أجل التوسع في إدخال هذه الأساليب الفنية، وزيادة إنتاجية العمل فيها.

● ومن ناحية ثالثة، نجد أن الأمر لم يعد يقتضي مجرد التركيز على أهداف رئيسية معينة مع اعتبار الباقي أهدافاً ثانوية، بل كان لا بد من أن تثمر الجهود والتضحيات التي بذلها الشعب السوفيتي قبل الحرب وأثناءها وفي فترة إعادة بناء الكيان الاقتصادي بعدها، وأن تسفر عن ارتفاع في مستوى معيشته، وإشباع أكمل لاحتياجات المستهلكين.

الاحتياجات الجديدة:

فإن كان إغفال عامل السوق، ومبدأ الربح، وتلك الأوامر التحكمية من

جانب السلطات المتولية للتخطيط المركزي الدقيق، قد ناسبت الأوضاع الاقتصادية غير المعقدة التي تميزت بها الفترة الأولى من النظام السوفييتي، فقد ثبت أنها لم تعد تتفق مع تعقد هذه الأوضاع، ومع النضج الاقتصادي الذي أحرزته البلاد، واحتياجات الشعب التي بدأت تفرض نفسها فرضاً، وتطلع الاقتصاد السوفييتي إلى التوسع في التصدير وغزو الأسواق العالمية، ومع ازدياد أهمية ونفوذ طبقة الفنيين في الحياة الاقتصادية السوفيتية. وقد أدى استمرار التمسك بهذه المبادئ العتيقة إلى ظهور مآخذ خطيرة تهدد اقتصاديات البلاد: كقتل روح المبادرة والحافز الشخصي على العمل، وضيق المال في إنتاج كميات ضخمة من السلع التي لا يريد شراءها أحد بسبب رداءة نوعيتها، والتي بلغت قيمتها في بعض الأحيان عدة بلايين من الروبلات، ثم فوق كل شيء، الانخفاض الملحوظ في معدل زيادة الإنتاج، وهو الذي وإن أمكن تفسيره على ضوء زيادة الاهتمام بتحسين السلع وتنويعها لإرضاء احتياجات المستهلكين وأذواقهم، وتمهيداً للدخول في منافسة مع سلع الدول الأخرى، فإنه لا ينفي وجود ما يشبه الأزمة أو العقدة المستحكمة في الإنتاج الصناعي السوفييتي.

ثم أمضي فأقول، إنه بالرغم من تقدم الاتحاد السوفييتي الملحوظ في مضمار التسليح والعلوم وغزو الفضاء، وبالرغم من أنه قد أصبح دولة صناعية كبرى وإحدى أقوى دولتين في العالم، فإن الغالبية العظمى من الشعب فيه ظلت تعيش معيشة مقاربة لمعيشة شعوب بعض الدول المتخلفة اقتصادياً، وهو ما قد يمكن اعتباره أكبر تناقض داخلي في الاتحاد السوفييتي، وما لم يكن بالإمكان استمراره مدة أطول. فالواضح الآن أن هناك ضغطاً داخلياً متزايداً، وعدم استعداد من جانب الغالبية من أفراد الشعب لقبول فكرة بذل المزيد من التضحيات بعد سنين طويلة من الثورة والحرب الأهلية والتصنيع الثقيل والعهد الستاليني والحرب العالمية وإعادة البناء بعد الحرب، مع شعورهم المتضاعف بحقوقهم بعد هذا الحرمان الطويل في المطالبة بثمار ثورة وعدتهم منذ نحو سبعين عاماً بالخراء.

وقد زاد من حدة هذا الشعور بتخلف الأحوال المعيشية ونقص إنتاج السلع الإستهلاكية ورداءة نوعيتها، تزايد اتصال الاتحاد السوفيتي بالغرب، وإطلاع المواطنين السوفيت، بقدر أو آخر، على الأحوال المعيشية في الدول الرأسمالية المتقدمة، وتزايد وطأة الأعباء الخارجية والقروض والمساعدات السوفيتية للدول النامية على الفرد السوفيتي . وقد أصبح الآن من المحتم توجيه الإدارة الصناعية وجهة تضمن إشباع هذه الرغبات، خاصة على ضوء الإدراك أن تمام إنجاز المرحلة الأولى من بناء صناعة قوية، وتهيئة الوسائل الكافية المناسبة للدفاع، يفرض الدخول الآن في المرحلة التالية: وهي رفع مستوى معيشة الشعب، وإشباع احتياجات المستهلكين، وإدراك أن مستوى الإنتاج في الدولة الصناعية الحديثة يتوقف إلى حد كبير على مدى ما تستمتع به الطبقة العاملة فيها من مستوى مرتفع نسبياً في الأحوال المعيشية، وأن الأيدي العاملة والاقتصاد الحديث أكثر تعقيداً من أنه يمكن إخضاعها لتخطيط مركزي دقيق.

تحديات المستقبل :

واستطرد محدثي يقول :

- إن النظرية الشيوعية تقوم أساساً على افتراض تفوقها على النظرية الرأسمالية في مضمار الإنتاج، وتفوق إمكانيتها تهيئة مجتمع الوفرة والرخاء، وحتمية أن تؤدي المتناقضات الداخلية في المجتمعات الرأسمالية إلى عرقلة نمو الإنتاج والتعرض لازمات اقتصاديات دورية حادة تضر بمصالح المستغلين والمستغلين على السواء. ومع ذلك فالملاحظ حتى الآن أن النظام الرأسمالي في الدول المتقدمة قد نجح، بوسيلة أو بأخرى، في تجنب تحقق النبوءات الماركسية بصده، وأن مستوى رفاهية أفراد الشعب في ظل لا يزال أرقى من ذلك الذي يتمتع به الشعب في ظل النظام الشيوعي .

مثل هذا المعجز عن تحدي الدول الرأسمالية المتقدمة بصدد رفع مستوى

المعيشة، وإشباع احتياجات الشعب من السلع الاستهلاكية الوفيرة جيدة النوع، (وهو أهم اعتبار في ميدان التنافس العقيدي بين النظامين)، كفيل بتشكيك الشعب العامل، سواء في الداخل أو الخارج، في مدى فعالية النظام الشيوعي، ويزود الرأسمالية بسلاح قوي في الدعاية. لذلك فقد بات من الواضح للقادة السوفييت، أن اللحاق بالدول الرأسمالية الكبيرة في هذا المجال، بل والتفوق عليها فيه إن أمكن، سيؤدي حتماً لا إلى تهدة الخواطر في الداخل فحسب، بل أيضاً إلى اجتذاب جانب كبير من العمال في الدول الرأسمالية، خاصة بعد أن يتم التوسع في الحريات السياسية والفكرية في الاتحاد السوفيتي.

فإن صدقت توقعاتنا لنجاح الاتجاهات الجديدة في الصناعة، فلا شك في أن هذا النجاح سيسفر عن زيادة التقارب بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، وعن تحسن العلاقات السوفيتية الغربية، والتوسع في التجارة بين الجانبين، بعد تزايد قدرة السوفييت على التصدير، وإحلال المنافسة الاقتصادية محل الحرب الباردة. وهو في رأينا المفهوم الحقيقي الوحيد لمبدأ التعايش السلمي، إذ تعطي هذه المنافسة الاقتصادية مضموناً واقعياً وعملياً لهذا المبدأ.

وقد بدا للاتحاد السوفيتي بوضوح ضرورة وحيوية التوسع في المبادلات التجارية مع الدول الرأسمالية الغربية على ضوء اعتبارات هامة منها:

● حاجته العاسة إلى مضاعفة دخله من العملات الصعبة عن طريق زيادة صادراته إلى الغرب، لزيادة قدرته على استيراد السلع التي يحتاج إليها من الدول الرأسمالية، (كالمواد الكيميائية الصناعية والمعدات والآلات الحديثة المتقدمة فنياً التي لم يستطع اللحاق بالغرب في إنتاجها بصورة مرضية)، أو السلع التي يصعب عليه مجاراة الغرب في إنتاجها، إما لاقتناره إلى المواد الخام اللازمة، أو لبهاظة تكاليف إنتاجها في الاتحاد السوفيتي، والميزة الاقتصادية للتخصص في إنتاج غيرها.

● أن زيادة قدرته على تقديم المساعدات للدول النامية تحتم عليه العمل على زيادة موارده ، وهي زيادة يضمونها التوسع في صادراته إلى الغرب ؛

● إدراكه لمدى سيطرة الغرب على كثير من صادرات الدول النامية ، وشدة ارتباط اقتصاديات الكثير من الدول حديثة الاستقلال بالتكتلات الاقتصادية الغربية ، مما يجعل من صالح السوفييت ، في سبيل وصول تجارتهم إلى هذه المناطق ، التوسع في التبادل التجاري مع الدول الغربية الأعضاء في تلك التكتلات .

هذه الاعتبارات وغيرها تتطلب منا ، من أجل تنمية علاقائنا التجارية مع الدول الرأسمالية ، جهداً ضخماً من أجل النهوض بالاقتصاد والصناعة ، والعمل على زيادة الإنتاج ، وتحسين نوعية السلع لضمان تسويقها .

الوسائل :

ويكفي الآن أن أشير إلى بعض وسائل تحقيق هذا الغرض :

فالمؤسسات والمصانع عندنا كانت تهمل نظام حساب التكاليف إهمالاً يكاد يكون تاماً ، معتبرة إياه من الشكليات المحضة . . . كان تمويل استثمارات رؤوس الأموال يتم من ميزانية الدولة مجاناً ، وهو ما من شأنه أن يجعل مديري المؤسسات قلبي الاحتفال بتكاليف تعمير المشروع واستغلال رأس المال الإضافي المستمر ، نظراً إلى أن المؤسسات كانت غير ملزمة برد المبالغ المقدمة لها ، ولا تتحمل أية مسؤولية اقتصادية عن استغلالها ما دام كل عطل في رأس المال المستغل في المشروع تعوّضه ميزانية الدولة مجاناً .

كذلك فإن مدفوعات المؤسسة من أرباحها إلى ميزانية الدولة لم يكن يتوقف قدرها على قيمة الأصول الثابتة للمؤسسة . وهو أحد الأسباب التي كانت تجعل المؤسسة تحاول الحصول على المزيد من المبالغ من الدولة كاستثمارات لرأس المال ، وكاعتمادات إضافية لرأس المال العامل ، دون أن تتخذ من جانبها

الإجراءات اللازمة لاستغلال هذه المبالغ استغلالاً مثمراً. بل وكان يحدث أحياناً أن تشتري المؤسسة معدات لا حاجة بها إليها لمجرد أن تنفق المبالغ التي خصصت لها فلا تتهم بأنها بالغت في الطلب.

أما الآن فالمشروع مطالب بتغطية تكاليفه من دخله هو مع تحقيق الربح، ومع الأخذ بمبدأ المسؤولية الكاملة للمشروع ومديره عن النتائج الاقتصادية لأعمالهم. وقد رأينا من أجل تقوية نظام حساب التكاليف ضرورة خلق الظروف التي يتمكن المشروع في ظلها من تحسين إنتاجه، ومضاعفة اهتمامه باستغلال الأصول الثابتة المخصصة له إلى أقصى حد من أجل زيادة الإنتاج والأرباح. ولهذا فقد ترك للمشروع قدر أكبر من الأرباح التي يحققها حتى يتمكن من تنمية إنتاجه، وتحسين الأساليب الفنية فيه، وتشجيع عماله مادياً. وتتحدد نسبة الأرباح التي تترك للمشروع على ضوء مدى فعاليته في استغلال موارده، والزيادة في كمية مبيعاته، والتحسينات التي يدخلها على نوعية منتجاته.

كذلك تم تغيير النظام الذي تدفع المؤسسة بمقتضاه جزءاً من أرباحها إلى ميزانية الدولة، بحيث يكون الخصم من الأرباح، (لصالح ميزانية الدولة)، على أساس قيمة الأصول الثابتة المخصصة للمؤسسة، مع اعتبار هذه الخصومات مدفوعات من أصل قيمة الأصول. وهو أمر من شأنه أن يزيد من عناية المشروع باستغلال مخصصاته، وإحجائه عن المطالبة بالمزيد منها إلا في حالة الضرورة.

غير أن مدفوعات المؤسسة هذه تتم على مدى طويل حتى تتمكن من استبقاء أرباح لها، وتغطية مصروفاتها. كما تحتفظ المشروعات التي تحسن استخدام أصولها الثابتة بقدر أكبر من الأرباح لضمها إلى اعتماد المكافآت والمنح. وبالنظر إلى أن الآلات والمعدات الجديدة لا يمكن أن تحقق أقصى

إمكاناتها فور بدء العمل بها، فلا تستقطع الخصومات إلا بعد مدة تسمح بالاستغلال الكامل لهذه الإمكانيات.

وقد رأينا أن الثمن يلعب دوراً رئيسياً في علاج المشكلات المتصلة بتحسين نوعية السلع، وأنه من الواجب تعديل نظام تحديد أثمان السلع بحيث تشمل المصروفات فتغطيها وتضمن للمؤسسة الربح، وأن تراعي الدولة عند تحديدها لأثمان النماذج الجديدة المحسنة أن يعكس الثمن المصروفات الإضافية للمشروع، والمنافع الاقتصادية الجديدة التي حققها التحسين للمستهلك. وهذا كفيل بزيادة رغبة المؤسسة في النهوض بنوعية إنتاجها، كما سيكون من مصلحة المستهلك، إقتصادياً، شراء مثل هذه السلع.

المعارضة :

وسألت محدثي في النهاية عما إذا كانت هذه الاتجاهات الجديدة في الإقتصاد السوفييتي تلقى معارضة ذات شأن من جانب المحافظين الكارهين للتغير. أجاب :

— بكل تأكيد. ثمة معارضة قوية لا بين بعض الاقتصاديين فحسب، بل وداخل الزعامة السوفييتية وفي صفوف الحزب والجيش أيضاً. هذا الفريق المحافظ يضم أربع قوى مختلفة :

● الماركسيين المتشردين الذين يرون في هذه الاتجاهات انحرافات رأسمالية خطيرة وتحولاً عن أسس الاقتصاد الاشتراكي، وأنه كان من الواجب استمرار الاعتماد على أجهزة التخطيط المركزية بعد علاج نقائصها المعرقة للإنتاج بدلاً من توسيع استقلال المؤسسات.

● البيروقراطيين العديدين الذين يخشون كل جديد، ويحسون بالخطر على مراكزهم في ظل الأنظمة المستحدثة.

● رجسلاً من الحزب يخشون من أن يؤدي التوسع في استقلال

المؤسسات وفي اللامركزية إلى الحدّ من نفوذهم، أو دخولهم في صراعات جديدة مع الفنيين، ويتوقعون - ويحق - ألا تقتصر نتائج الاتجاهات الجديدة على الميدان الاقتصادي، بل تتعدّاه إلى الميادين الفكرية والثقافية.

● ورجالاً من الجيش يخشون من أن يتم التوسع في إنتاج السلع الإستهلاكية والنهوض بالصناعة على حساب التسليح.

غير أن الغالبية في بلادنا تعتقد أن النكوص عن الدوجماتيقية، وإدخال التعديلات على النظام الاقتصادي الاشتراكي، أمران قد بات لا غنى عنهما في عالم اليوم. أضف إلى ذلك أنهما يكفلان زيادة إمكانية النظرية الاشتراكية اجتذاب شعوب الدول النامية والطبقة العاملة في الدول الرأسمالية على السواء، واجتذاب المثقفين الذين كان ينفّرهم أساساً من الماركسية دوجماتيقية معتقياً، ويرفضونها بكليتها كردّ فعل لإصرار الماركسيين على قبولها بكليتها. ولا شك أن استئصال النقائص البارزة في النظام السوفييتي التي كانت تشينه وتسيء إلى سمعته في الخارج، كاستفحال البيروقراطية، والإفراط في المركزية، وانخفاض مستوى المعيشة، ونقص إشباع الاحتياجات الاستهلاكية للشعب، هو خطوة هامة في هذا السبيل.

انطباعات متفرقة عن المسرح السوفيتي

شعرت بقدر كبير من الدهشة، مع بعض الاستياء، إذ أسمعهم يتحدثون عن مسرح الفن عندهم على ذلك النحو من التهكم والازدراء. الدهشة: إذ كنت أحسب الشعب الروسي أميل بطبيعته إلى التوقير منه إلى التشكك، خاصة فيما يتعلق بترائه الفني. والاستياء: إذ كان مسرح الفن (مخات) في مقدمة ما كنت أطلع إليه عند قدومي إلى موسكو، وما زال بعض الكتب يشير إلى هذا المسرح الذي أسسه ستانيسلافسكي، وساهم تشيخوف وجوركي بمسرحيتهما في إعلاء شأنه وذبوع حسنيته، على أنه أعظم مسرح في العالم. فما بال هؤلاء الأصدقاء المسكوفيين يستخفون به؟

«قد أصبح متحفاً أو كاد يصبح به»، هكذا قيل لي، «غير أنه متحف في سبيله إلى الانقراض».

وهم بذلك يقصدون أكثر من معنى:

فقائمة المسرحيات التي يقدمها هذا المسرح ويعيد تقديمها موسماً فموسماً، ثابتة محدودة العدد إلى درجة لا تملك إزاءها إلا أن تستشعر القنوط والغيظ كلما قرأت برنامجيه في مستهل كل موسم. فهي أساساً: «نفوس ميتة» عن رواية جوجول، و«أنا كاريننا» عن رواية تولستوي، و«الإخوة كارامازوف» عن رواية دوستويفسكي، و«العروس الفقيرة» لأوستروفسكي، و«الخال فانيا» و«الشقيقات الثلاث» و«بستان الكرز» لتشيخوف، و«الأعماق السفلى»

لجوركي، و«ماري ستوارت» لشيلر، و«الطائر الأزرق» لميتزلنك، و«قصة الشتاء» لشكسبير. (لماذا «قصة الشتاء» بالذات ودون غيرها من مسرحيات شكسبير، تقدم عاماً بعد عام، ويتكرر الإعلان الكثيب عنها كل عشرة أيام؟ الله وحده يعلم!). فإن أضافت الإدارة إلى هذه القائمة بين الحين والحين مسرحية حديثة عن رغبة في استرداد اهتمام الجمهور، بدت لك الإضافة مصطنعة فائرة، وبدت المسرحية وقد حشرت حشراً بين «النفوس الميتة» و«قصة الشتاء»، فرقة هلعة كالسمكة خارج الماء.

والعداء بين هذا المسرح وأي درجة مهما هان شأنها من التجديد عداء عنيف. فالممثل لا يزال خاضعاً كل الخضوع لوصايا ستانيسلافسكي العشر، والإخراج والذكور والملابس، بل والمكياج، هي اليوم بالضبط كما فرضها منذ قرن كامل هذا الطاغية حسن النية. تدرك ذلك حينما تتجول خلال الاستراحة بردهات المسرح وطرقاته، تتأمل صوراً فوتوغرافية لمناظر من المسرحيات في زمن ستانيسلافسكي يظهر ستانيسلافسكي في غاليبتها، ولا تكاد تختلف في تفصيل واحد عما تراه على خشبة المسرح اليوم. بل إنك لو اجد اليوم الممثل القائم بدور دكتور أسترروف في «الخال فانيا» شديد الشبه بستانيسلافسكي في نفس الدور، ومامشا الأخت الوسطى من «الشقيقات الثلاث» صورة مكررة من أولجا كنيبر زوجة تشيخوف وممثلة هذا الدور منذ أكثر من ثمانين عاماً.

والدار نفسها التي تؤوي الفرقة ليست أقل من الفرقة كراهة للتجديد. فهي كما عرفها وكما تركها المخرج العظيم، شأن غرفة راحل تأبى أرملة أي تغيير فيها. الكراسي قديمة متعبة، والستار عتيق باهت اللون ما زال يحلق في دائرة وسطه طائر النورس، وهو الشعار الذي اتخذته الفرقة قديماً تبركاً بمسرحية تشيخوف حاملة هذا الاسم، وكانت من أوائل ما قدمه المسرح. بل لتكاد تجزم إذ ترى خدم المسرح العجائز ممن يحفظون كعوب التذاكر، أو يقودون إلى المقاعد، أن غاليبتهم تحمل ذكريات كثيرة عن ستانيسلافسكي وجوركي، وربما ربت تشيخوف على كتف بعضهم وهو يمر به!

وجمهور هذا المسرح لا يختلف كثيراً عن جمهور المتاحف. فقوامه تلاميذ المدارس وطلبتها، يغدون إليها إما فرادى، أو جماعات في طوابير منظمة يحملون شاراتهم الحمراء، ويقود كل جماعة منهم مدرس. فأما أفراد الجماعات وهم الذين اقتيدوا إلى المكان كما يقادون إلى فصل أو معمل، فسلوكهم هنا مشابه لسلوكهم في الفصل أو المعمل: هذا يتملص في مقعده وعلى وجهه علائم السأم، وهذا يهمس في أذن صديقه بحديث، وهذا يركل جاره عن ملل في ساقه، حتى يلتفت إليهم المدرس معذراً. وإلى جانب الطلبة غير الآبهين بمسرحيات قراؤها ودرسوها وحفظوا صفحات منها وامتحنوا فيها وشاهدوها على شاشة التليفزيون مرات ومرات، أفراد جماعات شيقة من العمال أو المزارعين، وفدوا إلى موسكو في ماموريات من الأرياف أو مدن الأقاليم، قد منحوا تصاريح مجانية لقضاء أمسية ثقافية، فجاءوا في ملابسهم المتواضعة يتعشرون في مشيتهم رهبة، مشدوهين مبهورين بمسارح العاصمة، وهم مع ذلك ليسوا أقل توقيراً لتولستوي أو جوجول من سائر أفراد هذا الشعب أصيل الثقافة. ترى هؤلاء وأولئك يملأون الصفوف الخلفية والوسطى من الصالة وصفوف الشرفات. أما الصفوف الأمامية فيجلس فيها الأجانب من الدبلوماسيين والسياح وأعضاء الوفود الزائرة للمدينة. وفي الصف الأول، والمقصورتين إلى اليمين واليسار، يجلس عدد من الممثلين والممثلات القدامى من أبناء هذه الفرق وغيرها ممن أحيوا إلى المعاش أو ليس لهم دور في المسرحية المقدمة ذلك اليوم، يراقبون تمثيل تلاميذهم وزملائهم.



هو إذن من كافة الوجوه متحف لا ريب. غير أنه ما إن ينفرج الستار عن المسرح الصغير الذي تهب عبره إلى الصفوف الأمامية ربح باردة ورائحة كريهة، ويبدأ التمثيل، حتى يتبدد كل شك في حق هذه الفرقة في الحياة والبقاء، ويخامر النفس الأسى إزاء نبوءة المثقفين المحسوفين له بالانقراض.

لقد طفت بمسارح لندن وباريس وبرلين الغربية ونيويورك، وشهدت صفوة فرقها وممثلها، فلم أر ما يمكن أن يوضع في مصاف هذه الفرقة في مجال التمثيل. قد يمكنك الإشارة إلى أوليفيه أو بول سكوفيلد أو جان فيلار فلا أجد قريباً لأيهم هنا. غير أن الفرقة كفرقة لا تبارى قد استغنى تماماً عن «النجوم»، أو قل، هي فرقة كافة أفرادها من النجوم، لا يكاد أي منهم يفوق الآخرين كثيراً، وطول الأدوار لا يصلح دليلاً على أهمية الدور. فإن صفت في نهاية العرض، فلشخص معنوي، للممثلين كفاءة، لمسرح الفن، لستانيسلافسكي.

دور لا يزيد أداؤه على خمس دقائق، كدور البواب «جريجوري» في «الإخوة كارامازوف»، قد يقوم به ممثل يحمل لقب فنان الشعب للاتحاد السوفيتي، بينما قد لا يحمل ممثل دور دم تري كارمازوف أو أليوشا لقباً ما. هي كالفرقة الموسيقية السيمفونية، للطلب فيها ما للكمان من دور جاد. فإن مرّت بك فترة طويلة في مثل هذا الجو المسرحي، ثم زارتك في موسكو فرقة مبرزة كفرقة المسرح القومي البريطانية، فلن تملك إلا أن تصدم وتشعر بالامتناع إزاء الضعف النسبي في قدرات القائمين بالأدوار الثانوية فيها. وما بهم في الحقيقة من ضعف وإنما هو ما اعتدته هنا من كمال.

مسارح أخرى:

مشكلة مسرح الفن إذن مشكلة إدارة أو سياسة لا تبالي بأذواق الجمهور المتغيرة بقدر ما تهتم بالحفاظ على تراث. وقد ردّ الجمهور على هذه اللامبالاة به بأن ترك المسرح للصبيّة والأجانب وحاملي التصاريح المجانية. هجره في غير أسف، ويشعور أقرب إلى الكراهية والغثيان، بعد أن حفظ المسرحيات وطريقة الأداء عن ظهر قلب، وبات لا يلمح إعلاناً من إعلانات المسرح حتى يحول وجهه عنه في حق ونفاد صبر.

فأما المرتديات الأخرى التي تحول إليها المسكوفيون فهي أساساً مسارح

فاختانجوف، وتاجانك، وماياكوفسكي، وساتيري، ثم فوق كل شيء «المسرح المعاصر». غير أنه دخول الأجنبي هذا المسرح الأخير أصعب من دخول الغني الجنة.

في «المسرح المعاصر» مسرحيات تتعرض أساساً بالنقد للنقائص والمظالم وأوجه الفساد في المجتمع السوفييتي، (أو ما يرى الكاتب أنه من أوجه الفساد)، كالانتهازية عند بعض رجال الحزب وشباب الكومسومول وما يتمتعون به من امتيازات تخلق منهم طبقة جديدة، وكالرشوة والبيروقراطية، . . . إلى آخره. والسوفييت، حكومة وشعباً، لا يحبون عرض غسلهم القدر أمام أعين الغرباء، ويرون عرض الغرباء غسلهم القدر أمام أعينهم هم إما سذاجة وسوء تقدير إن صدر عن إحدى الدول المتخلفة، أو اعترافاً صريحاً لا مفر منه بظلم النظام الرأسمالي إن صدر عن إحدى الدول الغربية المتقدمة. أما عندهم، ففضح النقائص يتم في جلسات مغلقة، خشية السماتة والتشهير والإساءة إلى سمعة النظام واستغلال ذوي النوايا الخيثة من الأعداء المتربصين به. وكم من مرة حاولت عن طريق الفندق الذي أقيم به تدبير الحجز لي في ذلك المسرح فرفض طلبي بحجة نفاذ التذاكر.

فأما المسارح الأخرى فميدان التجارب الجديدة في التأليف والإخراج والتمثيل قد تعرض عدداً ضخماً من المسرحيات المترجمة (خاصة مسرحيات بربخت وآرثر ميلر وبرنارد شو وناظم حكمت وغيرهم من كتاب المسرح الأجانب الشيوعيين أو المتعاطفين مع الاشتراكية)؛ أو من المسرحيات الروسية الكلاسيكية، (الجرجويدوف وجوجول وأوستروفسكي وتورجنيف . . . إلخ). غير أن النزعة إلى التجديد، والرغبة الملحة فيه، واضحتان حتى في هذه المسرحيات المترجمة أو الكلاسيكية الروسية، والاهتمام باجتذاب الجمهور وإرضائه يغلب كل اعتبار آخر. وإدارات هذه المسارح واضحة الاعتزاز بإقبال الجمهور، عظيمة الثقة في إمكانها اللحاق بالمسارح في الغرب في تجاربها وتجديدها.

أفلم يكن مايرخولد وماياكوفسكي الروسيان من أهم رواد المدرسة الحديثة في الإخراج والتأليف المسرحيين في أوروبا بأسرها في السنوات الأولى التالية لثورة أكتوبر؟ فما بال البعض هنا وهناك يتحدث في قنوط عن تخلفهما وجمودهما، تخلف وجمود مرحليان مرتبطان بعهد ستالين؟ هل نسوا أن شاجال روسي وكذا سترافينسكي وأيسنشتين ودياجيليف ونيجينسكي وبلوك وباسترناك وعشرات غيرهم ممن فتحوا أبواباً في كافة الفنون بهت الغربيون أمام ما وراءها. فلنعوض إذن ما فاتنا من وقت، ولنصل بالمدرسة الروسية إلى قمم جديدة.

غير أن العجلة البيّنة هنا، وسذاجة الاتجاه، والاهتمام الصبباني بالشكل والتقيّد الراضي أو المجبر بالأيديولوجية الماركسية اللينينية حتى في ظل الأشكال الجديدة جعل المحاولة تبدو للنّاظر الأجنبي مضحكة متعثرة، كمحاولة مقيد بالأغلال الطيران في لهفة. قد استبدلوا إناء بإناء، والنيبذ واحد. والحزب في اجتماعاته واتحادات الكتاب في مؤتمراتها، والصحف الحكومية والحزبية في مقالاتها، لا تكاد تدعو إلى المزيد من الإبداع والتجديد حتى تعود إلى الإصرار على البطل الإيجابي، والقيم الشيوعية، ونقاد الأيديولوجيا. والجمهور مقدر للصعوبات الإدارية، مغض الطرف عما يدرك بذكائه أنه مفروض من الجهات العليا، مكمل في نفسه ما يشعر بأنه قد حذف من نص المؤلف، مبتهج بالجملة الجريئة قد أفلتت، مخمن مبارك للجملة الجريئة قد وقعت في شباك الرقيب. وشعور الأجنبي هنا وهو يرقب الجمهور في نشوته إزاء ما يراه جريئاً متحدياً، كشعور زير النساء وهو يرقب مراهقاً قد أسكره النصر والزهو إذ أفلح في أن يمسك أطراف أصابع يد محبوبته! جمهور ساذج غير أنه حبيب إلى النفس، نقى بيد أنه مفهوم. ومع ذلك فالإدارة والكتاب والمخرج لا يجدون في هذه الطيبة عزاء، ولا في هذا الذكاء سنبلاً. فالصراع يبدد طاقة كان يمكن أن توجّه إلى غرض أجلى. والنتائج دائماً هزيل وإن أشبع الجوعى.

إن معظم ما استحدثته برتولت بريخت قد أدخلوه في مسرحهم، ثم شكل

من هنا وشكل من هناك، قد اجتمعوا في تشويش دون هضم أو فهم، ودون مناسبة لموضوع.

الستار مرفوع قبل بدء التمثيل. والمسرح عار أو شبه عار من الديقور. والممثلون يذفون إلفه من الصالة وهم ففصافحون. والراوى ففءل ففءل ففءل وهوىءفن ففءلونه. والفوفة ففءل سفاق الأفءاء بالفناء أو الفعلق. فف فوال فف المناظر كما فف السفنا. . . فف فء ذلك وففره فف الموفوف ففءة لعوب ففر ففءرة بالففءولوففا، ففوف من مهندس شفوف ففل ففءل فف سرء عنء مءفنة إفركوسك. وإء ففرق فءا المهندس مءولاً إنقاء ففلن أو ففلاء من الففر، ففبنى الأرملة ففمه ومفله، وفأفء مكانه فف العمل عنء السء. . . أو: مهندس عءوز بورءوازف، فء أءركفه الفورة الفشففة فرففء الفعاون مع رءالها، وساء به الفال. فف فرفب له مءابفة مع لفنن، ففءاءفه أو ففءفه لفنن، فففرء من فءا الفوار السقراطف مققناً مؤمناً بضرورة الفعاون، فففسلء فاله، وففمفره السعاءة!

فء فسائل أنء عن فءوى الفءفء فف الشكل هنا. ففر أن الفمهور الروسف مهور بهذا الفءفء. فاله من إءراء! فاله من جرأة! فاله من فورة على الفءفم البالف! على البفروقراطف فف الفن! على السفالففة!

وهو أمر معفاء وإن لم فكن له ما ففره. . ففالباً ما ففءة إلف الففففر، والرغبة ففه، ففءهان ففلاً إلف الشكل، إما اسفسهالاً أو ففلالاً أو فففللاً. فء ففر الشاف بنفاق الفقالء السلوكفة البورءوازفة، أو بفقل وطأة ءولة العصر الفءفء، أو بالفمة على نظم مفعفة. فف إذا بنافء فورفه لا فكاء ففءف إرساله شعره، أو إءرابه فف ملبسه، أو إءمانه المءءراء. والمسرح السوفففف المعاصر شءفء الشبه بهذا الشاف: لا هو اسفءاف من مضمون فرفف، ولا هو فءم مضموناً روسياً فءفءاً. كل ما فمكن أن فكون فءفءاً هو مءى جرأة المؤلف على انفقاء أوضاع مءلفة صرفة، كسوء الفءمة فف المطاءم، وففءف

سائقي سيارات الأجرة في مدينة سوتشي، وهو أمر لا يهتم الفن في شيء.

الجمهور:

غير أن ما استمتعت بمراقبته حقاً هو جمهور المسرح السوفيتي لا المسرح نفسه. فإن كان المسرح هنا لا إله له، فجمهوره جاد ديني الحماس، ما عرفت جمهوراً مثله. يكفي أن تشاهده عند زيارة فرقة أجنبية له. الشيوخ والشباب ممن كان لهم حظ الحصول على تذاكر بعد وقفة في طوابير لا نهاية لها، يدخلون المسرح متأبطين نسخة من الأعمال الكاملة لمؤلف المسرحية باللغة الروسية، يستكملوا قراءة المناظر الأخيرة إن كانوا لم يتموها في الأمسية السابقة، أو يراجعون مع الممثلين بصوت خافت جملة أو مشهداً. وهم أثناء الاستراحة يجلسون على سلاسل الردهات، الطعام في يد، والكتاب في يد، يقضمون الفطيرة في نهم، ويستذكرون في نهم. والتصفيق دائماً حار، دائماً ودون استثناء، فكأنما لا يمكن إلا أن يعجبهم العرض. فإن انتهى التمثيل فتهليل وعدو إلى خشبة المسرح، يقذفون الممثلين الأجانب بالزهور، ويظل الستار يسدل ويرفع ويسدل ويرفع، حتى ما شاء الله.

غير أنني غالباً ما أجدني أتسهم إذ أقرأ في صحيفة لندنية مثلاً، عن الاستقبال الحار الذي استقبلت به فرقة بريطانية معينة، أو أن الستار رفع بعد النهاية سبع مرات أو عشر، ليلتقي الممثلون تحية الجمهور. فالعدد هنا لا يعني شيئاً. والحرارة لا تكاد تختلف سواء كانت المسرحية «عطيل» لشكسبير، أو «المصيد» لأجاتا كريستي، وسواء كانت الفرقة بريطانية أو برتغالية. هي دائماً متوفرة، وبالتالي لا دلالة فيها على نجاح أو إعجاب. ومن عاش في هذا البلد الغريب مدة طويلة مثلي لا شك أنه أدرك مدى إعجاب السوفييت بكل ما هو غربي تقريباً. فإن ترجمت تصفيق الروس لفرقة غربية في كلمات، جاءت الترجمة كالآتي:

«أنظروا أيها الممثلون الأجانب. ألا تروننا بشراً ومثقفين مثلكم، نعجب

بنكم وبكم إعجاب مواطنيكم إن لم يكن أكثر؟ هل يستقبلكم مواطنوكم بمثل هذه الحرارة؟ بمثل هذه الزهور في فصل الشتاء؟ هل يطلبون رؤيتكم وتحيتكم عند النهاية سبع مرات أو عشرًا؟ رجاءنا الحار أن تعيدوا النظر في أمرنا، أن تحترمونا، أن تعتبرونا أنداداً لمواطنيكم. . . .»

هو شعور بالنقص من ناحية. وكرم ضيافة. وطيبة قلب. وعلاوة على ذلك فإن المدينة والمنازل التي تنتظرهم خارج المسرح لا تستدعي عجلة. فالمدينة على اتساعها كثيبة. والمنازل ضيقة وكثيرة معاً. فليطيلوا مقامهم بالمسرح قدر الإمكان، واستمتعهم بالنظر إلى لورانس أوليفيه العظيم ينحني، أو أنا مانياني ترسل قبالتها لهم في الهواء، أو جون جيلجود تدمع عيناه لهذا التهليل. لا شيء غير الظلمة ينتظرهم في الخارج. لا مقاه ولا نواد ليلية ولا ما ألف الغربيون التردد عليه بعد المسرح. والروس يكرهون قضاء الأمسيات في مساكنهم، وهو ما يفسر إقبالهم حتى على الاجتماعات الحزبية والسياسية التي لن يسمعوها غير الخطب فيها.

غير أنه من ناحية أخرى حب للثقافة عميق أصيل. وكيف أنسى مروري ببوابة مسكني كل صباح ومساء فأجدها تقرأ لتشخوف وتورجينيف وبوشكين، أو حديث طباحتنا الروسية إليّ وزوجتي عن مسرحية «المفتش العام» لجوجول، وعن زيارتها مع ابنتها الطفلة لياسنايا بوليانا مقر تولستوي الريفي، أو جماعات الروس من مختلف الأعمار في أركان ردهات الكونسرفتوار، يستمعون قبل بدء الكونسير إلى محاضرات في الموسيقى، في جو يشبه جو حلقات الأثر منذ عهد غير بعيد؟ والمستوى الثقافي للمعروض يدعو دائماً إلى العجب والاحترام. فلا إسفاف ولا استغلال للجنس ولا فكاهة سطحية. غير أن هذا أيضاً لا يكشف شيئاً غير إرادة السلطات، ولا يعني أن هذا هو وحده، أو هو حتى من بين، ما يريده الجمهور. إذ من يلدرى ما عسى أن يكون الإقبال عليه لو قدمت هنا مسرحيات تافهة لسمرست موم مثلاً أو أندريه روسان؟ صحيح أن

البوابة تقرأ للدوستويفسكي وليرمونتوف، غير أنه هنا في الاتحاد السوفييتي إما أن تقرأ لهؤلاء الأفاضل أو أن تختار لنفسك هواية غير القراءة!

وهو أيضاً، كما ذكرت، طيبة قلب. طيبة قلب روسية محضة. والقولة الشهيرة للملكة فيكتوريا: «لم نجد في هذا تسلياً»، لا يمكن أن نتصور ما هو أبعد منها عن طبيعة هذا الجمهور. فكل ما يقدم جدير بالشكر، والتحية، والامتنان لما بذل من مجهود للترفيه. لا صغير. لا عبارات امتعاض. بل ولا تصفيق فاتر. إن كان الممثل جديداً أو صغير السن، قبول بتصفيق يدخل الثقة إلى قلبه. وإن زلت قدم الراقصة ووقعت كالحجر أثناء العرض، صفق الجمهور طويلاً لها حتى لا تحزن أو تبتئس، و صفق لها مرة أخرى عند دخولها لأداء رقصة جديدة حتى يرفع من روحها المعنوية. وإن انفجر كشاف كهربائي ودخلت شظاياه فقا قميص الممثل فانتفض مدعوراً في ألم، صفق الجمهور حتى يعيد إلى المسرحية النظام!

وينتهي العرض والتصفيق، ويتجه الجمهور أفواجا إلى حيث المعافئ والقبعات، فيتزاحم أفرادهم ويدفع بعضهم بعضاً في جنبه أو صدره في غير رفق، وينهر كل جاره في غير لين، ثم يخرجون إلى الطريق والبرد القارس، يبحثون عن سيارات الأجرة، تجيء الواحدة منها بعد ربع ساعة أو نصف ساعة من انصراف السابقة، فيحاول كل منهم، وقد نفذ صبره، أن يخرج من الطابور المنتظر، ويدعي الأولوية، فيحتج الباقيون عليه، ويطعنون في حقه سبق ويستثمونه... وتتساءل إذ ترقب كل هذا: أين ذهب رفاهة إحساسهم، وما جدوى أثر العمل الفني الذي كانت دموعهم منذ لحظات تنهمر له أنهاراً، ويشهقون بالبكاء للمحزن من مناظره.....!

أمسيات في مسرح البولشوي

رفض صديقي عوضين في بادئ الأمر، (وكنّا قد وصلنا إلى موسكو قبل أيام) قبول دعوتي له بقضاء أمسية في مسرح البولشوي. غير أنه عاد فقبل بعد إلحاح، على أساس أنه لا بأس في أن «ياخذ فكرة» عن هذا المسرح الذي سمع اسمه يتردد من قبل.

وانحنى على أذني يقول:

— لا أكتمك أني لا أفهم هذا الفن ولا أستسيغه. رأيته مرة على شاشة التليفزيون فأنامني وقد كنت يقطاً. غير أن بعض السيقان جميلة لا شك، وإن كان الصدر عند الغالبية كالبلاط. أقصى ما انتهيت إليه في باب الرقص رقص نجوى فؤاد، مع الإمام بتطوراته على يد سحر حمدي، أو قل، على ساقبها. أي ساقين! أي صدر! فلا تجزعن إن سمعت شخيراً أثناء العرض. يكفي ركلة خفيفة في ساقِي إن لاحظت امتعاضاً ممن حولنا. وقد أعدت من أنذر.

قلت له مطمئناً:

— ما عليك من بأس. فتولستوي نفسه كان شديد الكراهية للباله، عظيم الازدراء له، لا يراه فناً وإنما مجرد تمرينات رياضية لا تستأهل ما ينفق عليها من مال وجهد.

— حقاً؟ لقد كان رجلاً ممتازاً رحمة الله عليه. هل شاهدت له فيلم

«الإخوة كارمازوف»؟

وانتظرت أثناء العرض أن أسمع الشيخير فلم ينته إليّ . والتفت إلى صديقي فإذا هو وقد اتسعت عيناه دهشة وانبهاراً ، يدير رأسه شمالاً ويميناً يزدرد العرض ازدرداً ، وهو يتمم بين الحين والحين أن لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

وسألته في طريق عودتنا رأيه .

— ما كنت أتوقع أنني سأستسيغه بهذه السهولة ، وأفهمه بهذه السرعة .
واضح أن الفرقة التي شاهدها على شاشة التليفزيون لم تكن على مستوى عال . أرايت الديكور؟ والنافورات على خشبة المسرح تقذف بماء حقيقي؟ والجمع في البحيرة؟ والغابة ، وأوراق الشجر تهتز للنسيم؟ والأسماك الملونة تتطاير في البركة؟

— ويزميرتوفا؟

— أية بيزماروفا؟

— بيزميرتوفا، الراقصة الأولى .

— ساقاها لا بأس بهما . غير أن وجهها ، إن أردت الحق ، كوجه الخروف .

ثم أضاف مكرراً :

— غير أنني ، حقيقة ، ما كنت أتوقع أنني سأستسيغ فن الباليه بهذه السهولة .



هذا القول منه ، على سذاجته ، يحمل دلالة عميقة على الباليه السوفيتي ، ويكاد ينطبق بحرفيته بالنسبة لي فيما يتعلق بالأوبرا التي لم أكن في أي وقت من الأوقات مستسيغاً لها ، حتى شاهدها على المسرح الروسي فبهرتني . . . فخامتها .

فالخامة هي مفتاح المبتدئ إلى الفنون، كالكتاب المصوّر الجميل عند الطفل. وهي دليل الرجل الغبي إلى المسرحية والأوبرا والباليه، أو قل، هي خالقة الوهم لدى من لا يفهم أنه يفهم.

«أرأيت إلى النافورات على خشبة المسرح تقذف بماء حقيقي؟».

كل ما على الخشبة يهرك. فلو أنك صرفت النظر كلية عن رقص بيزميرتوفا، وعن الغناء كله في الأوبرا، لوجدت الباليه ممتعاً دون رقص، والأوبرا سائغة دون غناء، ولا حول ولا قوة إلا بالله. بل إنك حتى لو كنت من عشاق الباليه، أو عشاق الغناء، لتحول انتباهك مراراً عنهما رغماً عنك إلى الديكور والإخراج، خشية أن يفوتك أمر هنا أو أمر هناك. وكيف يمكنك أن تلتفت إلى غناء في أوبرا «الأمير إيجور». إذ ترى على المسرح عرضاً خلاباً لكسوف الشمس، والمنظر يغيب تدريجاً في ظلمة رهبة، أو إلى غناء في «بوريس جودونوف» إذ ترى قادة البويار يذلفون إلى منظر تتويج بوريس في قفازاتهم الفخمة المرصعة بالجواهر، يلقون بالقطع الذهبية كالقطر إلى جمهور الشعب؟

وفي الباليه؟ الراقصة ترقص على المسرح في حفل بأحد الميادين. فإن التفت يميناً إلى المقهى، رأيت رجلين بلعبان الشطرنج باهتمام بالغ غير عابئين بالرقص، هذا يبدي سعادته ويفرك كفيه إذ أوقع الآخر في ورطة، وزميله يحرك شفتيه ساخطاً ويحك أنفه مفكراً ويشير إلى صاحب الفندق أن يحضر المزيد من الجعة. وفي الخلف، صبيان متشردان في أسمال بالية جميلة، خفيفا الظل والحركة، يحاولان سرقة كيس نقود متفرج بدين مشغول بالرقص أمامه. وإلى اليسار، في حانون الحلاق، ترى الحلاق مشغولاً بذهن أحد الزبائن، يعلوها بالصابون، ثم يمسك بالموسى وينهمك في عمله حتى يصبح به الزبون (دون صوت) أن قد أصابه بجرح عند خده. وصبي الحلاق أثناء هذا يطرد ذهاباً وهمياً بمنشته، وقد ينتهز الفرصة ليشير إلى فتاة بالجمع أنه سيلحق بها بعد الفراغ من

عمله. . . . كل هذا وغيره، والراقصة الأولى المسكينة تؤدي رقصتها في دقة وانهماك وأمانة لا تختلف عن دقة صبي الحلاق وانهماكه وأمانته. . .



الكل إذن واجد متعته هنا. غير أنك قد تقرّ اعتراضي على مثل هذا الأسلوب، وهو ما بسطته لصديق لي يعمل بالسفارة المصرية في موسكو فاحتج عليّ بقوله:

— وما الضرر في أن يعجب بالعرض عاشق الرقص وغير عاشقه؟ هل الفن احتكار لفئة؟ ألا ترى أنه بهذه الطريقة يمكن استدراج غير المتذوقين للفن والناشئين حتى يصبحوا في يوم ما ذواقين حقيقيين له؟ إن شرد انتباههم اليوم إلى صبي الحلاق، فقد يتركز غداً في الراقصة. ثم ما الذي تعترض عليه بالضبط أيغظك أن يستمتع غير الذواق معك؟ أتخشى أن ترى نفسك أيها الأرستوقراطي في زمرة واحدة معه؟ إن شئت ألا تشغل نفسك بلاعبي الشطرنج، فماذا يمنعك من أن تلتفت كلية إلى الرقص؟

وكان ردّي كما يلي:

إن استدراج الناشئين وغير المتذوقين ينبغي أن يتم في أماكن خاصة أو في مسارح خاصة إن شئت. غير أن الفن الكامل ليس بالمسؤول تجاه هؤلاء، وإنما تجاه عشاقه ومريديه. أترأى تنصح إذن حين نقدم مسرحية «في انتظار جودو» مثلاً، أن نعرض في خلفية المسرح ألعاب حواء، أو تنويماً مغناطيسياً، كي ترضي جميع الأذواق، مبرراً هذا بالأمل في أن يتحول انتباه الجمهور بين الحين والحين إلى حوار صامويل بيكيت: فيرقي مستواهم تدريجياً؟

إن فرقة البولشوي، وهي أعظم فرقة باليه شهدتها العالم، ما كان لها أن تشغل نفسها بالأعمال الخيرية الفنية، إن كان الهدف من هذه الأريحية في

الإنفاق على الإخراج والديكور هو تحبيب الباليه إلى المبتدئين كما يدعي البعض . غير أنني أرى لهذه الأريحية أسباباً ثلاثة أخرى :

الأول : استمرار التزام الفن الروسي بالواقعية التي لا تترك مجالاً واسعاً لنشاط المخيلة ؛

والثاني : حب الجمهور الروسي لفخامة الديكور على المسرح من قبيل العوض النفسي عن فقر الواقع ، (وهو ما تلحظه من تصفيقهم الحاد كلما انفرج الستار عن منظر) ؛

والثالث : اعتزاز النظام بما بلغه الباليه السوفييتي من كمال ، واعتباره إياه إحدى الواجهات الرئيسية له أمام العالم الخارجي ، مما يبرر الإنفاق عليه في بذخ ، ويفسر القولة التي كثيراً ما يرددونها من أن الباليه ومثرو الأنفاق مثلان حيّان لمستقبل كافة مظاهر الحياة في الاتحاد السوفييتي حين يتحقق بناء الشيوعية .

غير أنني لم أصل بعد إلى جوهر الأمر . ما أردت قوله هو أن الديكور وحيل الإخراج لا ينبغي الإفراط في الاستعانة بهما ما لم يكن القصد تغطية نقص ، أو إكمال قصور . . . ففي لندن مثلاً ، أو في نيويورك ، لاحظت أن المسرح يعتمد عليها في اجتذاب الجمهور إلى المسرحيات الضعيفة أو غير القريبة من قلوب المشاهدين من مسرحيات شكسبير مما لا يمكن أن تجتذب جمهوراً كبيراً ، فيختار لمسرحيته «ترويلوس وكريزيدا» مثلاً ديكوراً مفرط الغرابة ، وملابس نهاية القرن التاسع عشر لأبطال هوميروس ، فإذا بيوليسيس يخطر على المسرح في بزة قائد الأسطول الألماني في زمن بسمارك ، بينما تجلس هيلين الجميلة إلى البيانو في فستان سهرة ولقافة تبغ بين شفتيها .

فهنا ينطبق المثل الإنجليزي المعروف : «لولا لم يكن الدواء مرّاً لما احتاج إلى برشامة» .

فإن انتقلت إلى فرقة البولشوي، تساءلت من فورك عن حاجة هذا الجمال كله إلى وسائل التجميل، وتبادر إلى ذهنك قول بايرون في «دون جوان»: «إنه لمن السخافة حقاً تغطية الذهب بقشرة ذهبية، أو طلاء الزنقة بالألوان». فإن كان صدقاً أن النفاق يحب الملابس، والحق يحب أن يمشي عريان، لعجبت إذ تجد الحق هنا في المسرح السوفييتي، (كأفراد الشعب الروسي في شهر يناير)، لا تكاد ترى منه غير طرف أنفه من كثرة الثياب.

أنا لا أنكر على الفن السوفييتي حقه في التميز والانفراد. (ومتى كان فن شعب ذا قيمة إن كان خلواً من التميز والانفراد؟). غير أنني أنكر عليه إغفاله إلى حد كبير الاستفادة مما يجري خارج حدود أرضه. والاتجاه في الفنون خارج الحدود السوفييتية الآن، حتى في بولندا وتشيكوسلوفاكيا، هو إلى البساطة والتجريد، وإلى المزيد من البساطة والتجريد، حتى يزيد تركيز الانتباه في العناصر الأساسية من العرض، وإلى اعتبار الديكور والملابس وحيل الإخراج عوامل مساعدة تخدم العناصر الأساسية وتبرزها، ولا يجوز لها أن تجذب الاهتمام إليها في حد ذاتها على حساب تلك العناصر التي تدخل وحدها في تعريفات الفنون المختلفة.

يكفي أن تقارن بين فيلمي «هاملت» السوفييتي والبريطاني، و«لير» بول سكوفيلد على المسرح البريطاني و«لير» السوفييتي، وبين فرقة البولشوي وفرقة مارثا جرام للرقص، لتدرك ما أعني.



غير أنني أعود فأورد هنا تحفظين:

الأول: أن الأمر، كما قلت، له جذور نفسية، وأن حاجة الجمهور الروسي إلى الفخامة على المسرح واضحة ملموسة، لا صلة لها بالنظريات الفنية، وإنما بالذوق وبظروف المجتمع. ومن السهل أن يردّ على حديثي كله بالمثل القائل: «إن الأذواق ليست محل مناقشة».

والثاني: أن الأعوام الأخيرة قد بدأت تشهد بالفعل تطوراً مباركاً واتجهاً إلى البساطة، هما قويان واضحيان في المسرحية، مترددان شاحبان في الباليه، ولا أثر لهما في الأوبرا. فأما فيما يتعلق بالباليه، فيكاد يكون في مقدورنا أن نقول إن عام ١٩٦٣ كان عاماً تاريخياً شهد إلقاء بذور عهد جديد للباليه السوفييتي. فقد وصلت فيه إلى موسكو، طبقاً لاتفاقية ثقافية بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، فرقة روبرت جيفري الشهيرة للباليه الأمريكي، وقدمت في مسرح أوبارتي أربعة برامج مختلفة كانت بمثابة قبلة صعد لها القوم.

كنت وقتها أعمل بالسفارة المصرية في موسكو، وحضرت العروض الأربعة. بدت حيرة الجمهور جلية بعد دقائق قليلة من بدء الرقص. والتفت إلى جيراني من حولي فإذا هم يتلفتون إلى بعضهم البعض في تساؤل وصمت وقد ارتفعت حواجبهم دهشة، وهم يهزون أكتافهم علامة العجز عن فهم ما يجري هنا. كانوا كمن جاء لسماع سيمفونية لموتسارت فإذا به يواجه فرقة البيتلز! . . . أيسمي الأمريكيون هذا الشيء بالباليه؟ لا مناظر؟ ماذا؟ لا مناظر ولا ديكور على الإطلاق؟ بل أحياناً مجرد رقص دون موسيقى؟ ثم ما هذه الملابس، وهذه الخطوات الغريبة التي ما عرفها أحد منا وما أنزل الله بها من سلطان؟ أهذا ما ألفناه من الكوريوجرافيا؟ وأين القصة؟ وما كل هذا الإغراب في المعاني والرموز؟ وهذا الجو الشاذ؟ أين مضحك الملك وأين السحرة والجنيات والغابات المسحورة والحسنات النائمات؟ أيسخر بنا هؤلاء الرأسماليون؟ يقدمون مثل هذا الشيء في عاصمة الباليه؟

وأنا رت الأضواء في الاستراحة الوجوه، فإذا القوم على رؤوسهم الطير، لم يتحركوا ولم يبادروا مسرعين كعادتهم إلى البوفيه. ونظرت إلى الصفوف الأولى حيث جلس عدد من نجوم الباليه السوفييتي: بليستسكايا، كوندراتيفا، مكسيموفا، ستروتشكوفا، ليبيا، فاميليف، فرأيتهم يدخلون مع جيرانهم في نقاش عنيف حاد، هذا يلوح بيديه في حرقة وقد احمر وجهه، وهذه تدير سبابتها

عند رأسها إشارة إلى الخبل، وهذه تمدّ شفتها السفلى وترفع كتفها في قنوط. والكل واجم قد أدرك ما يواجهه هنا من تحدّ واستفزاز، وهو أحد هذه التحديّات التي لا مفرّ إزاءها من إعادة النظر في الماضي كله، وفي القيم بأسرها. وإذا لمحت كوندراتيشا بعد حين تترك مقعدها إلى المقصف، فقد تبعتها إليه، وتعلّلت بطلب إمضاءها لأخطابها، ثم سألتها عن رأيها في مارات:

— لعلك توافقي على أن الأمر ليس من السهولة بحيث أدلي برأيي في الحال. كل ما يمكنني أن أقوله لك الآن هو أنني في حالة من الذهول التام.



غير أن ذهول القوم لم يطل. فما مضت سبعة أشهر أو أقل حتى بدأت أميز نعمة جديدة في الباليه السوفييتي. بيد أن هذه النعمة، كما توقعت، وكما هو مألوف هنا، اتخذت سمّاً روسياً خالصاً.

هم قد أقروا الحاجة إلى التجديد، وأقروا رغبة عشاق الفن في المزيد. غير أن الجديد لا يقدّم في الاتحاد السوفييتي باعتباره جديداً، خاصة إن كانت ثمة شبهة في أنه مقتبس من الغرب. وعندهم أن كل ما قد يبدو للساذج جديداً، له أصول روسية قديمة، فكأنما التراث الروسي قرآن قد حوى كل شيء. فإن أشرت إلى افتقار المسرح السوفييتي إلى اتجاه معين، أجابوا بأن ذلك إنما يرجع إلى إهمال أو خطأ، أو أنه متصل بظروف عهد ستالين التي قمعت هذا الاتجاه الروسي الصميم بعد ازدهار... هو الأثر الحي للعقيدة الروسية القديمة أن «موسكو هي روما الثالثة، ولن تكون هناك رابعة»، وأن بلادهم حاملة لواء الدين الصحيح في العالم كله. فإن شاؤوا إذن تدشين أساليب جديدة في الباليه مثلاً، لجأوا إلى إحياء تراث سترافينسكي ودياجيليف الروسين، بعد أكثر من نصف قرن على عرض باليهاتهما في الغرب. وقد بدأوا في أوائل الستينات يعرضون للمرة الأولى عدداً من الباليهات التي كتب سترافينسكي موسيقاها، مثل «الطائر الناري» (لحنه سنة ١٩١٠)، و«بتروشكا»

(١٩١١)، ثم فوق كل شيء، وللغربة الشديدة، باليه «طقوس الريح» الذي أثارت جرأته عند عرضه سنة ١٩١٣ ضجة وفضيحة في باريس نفسها، وانقسم الجمهور الفرنسي إزاءه ليلة الافتتاح إلى فريقين متعاركين بالأيدي واللكمات.

فتدشين الاتجاهات الحديثة هنا ينبغي أن يبدأ بإبراز الأصل الروسي لها، كبذلك باسم الله الرحمن الرحيم قبل تلاوة السورة. ثم افعل بعد ذلك ما أحببت. . . في حدود القانون. وقد تلت الاهتمام بسترافينسكي خطوات ذات شأن، وبالیهات (معظمها من فصل واحد) فيها جرأة وتجديد، خاصة تلك التي لا تقوم على قصة، وإنما على جو مستوحى من موسيقى كبار موسيقيي القرن الماضي. فإن كانت المحاولة لا تزال باهتة وعلى هامش الباليهات الكلاسيكية الجلييلة، فقد تركت أثرها العميق في الذوق الفني الروسي، وخلفت بذرة لا شك عندي في أنه من المقدر لها أن تنبت.

همست قائلاً لزوجتي:

— أنا رهن إشارتك متى شئت الانصراف.

ثم أغمضت عيني.

وأنا صوت الممثل من فوق خشبة المسرح يخاطب الجمهور:

... غير أنني، للأسف الشديد - أيها الرفاق السوفييت - أعيش في

دولة تهيمن على شؤونها عصابة من الفاشيست. . فكرت طويلاً: هل من

الخير، هل من العدل أن أسلم اختراعي لحكومة فاشية؟ أسلمه إليها عالماً أنها

لن تستخدمه إلا لضرب الطبقة الكادحة؟ هه؟ ما رأيكم؟

صاح الجمهور:

— لا لا!

— وهذا هو رأيي أنا أيضاً. . ولكن، ما العمل إذن؟ قلت لنفسي: ربما

كان الأنسب أن أرسل اختراعي إليكم، إلى الاتحاد السوفييتي، فمن الاتحاد

السوفييتي وحده يمكن استخدام اختراعي لصالح عمال العالم كله. أليس

كذلك يا رفاق؟

— هو ذاك! هو ذاك! هكذا صاح الجمهور رداً عليه.

قالت زوجتي:

— هلم بنا!

ايزفينيتي . عن إذنك . . بروستيتي لا مؤاخذه!، بينما شعرت بأنظار
الجالسين في الصف ترمقنا في دهشة أثناء انسحابنا في الظلام.

وسألتنا العاملة في مكان حفظ المعاطف مبتسمة :

— لم تعجبكما المسرحية؟

— لا .

قالت كالمستهزئة :

— عندكما في بلدكما ما هو خير منها؟

عند الباب الرئيسي للمسرح وقفت امرأة روسية في الخمسين تسند رأسها
الملفح بشال قديم رث إلى عمود، مغمضة العينين : تردد بصوت لا تزال نبراته
إلى اليوم ترن في أذني :

— كاك يا أوستالا! كاك يا خاتيشو سبات! «كم أنا متعبة! كم أريد أن
أنام!»، ثم فتحت عينيها الحمراءين كالدم ترمقنا في توسل .
الكينا الحديدية :

كان لا يزال لدينا نحو ساعة قبل أن يحين موعد لقائنا بصديقنا الناقد
المسرحي شيبورين فيما يسمى هنا في موسكو بمقهى الفنانين . اتجهنا سائرين
الهوري في شارع أرباط صوب قمته حيث بدا لنا التمثال البرونزي المهيّب
لجوجول، منتصب القامة، يتطلع إلى المستقبل في أمل، ويشع منه التفاؤل
والاطمئنان . هذا التمثال لم يكن دائماً منتصب القامة، ولا كان دائماً يشع
التفاؤل والاطمئنان . كان فيما مضى جالساً على كرسي ضخم، غارقاً في أفكار
سوداوية وقد غارت ذقنه في صدره، وبدا صاحبه الذي انتابه في آخر سني حياته
من الكآبة ما أشرف به على الجنون، مقهوراً محزوناً . وقد قال تمثال هذا
الكاتب الغد المريض جالساً حتى أنهضته السلطات السوفيتية، واستبدلت
بالكرسي عصا رشيفة، وجاء التمثال الجديد يفيض صحة وقوة وتفاؤلاً، فكأنما
هو إعلان ناطق عن الكينا الحديدية!

ومضينا في سيرنا حتى شارع جوركي، حتى إذا بلغنا ميدان ماياكوفسكي، طالعنا اعلان آخر عن اللبن المبستر في صورة تمثال بالغ الضخامة للشاعر فلاديمير ماياكوفسكي الذي انتحر عام ١٩٣٠ نتيجة حال من القنوط إزاء الاتجاهات الستالينية التي بدأت وقتذاك تكشف القناع عن وجهها الحقيقي. وقد أغفل نعي الإذاعة والصحف السوفييتية لشاعر الثورة أنه قد انتحر، واكتفى بالقول أنه مات عن سبعة وثلاثين عاماً. ومن يشاهد تمثاله في قلب العاصمة لا يمكن أن تخطر بباله أن مثل هذا الشاب القوي المتحمس قد تمر برأسه البرونزي فكرة سوداء.

التفاؤل هنا ليس قانون اليوم فحسب، وإنما هو قانون ذو أثر رجعي . . .
تفاؤل إجباري ذو أثر رجعي .

البطل الايجابي:

القت الخادمة بالزجاجات والأكواب على مائدتنا بالمقهى وعلى وجهها علائم الضيق والتأفف شأن سائر الندل هنا. وعندما سألها الناقد شيورين عن سبب تأخرها في إحضار الطلب، أجابت في قحة وهي تنصرف:

— يمكنك التقدم بشكوى إلى إدارة المقهى إن شئت:

قالت له زوجتي ضاحكة:

— مسكين من يعتمد على مسرحياتكم ورواياتكم وأفلامكم في تقييمه للحياة السوفييتية. لماذا لا يظهرون مثل هذه الخادمة على خشبة المسرح؟ أراهنك أن جمهوركم سيكون ممتناً للغاية إن فعلوا.

قال شيورين:

— بدأنا نفعل ذلك يا سيدتي. . . قد بدأنا بالفعل. . . بل أن هناك فيلماً يجري تصويره الآن عن مشكلة الخدمة في المطاعم بالذات. هل شاهدت «قصة من إيركوتسك» الأربوزوف؟

أجابت زوجتي :

— نعم . مسيئة .

— بسبب بطلها الإيجابي ؟

— بسبب بطلها الإيجابي .

سألتُ في حرقة :

— خبرني . . ما هو بالضبط هذا البطل الإيجابي الذي تصر مؤتمرات الحزب واتحادات الكتاب والفنانين على التوصية بإبرازه في الفنون السوفييتية ؟

قال وكأنما يسمّع درساً :

— هو من وجهة نظر الحزب والدولة : ذلك المواطن الصالح الذي يكرس حياته في حماس وإخلاص لبناء الشيوعية ، يقبل قرارات الحزب والحكومة وينفذها ، يمتنع عن القيام بأي نشاط معاد للمجتمع ، لا يمارس شعائر الدين ولا يقبل مضمونه ، يُنظر إلى لجنة أمن الدولة باعتبارها منظمة عطوف ترعى مصالح الأمة ، يحضر المناقشات والمحاضرات بصفة منتظمة كي يوسع معلوماته عن الشؤون السوفييتية والمشكلات الدولية ، ويصوت في حماس في جانب المرشح الأوحّد في دائرته الانتخابية ، مع إيمانه بأن هذا الأسلوب هو خير الأساليب الديمقراطية .

— باختصار ، شخصية وهمية .

— قل نادرة .

— ولكن ، ألا ترى ما يمكن أن يؤدي إليه التركيز على هذه الصورة من إرهاب النفوس المواطنين الذين سيجدون أنفسهم يوماً يخرقون هذا القانون غير المكتوب ؟ ألا ترون الخطر من جراء ذلك الازدواج في حياة المواطن السوفييتي ، وعواقب الاستخفاف والاستهتار اللذين سينجمان حتماً عن شعوره بالذنب وإدراكه التناقض بين حياته الداخلية العميقة الحقيقية وبين الواجهة الخارجية التي يتحلها في علاقاته الاجتماعية ؟

صاح شيورين :

— والذين؟ ما رأيك؟ والمثل العليا أياً كانت؟ ألا تؤدي إلى نفس النتائج؟
— قل ما شئت، غير أنني قد طفت بأكثر من نصف بلاد العالم، فلم أجد
من أهو أقرب إلى شخصية دكتور جيكل - مستر هايد من المواطن السوفييتي
العادي .

صمت شيورين مدة طويلة يفكر . أشعل سيجارة وشرب كأس الفودكا
دفعه واحدة، ثم بدأ يقول :

— أريد أن أنبهك إلى أمر لا أعتقد أنك قد تنبهت إليه من قبل .

— فاشرح إذن .

— مع مقدمة سياسية لا بد منها؟

— كلي آذان .

الدفاع :

قال شيورين :

في ظل نظام كالنظام السوفييتي، تنشأ الحاجة إلى تعبئة طاقات المجتمع
وتوجيهها وجهة الأهداف التي رسمها الحزب . هذه الحاجة تتطلب خلق جماعة
من الصفوة تعنى بتنمية الأيديولوجيا وتطبيقها وفق الظروف والاحتياجات
المتغيرة، واتخاذ القرارات المتعلقة بالمجتمع والاقتصاد .

— جميل .

— وهنا يجب افتراض أن هذه الصفوة، أو قل الحزب، يمكنها الوصول
إلى القرارات المطلوبة على ضوء الشهادات والبيانات والمعلومات المتوفرة،
وتأتي هذه القرارات محققة للصالح العام والوفاء الاجتماعي . وحيث أنك لن
تجد في النظام السوفييتي تمييزاً بين الصالح العام وبين صالح الفرد أو
الجماعات، قد اختلفت منه تماماً كافة مظاهر الصراع الطبقي، فليست لدينا

تلك الحاجة الملحوسة في الدول الغربية إلى تعدد الأحزاب في سبيل ضمان القدرة على المساومة وتحقيق التوازن بين المصالح.

إن تضارب المصالح من السمات اللصيقة بالمجتمع الرأسمالي . ولهذا سنجد فيه دوماً تلك الأحزاب التي تمثل أصحاب العمل والعمال والمزارعين وغيرهم . سنجد المحامي ووكيل النيابة . أما هنا ففقاوض عادل فرد، يفحص شهادة أناس هادئين غير متحيزين لا يهمهم غير تحقيق العدالة ، ثم يصدر الحكم بما هو خير للجميع .

والمسرح عندنا في الاتحاد السوفيتي تطبيق لهذا المبدأ، كما أن المسرح في الدول الرأسمالية تطبيق لمبدأ تعدد الأحزاب . ففي مسرحهم - أعني في خير حالاته بطبيعة الحال - يتخذ الوضع السليم أو الوضع الأمثل نتيجة لتصارع قوى متطرفة، جلها على خطأ، وقلما تعثر في طيات العمل الفني عندهم على أية إشارة إلى ما يراه صاحبه حقاً، إلى ذلك الوسط العدل، قل مثلاً بين دون كيخوته وسانتشو بانشا . فإن تضمن العمل مثل هذه الإشارة ، وصفه نقادهم بالسذاجة والفجاجة .

أما عندنا، فإن الوضع الأمثل معروف، والأهداف القريبة والبعيدة واضحة وضوح الشمس . فلم التسكع؟ ولم التظاهر بالحيرة، والانتجار بالضياع؟ . لهذا فإنه عندما كتب مؤخراً شاعرنا روبرت روجد يستفينسكي قصيدة يتساءل فيها لماذا يعيش ويقول أن هذا هو السؤال الصحيح الوحيد، ردّ عليه أحد العمال في صحيفة الايزشتيا مويخاً بأن الجميع في بلادنا يعملون جيداً لماذا يعيشون: من أجل بناء الشيوعية . .

خبرني إذن؛ كيف يمكن لأي كاتب مسرحي يدرك إدراك اليقين حقيقة كل شيء، أن يتجنب تصوير البطل الإيجابي في مسرحياته؟
ثم أنظر بعد ذلك إلى الآثار الوخيمة لتمثيل الشر على خشبة المسرح .

أتعلم أنه في مسارح كوريا الشمالية لا يسمح بأن تظهر على خشبتها شخصيات شريرة (كالأمريكيين واليابانيين مثلاً)، ويكتفى بالإشارة إليهم في الحديث، ويعرض ما يمثل جثثهم بعد انتصار الكوريين عليهم؟ لم أتعلم أنه في الصين - على ما سمعت - لا يصفق الجمهور للممثل القائم بدور شخصية شريرة مهما كانت إجادة الممثل وإتقانه لدوره؟ فإن شئت ألا تأخذ برأي شيوعي، فاسمع ما يقوله أفلاطون في جمهوريته.

يقول أفلاطون:

لأنه من الواجب أن يقتصر الشعراء على تصوير الطيب الجميل وحده في أعمالهم. فإن صوروا غيره طردناهم من دولتنا. كذلك غيرهم من الفنانين: علينا أن نحظر عليهم عرض صور للرذيلة والدناء والفجور، فإن فعلوا منعناهم من ممارسة فنهم. فهم يفسدون أذواق المواطنين وأخلاقهم بسردهم حجج الأشرار ومبرراتهم لأعمالهم، خاصة متى التزم الفنان الحياد والانصاف، كما فعل هوميروس في إلياذته، أو أبرز بعض النواحي الجذابة من شخصية الشرير. ذاك رأيي، فهات ما عندك. ولكن لنشرب أولاً كأساً أخرى. . قل، في صحة أفلاطون.

قلت: في العالم السفلي بإذن واحد واحد!

وشربنا نخب أفلاطون.

— ابدأ في الرد إذن؟

— تفضل.

— مع مقدمة سياسية لا بد منها؟

— كلي آذان.

الهجوم:

قلت:

ليس صحيحاً ما ذهبت إليه من أن النظام عندكم في الاتحاد السوفيتي قد

استأصل كافة أوجه التضارب في المصالح . فالمعروف أنه منذ بداية النظام الشيوعي كانت ثمة صدامات عنيفة خطيرة بين مصالح طوائف معينة، خاصة بين المدينة والريف . . ولا يمكن أن نصف الصراع السياسي بأنه أهون شأنًا، أو أقل حدة وخطرًا، لمجرد أنه يدور وراء أبواب مغلقة . صحيح أنه ليست لدينا في الأونة الراهنة معلومة دقيقة وافية عن الخلافات القائمة، ولكن الواضح أن تعقد الاقتصاد السوفييتي واحتياجات المجتمع يزيد بالضرورة من أوجه الخلاف والتوتر، كالخلاف بين جانب من الانتيليجنتزيا والحزب، والخلاف حول مشكلة الأولوية في الاستثمارات في مختلف قطاعات الصناعة، خاصة بصدد السلع الاستهلاكية والسلع الإنتاجية . فإن كانت قرارات الحزب تتخذ في اجتماعات خاصة، فهل هناك ما يضمن أنه ليست لدى أعضاء الحزب من المصالح الخاصة ما يمكن تخيل سعيهم من أجل تحقيقها على حساب مصالح أخرى؟ ومن ثم يصبح التطهير هو وسيلة العلاج الوحيد في النظام السوفييتي إزاء عدم توفر المناقشات العامة والوسائل المستساغة للاختيار الشعبي؟

الصراع إذن قائم، والمتناقضات - وإن اختلفت عن متناقضات الماضي - متوفرة . ولن يستطيع كاتب ككاتيكم المسرحي نيكولاي فيرتا «الفائز بجائزة الأدب» أن يقنعني بما يسمى بنظرية انعدام الصراع وقوله إنه حيث أن الشخصيات السلبية في المجتمع السوفييتي قد بدأت تتلاشى، فإن الصراع الوحيد الممكن تمثيله على المسرح الآن هو الصراع بين الحسن والأحسن . . ما هذا؟! دعاية يقصد بها الخارج؟ وماذا عما يملأ جرائدكم ومجلاتكم اليوم من الشكوى من الرشوة، والاختلاس، والبيروقراطية، والسوق السوداء، ومشاعر الاستهتار والاستخفاف لدى الشباب، وعدم احترام الجيل الجديد للجيل القديم؟

ماذا يسمى غيرنا هذا: الحسن أم الأحسن؟!

صدقتي: الدعاية إنما تهزم نفسها في النهاية . فالجمهور يغضب ويشور

حالما يكتشف الحقيقة. ويقيني أن الوقت سيحين حين يقذف جمهوركم الأبطال الإيجابيين على مسرحكم بالطماطم والبيض، هؤلاء الأبطال الذين لا تصادفهم في الحياة اليومية السوفيتية قط، الذين هم نماذج للفضيلة زاهية الألوان، يخبرون الحب كما لا يخبره أحد، وينظمون عواطفهم على ضوء توجيهات الحزب والكومسومول، ولا يشربون الخمر إلا قبيل إسدال الستار، في الأعراس أو في الاحتفالات ببناء سد أو إنشاء مصنع للمخصبات الكيميائية، كما في مسرحيات سوفرونوف.

المجال الوحيد للأبطال الإيجابيين في رأيي هو الحياة لا المسرح ولا غيره من الفنون. . . والنتيجة الحتمية لمثل هذه المسرحيات التي تصورهم، إما أن يرى الجمهور كذبها وزيفها فيعمق احتقاره لمؤلفيها ومباركيها، أو أن يصدقها فيزداد شعور الفرد منه بضالة شأنه، ومدى خروجه على القانون وبعده عن الطريق السوي. فهو يعلم أنه يشرب الخمر في مناسبات غير إتمام بناء مصنع المخصبات الكيميائية، وأنه أحياناً يشتهي ناتاشا اشتهاً لا يقره مؤتمر الحزب. . . وتكون النتيجة أنه يمعن في الشراب، وربما يغتصب ناتاشا اغتصاباً. . . بسبب البطل الإيجابي. . .

الغتام:

لم تلبث أضواء المقهى في الداخل إن أطفئت ثم أعيدت إضاءتها إيذاناً بحلول وقت إغلاقه. وطاف الندل بالموائد لقبض الحساب. وإذ لبس الرواد معافطهم وخرجوا إلى الطريق ووقفت زوجتي نصافح شيبورين أمام المقهى، إذا بصوت يصرخ من الجانب الآخر للطريق.

— أيها السادة الصحفيون! أيها السادة الفنانون! استمعوا إلي. . . أرجوكم! استمعوا إلي. . . أيها السادة دقيقتان فحسب!

كان رجلاً مخموراً في نحو الأربعين، بديناً قصيراً أصلع الرأس.
— أنا مهندس في مصنع «س» للمنسوجات الصوفية. توصلت إلى

اختراع من شأنه خفض نفقات الإنتاج في المصنع . عرضته على المدير فقال إنه سيقضي تعديلاً في الآلات، وإن هذا التعديل سيستغرق زمناً يتباطأ خلاله الإنتاج، ويعجزه عن تحقيق متطلبات الخطة، ويعرضه للمسؤولية والمؤاخذه . . تخطيته وبعث باختراعي وبشكواي إلى الجهات العليا . . .
والنتيجة أيها السادة؟ والنتيجة؟ النتيجة أن مدير المصنع . . .

والتفتنا، فإذا برجلين يقتربان منه وهما يتعثران تعثر السكارى في سيرهما، وإن كانت بخطواتهما سرعة غير مألوفة من السكارى . وإذا بلغا مكان المهندس وضع كل منهما ذراعاً حول كتفه وجراه معهما وهما يغنيان أغنية . غير أنه بعد أن سار معهما عدة خطوات، أحنى جسمه فجأة إلى الأمام وعاد يجري لاهثاً باتجاه ميدان قريب مزدحم بالمساة . هنا تخلص الرجلان عن تظاهريهما بالسكر، وأقفلا يعدوان وراءه حتى اختفى قلالتهما وسط الزحام .

ومكثنا برهة صامتتين . . ثم عدت إلى مصافحة شيبورين مودعاً .

عن حرية الفكر

بقلم: حسين أحمد أمين

حين نتحدث عن حرية الفكر، فإنما نعني حرية التعبير عن الفكر. فالفكر حرٌّ في ظل الأنظمة الديمقراطية والاستبدادية على سواء؛ بمعنى أنه ليس بوسع أحد أن يمنع أحداً من أن يفكر كما يهوى. . . غير أنه مضطر - في ظل الاستبداد - إلى إخفاء أفكاره متى كانت هذه الأفكار غير مرضي عنها.

غير أنه حتى حرية التفكير هذه ليست بدون حدود:

فهي محدودة أولاً بحدود تجارب الفرد وثقافته، وطبيعة تكوينه وشخصيته، وحدود قوة مخيلته وقرينته، وما أخذه عن أسلافه وبيئته.

وهي محدودة أيضاً متى اضطر لسبب ما، كالضعف أو الكسل العقلي، أو قوة التقاليد، أو النشأة الأولى والتعليم الذي تلقاه، إلى تبني آراء الآخرين، حتى لو خال أنها آراؤه، وأنه اقتنع بها أو توصل إليها بحُرِّ إرادته.

بل إن معظم المعارف والمعتقدات لدى معظم الناس هي من هذا النوع الثاني: معارف ومعتقدات قد أخذوها دون تمحيص عن آبائهم ومدرسيهم، ومعارفهم وأصدقائهم وأزواجهم، وعن الكتب والصحف التي يقرأونها. . . ولو أنك سألت امرأً عن سبب اعتقاده شيئاً ما، لربما أجابك بقوله: «قد ذكره فلانٌ وهو حجة»، أو «هو وارد في كتاب كذا»، أو «إنه أمر معروف لدى الكافة»، أو «ذاك ما تعلمته في المدرسة». . . وكلها إجابات تعني أن صاحبها قبل الرأي

أو المعلومة من آخرين، عن ثقة منه في حكمتهم أو في صدق معلوماتهم، دون أن يفكر في الأمر بنفسه ولنفسه، ودون أن يقلّب فكره فيما سمع أو قرأ.

غير أنه من الواجب أيضاً أن نعترف بأن معارف المرء كانت ستضحي محدودة للغاية، لولا ضرورة تقبله للكثير منها - كالمعارف الجغرافية والفلكية والتاريخية واللغوية وغيرها - من المصادر الموثوق فيها، دون التصدي لاختبار صحتها بنفسه. إذ من ذا الذي يوسعه أن يحقق بنفسه من صحة واقعة عبور هانيبال لجبال الألب، أو من أن قطر الشمس يبلغ ٨٦٥٤٠٠ ميل، أو يكلف نفسه عناء السفر إلى تسمانيا للتأكد من وقوعها جنوب شرق القارة الأسترالية؟

الرأي والمعرفة :

بيد أن هذا القبول منّا لما يقوله الآخرون، يستوجب شرطاً أساسياً: هو ألا نقبل من المصادر أمراً هو غير قابل للإثبات وللتحقق منه. فالطالب على ثقة من أنه لو طلب إلى أستاذه أن يبرهن له عملياً على أن الحديد يتمدد بالحرارة، أو أن الماء مكوّن من عنصرين هما الأكسجين والهيدروجين، لأجرى الأستاذ أمام بصره من التجارب ما هو كفيلاً بإقناعه. ولو أنني شككت في أن فرنسا تقع في الشمال الغربي من مصر، لكان بوسعي أن أقنع إليها في طائرة أو سفينة توضّح لي بوضاحتها اتجاهي وأنا في طريقي إليها. هذا علاوة على أن مثل هذه المعلومات هي عادةً مما لا تخفي وراءها مصالح وأغراض تدفع القائلين بها إلى الكذب.

وهنا نرى الأهمية القصوى للتمييز بين المعرفة والرأي. فالمعرفة قد تكون في وقت من الأوقات غائبة (كجهل البشر في الماضي بقابلية الذرة للانشطار)، أو قاصرة (كجهلنا اليوم بسبل علاج السرطان أو الإيدز)، أو حتى خاطئة (كظن الأوائل أن الشمس هي التي تدور حول الأرض). غير أنها دائماً في سبيل التطور والتقدم والتصحيح حتى تغدو ثابتة مثبتة لا يختلف حولها اثنان. أما الرأي فغالباً ما يتأرجح بين الصحة والفساد، والتصديق والتكذيب،

وكثيراً ما يكون غير قابل لأن يجتمع عليه الناس، وعرضة لأن تتحكم فيه الأهواء والمصالح، وأن يكون موضع الجدل والنزاع، والخصومة والقمع، والإرهاب والقتال.

صحيح أن الجدل والنزاع والإرهاب قد ثار أحياناً، في الماضي، حول بعض المعارف العلمية (كما في حالة نظرية جاليليو). غير أنه ليس أمراً نادراً الحدوث في التاريخ فحسب، بل والأرجح أن يكون قد انقضى اليوم إلى غير رجعة، بحيث بات الخلاف والخصومة الآن قاصرين على الآراء دون المعارف.

والعلوم والمعارف القطعية ليست في حاجة إلى شتى حملات صليبية لإبادة غير المصدقين للنتائج التي توصلت إليها. بل هي على استعداد كامل لتعديل هذه النتائج متى نجم عن تطور سبل البحث والترجمة ما يقضي بتصحيحها، ولا تعرف التزاماً غير الالتزام تجاه كل ما في الكون بحب استطلاع محاييد. والعلماء واجدون في نشاطهم لئلا يُفسدها إباء البعض أن يشترك في نشاطهم، ولوليتهم لا يعكّر من صفوها رفض جيرانهم الانضمام إليهم للاستمتاع بها. وهذا هو السبب في أنه في حين نجد من النادر أن يصبر امرؤ على الاستماع إلى رأي سياسي أو اقتصادي أو ديني من شخص يخالفه، أو أن يعرض قضيته عرضاً موضوعياً نقدياً هادئاً مجرداً عن الهوى، نرى العالم ينظر إلى كافة الحقائق - عدا طرائق الإثبات والتحقيق المنطقية - على أنها قابلة للتمحيص والتصحيح، ويرى الشك مطلوباً ومرحباً به ومشجعاً عليه، بل ويزيد من لذة البحث.

ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير عنه:

فنحن إذن حين نتحدث عن حرية الفكر إنما نعني عادةً حرية التعبير عن الرأي، لا حرية البحث عن المعارف العلمية والتصريح بها. ذلك أن حرية المرء في التفكير في أي أمر شاء تغدو بعد حين غير كافية، بل وأحياناً مؤلمة

للمفكر نفسه، متى لم يُسمح له بالتعبير عن أفكاره للغير، ناهيك عن عدم جدواها بالنسبة لغيره إن لم تتعدّ الأفكار رأسه. أو كما يقول نيتشه «قد غدا زرادشت في سن الأربعين كالنحلة التي جمعت من العسل أكثر مما يسعها حملة، فباتت بحاجة إلى أيدي تمتدّ لتأخذ منه».

أضف إلى ذلك أنه من الصعب للغاية على المرء أن يخفي أفكاره متى كانت مسيطرة عليه. فالشخص الذي يشك في صحة الآراء والتقاليد التي تحكم سلوك مواطنيه، من الصعب عليه - متى كان شديد الاقتناع بصحة آرائه - أن يخفي مخالفته لهم، وألا يفصح موقفه بسكوته حيناً، وبالكلمة العارضة حيناً، وبسلوكه ومواقفه بصفة عامة، بل وحتى بالابتسامة الهازئة الخفيفة، أو بالتثاؤب أو عبوس الوجه وازوراره. وقد ثبت علمياً أن الاضطرار إلى إخفاء الرأي يضّر بصحة مُخفيه ضرراً ليس بالهين. وقد فضّل البعض - كسقراط وبرونو والسهروردي - مواجهة الموت على إخفاء الرأي. وهو ما يوضح مدى ارتباط حرية الفكر بحرية التعبير عنه.

ولكن، ما طبيعة هذه الآراء التي قد نطالب بحرية التعبير عنها؟

ذلك أن ثمة من الآراء ما تقضي المصلحة أو الضرورة أو الأدب أو السياسة أو غيرها بأن نخفيه، دون أن نرى في الأمر غضاظة أو بأساً؛ كالرأي يخفيه الزوج عن زوجته طالباً لرضاها، أو الصديق عن صديقه خشية الغضب والجفاء، أو المضيف عن ضيفه من قبيل حسن الضيافة، أو الولد عن أبيه من قبيل الأدب، أو الطبيب عن المريض مراعاة لروحه المعنوية، أو الدبلوماسي عن المسؤولين الأجانب من قبيل الكياسة، أو الشخص عن عدوه من قبيل الحذر. كل هذا وغيره لا يدخل في اعتبار المطالب بحرية التعبير عن الرأي. وإنما يدخل في اعتباره عادة تلك المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية التي يرى أن حرية التعبير بصددتها، وحرية مناقشتها، هما في صالح مجتمعه، بل وأحياناً في صالح البشرية جمعاء.

دواعي مناهضة حرية الفكر :

قد غدت حرية التعبير عن الرأي اليوم مقبولة ومسلماً بها في معظم البلدان المتحضرة. غير أنها حرية لم تكتسب إلا في العصر الحديث، وبعد إراقة بحور من الدماء. وكان لا بدّ من مرور قرون طويلة حتى تقتنع الشعوب المتمدنية بأنها في صالح الإنسان لا العكس. بل كان لا بدّ من انقضاء أمد طويل قبل أن تخطر فكرة حرية الرأي نفسها في أذهان الناس. . . فثمة من المجتمعات ما عرف حرية التعبير عن الرأي قبل أن يطرأ بباله أنه يتمتع بها، (كالإفريق والرومان في بداية دولتيهما، والعرب في الشطر الأعظم من جاهليتهم)، وقبل أن يعي أن هذه الحرية حق من حقوق الإنسان ليس من حق سلطة أن تمسه. وحين نسمع يزدانبحث يردّ على الخليفة المأمون الذي طلب منه أن يعتنق الإسلام بقوله: «نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، ولكنك لست ممن يجبر الناس على ترك مذهبهم»، لا نستطيع أن نقطع من ردّه بأن يؤمن بحق كل امرئ في التعبير عن رأيه، أو بحقه في اختيار ما يحلوه من المذاهب.

فمرور الزمن الطويل كان لازماً إذن حتى تنبت في الأذهان فكرة هذا الحق. وهي فكرة تستلزم توفر أمور ثلاثة، الأول: إرساء دعائم مجتمعات ذات أنظمة سياسية واقتصادية؛ والثاني: شيوع آراء وأفكار ومعتقدات بين أفراد هذه المجتمعات تحظى من غالبيتهم العظمى بالقبول؛ والثالث: نشوء مصالح لدى طبقات معينة في المجتمع تكون مرتبطة بآراء ومعتقدات معينة.

وبالتالي يصبح في مقدورنا أن نحكم بأن المجتمعات التي كانت - أو لا تزال - تعارض حرية الفكر، وتناهض الآراء الجديدة، إنما تعارض هذه وتناهض تلك للأسباب الثلاثة التالية :

أولها: أن عقل الإنسان العادي هو بطبيعته كسول، وأفكاره يقبلها عادةً من البيئة المحيطة به دون مناقشة. فهو يعارض غريزياً كل ما من شأنه أن

يخلخل النظام الثابت في عالمه المألوف. . والفكرة الجديدة تحتم ضرورة قيامه بإعادة ترتيب أفكاره، وهو أمر شاق. ومن ثم فإن الفكرة الجديدة تبدو له شريرة خبيثة لمجرد أنها مرهقة، ويفضل عليها اعتناق الآراء والمعتقدات المستندة إلى سلطان كنيسة أو كتاب مقدس أو رأي عام، حتى إن كان من المستحيل البرهنة على صحتها، لمجرد إيمانه المطلق بسلطة أو بفرد.

وثانيها: ذلك الخوف من أن تؤدي الأفكار الجديدة إلى تهديد المجتمع وأساسه، بالنظر إلى ما تعنيه من ضرورة إدخال التغيير والتعديل على النظم السائدة فيه. وقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يخالون صالح الدولة في الاستقرار الثابت الجامد. وفي المحافظة على التقاليد والأنظمة دون أدنى مساس بها. ولذا صاروا يرون الشخص خطراً متى شرع في التساؤل عن حكمة المبادئ الشائعة، أو التشكيك في التقاليد.

وثالثها: أن الأفكار الجديدة تهدد مصالح شرائح قوية من المجتمع، كتهديد مبادئ الثورة الفرنسية للطبقة الأرستوقراطية، والماركسية للطبقة البورجوازية، والعلمانية لرجال الدين، وهي طبقات ترتبط مصالحها بالنظام القائم، وبالأفكار التي يستند إليها هذا النظام. ولذا صار من المؤكد أن تلقى هذه الأفكار معارضة قوية من تلك الشرائح. . والواقع أن معظم المعتقدات الخاصة بالطبيعة والإنسان مما لا يقوم على أساس علمي، كان يخدم بصورة مباشرة أو غير مباشرة مصالح طبقة اجتماعية أو سلطة دينية، وبالتالي فقد كانت القوة تحمي دائماً من هجمات وانتقادات أفراد يصرون في عناد على الاحتكام إلى العقل. والملاحظ بوجه عام - وكما سبق أن ألمحنا - أنه ما من شخص يغضب إذا أنكر جاره حقيقة قابلة للتمحيص والإثبات، غير أنه يشور ويغضب متى أنكر هذا الجار معتقدات لا يمكن بأي حال إثباتها علمياً. فإن أصر الجار على أن صلاح الدين الأيوبي لم يكن له وجود، أو أنكر أن الملح يذوب في الماء، فإنه يثير سخريتنا أو شفقة. أما إن شك في وجود الملائكة أو في خلود

الروح، فإنه يثير غضب الناس وكرهيتهم ونقمتهم، وقد يُحكم عليه في بعض المجتمعات بالموت بسبب شكّه هذا.

العقلانيون وأعداؤهم:

وقد شهدت العصور الوسطى بالأخص ميداناً شاسعاً من المعتقدات التي فرضت السلطات على الناس واجب قبولها، وحذرتهم من الخوض في الكلام عنها أو تحكيم العقل فيها. غير أن العقل إنما يخون طبيعته أو وظيفته إن هو قبل الحدود التحكيمية أو القيود المفروضة على حريته. . وتأكد العقل لحقه المطلق في النظر في كافة الأمور هو ما يعرف بالعقلانية. وما إدانة البعض لهذه العقلانية إلا من آثار الصراع المريع بين العقل والقوى المعادية له، لا سيما في مجال الثيولوجيا التي احتدم فيها الصراع بصفة خاصة.

والحقيقة أن أولئك الذين يهمهم حقاً تأكيد سلطان العقل، كانوا دوماً - وقد يظنون لأمد طويل - أقلية صغيرة من البشر، ومن المثقفين الذين بوسعهم استخدام السلاح الوحيد المتاح للعقلانيين، وأعني به الجدل. أما السلطات فقد لجأت في حريها ضد هؤلاء إلى العنف المادي، والقهر المعنوي، والضغط القانوني، وإثارة الاستنكار الاجتماعي. وقد لجأت أحياناً إلى استخدام سلاح أعدائها وهو الجدل وتحكيم العقل، غير أنها كانت دائماً في تلك الأحيان تخرج من الصراع جريحة منهزمة، كما هي الحال حين حاربت الكنيسة أفكار جاليليو في أوائل القرن السابع عشر، ثم اعترفت بخطئها في أواخر القرن العشرين. والواقع أن أضعف نقطة في المركز الاستراتيجي للسلطة هو أن حمايتها - وهم بشر - لم يستطيعوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين استخدام الجدل والحجج العقلية، مما أدّى إلى حدوث الانقسامات في صفوفهم هم، وإلى إتاحة فرصة النصر للعقلانيين.

قد يعترف البعض بخطأ السلطة في محاكمة جاليليو، ولكنه يرى لها الحق مع ذلك في أن تتحكم في مجال العقائد التي تخرج عن نطاق الخبرات

البشرية، والتي لا يمكن إثباتها أو التأكد من صحتها، كما لا يمكن إثبات خطئها. وفي الرد على ذلك نقول: إنه بوسع أي مخلوق أن يخترع أي عدد من الافتراضات التي لا يمكن إثبات خطئها، والتي يمكن لأي شخص أبله، أو مندفع، أو سهل الانخداع، أن يقبلها ويعتقها. غير أنه ما من أحد يملك أن يدعي أن كل هذه الافتراضات جدية بالتصديق ما لم يثبت كذبها. فإن كان بعضها فقط أهلاً لأن يصدق، فأي سلطان سوى سلطان العقل له أن يميز بين ما هو أهل للتصديق وما هو أهل للتكذيب؟ فإن ادعوا للسلطة هذا الحق، أجبنا بأن الكثير من المعتقدات التي آزرتها السلطة في الماضي ثبت على مر الأيام بطلانها ومُجِزَت. . . والخلاصة أن عبء الإثبات لا يقع على عاتق المكذِّب بل على عاتق المصدق. فلو أنه قيل لك إن بالفضاء الخارجي كوكباً يسكنه جنس من الحمير، يتحدث بلسان عربي مبين، ويقضي يومه في مناقشة آراء ابن سينا وابن رشد، لما كان بوسعك أن تثبت كذب ما يقال لك. غير أنك لست مطالباً بالتصديق لمجرد عجزك عن إثبات بطلان الزعم. ومع ذلك فإن البعض قد يقبل الفكرة ويصدقها متى كررتها السلطات بما فيه الكفاية، وأذاعتها الإذاعة والتلفزيون صباحاً ومساءً، ونادى بها قوم من أسطح المنازل، وغرسها الأبناء والمعلمون في ذهنه منذ طفولته، وأكدها له بقوة أناس يؤقروهم ويحترمهم. ونحن نعلم عن يقين قوة تأثير التكرار في ثقة (كما في الإعلانات)، وقدرة هذا التكرار على تثبيت الآراء والعقائد في النفوس.

من صاحب الحق؟

ولاشك في أن قمع الآراء الجديدة كثيراً ما تسبب في الماضي في عرقلة التقدم أو الحيلولة دونه في المجتمعات البشرية. وقد كان هذا القمع يستند دائماً إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخف ضرراً من الأعمال الإجرامية، وأنه من مسؤولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كما أن من مسؤوليتهم مقاومة تلك. والرد الواضح على ذلك هو بالتساؤل عن الحكم بصدد تقييم الآراء،

ومن صاحب الحق في الفصل بين الصحيح والباطل، والتميز بين الإجرامي والبطولي، وبيان ما هو خليق بالمكافحة وما هو خليق بالتشجيع والرعاية. وكثيراً ما حدث في التاريخ أن أذان حكاماً رأياً ثم اعتنقه حكام تالون، كمكافحة حكومة القيصر نيقولا الثاني للشيوعية في روسيا، ومكافحة حكومة لينين بعدها للآراء المناهضة للشيوعية، كلٌ بدعى أن آراء خصمه آراء فاسدة. غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت. فالرأي الذي أؤمن اليوم بكل قوة وثقة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات، قد أغيرته بعد عام أو عامين وأرى خطئه وفساده، ثم قد أنتقل من هذا الرأي الثاني في مستقبل أيامي إلى ثالث فراجع. ففي أية مرحلة إذن من تلك المراحل من العمر يمكنني أن أقول في ثقة بآني على حق؟ وقد سبق ليسجموند فرويد أن عرّف الآراء بأنها «اعتقاد المرء بصحة شيء ما لمجرد رغبته في أن يكون ذلك الشيء صحيحاً»، وعرّف الشاعر روبرت جريفز الأساطير بأنها ديانات الآخرين. فمن ذا الذي بمقدوره أن يصف عقيدته بأنها العقيدة الحقة، وغيرها بأنها أساطير، وهو يعلم أنه لو كان قد وُلد في بلد غير بلده، وبين قوم غير قومه، لوصف العقيدة التي يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير؟

كذلك فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى في مجتمع معين هي الحكم في مضممار صحة الرأي، هو الآخر احتجاج مردود عليه. فقد تخطى الأغلبية في اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد. ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأي وخالفها فيه شخص واحد، لما حق للبشرية أن تخمد صوته، تماماً كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يخمد صوت البشرية. فإخماد الصوت في حد ذاته، وعلى حدّ تعبير جون ستوارث ميل، «يضرّ بالجنس البشري، بحاضره ومستقبله، كما يضر بقامعي الرأي أكثر من إضراره بصاحب الرأي. ذلك أنه لو كان رأي ذلك الفرد سليماً، لحرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم، ولو كان رأيه باطلاً، لحرموا من فضل يفوق فضل تصحيح الخطأ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل. ذلك أنه حتى

لو كانت عقيدة الأغلبية هي الحق المطلق، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يعجردها من أسسها العقلانية، ويحجب الأسباب التي أحالتها من رأي إلى معرفة قطعية.



وختاماً فإن تأكيد حق كل إنسان في حرية التعبير عن رأيه، لا يستهدف استمرار اختلاف الآراء بين الناس إلى ما لا نهاية، ولا إبقاء الآراء دوماً محلاً للشك والجدل. بالعكس، لقد كان من أفضل حرية التعبير عن الرأي على البشرية أن زادت (ولا تزال تزيد) من عدد الآراء والمعارف التي لم تعد موضعاً للشك والخلاف، أو هي على الأقل ضيقت من حدود الشك واحتمال الخلاف. إذ من ذا بمقدوره اليوم، غير قلة يدينها الضمير البشري، أن يدافع عن نظام الرق أو تجارة العبيد، أو عن نظرية تفوق جنس على جنس، أو عن حرمان المرأة من الحقوق، أو أن ينكر أنه لا إكراه في الدين، أو حقوق الأقليات، إلى آخره؟ فالواقع أن تقدم البشرية يمكن أن يقاس بعدد وأهمية الحقائق التي لم تعد تثار الشكوك حولها. وهو أمر ما كان ليحدث لولا أن أتاحت للناس فرصة الطعن في المعتقدات السائدة، والحق في التعبير عن آرائهم المخالفة لفكر الغالبية في مجتمعهم، ولولا انتصار دعوى أنه خير امتحان للحقيقة هو قدرة الفكر على أن تلقى القبول في ظل التنافس في السوق، وأنه ما من شخصية أو جماعة قد بلغت من الحكمة مبلغاً يبيت من حقها معه أن تستقل بالحكم على هذا الرأي أو ذاك بالصحة أو البطلان.

حسين أحمد أمين.

كتب أخرى للمؤلف

الكتاب الحائز على جائزة أحسن كتاب
في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٤
دليل المسلم الحزين
(الطبعة الثالثة - مكتبة مدبولي)

قالوا عنه :

● من أخصب ما قرأت من كتب إسلامية ، كتاب يشحذ الذهن ، في صياغة
بالغة الرقة والسلاسة .

أحمد بهاء الدين (صحيفة الأهرام)

○ يتجه مباشرة إلى قلب المشكلة بوضوح وقوة .

أنيس منصور (مجلة أكتوبر)

● هو أهم كتاب ديني قرأته خلال عام ١٩٨٣ .

فتحي رضوان (مجلة الهلال)

● كتاب خطير وهام ، يتكلم بدرجة عالية من الصلوق والمعرفة .

علاء الديب (مجلة صباح الخير)

● صوت جاء في مرحلة التدهور والتراجع والشتات ليقف على أرض ثابتة من
التراث والمعرفة ، يتكلم بأكثر قدر ممكن من الموضوعية والعلم عن
الإسلام المطلوب لزماننا هذا ، وليكمل المشوار الذي بدأه الشيخ محمد
عبده .

يوسف القعيد (مجلة الهلال)

- عرض رائع يستخدم أدق أساليب النقد التاريخي .
- ب. فاتيكيوتيس (كتاب «الإسلام والدولة»)
- كتاب جدير بالقراءة والاهتمام . خرج عن نطاق الكتابة الدينية التقليدية إلى آفاق تحمل سمات الحداثة والاستنارة . وهو دراسة كبيرة مجتهدة ، شائقة ذكية مشكورة ، تستحق جائزة أحسن كتاب صدر في عام ١٩٨٣ التي حصل عليها من معرض القاهرة الدولي للكتاب .
- مصطفى بهجت بدوي (مجلة عالم الكتاب)
- يكتب بلغة تهز السكون القاتل ، وي طرح أشياء جديدة لم نتعودها ، ويفتح باب الاجتهاد مرة أخرى .
- يسرى حسين (صحيفة العرب اللندنية)
- يطرق عقولنا بمطرقة صلبة .
- محمد نور فرحات (مجلة الأهرام الاقتصادي)
- أسلوب غير تقليدي ، وجهد كبير ، وبحث عميق ودقيق في قضايا حيوية وأساسية من مفكر إسلامي كبير .
- السيد حجازي (صحيفة الأنباء الكويتية)
- جرأة افتقدها الإسلام منذ عصر العلماء الأوائل . . والتجريد الذي يضيفه حسين أمين على الأصول الدينية خالها عنها كل الشوائب التي ألمت بها منذ غابر الأزمان يجعله من تلاميذ مدرسة المصلحين الذين مروا في فترات تاريخية متعاقبة بدءاً بأحمد بن حنبل وابن تيمية ومروراً بمحمد بن عبد الوهاب وانتهاءً بالشيخ محمد عبده .
- أحمد الدعيح (كتاب «أبن الطريق؟»)
- يتمحور حول موضوع شائك مصيري ، ويعالج مختلف القضايا الفكرية الدينية المطروحة حالياً بموضوعية وبروح علمية يندر أن نجدها في أغلب

الكتب المؤلفة حديثاً حول هذا الموضوع الخصب الثري.. وقد حاز الكتاب على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٨٤. وربما كان هذا دليلاً قاطعاً على أهميته البالغة في وقتنا الحاضر بسبب القيمة الضخمة لموضوعاته وثيقة الصلة بواقعنا وأوضاعنا الراهنة».

عمر أورتيلان
(صحيفة «المساء» الجزائرية)

حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية (الطبعة الثانية - مكتبة مذبولي)

قالوا عنه :

● كتاب فذ للكاتب الثائر والمثير الأستاذ حسين أحمد أمين الذي أفرغت كتاباته قوماً وأسعدت قوماً وأهمت آخرين . . إنه يضرب بمعول كبير يحمله ساعد شديد في موروثات عزيزة على المسلمين والعرب ، غير ملق بالآل لما يبعثه من ألم وحسرة هذا العمل الجريء .

فتحي رضوان .

● وصلت إلى اقتناع بأن حسين أمين هو خير ما في مصر اليوم ، وضوح فكر ، وروعة قلم ، وشجاعة اتجاه .

ب . فاتيكويونيس

● التحليل الرائع والشجاعة الفائقة هما السمتان الغالبتان على كتابات حسين أمين ، وهما سمتان طالما أثارتا إعجابي .

نورمان دانييل

● حسين أمين ظاهرة فكرية بكل المقاييس ، يملك قدرة نادرة على أن يخط لنفسه مساراً منفرداً ، ويعيد منحني مدرسة التجديد الإسلامي للمصعود مرة أخرى .

صلاح عيسى

● رؤية عصرية متنورة لبعض القضايا الإسلامية . ومهما كانت درجة الاختلاف مع اجتهادات المؤلف فإن شجاعته في طرحها تجعل من صدور هذا الكتاب حدثاً لا جدال حول أهميته . لأنه يواصل سيره في الطريق الصعب الذي بدأ بكتابه المثير للجدل «دليل المسلم الحزين» .

مجلة «العربي» الكويتية

● فرضت شخصية حسين أمين نفسها بسرعة عظيمة باعتباره أحد القادة المعاصرين للفكر الإسلامي المستنير.

فيليب كاردينال .

● قراءته بشغف بالغ ، فزادني قراءته إعجاباً بشجاعة مؤلفة وقوة قريحته .

إيمانويل سيفان .

● يناقش ويشرح وي طرح عدة نقاط هي من صميم معضلات الإنسان المسلم اليوم .

صحيفة «المساء الجزائرية»

● كتابا «دليل المسلم الحزين» و «حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية» للسير المصيري حسين أحمد أمين هما أفضل ما ألفه المفكرون المسلمون خلال العامين الماضيين . إنهما كتابان ممتازان يتسمان بالشجاعة والوضوح ودقة التحليل والثقافة الواسعة .

ب . فاتيكيوتيس (كتاب «الإسلام والدولة»)

الإسلام في عالم متغير (الطبعة الأولى - مكتبة مدبولي)

قالوا عنه :

● «مما يهنأ المؤلف عليه تلك المقارنة التي عقدها بين المواجهتين التاريخيتين بين العالم الإسلامي والغرب، في زمن الحروب الصليبية ثم إبّان الحملة الفرنسية على مصر. فهو إطار مفيد جداً للتحليل، ويدخل فيه كل مفهوم المدارك والاختلافات الحضارية، بالإضافة إلى لقائه الضوء على ما يحدث اليوم».

ب. ثاتيكوييس

● في بيت أحمد أمين (دار الهلال)
«هو أهم كتاب صدر في عام ١٩٨٥».

د. سيد عويس

«يرسم صورة شخصية لنفسه ولطفولته باللغة الصريحة والعنف. وهو هنا يمارس صفة الأديب بعد أن أثبت في كتبه الأخرى صفته كباحث ومفكر، وهي صفات اجتمعت عنده كما اجتمعت عند والده الكريم. . وهو يقدم لنا في كتابه هذا نموذجاً طيباً لأدب الاعتراف، وعملاً تربوياً هاماً يستطيع به أن يقف في صفوف المعلمين وغارسي القيم».

علاء الديب

«قطعة أدبية صغيرة ممتعة».

ب. ثاتيكوييس

«هذا الكتاب الخلق بالإعجاب لا يحيي الماضي فحسب، بل وينقل إلى القارئ كل نكهته ومذاقه».

إيمانيويل سيفان

«إن نجاح وجودة هذا الكتاب يدفعنا دفعاً إلى وضعه في مصاف كتاب «الأيام» لطله حسين».

فيليب كاردينال

● الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها (مكتبة النهضة المصرية).

● ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الأول (دار الشروق)

«جرعة ثقافية ومتعة ذهنية للقارئ.. إنها زهور من حديقة التراث العربي القديم. والحقيقة أن الكاتب أحسن اختيار أجمل القطف والثمرات من أمهات الكتب».

محمود فوزي

● «كتاب قد يكون نسخة معاصرة (مع الاحتفاظ بكل نكهة التراث) عن كتاب «الأغاني» لأبي الفرج. يعكس كل الداخل العربي عبر قرون عديدة. ولو سلمت هذه الحكايات إلى شخص آخر لما خرجت بالانتقاء والتنظيم والبراعة التي خرجت بها. فحسين أمين لا يزيح الغبار بل إنه يجلو اللآلئ وينظمها بصورة فذة».

صحيفة «الوطن» الكويتية

● ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الثاني (دار الشروق).

● فضل الإسلام على الحضارة الغربية - مترجم عن مونجومري وات (دار الشروق).

«هو أفضل كتاب صدر بالعربية في بيروت خلال عام ١٩٨٣» .
مجلة «الحوادث» اللبنانية
«كتاب هام وجدير بالقراءة» .

مجلة أكتوبر .

● معضلة الرجل الأبيض - مترجم عن لورد بويد أور (سلسلة الألف كتاب) :
كتب بالاشتراك مع غيره :

● التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات (اتحاد المحامين العرب) .

● التراث وتحديات العصر (مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت) .

● L'Islam en Questions (دار برنار جراسيه - باريس) .

● تكنولوجيا تنمية المجتمع العربي (المركز الإقليمي العربي للبحوث الاجتماعية - القاهرة) .

تحت الطبع :

● ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم - المجلد الثالث (دار الشروق) .

كتب معدة للنشر :

● مسرحية «الإمام» .

● متنوعات .

● مصابيح أقوال العرب .

● حوليات العالم الإسلامي .

● محمد .

المحتويات

٥	- في بيت أحمد أمين
١٥٥	- عن آفات الشهرة وحلاوة النجاح
١٦٨	- الفنان : هل هو بالضرورة إنسان مريض؟
١٧٧	- عريب، جارية المأمون
٢١٢	- التطرف الديني في الجزائر
٢٢٩	- التطرف الديني عند اليهود
٢٤١	- بروتوكولات حكماء المسلمين
٢٥٩	- خاطرات على ضفاف الراين
٢٧٥	- تاريخ الإسلام في روايات جرجي زيدان
٢٨٥	- لقاء مع الأستاذ محمود شاكر
٢٩٧	- البرازيل، مارد القرن الحادي والعشرين
٣١٠	- نزهة الأفتدة والنفوس، في معرفة أحوال الروس
٣٢٥	- بيلينسكي ورسائله الشهيرة إلى جوجول
٣٣٩	- الشخصية اليهودية في الأدب السوفييتي
٣٥١	- رواسب الدين في تقديس لينين
٣٦٣	- حديث في الاقتصاد السوفييتي
٣٨١	- انطباعات متفرقة عن المسرح السوفييتي
٣٩١	- أسميات في مسرح البولشوي
٤٠٠	- أمسية في موسكو
٤١٠	- عن حرية الفكر
٤٢١	- كتب أخرى للمؤلف

- ولد في القاهرة في ١٩ يونيو ١٩٣٢. وهو نجل المؤرخ الإسلامي الكبير الدكتور أحمد أمين.
- تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة عام ١٩٥٣، ثم درس الأدب الإنجليزي بجامعة لندن.
- عمل محامياً، فمذيعاً بالإذاعة المصرية، فمذيعاً بالقسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية.
- التحق بالسلوك الدبلوماسي المصري وعمل ملحقاً فسكرتيراً ثالثاً بالسفارة في أوتاوا (كندا)، فسكرتيراً ثانياً بالسفارة في موسكو (الاتحاد السوفيتي). فمستشاراً بالسفارة في لاجوس (نيجيريا)، فوزيراً مفوضاً بالسفارة في بون (ألمانيا الاتحادية)، فقتصلاً عاماً في ريو دي جانيرو (البرازيل)، ورفي إلى درجة سفير عام ١٩٨٧.
- يعمل حالياً سفيراً لمصر في الجزائر.
- انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشاراً فنياً لوزير الثقافة، وأعيد للعمل نائباً لمدير مركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة.
- يجيد الانجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والبرتغالية.
- حصل كتابه «دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك في القرن العشرين» على جائزة «أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب» عام ١٩٨٤، وترجم إلى الفرنسية.
- كما أهدت له حكومة ألمانيا الاتحادية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣.
- له العديد من المقالات والبحوث نشرت في مجلات «الثقافة» و«الرسالة» و«المجلة» و«المسرح» و«روز اليوسف» و«صباح الخير» و«الأهرام الاقتصادي» و«أكتوبر» و«المصور» و«العربي» الكويتية و«الفصل» السعودية و«الدوحة» القطرية، وجرائد «المصري» و«الأخبار» و«الجمهورية» و«الوطن» الكويتية. كما أذيعت له تمثيلات في إذاعة الشرق الأدنى والإذاعتين المصرية (البرنامج الثاني) والبريطانية (القسم العربي).
- متزوج وله ثلاث بنات.